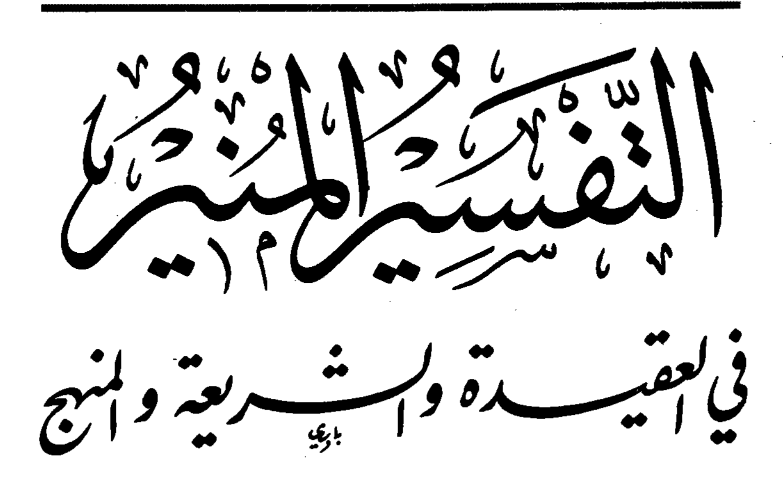
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾

الأنفال ٨/٢٤



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الثالث عشر

الجزءان ٢٥ ـ ٢٦





دار الفكر - دمشق - البرامكة


٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١


٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الثالث عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٣- ١١,٠١١,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

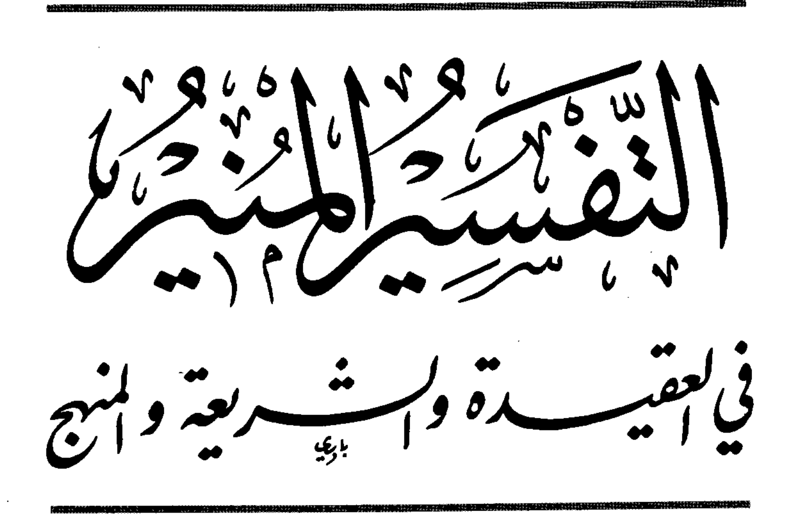
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٦٤ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الثالث عشر

الجزءان ٢٥ ـ ٢٦



اختصاص علم الساعة بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشرك فيها

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

القراءات:

﴿ثَمَرَاتٍ﴾ : قرئ:

١- (ثَمراتٍ) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (ثَمرةٍ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿شُرَكَائِي قَالُوا﴾ :

وقرأ ابن كثير (شركايَ قالوا).

الإعراب:

﴿آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ ﴿مَا﴾ : نافية علّقت الفعل ﴿آذَنَّاكَ﴾ - أي أعلمناك - عن العمل. وكذلك:

﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾﴿مَا﴾ : علقت الفعل ﴿وَظَنُّوا﴾ عن العمل، وكأنه إذا وقع النفي بعد الظن جرى مجرى القسم، فيكون حكمه حكم القسم.

البلاغة:

﴿تَحْمِلُ﴾ ﴿تَضَعُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ إلى الله وحده يرجع علم الساعة، متى تكون، لايعلمها إلا هو، والساعة: يوم القيامة .﴿مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ جمع لاختلاف الأنواع، وقرئ: من ثمرة .﴿أَكۡمَامِهَا﴾ أوعيتها، جمع كِمّ - بكسر الكاف: وهو وعاء الثمرة، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره و﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ نافية، ومن: مزيدة للاستغراق، أي لا تخرج ثمرة إلا بعلمه تعالى .﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ ﴿وَمَا﴾ أيضاً: نافية، أي إلامقروناً بعلمه .﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ بزعمكم .﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك وأخبرناك .﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة إذا تبرأنا منهم لما عاينا الحال، فيكون السؤال عنهم للتوبيخ.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ غاب عنهم فلا ينفعهم أو لا يرونه .﴿يَدۡعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في الدنيا من الأصنام ﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا .﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ مهرب من العذاب، و﴿مَا﴾ نافية علقت الفعل ﴿وَظَنُّواْ﴾ عن العمل، وجملة النفي سدّت مسد المفعولين.

المناسبة:

بعد تهديد الكفار بأن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ أوضح الله تعالى بأن علم هذا اليوم مختص به سبحانه، فلا يعلمه إلا هو، كما لايعلم الإنسان بأمور أخرى. ثم ذكر انتهاء أسطورة الشرك في ذلك اليوم، إذ يتيقن الناس أن الله واحد لا شريك له، وتتبدد كل الآمال بأن الأصنام والأنداد تنفعهم.

التفسير والبيان.

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي إن علم يوم القيامة مرده إلى الله، لا إلى غيره، وهذا جواب سؤال، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟

ونحو الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٢-٤٤] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤] .

ولذا أجاب النبي ﷺ جبريل عليه السلام في حديث البخاري ومسلم عن عمر بقوله حينما سأله عن الساعة: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ».

ثم ذكر تعالى أنه مختص أيضاً بغيب المستقبل، فقال:

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ويعلم سبحانه كل ثمرة تخرج من وعائها، ووقت ظهورها تماماً، ويعلم كل ما تحمله الحامل وما تضعه، وزمن الحمل والوضع بدقة، فإليه يردّ علم الساعة، كما يرد إليه علم هذه الأمور.

ونظير مقدمة الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩] ونظير القسم الثاني: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ١٣/ ٨-٩] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١١] .

ثم يبين الله تعالى انتهاء أسطورة الشرك، فيقول للرد على المشركين الذين دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والتبرؤ من عبادة الأصنام والأوثان في بدء السورة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الله سبحانه المشركين في يوم القيامة متسائلاً على سبيل التهكم والتوبيخ: أين شركائي الذين كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها،

فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب؟ فيجيبون: لقد أعلمناك أو أسمعناك أن ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً. ونفي الشهادة يراد به التبرؤ من الشركاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي ذهب عنها آلهتم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فلم تنفعهم، وتيقنوا وعلموا ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٣].

وهذا وعيد وتهديد للمشركين.

فقه الحياة او الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - استأثر الله تعالى بعلم الغيب مطلقاً علماً قطعياً يقينياً جازماً، فهو وحده العالم بوقت يوم القيامة، وبزمان خروج الثمرة من أوعيتها أي تحول الزهرة إلى ثمرة ومعرفة نوعها، وبلحظة حمل الأنثى ووضعها، ونوع الحمل وخصائصه وصفاته.

أما علم المنجمين فهو علم محدود جداً، ومن الحَدْس والتخمين والظن، لا من باب العلم واليقين، فإن العلم الذي هو الجزم واليقين مختص بالله تعالى، وعلم هؤلاء قد يصادف الواقع، والغالب أنه لا يتفق مع الواقع. وكذلك علم الأطباء بنوع الحمل أو تاريخ الوضع هو علم ظني، وليس في دقة علم الله، وليس شاملاً شمول علم الله، فالله هو المنفرد بعلم خصائص الحمل والمولود.

٢ - انتهاء أسطورة الشرك والتعلق بشفاعة الأصنام والأوثان في يوم

القيامة، ففي هذا اليوم يعلن المشركون أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا أمل بنفع الشركاء وشفاعتهم، وألا محيد ولا مهرب ولا فرار من عذاب النار.

لقد بدؤوا بنفي الشرك لما عاينوا القيامة، وتبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، ثم أدركوا ألا نفع منها، ثم تيقنوا وعلموا أنهم واقعون حتماً في عذاب النار دون إمكان الفرار أو الهرب.

وهذا منسجم مع الموضوع الأساسي للسورة وهو إثبات التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والإقرار بيوم البعث، فقد دعا النبي ﷺ إلى ذلك كله، كما جاء في بدء السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ولكن المشركين أعرضوا عن دعوته في الدنيا، وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه..

تبدل أحوال الإنسان وتغير أطواره

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿رَبِّىٓ إِنَّ﴾:

وقرأ ورش، وأبو عمرو (ربيَ إن).

﴿وَنَـَٔا﴾:

وقرأ ابن ذكوان (وناء).

الإعراب:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ ﴿دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: مضاف ومضاف إليه، والتقدير: لايسأم الإنسان من دعائه الله بالخير، فحذف الفاعل والمفعول به الأول، والباء من المفعول الثاني، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني. اللام في ﴿وَلَئِنْ﴾ الأولى، ﴿وَلَئِن﴾ الثانية، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ لام القسم.

البلاغة:

﴿ٱلْخَيْرِ﴾ و﴿ٱلشَّرُّ﴾ بينهما طباق.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ مجاز عن النفس.

﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارة، استعار الغلظ لشدة العذاب.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ استعارة، شبه الدعاء بماله عرض متسع، للإشعار بكثرته واستمراره.

المفردات اللغوية:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ لا يَمَلُّ ولا يَفْتُر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ طلب السعة في النعمة من المال والصحة وغيرهما ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضيق من فقر وشدة ومرض ونحوها ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته. واليأس: انقطاع الرجاء من حصول الخير، والقُنوط: ظهور أثر اليأس على الإنسان من الذل والانكسار، والقَنوط: من اتصف بالقُنوط، وهو كثير اليأس من رَوْح الله.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ﴾ أتيناه، واللام: لام القسم ﴿رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾

سعة بعد شدة، والرحمة هنا: سعة العيش والصحة، والضراء ضيق العيش والمرض ونحوهما ﴿هَٰذَا لِي﴾ بعملي أي هذا ما أستحقه لمالي من العمل والجهد﴿ لَلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة والكرامة ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ لنخبرن ﴿غَلِيظٍ﴾ شديد لا يمكنهم التخلص منه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ جنس الإنسان ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تكبر وانحرف وتباعد، والجانب: مجاز عن النفس كالجنب في قوله تعالى: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٦]. ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير مستمر، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول قد يشمل الشيء الدقيق.

سبب النزول:

هذه الآيات نزلت في كفار، قيل: في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة، وكثير من المسلمين وغيرهم يتصفون بوصف أولها من دعاء الخير.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى تبدل أحوال الكفار بين الدنيا والآخرة، الذين كانوا في الدنيا مصرِّين على إثبات الشركاء والأضداد لله، ثم تبرؤوا عن تلك الشركاء في الآخرة، أردفه ببيان أحوال الإنسان في جميع الأوقات، وتغير أطواره ومناهجه، فإن جاءه خير تعاظم، وإن تعرض لبلاء ومحنة تصاغر وذبل، وهذا دليل الطيش، والحرص على جمع المال، والجهل، وضعف الإيمان.

التفسير والبيان:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي لا يملّ الإنسان من دعاء ربه بالخير، كالمال والصحة والسلطان والرفعة ونحوها، وإن أصابه الشر من بلاء وشدة أو فقر أو مرض، كان شديد اليأس

من روح الله، بالغ القنوط من رحمة الله، حتى يظن أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير، أو يظن عدم زوال ما به من المكروه.

والآية تصوّر طبع الإنسان، وإن ظهر ذلك كثيراً في الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٧] وقد جعل بعض المفسرين الآية خاصة بالكافر، وقال: هذه صفة الكافر، بدليل الآية المتقدمة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. والظاهر إرادة الجنس، فكثير من المسلمين يصدر منهم هذا التغير والتبدل، كما تقدم بيانه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾ [هود: ١١/ ٩-١١].

ثم ذكر الله تعالى خصالاً ثلاثاً أقبح مما سبق، فقال:

أ - ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي ولئن آتيناه خيراً بتفريج كربه من بعد شدة أصابته، كغنى بعد فقر، وصحة أو عافية بعد مرض، وجاه بعد ذل، ليقولن: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي وجهدي وخبرتي، متناسياً فضل الله وإحسانه، جاهلاً أن الله يبتلي عباده بالخير والشر، ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجَزِع. وهذا دليل على أن ذلك اليائس القانط لو عاودته النعمة، لعاد إلى الجحود والكفر.

٢- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستقوم، كما يخبرنا به الأنبياء، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على ذنب في الدنيا، ولأجل أنه رُزق نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٩٦/ ٦-٧].

والشك في البعث لايكون إلا من الكافرين أو المنافقين المظهرين الإسلام المبطنين الكفر.

٣ - ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئن كان ثَمَّ معاد على فرض صدق الأنبياء بما أخبروا به من حصول البعث والنشور، فليحسن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، و﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ الكرامة والجنة. واللام فيها للتأكيد. والآية تدل على تيقن الكافر بوصول الثواب إليه من وجوه خمسة: الأول - كلمة ﴿إِنَّ﴾ تفيد التأكيد، الثاني - تقديم كلمة ﴿لِى﴾ يفيد التأكيد، والثالث - قوله ﴿عِندَهُۥ﴾ يدل على أن الخيرات حاضرة مهيأة عنده، الرابع - لام ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ للتأكيد، الخامس - ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ تفيد الكمال في الحسنى.

والمعنى: لقد ظن أنه استحق خير الآخرة بما أوتيه من خير الدنيا، وتمنى على الله عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين، وهذا غالب على الكافر.

فأجيب بمفاجأة نقيض ما يظن، فقال الله تعالى مهدداً من كان هذا اعتقاده ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء يوم القيامة بما عملوا من المعاصي، ولنجازينهم بعذاب شديد كثير لايمكنهم التخلص منه وهو عذاب جهنم.

ثم أكد الله تعالى تردد الإنسان فعلاً كتردده قولاً في آية ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ أي وإذا رزقنا الإنسان - من حيث هو إنسان - رزقاً حسناً، وأمددناه بنعمة من النعم كالصحة والولد والمال؛ أعرض عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل، وإذا تبدل الحال وأصيب بشر، أي بلاء وجهد أو فقر أو مرض، أطال السؤال والدعاء، والتضرع إلى الله والاستغاثة به أن يكشف ما به من شدة.

وهذا دليل الانتهازية وحب المصلحة او المنفعة، إذ يتعرف الإنسان على الله وقت الشدة، وينساه حال الرخاء، ويستغيث به عند النقمة، ويتركه عند النعمة، وهذا يشبه تماماً حال المشركين، وهو صنيع الكافرين والمترددين في الإسلام.

ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: ١٠/ ١٢] وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

لقد وصف الله الإنسان بأوصاف تبين حقيقته وطبعه، وهي:

١ - الطمع واليأس: فلا يمل الإنسان من طلب الخير والزيادة، والخير هنا: المال والصحة والسلطان والعز، وهذا دليل على حبه المال والدنيا والمادة، وإذا أصيب بشرّ كالفقر والمرض، يئس من رَوْح الله، وقنط من رحمته، وهذا برهان على عدم الإيمان بالله والكفر به، فاليأس والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد.

٢ - فساد الاعتقاد والقول: إذا عادت النعمة والعزة لليائس القنوط، أتى بالأباطيل الموقعة في الكفر والبعد عن الله، وهي ثلاثة أنواع:

الأول - ادعاؤه أحقية النعمة، وأنها أتته بجهده وعمله، لا بفضل الله وإحسانه.

الثاني - إنكاره الساعة أي يوم القيامة والبعث والنشور.

الثالث - تمني الأماني بلا عمل، فيحسب أن له الجنة والكرامة مع سوء وضعه.

٣ - استحقاق العذاب: أقسم الله قسماً غليظاً لاحنث فيه أنه سيجزي الكافرين بما عملوا من المعاصي، وأنه سيذيقهم العذاب الشديد.

٤ - سوء الأفعال: ترى الإنسان حال النعمة يترفع عن الانقياد إلى الحق، ويتكبر على أنبياء الله، وإذا أصيب بمكروه، أكثر في الدعاء، وهذا يدل على أن الكافر يعرف ربه في البلاء، ولا يعرفه في الرخاء.

ضرورة التأمل في الآيات والأنفس

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

الإعراب:

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ ﴿مَنْ﴾: استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و﴿أَضَلُّ﴾: الخبر، والجملة منهما سدّت مسدّ مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾. وقرئ «أريتم» بحذف الهمزة الثانية للتخفيف

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: في موضع رفع فاعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾. وهاء ﴿أَنَّهُ﴾ إما لله تعالى، أو للقرآن، أو للنبي ﷺ. والظاهر الثاني.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ﴾ الباء زائدة ولا تزاد في الفاعل إلا مع كفى،

ومفعول ﴿يَكْفِ﴾ محذوف تقديره: أولم يكفك ربُّك. و﴿أَنَّهُ﴾ إما في موضع جر على البدل من ﴿بِرَبِّكَ﴾ على اللفظ، أو في موضع رفع على البدل من ﴿بِرَبِّكَ﴾ على الموضع، أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي لأنه على كل شيء شهيد.

البلاغة:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ فيها مجازان: مجاز استعمال رأى بمعنى أبصر في الإخبار؛ لأن الرؤية طريق للعلم بالشيء، والعلم به طريق إلى الإخبار عنه، فاستعملت صيغة طلب الرؤية في طلب الإخبار بجامع مطلق الطلب، ومجاز استعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ من غير نظر واتباع دليل ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي لا أحد أضل منكم أي أكثر ضلالاً ممن هو في خلاف كبير بعيد عن الحق. وقد أوقع هذه الجملة: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ﴾ موقع (منكم) لبيان حالهم، وتوضيح مزيد ضلالهم. والمعنى: إذا كفرتم بالقرآن فليس هناك في الدنيا أكثر ضلالاً منكم يا قريش بسبب مخالفتكم الشديدة المغرقة في البعد عن الحق.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ﴾ سنطلعهم على عظمة آياتنا وصدقها في أقطار السماء والأرض، وسيتبين لهم في المستقبل واقع ماأخبرناهم به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يحققه المسلمون من فتوحات في أرجاء الدنيا على وجه خارق للعادة. و﴿ٱلْأَفَاقِ﴾ نواحي الأرض والسماوات ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من إبداع الصنع وعظمة التركيب وما حل بأهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحق

الثابت المنزَّل من الله المشتمل على نظام الدنيا الأصلح، ومعرفة حقائق الآخرة من البعث والحساب والعقاب ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أولم تحصل الكفاية بربك، أو أو لم يكفهم في أنه حق وفي صدقك أن ربك على كل شيء شهيد، أي لا يغيب عنه شيء ما. والمعنى: إن هذا الموعود به من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل من المطّلع المهيمن على كل شيء، حاضره وغائبه، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عند الله. وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على كل ما يفعله الخَلْق.

﴿مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث بعد الموت ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ أي إنه تعالى عالم بكل الأشياء مجملها وتفصيلها، وعالم بمقدارها، فيجازيهم بكفرهم.

المناسبة:

بعد بيان وعيد المشركين على الشرك، ورجوعهم عنه في يوم القيامة، وإظهار تبدل أحوال الإنسان، بالتعاظم عند القوة، والتصاغر والذل عند الضعف، أوجب الله تعالى التأمل والتفكر في آيات الله وفي الأنفس، ليعلموا أن القرآن حق منّزل من عند الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أخبروني عن حالكم ماذا أنتم فاعلون، إن كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثم كذبتم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب؟ بل لا أحد أضلّ منكم لشدة عداوتكم، وإمعانكم في الكفر والعناد ومجانبة الحق ومخالفته.

ثم دعاهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والأنفس، فقال:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي سنظهر لهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في أقطار السماوات والأرض المشتملة على خلق الشمس والقمر والنجوم، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الكون الرهيبة من الأعاصير والبراكين والصواعق، وعظمة الجبال والبحار، وإبداع صنع النباتات والأشجار، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبرى على أيدي المسلمين في أرجاء الأرض المحيطة بمكة والجزيرة العربية. وهذا الإخبار عن الغيب معجزة.

وسنظهر صدق القرآن وأنه منزل من عند الله أيضاً في خلق أنفس البشر، وما فيها من إبداع الصنعة، وعظمة التركيب: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١/٥١]، وفي مصائر الناس وتبدل أحوال أهل مكة العتاة من سادة متكبرين إلى أذلة صاغرين.

كل ذلك ليعرفوا من هذه الوقائع والأحداث والخلائق ويتبينوا بجلاء أن القرآن ومنزله ومن أنزل عليه حق وصدق لاشك فيه.

وإذا لم ينظروا ويتأملوا، فتكفي شهادة الله بأن القرآن حق، فقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي كفى بالله شاهداً على أفعال عباده وأقوالهم، من الكفار وغيرهم، وكفى به شاهداً على أن القرآن منزل من عنده.

ثم أوضح الله تعالى سبب عنادهم وإصرارهم على كفرهم، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ ألا أيها المخاطب، إن كفار قريش وأمثالهم في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب، ألا أيها الإنسان، إن الله قد أحاط علمه بجميع المعلومات،

وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، فهو محيط بكل شيء علماً وقدرة، والمخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وفي مرصد علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمة، وسيجازي الكفار وغيرهم على أعمالهم، فما لهم يشكون في البعث والنشور، وقد علموا أن الله خلقهم أول مرة ؟ !

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - بما أن القرآن نزل بلغة العرب، وهم أدرى الناس به وبصحته، فلا أحد أضل منهم في الإعراض عنه، لفرط الشقاق والعداوة.

٢ً - أقام الله تعالى أدلة وعلامات كثيرة على وحدانيته وقدرته، منها آيات الآفاق والأنفس، وآيات الآفاق: هي الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) وكذا فتح البلاد المحيطة بمكة.

وآيات الأنفس: كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام، وتخلق الأعضاء العجيبة، والتركيبات والخواص الغريبة، وكذا فتح مقر الشرك مكة.

فإبداع الكون سمائه وأرضه، وإبداع خلق الإنسان وما يطرأ على البلاد من تغيرات الفتوح والممالك والسلاطين، وعلى الناس من تبدل من عزة إلى ذلة وبالعكس، دليل على وجود الله المتصرف في مخلوقاته، المهيمن على عباده، المدبر لكل شيء يحدث في الوجود.

٣ً - كفى بالله شاهداً على أنه خلق الدلائل على الأشياء، وعلى أفعال وأقوال عباده، وكفى به شاهداً على أن القرآن من عند الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] وقال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦/٤] .

والمقصود: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة ؟!

٤ - إن مشركي مكة وأمثالهم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة، ولكن الله تعالى عالم بكل شيء، فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم، ويجازي كل احد على فعله بحسب ما يليق به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والخلاصة: إن سبب الكفر والشرك هو إنكار يوم القيامة، وحجب الأنظار عن التأمل في آيات الكون والأنفس، ولكن الزمن كفيل ببيان صدق الآيات، وأن الكفار مخطئون فيما اعتقدوا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكية، وهي ثلاث وخمسون آية

تسميتها:

سميت (سورة الشورى) لوصف المؤمنين فيها بالتشاور في أمورهم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [٣٨] ولأن الشورى في الإسلام قاعدة النظام السياسي والاجتماعي بل والخاص في الحياة لما لها من مكانة وأهمية بالغة في تحقيق المصلحة والغاية الناجحة، ولأن الاستبداد يؤدي دائماً إلى أوخم العواقب:
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به على الدوام ورأي الفرد يشقيها[١].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها فيما يلي:

١ - وصف الكتاب العزيز، وتأكيد نزول الوحي به على قلب النبي ﷺ، وإثبات الساعة (يوم القيامة).

٢ - مناقشة عقائد الكفار وتهديدهم ووعيدهم، وإثبات وجود الله ووحدانيته وحكمته وقدرته بالأدلة الكونية المشاهدة، وبالمخلوقات الأرضية الصناعية وغيرها.

---

(١) للشاعر المرحوم حافظ إبراهيم.

٣ً - ترغيب المؤمنين بالاستقامة المؤدية إلى الجنة ونعيمها، وتحذير الكافرين من الانحراف أو الإعراض عن هداية الله المؤدي إلى النار وأهوالها.

٤ً - تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه ومطاعنهم.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية مختص بالعقيدة القائمة على الإيمان بوحدانية الله، وصحة الرسالة النبوية، والتصديق بالبعث والجزاء، ومحورها الأساسي الكلام عن ظاهرة الوحي.

لذا ابتدأت بالحديث عن الوحي الذي أنزله الله على جميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته إلى الناس.

ثم عرضت لما لله من هيبة وجلال تكاد السماوات تتفطر منهما، وأن الملائكة تستغرق في تسبيحه وتمجيده، وأنه الرقيب على أعمال المشركين، ثم انتقلت إلى بيان كون القرآن عربيا، وأن الإيمان بالله اختياري لا قسري.

ثم أبانت أسباب الاختلاف في الأمة المسلمة وطريق علاجها بتحكيم كتاب الله، وأوضحت ضرورة اختلاف الشرائع الإلهية الموحى بها في الجزئيات حسبما يتفق مع مصلحة البشر، مع اتفاقها في الأصول الاعتقادية والإصلاحية والعبادات، ثم نددت بالمختلفين في الأديان وجعلت خلافهم بغياً وعدواناً وظلماً، فالدين واحد في أصله، ورسالات الأنبياء تكمل بعضها بعضاً، وبينها قدر مشترك هو الإسلام، أي الانقياد والخضوع لله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية [١٣].

ثم فنَّدت حجة المنكرين لرسالة النبي محمد ﷺ بعد أن تبين صدقها وصحتها، وهددت باقتراب الساعة التي يستعجل بها المشركون ويشفق منها المؤمنون، وقرنت التفنيد والتهديد بتهويل العذاب الشديد المنتظر يوم القيامة، وبوصف نعيم الجنان وروضاتها لتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وتحدثت عن مبدأين ضروريِّ المعرفة لكل إنسان في الدنيا: وهما أن الرزق بيد الله ينزله بحسب المصلحة، وأن العامل للدنيا وحدها يحرم خير الآخرة والعامل للآخرة يمنح خيرالدنيا معها.

ثم أقامت الأدلة على وجود الله من خلق السماوات والأرض وما فيهما والتصرف بهما والقدرة عليهما، وإجراء السفن في البحار، فكل ذلك أثر صنع الله.

وأعقبت ذلك بالإشارة بمن يعمل للآخرة، ويجتنب الفواحش، ويعفو عند المقدرة، ويستجيب لربه، ويقيم الصلاة، ويستشير أهل الخبرة والمعرفة، وينتصر من أهل البغي والعدوان، ويؤثر العفو والصفح والصلح، ويقتصر على الجزاء بالمثل، ويصبر في المحنة.

وأردفت ذلك ببيان أهوال النار وخسارة أهلها، وفقدانهم النصر، وتمنيهم العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب، وهم أذلة صاغرون. وناسب هذا دعوة الناس جميعاً إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد لحكمه وشرعه قبل المفاجأة بيوم القيامة الذي لاشك فيه ولا مرد له: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ [٤٧].

والاستجابة تكون تلقائية اختيارية لاقهر فيها، وما على الرسول إلا البلاغ.

ثم ختمت السورة أولاً بتأكيد كون ملك السماوات والأرض لله، يهب الأولاد أو لا يهب بحسب المشيئة، وثانياً ببيان أقسام الوحي، وعظمة القرآن خاتم الكتب السماوية، والذي هو نور الله الهادي إلى صراط مستقيم، ليتناسق الختام مع مطلع السورة بالحديث عن هذا الكتاب العزيز: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [٥٢].

إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته أحوال المشركين

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾

القراءات:

﴿يُوحِيٓ﴾:

وقرأ ابن كثير (يوحَى).

﴿تَكَادُ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (يكاد).

﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (ينفطرن).

الإعراب:

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف بمعنى المثل، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفعول مطلق لـ﴿يُوحِيٓ﴾ و﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل ﴿يُوحِيٓ﴾. ومن قرأ «يُوحَى» كان لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ إما مرفوع بفعل مقدر دل عليه «يُوحَى» كرفع كلمة ﴿رِجَالٞ﴾ في قراءة من يقرأ ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ، رِجَالٞ﴾ [النور: ٢٤/٣٦-٣٧] بفعل مقدر، أي يسبحه رجال، وإما مرفوع

بالابتداء، ويكون ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خبرين عن الله تعالى، ويجوز جعلهما وصفين، و﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الخبر، وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو الله.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

البلاغة:

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي: ألا، وإن، وضمير الفصل.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ صيغ مبالغة، وسجع لطيف.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ﴾ استعمل الفعل المضارع في حقيقته بالنسبة لما ينزل من القرآن، وفي مجازه بالنسبة لما أنزل من الكتب السابقة وما أنزل من القرآن. وهذا تشبيه للمشبه، والمشبه به في هذه السورة.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ تقرأ هكذا بأسمائها: حا، ميم، عين، سين، قاف بإدغام السين في القاف، وقد انفردت هذه السورة بآيتين من الحروف، لعلهما اسمان للسورة. وهذه الحروف المقطعة كما تقدم للتنبيه على إعجاز القرآن، ولفت النظر إلى ما تشتمل عليه السورة من عظائم الأمور ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ أي مثل هذا الإيحاء يوحي الله إليك أيها الرسول، كما أوحي إلى من قبلك من الأنبياء. وإنما ذكر الإيحاء بلفظ المضارع: ﴿يُوحِىٓ﴾ لحكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي، وكون إيحاء مثله عادة الله. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي القوي الغالب في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، وهما صفتان.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالى فوق خلقه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المتفرد بالكبرياء والعظمة ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن والفطور: الشقوق، وقرئ « ينفطرن » وقرئ « يتفطّرَنَّ ».﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد السماوات يتشققن من هيبة وعظمة الله وجلاله، الذي هو فوقهن بالألوهية والقدرة، أو يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية بسبب وجود العرش والكرسي وصفوف الملائكة ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يلازمون ويداومون خضوعاً لعظمة الله على عبادته وتنزيهه عما لا يليق به، وتحميده وشكره على نعمه﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي للمؤمنين فهي عموم يراد به الخصوص، بدليل آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/٧] وحكايته عنهم ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٤٠/٧] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأوليائه المؤمنين﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأنداداً وهم الأصنام ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، محص لها، فيجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم وهو هدايتهم، فما عليك إلا البلاغ فقط.

التفسير والبيان:

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ هذه الحروف الهجائية السبعة المفصولة بمقطعين أو آيتين مما اختصت به هذه السورة، والمعروف ألا يفصل بين هذه الحروف، مثل﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ أول مريم و﴿الٓمٓرٓ﴾ أول الرعد، بدئ بها للدلالة على تكوين القرآن من أجزاء أمثال هذه الحروف التي تتركب منها لغة العرب بقصد الإعجاز والتنبيه إلى خطورة ما فيها من أمور.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ أي مثل ذلك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة، يوحي إليك

أيها الرسول في هذه السورة، من الدعوة إلى التوحيد وإثبات النبوة، والإيمان بالبعث أو اليوم الآخر والثواب والعقاب، والعمل بفضائل الأخلاق، والبعد عن رذائلها، وإسعاد الفرد والمجتمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/١٨-١٩] وهو إشارة إلى ما تضمنته السورة من إقرار مبدأ التوحيد، والنبوة، والمعاد، فليس الهدف من إنزال جميع الكتب الإلهية إلا الإيمان بهذه الأمور الثلاثة.

والذي يوحي إليك هو الله، العزيز في ملكه، الغالب بقهره، الحكيم في صنعه، يضع الأمور في موضعها الصحيح.

والمقصود بالآية تقرير المماثلة في دعوات الأنبياء إلى التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، والتحذير من الاغترار بالدنيا، والترغيب في التوجه إلى الآخرة.

ومن أوصاف الموحي أيضاً ما قاله تعالى:

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ أي له جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهي مملوكة له، مخلوقة منه، متصرف فيها كما يشاء إيجاداً وإعداماً، وهو المتعالي فوق خلقه، صاحب الكبرياء والعظمة، ليس كمثله شيء، فليس المراد العلو في الجهة والمكان، ولا عظمة الجثة وكبر الجسم؛ لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض، وذلك ينافي قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١٢/١].

والمقصود بالآية الدلالة على كمال قدرة الله، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ أي تقارب السماوات يتشققن من عظمة وجلال وهيبة من هو فوقها بالألوهية والقهر والقدرة، وهذا هو الظاهر، والأدق أن يقال: من الجهة الفوقانية التي هن فيها.

ويحتمل أن المراد: يتفطرن لكثرة ما عليهن من الملائكة، كما في حديث أحمد والترمذي: «أطّت السماء، وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملَك راكع أو ساجد». وقيل: إن المراد: كدن يتفطرن من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾[1] [مريم: ١٩/٨٨-٩١] .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يداومون على تنزيه الله عما لا يليق به ولا يجوز عليه، قارنين التسبيح بالتحميد وشكر النعم التي لا تحصى، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٠].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي ويطلبون المغفرة لعباد الله المؤمنين، ثم أورد الله تعالى ما يكون طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق، فذكر أنه سبحانه كثيرالمغفرة والرحمة، وفيه إيماء إلى قبول استغفار الملائكة، لضم الرحمة إلى المغفرة، وإشارة إلى أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة لله تعالى. قال بعض العلماء: هيَّب وعظّم جل وعز في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء[2]

ونظير الآية: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧] .

ثم حذر الله تعالى من الشرك قائلاً:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ أي إن المشركين الذين اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله، الله

(١) إدّاً: أي منكراً فظيعاً .

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٥

هو الرقيب على أحوالهم وأعمالهم، يحفظها ويحصيها عليهم ليجازيهم بها، وما أنت أيها الرسول بموكل إليك هدايتهم ومؤاخذتهم بذنوبهم، ولست مكلفاً بحملهم وقسرهم على الإيمان، وإنما عليك البلاغ فحسب.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايأتي:

١ً - هناك مماثلة تامة في أصول العقيدة والأخلاق والفضائل بين رسالات الأنبياء، فالموحى به إليهم واحد يدور حول إثبات التوحيد والنبوة والمعاد.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة تبيان أنواع الوحي، أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصّد عرقاً.

٢ً - لله ملك السماوات والأرض ومن فيهما، فهو كامل القدرة، نافذ التصرف في جميع مخلوقاته، وقد اشتملت الآيات على ثماني صفات لله تعالى وهي:

العزيز، الحكيم، مالك السماوات والأرض ومن فيهما، العلي، العظيم، الغفور، الرحيم، الحفيظ.

٣ً - تكاد السماوات يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن.

٤ً - تلازم الملائكة التسبيح (أي تنزيه الله عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله) والتحميد، خضوعاً لما يرون من عظمة الله، ويستغفرون للمؤمنين من الذنوب والخطايا، والله سبحانه له المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة.

٥ً - الله هو الذي يحفظ أعمال المشركين الذين اتخذوا أصناماً من غير الله يعبدونها، ليجازيهم بها، وليس النبي ﷺ بموكل على أحد في هدايته وقسره على الإيمان، وإنما الإيمان أمر اختياري، والرسول مجرد مُبلِّغ ناصح، وليس في قدرته أن يحملهم على الإيمان.

مقاصد الوحي الإلهي

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قُراناً).

الإعراب:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مفعول به، و﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾: حال منه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: في موضع رفع مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾: عطف بيان، و﴿رَبِّي﴾: صفة لله، وخبر المبتدأ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

و ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مرفوع إما خبر بعد خبر، أو صفة، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو فاطر السماوات والأرض، أي مبدعهما.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ الكاف: إما زائدة، أي ليس مثله شيء، أو غير زائدة والمراد بالمثل الذات، يقال: مثلي لايفعل هذا، أي أنا لا أفعل هذا.

البلاغة:

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مجاز مرسل، أي لتنذر أهل مكة. وكما حذف كلمة « أهل » حذف المنذر به وهو العذاب، أي لتنذر أهل مكة العذاب، وهذا يقال له (احتباك) وهو حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر.

﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿يَبۡسُطُ﴾ و﴿وَيَقۡدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء، فالإشارة إلى مصدر يُوحي أو إلى معنى الآية المتقدمة ﴿لِّتُنذِرَ﴾ تخوف به﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أهل أم القرى وهي مكة، كأنها أصل للقرى التي حولها. وقد ثبت علمياً أنها فعلاً في مركز قطب الدائرة الأرضية﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ من العرب وسائر الناس ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يوم القيامة الذي تجتمع فيه الخلائق ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ لاشك فيه وهو جملة اعتراضية

﴿فَرِيقٌ﴾ منهم أي جماعة ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة، أي بعد جمعهم في الموقف يفرقون فريقين.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد إما مهتدين أو ضالين ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي بالهداية والتوفيق إلى الطاعة ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لايدعمهم ولي يتولى أمورهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب. وتغيير الجملة من فعلية إلى اسمية، للمبالغة في الوعيد.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بل اتخذوا، أي إن﴿أَمِ﴾ منقطعة بمعنى « بل » للانتقال من كلام إلى كلام أو من معنى إلى معنى، والهمزة: استفهامية يراد بها الإنكار، أي ليس المتخذون أولياء ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي الأصنام ونحوها و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء أعوان﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي المعين الناصر للمؤمنين، وهذا جواب شرط محذوف مثل: إن أرادوا ولياً بحق، فالله هو الولي بالحق، لا ولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما اختلفتم أنتم والكفار في أمر من أمور الدين أو الدنيا ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي حكمه مردود إلى الله يوم القيامة، يفصل بينكم بالإثابة والمعاقبة، أو مفوض إلى الله يميز الحق من المبطل بالنصر في الدنيا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت في مجامع الأمور، ورد كيد أعداء الدين﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في المشكلات وفي كفاية شرهم.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما لا على مثال سبق ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، واقتصر على الأنعام للتغليب على سائر الحيوانات﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق: كثرهم، و﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الأزواج للناس والأنعام، وضمير ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ راجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه العقلاء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف زائدة، أي ليس مثله شيء في ذاته وصفاته ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يُسْمَع ويُبْصَر، أو يُقال ويُفْعَل.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وغيرهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يوسعه لمن يريد امتحاناً﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يريد ابتلاء.

المناسبة:

بعد بيان كون الله هو الرقيب على أحوال المشركين وأعمالهم، ذكر الله تعالى توجيهات لنبيه والمؤمنين، وهي إنزال القرآن بلغة العرب ليفهمه أهل مكة ومن حولها، وقسمة الناس في الآخرة فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، وجعل الإيمان اختيارياً غير قسري ولا جبري، ورد المختلف فيه إلى الله، والاستدلال على قدرته بخلق السماوات والأرض، وتصرفه فيهما وانفراده بملك خزائنهما، وخلق الأزواج ذكوراً وإناثاً من الناس والأنعام وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء إلى الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم، أوحينا إليك قرآنا عربياً، لتخوف به من عذاب الله وشؤون الدنيا والآخرة أهل مكة (أم القرى) ومن حولها من العرب وسائر الناس؛ لأن رسالتك عامة للبشرية قاطبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٣٤/٢٨] . وإنما خص أهل مكة ومن وحولها؛ فلأنهم المخاطبون بالرسالة أولاً ليكونوا حَمَلتها إلى الناس جميعاً.

وأما تأييد الآية في تنوع الرسالات على وفق لغات الأقوام والأمم، فهو

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤] .

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وتنذر به أيضاً يوم القيامة الذي تجتمع الخلائق فيه، وتقترن الأرواح بالأجساد، والذي لاشك في وقوعه، ثم إنهم بعد الجمع والحساب يُفَرَّقون فريقين: فريق يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وكتابه، ولإحسان عمله في الدنيا، وفريق آخر يزجُّ به في نار جهنم المسعرة على أهلها؛ لكفرهم بالله ورسوله وقرآنه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ﴾ [التغابن: ٩/٦٤] أي يغبن في الكافر بتركه الإيمان، والمؤمن بتقصيره في الإحسان وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١١/١٠٣-١٠٥] .

ثم أبان الله تعالى مبدأ حرية الإيمان لتسلية رسوله عما يقاسي من كفر قومه، فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ أي لو أراد الله لجعل الناس جميعاً أهل دين واحد، إما على هدى، وإما على ضلالة، ولكن اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وبمقتضى العلم الأزلي بما يختاره الإنسان، فيكون إما مؤمناً وإما كافراً، والله تعالى حكيم لايفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى والدين الحق وهو الإسلام، هداه ووفقه إليه، فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال والكفر، أضلّه، فيدخله بذلك في السعير، وهؤلاء هم الظالمون الكافرون المشركون الذين ليس لهم ولي يدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم يوم الحساب والعقاب.

وهذه الآية تقرير للآية السابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ أي ليس في قدرته حملهم على الإيمان، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى.

والآية أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يكابده ويعانيه من كفر قومه وإعراضهم عن دعوته، وكأنه تعالى يقول له: لا تأس ولا تحزن على عدم إيمانهم، فالهداية والضلالة تابعتان للمشيئة الإلهية، فمن سبقت له السعادة فهو السعيد، ومن سبقت له الشقاوة فهو الشقي. ويكون موضوع الآية مثل آية: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ١٨/٦].

لهذا أمر الله نبيه بعدم الاهتمام بهم بسبب وثنيتهم وشركهم، فقال:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بل اتخذ هؤلاء الكافرون آلهة يعبدونها من دون الله، من الأصنام والأوثان، زاعمين أنهم أعوان لهم ونصراء، فإن أرادوا ولياً ناصراً بحق، فالله هو الولي الحقيق بأن يتخذوه معيناً وناصراً، لاتنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه الخالق الرازق الضار النافع الناصر لمن أراد، وهو القادر على إحياء الموتى، وهو قدير بالغ القدرة على كل شيء مقدور.

أما الأصنام وكل ما عدا الله فلا تملك في الحقيقة نفعاً ولا ضراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٢/٧٣].

ثم بعد هذا النبذ للكفار، نهى الله تعالى عن منازعتهم في الدين، فقال:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي مهما اختلفتم في شيء من

جميع أمور الدين والدنيا، فإن حكمه ومرجعه إلى الله، فهو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ في الدنيا، وسوف يفصل فيه يوم القيامة بحكمه، فيظهر المحق من المبطل. والمقصود أن المؤمنين ممنوعون من الشروع مع الكفار في الخصومات والمنازعات، كما منع الرسول ﷺأن يحمل الكفار على الإيمان قهراً

والآية مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٤/٥٩].

ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي ذلكم الحاكم بهذا الحكم هو الله ربي، عليه وحده اعتمدت في جميع أموري، لا على غيره، وفوضته في كل شؤوني، وأرجع إليه تائباً من الذنوب، لا إلى غيره.

وهذا تعريف لهم بمصدر الخير الحقيقي ودفع الضرر، لا أصنامهم الجمادات. وأسباب ذلك قدرته الخارقة، فقال تعالى:

١ - ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من العدم، لا على مثال سبق، فهو الجدير بالعبادة.

٢ - ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ أي أوجد وخلق لكم من جنسكم نساء لتسكنوا إليها، ويحدث التكاثر والتوالد، ويستمر بقاء النوع الإنساني، وخلق أيضاً للأنعام من جنسها إناثاً، حتى تتكاثر موارد المعيشة لبني الإنسان، أو خلق من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، لذا قال: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ أي يبثكم ويكثركم به أي يجعل الأزواج سبيلاً للتكاثر. وقوله: ﴿فِيهِۚ﴾ أي في هذا التدبير، وهو جعل الأزواج من الناس والأنعام، فكأن هذا الجعل منبع التكاثر ومصدره.

٣ - ٤ - ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي ليس مثل الله

شيء في ذاته وصفاته وحكمته وقدرته وعلمه، ومن حكمته التكاثر بالتزاوج، وهو السميع لكل الأصوات، البصير بالأمور، يسمع ويبصر الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، ظاهرها وخفيها. وهذه الآية حجة في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء، وحاصلاً في المكان والجهة، إذ لو كان جسماً لكان مماثلاً لسائر الأجسام.

والآية أيضاً حجة في نفي المِثْل لله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧] ، فلا يعني إثبات المِثْل؛ لأن المراد بالمِثْل: هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الحقيقة والماهية، والمَثَل: هو الذي يكون مساوياً للشيء في بعض الصفات الخارجة عن الماهية، وإن كان مخالفاً في الماهية[١]

٥ - ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ أي له سبحانه خزائن السماوات والأرض أو مفاتيحهما، يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء، وإنه تعالى عليم بكل شيء يحدث في الوجود، من إغناء وإفقار، وآثار ذلك على النفس والمجتمع، لايريد بذلك إلا إجراء الحكمة والمصلحة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الحقائق التالية:

١ - القرآن الكريم كما هو واضح عربي مبين، أوحى الله به إلى نبيه ﷺ.

٢- غاية القرآن الإنذار والتبشير، إنذار الكفار بالنار، وتبشير المؤمنين بالجنة، ويشمل الإنذار أيضاً مخاوف وأهوال يوم القيامة الذي لا شكّ في

(١) تفسير الرازي: ٢٧/١٥٣

وقوعه، فهو كائن لا محالة، ولكن بعلم الله، وما أقرب حدوث القيامة إن نشبت حرب ذرّية عالمية، فالذّرة كفيلة بالقضاء على الأخضر واليابس.

٣ً - الناس يوم القيامة فريقان: فريق الجنة، وفريق النار، ولا ثالث لهما.

٤ً - إن مكة المكرمة هي أم القرى وعاصمة المدن وأشرف سائر البلاد، وهي كما أثبت العلماء الحديثون في مركز قطب الدائرة للكرة الأرضية، وكانت أحبّ البلاد إلى قلب النَّبي ﷺ. أخرج الإمام أحمد والتّرمذي والنّسائي وابن ماجه عن عبد الله بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺيقول - وهو واقف بالحزورة في سوق مكه -: « والله إنك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولو لا أني أُخرجت منك ما خرجت ».

٥ً - الله قادر على جعل الناس على دين واحد وملّة واحدة، أهل ضلالة أو أهل هدى، ولكن يدعهم وشأنهم في اختيار أي المنهجين شاؤوا، فأهل الهداية في الجنة، وأهل الضلالة في النار، وليس لهم ناصر ولا معين يدفع عنهم العذاب.

٦ً - لقد استحبّ المشركون الكفر على الهدى، واتّخذوا الأصنام معبودات وآلهة لهم من دون الله، ولكنهم خابوا وخسروا وأخطؤوا، فالله هو المعبود بحقّ؛ لأنه الناصر الولي الذي لا ولي سواه، وهو القادر على البعث، والقادر على كلّ شيء، وغيره عاجز لايقدر على شيء، وليس محمد ﷺ عليهم رقيباً ولا حافظاً ولا مكلفاً بأن يحملهم على الإيمان شاؤوا أم أبوا.

٧ً - لاداعي للاختلاف والتنازع بين أهل الأديان؛ لأن ذلك يورث العداوة، ويزرع الأحقاد، ويجعل الحكم إلى السلاح، وما على المؤمنين إلا أن يقولوا لمن خالفهم من أهل الكتاب والمشركين: الحكم إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لاغيره، والشرائع إنما تُتلقّى من بيان الله، ومرجع الحكم وإزالة الخلاف: القرآن والسّنة.

وقد أمر النبي ﷺ أن يقول لقومه: ذلكم الله الذي يحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربِّي، عليه اعتمدت، وإليه أرجع، لا إلى غيره من المعبودات الأخرى.

٨ً- احتجّ نفاة القياس بالآية: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى النص من قرآن أو سنّة. والجواب: المراد من الآية: الرّدّ إلى بيان الله، سواء كان البيان بالنّص أو بالقياس، والقياس في معنى المنصوص عليه.

٩ً - استدلّ الله تعالى على قدرته الفائقة بأنه خالق السماوات والأرض من العدم، وخالق الزوجين الذكر والأنثى من الناس والأنعام، وأنه ليس مثلَه شيء في ذاته وصفاته من عظمته وكبريائه وقدرته وملكوته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبَّه به، وهو الذي يملك مفاتيح السماوات والأرض ويملك الخزائن، وهو الرّازق الذي يرزق من يشاء بغير حساب، وهو بكلّ شيء عليم. وفي الجملة: هو الموصوف بكل كمال، المنّزه عن كل نقصان، الخالق لكل المخلوقات، المتصرِّف في هذا الكون كله.

والمقصود من إيراد هذه الصفات بيان أن الأصنام لا تتصف بشيء منها، فلا تكون أهلاً للعبادة.

وحدة الأديان في أصولها

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

الإعراب:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ منصوب على البدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ أو مرفوع على الاستئناف، كأنه جواب سؤال تقديره: وما ذلك المشروع ؟ أو مجرور على البدل من هاء ﴿بِهِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿شَرَعَ لَكُم﴾ أوضح وبيَّن وسنَّ الشريعة . ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي ما أمر به نوحاً، ونوح: أول أنبياء الشريعة، واستعمل ﴿وَصَّىٰ﴾ بمعنى (أمر) للاعتناء بشأن المأمور به وتأكيده، أي شرع لكم من الدِّين دين نوح ومحمد ومن بينهما عليهم السّلام من أرباب الشرع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم، المفسّر بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي حافظوا عليه، والدِّين: هو التوحيد والإيمان بما يجب تصديقه، والطاعة في أحكام الله أي توحيد الله وطاعته، وهو الإسلام بالمعنى العام . ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل، أما فروع الشرع فيمكن أن تختلف، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٥/٤٨] .

﴿كَبُرَ﴾ عظُم وشقَّ عليهم . ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد . ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ يصطفي ويختار، وضمير إليه عائد على ما تدعوهم إليه، أو على الدِّين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق . ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبل ويرجع إلى طاعته.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أهل الأديان في الدِّين، بأن وحّد بعض، وكفر بعض. ﴿الْعِلْمُ﴾ اليقين بالتوحيد أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها . ﴿بَغْيًا﴾ أي ظلماً وتجاوزاً للحدّ من الكافرين . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال وتأخيرالجزاء . ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة . ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب الكافرين المبطلين في الدنيا، حين افترقوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي أهل الكتاب (اليهود والنصارى)

الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي حيرة من أمرهم وكتابهم الذي لم يؤمنوا بحقيقته. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق موقع في الرِّيبة، شديد الرَّيب والشَّك.

المناسبة:

بعد أن عظَّم الله تعالى وحيه إلى نبيّه محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ وبعد أن عدّد تعالى نعمه على الناس، فصَّل أمر الوحي، وذكر نعمته العامة وهو ما شرع لهم من العقيدة المتفق عليها من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وبكتبه وباليوم الآخر والجزاء فيه، وذكر أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان، وأنهم ما اختلفوا إلا بعد قيام الحجة عليهم، وهم متأثرون ببواعث البغي والعدوان والحسد، وأنه لولا القضاء الإلهي السابق بإمهالهم وتأخير عذابهم، لعجلت لهم العقوبة في الدنيا.

التفسير والبيان:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ أي بيَّن وأوضح لكم من الدِّين أيها المسلمون ما أمر به وشرع لنوح أول الرّسل بعد آدم عليهما السلام من التوحيد وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرّسل وتوافقت عليها الكتب، وما أوحى به إلى النبي محمد ﷺ خاتم النَّبيين من القرآن وشرائع الإسلام ونبذ الشرك، وما أمر به إبراهيم وموسى وعيسى مما تطابقت عليه الشرائع، أن حافظوا على الدِّين (وهو توحيد الله والإيمان به، وطاعة رسله وقبول شرائعه) ولا تختلفوا في هذه الأصول التشريعية، فإن هذه الأصول لا ينبغي ولا يصح الخلاف في مثلها.

والخلاصة: شرعنا لكم في هذه الشريعة ما اتفقت عليه الشرائع والأديان

كلها في أصول العقيدة من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر والملائكة، وأصول العبادة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله، قال مجاهد: « لم يبعث الله نبيّاً قط إلا وصّاه بإقامة الصلاة، وإيتاءالزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم ». وكذا أصول الأخلاق وأسس الفضائل كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الزنى والسرقة والاعتداء على الأموال والنفوس، ووصَّى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وأساس الدين الذي جاءت به الرُّسل كلّهم: هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٥] . وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة: « الأنبياء أولادُ عَلاتٍ[1] أمهاتهم شتى ودينهم واحد » أي إن القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. أما اختلاف الأديان في الشعائر الفرعية وأنواع العبادات وتفاصيلها ومناهجها المختلفة من شريعة إلى أخرى، فهذا لاشيء فيه، وإنما اقتضاه التّطور ومراعاة الحاجات والمصالح، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٥/٤٨] .

وهذه الآية انتظمت ذكر الرُّسل الخمسة أولي العزم: وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصّلاة والسّلام. وإنما خصَّهم بالذِّكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾ أي عظم وشقَّ على المشركين دعوتهم إلى توحيد الإله ورفض الأصنام والأوثان، وأنكروا واشتدّ عليهم: أن لا إله إلا الله وحده، وأبى الله إلا أن ينصرها.

---

(١) بنو العَلاّت: هم الإخوة والأخوات لأب.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي إن الله يختار لتوحيده والدّخول في دينه من يشاء من عباده، ويوفّق لدينه وعبادته من يرجع إلى طاعته ويقبل إلى عبادته. وهذا يبيّن فضل الله على عباده المؤمنين أنه هداهم لدينه، بعد أن أمرهم بالتّمسك بالدِّين القديم الذي أجمع عليه الرُّسل.

وسبب التّفرق في الدِّين بالرغم من وحدته، هو ما قال تعالى:

﴿تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ﴾ أي ما تفرّق أتباع الأديان في اتّباع الحقّ إلا بعد قيام الحجة عليهم، وبعدما علموا أن الفرقة ضلالة، وما حملهم على ذلك إلا العناد والمشاقة والبغي بينهم بطلب الرِّياسة، وشدّة الحمية، والحفاظ على مراكز النّفوذ والمكاسب المادية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي ولولا القضاء السابق من ربّك بتأخير العقوبة والحساب إلى يوم المعاد، لعَجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً، بسبب ما اقترفوا من آثام عظام.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن الجيل المتأخِّر من أهل الكتاب الذين توارثوا التوراة والإنجيل عمن سبقهم لفي شكٍّ من كتابهم ودينهم وإيمانهم، وهو شكّ مقلق موقع في الرّيب بشدة؛ لأنهم لم يتّبعوا الحق، وإنما قلَّدوا رؤساء الدِّين المتأخرين الذين صوَّروا لهم الدِّين بصورة مغايرة لحقيقته الأولى، واتَّبعوا الآباء والأسلاف بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، ولذلك لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء، وأصبحوا مكذِّبين القرآن ومحمداً ﷺ الذي صدَّق كتابهم في أصله الأول

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - إن الرِّسالات السماوية متحدة في أُصولها، وإن اختلفت في فروعها.

٢ً - شرع الله لأمة الإسلام ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السّلام، من توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وباليوم الآخر، وغيرها من أصول العقيدة والعبادة والأخلاق.

أما أحكام الشرائع التي هي متبدلة متغيرة بحسب أحوال الأمم ومصالح الأقوام، فهي مختلفة متفاوتة؛ وهذا أمر حسن يتناسب مع الأحوال والبيئات والظروف، فالمشرع كامل العلم والحكمة، والإسلام دين قديم أجمع عليه الرُّسل، والشرائع قسمان: منها ما لانسخ فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كحسن الصدق والعدل والإحسان، وقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. والشرع حريص على القسم الأول باعتباره الجوهر أكثر من حرصه على القسم الثاني.

٣ً - إن الأديان قائمة على توحيد الله، فلا تلتقي مع الشرك والمشركين، وإنما ترفض الشرك والوثنية، وتقبِّح عقائد المشركين، لذا كان يشقُّ على المشركين سماع كلمة التوحيد - شهادة أن لا إله إلا الله.

٤ً - يستخلص الله لدينه من رجع إليه، ويهدي إليه من وجد فيه الخير.

٥ً - لم تتفرّق الأُمم في أديانها إلا بعد علمهم بالحقّ والحقيقة، وآثروا الفرقة والاختلاف على الوحدة والجماعة للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا، فما على المسلمين إلا أن يحذروا الفرقة والتّشتت ويحرصوا على الجماعة والوحدة، وينبذوا الخلافات والعصبيات المذهبية الضّارة.

٦ً - اقتضت الحكمة الإلهية تأخير العذاب إلى يوم القيامة، وتأخيرالفصل بين المختلفين إلى يوم المعاد والحساب.

٧ً - إن الذين توارثوا التوارة والإنجيل لفي شكّ من كتبهم ومما أوصى به الأنبياء.

الأمر بالدعوة والاستقامة على المتفق عليه ودحض حجة المجادلين فيه

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، و﴿حُجَّتُهُمۡ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿دَاحِضَةٌ﴾: خبره، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ ذكّر ﴿قَرِيبٞ﴾ من أربعة وجوه: ذكّره على النَّسب، أي ذات قرب، مثل ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [الأعراف: ٥٦/٧] أي ذات قرب، أو لأن التقدير: لعل وقت الساعة قريب، أو حملاً على المعنى؛ لأن الساعة بمعنى البعث، أو للفرق بينه وبين قرابة النسب. وقال الكسائي: ﴿قَرِيبٞ﴾ نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد.

و﴿لَعَلَّ﴾ علق فعل ﴿يُدْرِيكَ﴾ عن العمل، وسدّ ما بعده مسدّ المفعولين.

البلاغة:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ اللام في موضع إلى، أي فلذلك الائتلاف والاتّفاق على الملّة الحنيفية ادع الناس يا محمد، واستقم عليه وداوم واثبت. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في تركه. ﴿ءَامَنتُ﴾ صدقت. ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم والقضاء دون حيف ولا ميل لجانب. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ﴾ فيجازي كلاً بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ﴾ لا احتجاج ولا خصومة؛ إذ الحق قد ظهر. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع.

﴿يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه. ﴿ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ استجاب الناس لدينه، ودخلوا فيه لظهور حجته ومعجزاته، ﴿دَاحِضَةٌ﴾ زائفة باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن أو جنس الكتاب. ﴿وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ العدل والمساواة بين الناس. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يعلمك. ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لعل إتيانها قريب. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ يتساءلون استهزاء: متى تأتي؟ وظنّاً منهم أنها غير آتية. ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع العناية والاهتمام، والفعل (أشفق) إذا عُدِّي بمن كما هنا فالخوف أظهر، وإذا عُدِّي بعلى، مثل: أشفقت على اليتيم، فالعناية أظهر. ﴿ٱلْحَقُّ ۗ﴾ الأمر المحقق الكائن حتماً. ﴿يُمَارُونَ﴾ يجادلون. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق؛ فإن البعث أشبه الغيبيات إلى المحسوس، فمن لم يهتدِ إليه لتوافر الدواعي على الاعتقاد به، فهو أبعد عن الاهتداء إلى غيره.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يتلطّف بهم جميعاً، سواء البَرّ منهم والفاجر، حيث رزقهم ولم يهلكهم بمعاصيهم. ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ من يريد، كما يشاء ويريد. ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾: أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نَزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلامَ تقيمون بين أظهرنا؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية قال: هم اليهود والنصارى قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى وحدة الدِّين في أصوله الأولى، أمر نبيَّه بالدعوة إلى الاتفاق على الملّة الحنيفيّة، والاستقامة عليها والثبات على أحكامها، وأنهى المحاجّة والخصومة بين المؤمنين والمشركين لوضوح الحجّة، ثم ذكرأن الذين يخاصمون في الدِّين بعد الاستجابة إليه، حجّتهم زائفة باطلة، وأردفه استعجال المشركين استهزاءً وإنكاراً بيوم القيامة، وإيمان المؤمنين به حتماً واستعدادهم له وأن المماراة والشكّ فيه ضلال واضح، لكثرة الأدلّة على وقوعه.

التفسير والبيان:

اشتملت الآية الأولى ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾ على عشرة أوامر ونواهٍ، كلّ منها

مستقل بذاته، ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة موضوعات. والأمر بهذه الأوامر والنهي عن هذه النواهي، وإن وجه إلى النّبي ﷺ، فهي له ولأمته.

أ - ٢ - ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي ادع أيها الرسول إلى ذلك الأمر المتفق عليه، واثبت وداوم واستمر على عبادة الله وتبليغ الرسالة، كما أُمرت من ربّك، فيكون قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي إلى ذلك، وتكون اللام بمعنى إلى كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٩٩/٥] .

ويصحّ أن يكون المراد باللام التعليل، أي فلأجل ذلك التّفرق والشّك المذكورين، ولأجل تلك الاختلافات المتشعبة في الدين، ادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملّة الحنيفية القديمة، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، فتكون اللام على بابها للتعليل، والمعنى: فمن أجل ذلك المتقدّم ذكره فادع واستقم.

أو فلأجل ماشرعه الله من الدِّين الواحد، فادع إلى الله وإلى توحيده، واستقم على مادعوت إليه، واستمر على تبليغ الرسالة كما أُمرت بذلك.

٣- ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أيها الرسول أهواء المشركين فيما اختلقوه وافتروه من عبادة الأوثان، ولا تتبع أيضاً أهواء الذين أورثوا الكتاب فيما وقعوا فيه من شكوك وحيرة وتحريف وتبديل.

٤- ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي وقل أيها الرسول: صدّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، من التوراة والإنجيل والزّبور وصحف إبراهيم وموسى، لانفرّق بين أحد منهم، فلست من الذين آمنوا ببعض الكتب، وكفروا ببعض، وهذا تعريض بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين حصل منهم ذلك.

٥- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني الله بأن أعدل بينكم في الحكم والقضاء إذا ترافعتم إلي، ولا أحيف عليكم بزيادة أو نقص.

٦- ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله هو المعبود بحقّ، لاإله غيره، فنحن نقرّ بذلك اختياراً، فهو إلهنا وإلهكم، وخالقنا وخالقكم.

٧- ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي إن ثواب أعمالنا وعقابها خاص بنا، ولكم ثواب أعمالكم وعقابها، فهو خاص بكم، ونحن برآء منكم ومن أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/٤١].

٨- ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لاخصومة بيننا وبينكم ولا احتجاج؛ لأن الحقّ قد ظهر ووضح كالشمس.

٩- ١٠- ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا في المحشر يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق في خلافاتنا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٢٦]. وإليه وحده سبحانه المرجع والمآب يوم الحساب والقيامة، فيجازي كل نفس بما كسبت. قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله، ويزوجه شيبة بابنته.

ثم بيّن الله تعالى بطلان حجة المجادلين في دين الله، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله من

بعد مااستجاب الناس له، ودخلوا فيه، حجّتهم باطلة عند ربِّهم، أي لاثبات لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه، وعليهم غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل، ولهم عذاب شديد يوم القيامة. وسميت دعاويهم الزائفة وأباطيلهم حجّةً ودليلاً، مجاراة لهم على زعمهم.

قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهّموا أن الجاهلية تعود، فجادلوا الذين استجابوا للإسلام، لعلهم يردّونهم إلى الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، ومحاجّتهم قولهم: نبيّنا قبل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم. والظاهر هذا الرأي، روي أن اليهود قالوا للمؤمنين: ألستم تقولون: إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى وحقيّة التوراة معلومة بالاتّفاق، ونبوّة محمد ليست متّفقاً عليها، فوجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى، فدحض تعالى هذه الحجة؛ لأن الإيمان بموسى عليه السلام إنما وجب لظهور المعجزات على يديه، للدلالة على صدقه، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ، فوجب الإقرار بنبوّته.

ثم ردّ تعالى عليهم بقوله:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي لقد أنزل الله جميع الكتب المنزلة على الرُّسل إنزالاً مشتملاً على الحقّ مقترناً به، وعلى أنواع الدلائل والبيِّنات، وأنزل الميزان في كتبه المنزلة، أي العدل والتسوية والإنصاف، ليحكم به بين البشر، وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والتّسوية بين الناس في بيعهم وشرائهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥] .

وبعد تقرير هذه الدلائل خوَّف الله تعالى المنكرين بعذاب القيامة، فقال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما يعلمك أيها الرسول والمخاطب

أن مجيء الساعة عسى أن يكون قريباً حصوله. وفي هذا ترغيب باتباع شرع الله، وترهيب من القيامة، وطلب الاستعداد لها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يتعجّل بقدوم الساعة الذين لايصدِّقون بها، قائلين استهزاءً وإنكاراً وعناداً: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي والمؤمنون خائفون وَجِلون من وقوعها، ويعلمون أنها كائنة لامحالة، فهم عاملون من أجلها، مستعدون لها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠] .

ثبت في حديث متواتر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال: يامحمد، فقال له نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال له: «ويحك إنها كائنة، فما أعددتَ لها؟» فقال: حُبَّ الله ورسولِه، فقال ﷺ: «أنتَ مع من أحببت» أو «المرء مع من أحب».

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي ألا أيها السامع، إن الذين يجادلون في وجود القيامة، ويخاصمون فيها مخاصمة شكّ وريبة، لفي جهل بيِّن، وانحراف شديد عن الحقّ، ولو تفكّروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداءً قادر على الإعادة، ومن خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] .

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الله تعالى كثير اللطف بعباده، بالغ الرأفة بهم، فيوصل إليهم أعظم المنافع ومنها إنزال الكتاب المقترن بالحقّ، ويدفع عنهم أعظم المضار والبلايا ومنها تأخير العذاب عن الخلق، كما في الآيات المتقدمة، ومن ألطافه ومنافعه أنه يرزق

جميع عباده، البرّ منهم والفاجر، يرزق من يشاء منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا، وهو العظيم القوة، الباهر القدرة، الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، فلا يعجزه شيء.

ونحو الآية في الإمداد بالأرزاق قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ [هود: ٦/١١] ، ونظائر أخرى كثيرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات مايلي:

١- النّبي ﷺ ومن بعده كل مؤمن مأمور بالدعوة إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووصّاهم به، وإلى القرآن المتضمن تلك الشرائع، وهو مأمور أيضاً بالاستقامة والثبات على تبليغ الرسالة والعمل بها، ومنهي عن اتّباع الأهواء والحظوظ النفسية وعدم الاهتمام بخلاف من خالف.

وهو مأمور كذلك بالعدل في الأحكام كما أمر الله، وبإعلان أن الله ربّ الناس جميعاً، لاربَّ المسلمين وحدهم، ولا ربّ فئات أخرى وحدها، وأن كل واحد مخصوص بعمل نفسه، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، فلنا ديننا ولكم دينكم، ولا خصومة بيننا وبينكم؛ لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لاحجّة ولا جدال.

والله سيجمع جميع الخلائق إليه يوم القيامة، وإليه المرجع، فهو يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويجازي كلّاً بما كان عليه.

٢- إن المشركين واليهود والنصارى الذين يجادلون في دين الله، بعد انتشاره في الآفاق أو المشارق والمغارب، حجتهم باطلة زائفة لاثبات لها، وعليهم غضب من الله في الدنيا، ولهم عذاب شديد دائم في الآخرة.

٣ً- إن الله تعالى هو منزِّل القرآن وسائر الكتب المنزلة مقترنةً بالحق والصدق، ومُنْزِل في كتبه العدل، وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان -كما تقدم- آلة الإنصاف والعدل.

٤ً- وردت في القرآن آيات كثيرة للترغيب والترهيب تدلّ على قرب يوم القيامة وتحقق وقوعها حتماً لامحالة.

٥ً- إن شأن الكفار دائماً ومعهم الملاحدة والماديون والطبيعيون ينكرون وقوع القيامة استهزاءً وكفراً وعناداً وتكذيباً بها، ظنّاً منهم أنها غير آتية، أو إيهاماً للضَّعَفَة أنها لاتكون.

وعقيدة المؤمن: الإيمان الجازم بمجيء القيامة، فهي الحقّ الذي لاشكّ فيه، وهم دائماً يعملون لها ويستعدون من أجلها، خوفاً من أهوالها، وحساب الله الشديد فيها.

وإن الذين يشكون ويخاصمون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحقّ والفكر الصحيح؛ إذ لو تفكّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب، ثم من نطفة، إلى أن صاروا رجالاً، قادر على أن يبعثهم.

٦ً- إن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، ينعم عليهم جميعاً، ويرزق المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر كيف يشاء، ويَحْرِم من يشاء، وهو البالغ القوة، القاهر الذي لايغلب.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين وقبول التوبة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿نُؤْتِهِۦ﴾: قرئ:

١- (نؤتِهْ) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة.

٢- (نُؤْتِهِ) قرأ قالون بكسر الهاء من غير صلة.

٣- (نؤتِهِ) قرأ الباقون بكسر الهاء مع الصلة.

﴿يُبَشِّرُ﴾: قرئ:

١- (يَبْشُرُ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي.

٢- (يُبَشِّرُ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تَفْعَلُونَ﴾: قرئ:

١- (تفعلون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يفعلون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّ﴾ بالكسر: على الابتداء، ويقرأ بالفتح بالعطف على كلمة ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ وتقديره: ولولا كلمة الفصل وأن الظالمين.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ حال من الظالمين؛ لأن ﴿تَرَى﴾ من رؤية العين، لا من رؤية القلب.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ بحذف الباء والهاء، أي: ذلك الذي يبشر الله به عباده، ثم حذف الباء والهاء تخفيفاً. و﴿ذَٰلِكَ﴾ بمبتدأ، وخبره اسم موصول، والعائد عليه محذوف، أي يبشر الله به عباده كما ذكر.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾: منصوب على الاستثناء من غير الجنس.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ﴿وَيَمْحُ﴾: ليس معطوفاً على ﴿يَخْتِمْ﴾ المجزوم، وإنما هو مستأنف مرفوع، وإنما حذفت الواو منه، كما حذفت في ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ٩٦/١٨] ، و﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١٧/١١] ، وإن كان في موضع رفع؛ لأن محو الله الباطل واجب، وليس معلقاً بشرط.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: منصوب على أنه مفعول به، أي ويجيب الله الذين آمنوا، أو على تقدير حذف حرف الجر، أي ويستجيب للذين آمنوا، فحذفت اللام، فاتصل الفعل به. وقال أبو حيان: والظاهر أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل يستجيب الذي هو بمعنى يجيب.

البلاغة:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ استعارة تمثيلية، شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرة، وبين الآخرة والدنيا طباق.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله. ﴿حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي ثوابها، والأصل في الحرث: إلقاء البذْر في الأرض، وقد يطلق على الثمر، شبه ثمرة العمل ونتيجته بثمرة المزروع، وهذا يتضمن تشبيه الأعمال بالبذور. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له الحسنة إلى عشر أمثالها وأكثر. ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ لذاتها وطيباتها. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ بلا مضاعفة ماقسم له، أي نعطه شيئاً منها على ماقسمنا له. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ من حظ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي بل لكفار مكة وأمثالهم شركاء في الكفر، وهم الشياطين، وأم: أي بل ألهم شركاء؟ والهمزة للتقرير والتقريع، فهو استفهام تقرير وتوبيخ. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ شرع الشركاء بالتزيين للكفار. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي من النظام الفاسد كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فقط. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء ليوم القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين بتعذيب الأوائل في الدنيا. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في يوم القيامة .﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين .﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من السيئات أن يجازوا عليها .﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أي والجزاء واقع بهم يوم القيامة، لامحالة .﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها .﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي إن مايشتهونه ثابت عند ربهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ جزاء المؤمنين .﴿ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ هو الفضل الإلهي العظيم الذي يصغر أمامه أي فضل في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله به، فحذف الجارّ، ثم العائد، والبشارة: الإخبار بحصول مايَسُرُّ في المستقبل .﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لاأطلب على التبليغ أو البشارة نفعاً منكم وخصصه العرف بالنفع المالي .﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ استثناء منقطع، أي لكن أسألكم أن تودّوا قرابتي منكم، فإن له في كل بطن من قريش قرابة، أو لكن أسألكم المودّة حال كونها في القربى، أي إلا المودة ثابتة في ذوي القربى أو في حق القرابة، روي بسند ضعيف أنها لما نزلت قيل: يارسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما. فالقربى هنا: قرابة الرحم، كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة.

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة، سيما حب آل الرسول .﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ نضاعف له الثواب في الحسنة .﴿غَفُورٌ﴾ للذنوب .﴿شَكُورٌ﴾ كثير الشكر للقليل ولمن أطاع بإيفاء الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ أي بل أيقولون .﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ ادعى محمد النبوة أو القرآن. ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ يطبع عليه بالخاتم حتى تجترئ على الافتراء، والمراد استبعاد الافتراء على مثله، فإنما الذي يجترئ عليه ماكان مختوماً على قلبه جاهلاً بربه، أو المراد: يربط عليه بالصبر، فلا يشق عليك أذاهم بهذا القول وغيره. ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ يزيله، وهو استئناف لنفي الافتراء عما يقوله النبي.

﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ﴾ يثبته .﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ هي حججه وبراهينه .﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في القلوب.

﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ يثيب عليها وهو تعريض لهم بالتوبة .﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء .﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيجازي عن يقين وحكمة.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٣):

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: قال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثهم على مودّته ومودّة أقربائه. قال الثعلبي: وهذا أشبه بالآية؛ لأن السورة مكية.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى كونه لطيفاً بعباده، كثير الإحسان إليهم، رغَّب في فعل الخير، والاحتراز عن القبائح بالعمل للآخرة، وأوضح قانون العمل للآخرة والدنيا، ثم أردفه ببيان سبب الضلالة عند المشركين، واستحقاقهم العذاب العاجل على الشرك بالله وإنكار البعث، لولا تأخيره في الحكم الأزلي السابق إلى الآخرة، وإخبارهم بوقوع عذاب الآخرة، وحصول الثواب في رياض الجنة للمؤمنين.

ثم عظّم تعالى حال الثواب، وأمر رسوله بأن يخبر قومه بأنه لايطلب منهم على تبليغ الرسالة نفعاً عاجلاً، وإنما يطلب منهم صلة الرحم والقرابة التي هي شأن قريش، وهذا دليل النبوة. ثم رد عليهم قولهم بأن القرآن مفترى: بأنه لايفتري الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه، فلو كان محمد مفترياً لكشف الله باطله. ثم رغبهم في التوبة، ووعد تعالى بإجابة دعاء المؤمنين الصالحين، وأوعد الكافرين بشديد العقاب.

التفسير والبيان:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة، نقويه ونغنيه، ونجزيه بالحسنة عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى ماشاء الله.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي ومن كان سعيه للحصول على شيء من شؤون الدنيا، وطلب لذائذها وطيباتها، وإهمال شؤون الآخرة، نعطه ماقضت به مشيئتنا، وقسمناه له في قضائنا، ولكن ليس له في الآخرة حظ؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها.

وهذه الآية بإطلاقها مقيدة بآية الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٨-١٩] .

أخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه وغيرهما عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بشِّرْ هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال: يقول الله: ابنَ آدم تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرك غِنى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسدّ فقرك».

ولما ذكر تعالى ماشرع للناس، وهو ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية، أخذ ينكر ماشرع غيره وهو سبب ضلال المشركين، فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بل إن

المشركين لهم أعوان من الشياطين شرعوا مالم يشرعه الله، فلم يتبعوا ماشرع الله لك يامحمد من الدين القويم، بل يتبعون ماشرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، كتحريم ماحرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ونحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي اخترعوها في الجاهلية، من التحليل والتحريم والعبادات والأموال. فالشركاء: هم شياطين الجن والإنس، وضمير ﴿شَرَعُوا﴾ عائد على الشركاء، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المعاصرين للرسول.

ثبت في الصحيح لدى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قَمْعَة يجُرُّ قُصْبه -أي أمعاءه- في النار» لأنه أول من سيب السوائب، وسنّ للعرب عبادة الأصنام، وكان أحد ملوك خُزَاعة، لذا قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولولا الحكم والقضاء السابق من الله تعالى بتأخير العذاب في هذه الأمة إلى يوم القيامة، لقضي بين المؤمنين والمشركين، وعجلت العقوبة في الدنيا لأئمة الشرك، وإن للظالمين العذاب المؤلم الشديد الموجع في جهنم، وبئس المصير.

وتأخير العذاب بموجب قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٦].

ثم ذكر تعالى أحوال الجزاء الأخروي لكل من الظالمين والمؤمنين، فقال:

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ترى رأي العين أو تبصر الكفار (لمقابلته بالمؤمنين) خائفين وَجلين يوم القيامة مما عملوا من السيئات في الدنيا، وجزاء ماكسبوا واقع بهم نازل عليهم لامحالة، سواء خافوا أولم يخافوا.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله، وأطاعوا ربهم فيما أمر به ونهى عنه، هم في رياض الجنة وأطيبها وأنزهها، ولهم مايشتهون عند ربهم من أصناف النعم وأنواع الملذات، ذلك الجزاء الممنوح لهم الذي لايوصف ولا تعرف حقيقته هو الفضل الذي يفوق كل فضل في الدنيا، وهو النعمة التامة الشاملة. وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ العندية عندية المكانة والتشريف، لاعندية المكان.

ثم أخبر تعالى عن حتمية وقوع هذا الجزاء، فقال:

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن هذا الجزاء في روضات الجنات والنعيم الشامل حاصل لهم، كائن لامحالة ببشارة الله تعالى لهم به، وتلك البشارة لهؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل بما أمر الله به، وترك مانهى عنه. فقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ماأعد لهم من الكرامة.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يظهر ترفعه وسموه عن أعراض الدنيا ومنافعها، فقال:

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي قل أيها الرسول لقومك: لاأطلب منكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً ولا مكافأة ولا نفعاً مادياً، ولكن أطلب تقدير صلة الرحم والقرابة التي بيني وبينكم، وإكرام آل بيتي وقرابتي، فتكفُّوا شركم عني، وتذروني أبلّغ رسالات ربي. فقوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن المودة ليست أجراً.

أخرج أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لاأسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم».

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أيضاً أن النبي ﷺ قال: «لاأسألكم على ماآتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تَقَرَّبوا إليه بطاعته». وهذا قول للحسن البصري، وهو تفسير ثانٍ للمودة في القربى، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى. والظاهر لدي هو التفسير الأول، وأن مودة قرابته داخلة في الآية، والتقدير: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها، قال أبو حيان: وهو حسن، وفيه تكثير.

قال عكرمة: وكانت قريش تصل أرحامها، فلما بُعث النبي ﷺ قطعته، فقال: «صلُوني كما كنتم تفعلون».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خُمْ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتابَ الله وعِتْرتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» وفسرت العترة في رواية الترمذي عن جابر فقال ﷺ: «عترتي أهل بيتي».

ثم رغَّبهم الله تعالى في الإحسان والإيمان، فقال:

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ومن يعمل حسنة، نزد له فيها حسناً، أي أجراً وثواباً، إن الله يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، ويضاعف ويشكر المحسن. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٠].

ثم وبخهم على افترائهم على الرسول، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾ أي بل أيقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة ونزول القرآن عليه، وهذا أقبح من الشرك الذي جعلوه شرعاً لهم، أي إنه تعالى أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال، ثم استفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة، فمثله لاينسب إليه الكذب على الله، مع اعترافكم له قبل ذلك بالصدق والأمانة.

ثم أكد ذلك فرد الله عليهم مستبعداً الافتراء من مثل محمد الرسول، فقال:

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي لو افتريت على الله كذباً، لطبع على قلبك إن شاء، وسلبك ماآتاك من القرآن، فلا يجرؤ على مثل هذا إلا من كان مثلهم قد ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا يجرؤ على ذلك، وهذا هو الرسول ﷺ، فإنه لم يفتر على الله كذباً، فأيده الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٧].

وقال أبو السعود: والآية استشهاد على بطلان ماقالوا ببيان أنه ﷺ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لايخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه(١).

ثم أكد الله تعالى ذلك بإبطال الباطل وإحقاق الحق، فالله سبحانه وتعالى لايدع الباطل يستمر، فلو كان ماأتى به النبي ﷺ باطلاً لمحاه، كما جرت به عادته في المفترين، وإنما يثبّت الحق، أي الإسلام، فيبينه بما أنزل من القرآن، وبما أيّد به نبيه من المعجزات والحجج والبراهين، إنه تعالى واسع العلم بما في قلوب العباد.

ثم فتح تعالى أمامهم باب الأمل والتوبة، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي إن الله عز وجل يقبل في المستقبل من عباده المذنبين توبتهم عما

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٣٤

عملوا من المعاصي، ويعفو عن السيئات في الماضي، ويعلم الذي تفعلونه من خير أو شر، فيجازي كلاً بما يستحق من الثواب والعقاب.

ونحو الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٠] وثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح».

وأكد قبول التوبة بقبول الدعاء، فقال تعالى:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي ويستجيب الله للذين آمنوا، وأطاعوا ربهم، ويعطيهم ماطلبوه منه، ويزيدهم على ماطلبوه منه، أو على مايستحقونه من الثواب، تفضلاً منه ونعمة.

أو يجيب الله الذين آمنوا إذا دعوه، أو يجيب الذين آمنوا لربهم، مثل ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]، فيكون المراد بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ أي يجيب، قال الزجاج: استجاب وأجاب بمعنى واحد(١).

وبعد أن وعد المؤمنين بالثواب أَوْعَدَ الكافرين بالعذاب، فقال:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وللكافرين الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله يوم القيامة عذاب مؤلم موجع.

(١) تبين بهذا أن قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إما فاعل مرفوع تقديره: ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه، وإما مفعول محله النصب، والفاعل مضمر وهو الله، وتقديره: ويستجيب الله للمؤمنين، إلا أنه حذف اللام، كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٣] والثاني أولى كما ذكر الرازي.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات الكريمات مايأتي:

١- إن مبدأ الإسلام هو العمل للدنيا والآخرة معاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٢٨/٧٧] . وقال عبد الله بن عمر: «واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». والحرث: العمل والكسب.

٢- فضّل الله تعالى من أراد الآخرة على من أراد الدنيا في الآية من وجوه ستة هي:

الأول: أنه قدم تعالى مريد حرث الآخرة في الذِّكْر على مريد حرث الدنيا.

الثاني: أنه قال في مريد حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وكلمة «من» للتبعيض، أي نعطيه بعض مايطلبه، ولا نؤتيه كله.

الثالث: أنه تعالى سكت عن طالب حرث الآخرة، ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا، أما طالب حرث الدنيا، فإنه تعالى بيَّن أنه لايعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يعني أن الآخرة أصل والدنيا تبع، وواجد الأصل يكون واجداً للتبع بقدر الحاجة.

الرابع: أنه تعالى بيَّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه، وأما طالب الدنيا فيعطى بعض مطلوبه من الدنيا، ويحرم من نصيب الآخرة.

الخامس: إن الآخرة نسيئة، والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد؛ لأن الناس يقولون: النقد خير من النسيئة، فبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالأولى متجهة للزيادة والنمو والثانية آيلة إلى النقصان.

السادس: الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا تحتاج إلى حرث وعمل وتعب، وصرف المتاعب إلى مايؤدي إلى التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى مايؤدي إلى النقصان والانقضاء والفناء[1].

٣- استنبط ابن العربي من هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أن الوضوء تبرداً الذي هو من حرث الدنيا، لايجزئ عن فريضة الوضوء الذي هو من حرث الآخرة، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله تعالى[2].

٤- إن شرع الله الدائم هو ماأنزله على أولي العزم من الرسل، والله لم يشرع الشرك، فمن أين يدين المشركون به؟

٥- من رحمة الله بالمشركين تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، ليعطوا فرصة كاملة في أيام العمر كله للإقلاع عن الشرك والكفر، والدخول في ساحة الإيمان والرضا الإلهي. فإن ماتوا مشركين فلهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

٦- يبصر الناس الكافرين الظالمين خائفين في يوم القيامة من جراء ماكسبوا، والجزاء حتماً نازل بهم. والمراد بالظالمين ههنا الكافرون، بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر.

أما المؤمنون الطائعون لربهم فهم في روضات الجنان، ولهم مايشتهون من النعيم والثواب الجزيل، وذلك هو الفضل الذي لايوصف ولا تهتدي العقول إلى حقيقته؛ لأن الله إذا وصف الفضل بأنه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ فمن ذا الذي يقدر قدره. قال الرازي: وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وهي البقاع الشريفة من الجنة.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٢

(٢) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٥٥

٧- يبشر الله عباده المؤمنين بالثواب العظيم حثاً لهم على الطاعة، وليتعجلوا السرور، ويزدادوا منه. ولكن هذا الجزاء والبشارة، إنما هو على الإيمان والأعمال الصالحات.

٨- عظّم الله تعالى ثواب المؤمنين من وجوه أربعة هي:

الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، وترتيب هذا الجزاء من الله صاحب السلطان الأعظم دليل على أن ذلك الجزاء قد بلغ النهاية التي لايعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وهذا يدخل في باب غير المتناهي.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وإذا كان هذا من الله الأكبر كان في غاية الكبر.

الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل على غاية العظمة.

٩- إن النبي ﷺ لم يطلب من قومه أي منفعة مادية على تبليغ الرسالة، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه، والحد الأدنى الذي طالب به هو مراعاة قرابته من قريش. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أوسط الناس في قريش، فليس بطن من بطونهم إلا وقد وَلَدَهُ، فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي لكن أذكركم قرابتي منكم.

وقد صرح أكثر الأنبياء بنفي طلب الأجر على تبليغ الرسالة، فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩/٢٦] ، وكذا قال هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام[1].

١٠ً - إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يشمل قرابة النبي ﷺ من قريش، وآل بيته الأقارب، وهم كما جاء في بعض الأحاديث: علي وفاطمة والحسن والحسين، فمراعاة قرابته وحبهم واحترامهم واجب بالنص القرآني المذكور، لذا شرع الدعاء لهم في خاتمة التشهد في الصلاة، وهو منصب عظيم، وهو قوله ﷺ: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، مما يدل على أن حب آل محمد واجب.

ذكر الزمخشري حديثاً طويلاً في حب آل البيت جاء فيه: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد، مات مؤمناً مستكمل الإيمان.. ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله»[2].

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمُحَصَّبِ من مِنى ... واهتف بساكن خَيْفها والناهض

سَحَراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطَم الفرات الفائض

إن كان رُفْضاً حبُّ آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

١١ً- من يكتسب حسنة أو خصلة من خصال الخير، ومنها مودة القربى تأكيداً للآية السابقة، ضاعف الله له الحسنة بعشر فصاعداً، ومن فضله ورحمته

---

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠

(٢) الكشاف: ٨٢/٣

تعالى أنه غفور للذنوب، شكور للحسنات. والشكور في حق الله مجاز، والمعنى: أنه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم وفي زيادة الأفضال عليهم.

١٢ً- أنكر القرآن الكريم على المشركين قولهم: إن هذا ليس وحياً من الله تعالى، وكان قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ متعلقاً بالمذكور أول السورة: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾. وكان إنكاره في هذه الآية متكرراً، فوبخهم أولاً بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وثانياً بقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ماأخبرهم به في هذه الآية. وثالثاً بقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بما أنزله من القرآن، ورابعاً بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو نص عام، أي بما في قلوب العباد.

١٣ً- فتح الله تعالى باب الأمل والرجاء والتوبة لعباده جميعاً ليتداركوا أمرهم، فيؤمنوا ويطيعوا ربهم، فذكر أنه يقبل التوبة في المستقبل عن عباده، ويعفو عن سيئات الماضي، ويعلم مايفعل الناس من الخير والشر، فيثيب على الحسنات، ويعاقب على السيئات.

روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك. وكبَّر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: ياهذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذَّابين، فتوبتك تحتاج إلى توبة، فقال: ياأمير المؤمنين، وما التوبة؟ فقال:

اسم يقع على ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندم، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربَّيتها في

المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

١٤ً- أكد الله تعالى قبول التوبة بأنه يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه، ويزيدهم من فضله على ماطلبوه أو استحقوه.

١٥ً- جرت عادته تعالى على إقران الوعد بالوعيد، لذا ذكر بعد وعد المؤمنين بالثواب، وعيد الكافرين بالعذاب الشديد.

من مظاهر حكمة الله في خلقه وآياته على قدرته

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُنْزِل).

﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ : قرئ:

١- (يُنَزِّل الغيث) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم.

٢- (يُنْزِل الغيث) وهي قراءة الباقين.

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (بما كسبت).

﴿ٱلرِّيحَ﴾ :

وقرأ نافع (الرياح).

﴿وَيَعْلَمَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (ويعلمُ).

الإعراب:

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ﴿فِيهِمَا﴾: أي في أحدهما، فحذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٢٢] أي من أحدهما، فحذف المضاف.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿فَبِمَا﴾: الفاء في جواب الشرط، وقرئ بغير فاء، وحذفت إما لأن (مَا) بمعنى الذي، فحذفت كما تحذف مع الذي، أو أن (مَا) الشرطية لاتعمل في الفعل شيئاً؛ لأنه فعل ماضٍ، فحذفت الفاء، وهذا أولى من الأول؛ لأنها أعم في كل مصيبة، فكان المعنى أقوى.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ﴾ ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: مجزوم بالعطف على قوله تعالى: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ المعطوف على جواب الشرط.

و﴿وَيَعۡلَمَ﴾: بتقدير «أن» بعد الفاء، ونصب الفعل بها؛ لأنه غير معطوف على ماقبله، ويقرأ بالرفع: «ويعلمُ» على الاستئناف. وجملة ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ سدت مسد مفعولي ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ لأن النفي يعلق الفعل عن العمل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٍ فَمَتَٰعُ﴾ ﴿فَمَآ﴾: موصولة تضمنت معنى الشرط؛ لأن إيتاء ماأوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا، فجازت الفاء في جوابها.

البلاغة:

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾: عطف عام على خاص، فالغيث خاص، والرحمة عام.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾: تشبيه مرسل مجمل؛ حذف منه وجه الشبه، أي كالجبال في الضخامة والعِظم.

﴿صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بَسَطَ﴾ وسع ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ لجميعهم ﴿لَبَغَوۡاْ﴾ جميعهم أي طغوا وتجاوزوا الحد، والبغي: الظلم ومجاوزة الحد ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ﴾ بتقدير معين ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ مااقتضته مشيئته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي إنه يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم.

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ المطر الذي يغيث من الجدب ﴿قَنَطُواْ﴾ يئسوا من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ يعم رحمته كل شيء من السهل والجبل والنبات والإنسان والحيوان ﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾ المتولي عباده بالإحسان ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على نعمه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهي بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ نشر وفرّق، وهو معطوف على السماوات أو على كلمة ﴿خَلْقُ﴾ أي وخلق مابث ﴿دَآبَّةٍ﴾ كل مايدب على الأرض من الناس وغيرهم ﴿جَمْعِهِمْ﴾ للحشر والحساب، وفي الضمير: تغليب العاقل على غيره ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ في أي وقت يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكن منه. وإذا: تدخل على الماضي وعلى المضارع.

﴿مُّصِيبَةٍ﴾ بلية وشدة ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسبب معاصيكم، وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليه، وهو تعالى أكرم من أن يثنّي الجزاء في الآخرة. أما مايصيب غير المذنبين فلرفع درجاتهم وتعريضهم للأجر العظيم في الآخرة.

﴿وَمَآ أَنتُم﴾ أيها البشر ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين الله هرباً في الأرض، أي بجاعلين الله تعالى عاجزاً بالهرب منه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيٍّ﴾ يحرسكم ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عذاب الله عنكم ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية، جمع جارية: وهي السفينة التي تجري على الماء: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١١] ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال في العِظَم، جمع عَلَم: وهو الجبل.

﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ يجعلها ساكنة لاتتحرك، وقرئ «الرياح». ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت سواكن ﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر، وهما صفتان للمؤمن الكامل؛ لأن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، والمؤمن يصبر في الشدة، ويشكر في الرخاء ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن أو يغرقهن بإرسال الريح العاصفة المغرقة والمراد: إهلاك أهلها، لقوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ اقترفوا من الذنوب ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي يتجاوز عن الكثيرين وينجيهم من الهلاك بالعفو عنهم.

﴿وَيَعْلَمَ﴾ عطف على علة مقدرة، مثل ليغرقهم وينتقم منهم ويعلم

﴿مَّحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب، وجملة النفي ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ سدت مسد مفعولي ﴿وَيَعْلَمَ﴾ والنفي يعلّق الفعل عن العمل، كما تقدم.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ أيها الناس المؤمنون وغيرهم، وآتاه الشيء: أعطاه إياه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من أمتعة الدنيا ﴿فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فهو مجرد متاع مؤقت تتمتعون به فيها، ثم يزول. والمتاع: ماينتفع به ويتمتع من أثاث وغيره ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾من الثواب الأخروي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم بعد اتخاذ الأسباب.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾: أخرج الحاكم وصححه عن علي قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفَّة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا والغنى. وقال خبَّاب بن الأرتّ: فينا نزلت هذه الآية -أي في أهل الصفَّة- وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فتمنيناها.

نزول الآية (٣٦):

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾: عن علي رضي الله عنه: تصدَّق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله، فلامه جمع، فنزلت. جاء في الحديث: أنه أنفق ثمانين ألفاً.

المناسبة:

بعد أن قال الله تعالى في الآية السابقة: إنه يجيب دعاء المؤمنين، ذكر هنا أنه لايعطيهم من الأرزاق إلا بقدر وحكمة، حسبما يعلم من مصلحتهم، وإلا فإنهم يبغون ويقدمون على المعاصي. ولو احتاجوا أمدهم بالرزق؛ لأنه المتولي أمورهم بإحسانه، المستحق الحمد على نعمه.

ثم أقام الله تعالى الأدلة على ألوهيته بخلق السماوات والأرض وما فيهما، ثم جمعهم للحساب في الآخرة. ثم أوضح أن المصائب والأحوال المكروهة كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والفقر ونحوها تكون عقوبات على الذنوب لمن يرتكبها، أو من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء.

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر على ألوهيته وهو إجراء السفن العظيمة على وجه البحر، وتأثير الرياح فيها إما بالتسيير وإما بالإغراق.

والخلاصة: بعد أن ذكر الله تعالى أنواعاً من دلائل وحدانيته، ذكر بعدها العالَم الأكبر وهو السماوات والأرض، ثم العالم الأصغر، وهو الحيوان، ثم أتبعه بذكر المعاد وذكر السفن الجارية في البحر؛ لما فيها من عظيم دلائل القدرة.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي لو وسع الله على عباده رزقهم، وأعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وعصوا في الأرض، وبطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ماليس لهم طلبه مثل قارون وفرعون، ولكنه تعالى ينزل من الرزق لعباده بتقدير معين، على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة، ويختار لهم مما فيه صلاحهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، إنه بعباده خبير بأحوالهم، بصير بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه، كما جاء في الحديث القدسي عن أنس: «إن من عبادي من لايصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لايصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

قال قتادة: كان يقال: خير العيش مالا يُلْهيك ولا يُطْغيك.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو احتاج الناس إلى الخير أمدهم به، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ أي وهو سبحانه الذي ينزل المطر من بعد إياس الناس في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، والمطر أنفع أنواع الرزق، وأكثرها فائدة ونفعاً، ويعم الوجود كله برحمته، ويفيض على أهل ذلك القطر أو الناحية فيضه، وهو المتولي لأمور عباده بالإحسان إليهم، وجلب النفع لهم، ودفع الشر عنهم، وهو المستحق للحمد منهم على إنعامه.

ونظير الآية في إنزال المطر بعد اليأس قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٣٠/٤٩].

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، قحَط المطر، وقَنَط الناس، فقال عمر: مُطِرْتُم، ثم قرأ الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر تعالى الأدلة على ألوهيته، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ﴾ أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه: خَلْق السماوات والأرض على هذا النحو البديع، وخلق ما نشر وفرق فيهما، أي في السماوات والأرض مما يدب ويتحرك، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وطباعهم. وربما يكون في الكواكب الأخرى أحياء، فتدل الآية عليهم.

وقيل: أراد ما بث في الأرض دون السماء؛ لأن المراد من ﴿فِيهِمَا﴾ في أحدهما، كما جاء في آية أخرى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ﴾ [لقمان: ٣١/١٠].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ وهو على جمع سائر الخلائق من السماوات والأرض في صعيد واحد، وحشرهم يوم القيامه، إذا أراد، قادر كل القدرة، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل الحق.

والمقصود بالآية أنه تعالى خلق الكائنات الحية متفرقة، لا لعجز، ولكن لمصلحة، فلهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1] يعني الجمع للحشر والمحاسبة، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل: على جمعها؛ لأن المقصود من هذا الجمع المحاسبة، فكأنه تعالى قال: وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير.

ثم ذكر تعالى أسباب الذنوب والآثام، فقال:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي ما أصابكم أيها الناس من المصائب (وهي الأحوال المكروهة) كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والزلازل ونحوها، فإنما هي بسبب سيئات اقترفتموها، ومعاصٍ اقتحمتموها، فهي عقوبات الذنوب وكفاراتها، ويعفو الله عن كثير من معاصي العباد، فلا يعاقب عليها، وقد يكون المصاب لغير ذنب وإنما لزيادة الأجر ورفع الدرجة.

ونظير مقدمة الآية قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠] وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣] . ونظير آخر الآية: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] . وورد في الحديث الصحيح عن الشيخين والموطأ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: «والذي نفسي بيده،

(١) إذا كما بينا تدخل على المضارع، كما تدخل على الماضي، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حَزَن إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يُشاكُها» وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كَثُرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفّرها» .

ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قَدَم إلابذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» . وفي حديث آخر: «ما ينزل العقاب إلا بذنب، ولا يرتفع إلا بتوبة» . وروى الواحدي في البسيط: «ما عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة» .

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾﴾ أي ما أنتم أيها المذنبون الكافرون بمعجزين الله حيثما كنتم، ولا بفائتين عليه هرباً في الأرض، بل ما قضاه عليهم من المصائب، واقع عليهم، نازل بهم، وليس لكم من غير الله ولي يتولى أموركم، فيمنع عنكم ما قضاه الله، ولا نصير ينصركم من عذاب الله.

ثم ذكر الله تعالى آيات أخرى دالة على قدرته وعظمته فقال:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه إجراءالسفن السائرة في البحر كالجبال.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ أي إن يرد الله إيقاف السفن التي تجري، يجعل الرياح ساكنة، فتصبح السفن ثوابت سواكن على ظهر البحر، واقفة على وجه الماء لا تتحرك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أي إن في أمر السفن المذكور وجريها

في البحر لدلالة عظيمة على قدرته تعالى، لكثير الصبر على الشدائد والبلايا وعلى طاعة الله، كثيرالشكر على النعماء، وهذه جملة معترضة.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي وإن يشأ يهلكهنّ بالغرق بما كسبوا من الذنوب، ويعف عن كثير من ذنوبهم، أو عن كثير منهم، فينجيهم من الغرف، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك كل من ركب البحر.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي لينتقم منهم ويعلم حينئذ الذين ينازعون في آيات الله مكذبين بها أنه لا مفر ولا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله، فإنهم مقهورون بقدرة الله وسلطانه.

وبعد بيان أدلة التوحيد حذر الله تعالى من الاغترار بالدنيا، فقال:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي إن كل ما أعطيتم من الغنى والسعة في الرزق والجاه والسلطان، فإنما هو متاع قليل في الدنيا يتمتع به في زمن قصير، ثم سرعان ما ينقضي ويذهب؛ لأن الدنيا فانية زائلة لا محالة، ويلاحظ أن الذي يمنع من قبول دلائل التوحيد إنما هو الرغبة في الدنيا ومطامعها بسبب الرياسة وطلب الجاه، لذا حذر تعالى من الاغترار بالدنيا، ورغّب في الآخرة، فقال:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي وما عند الله من ثواب الطاعات وجزاء الجنات خير من متاع الدنيا، وأبقى وأدوم؛ لأنه لا ينقطع، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة، فلا تقدموا الفاني على الباقي. وهو خير وأبقى للذين صدّقوا بالله ورسوله، وعلى ربهم يعتمدون في كل شؤونهم، ويفوضون إليه أمورهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن الإمداد بالرزق يخضع لحكمة الله ومشيئته، فيعطي بقدر الحاجة، وعلى وفق المصلحة، فلو بسط الله الرزق لعباده، لوقعوا في المعاصي، وبغى بعضهم على بعض؛ لأن الغنى مَبْطرة مأشرة، وكفى بقارون وفرعون عبرة، ولذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٩٦/ ٦-٧] وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها» .

٢ً - قال المالكية: أفعال الرب سبحانه لا تخلو من مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه، قاده ذلك إلى الفساد، فيَزْوِي عنه الدنيا، مصلحة له. فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سَعة الرزق فضيلة، وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل، لكانوا أقرب إلى الصلاح، والأمر على الجملة مفوَّض إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى.

٣ً - يتولى الله أمور عباده بالإحسان والإنعام، فلو احتاجوا أغناهم بقدر الحاجة، وأنزل عليهم المطر الذي يكون سبباً لوفرة الخيرات والغلال والثمار وعمهم بالرحمة، وهو سبحانه الولي المتولي شؤون عباده وناصر أوليائه المؤمنين، والمحمود على كل لسان.

٤ً - من دلائل وجود الله ووحدانيته وقدرته: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي لا يعلم حصرها إلا الله تعالى، وأنه قادر على جمعهم للحشر والحساب يوم القيامة.

ويرى بعض العلماء استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أنه لا يستبعد وجود مخلوقات في الكواكب والعوالم العلوية غير الملائكة، كما تدل الدلائل الفلكية - وربما اكتشاف سفن الفضاء الحديثة - على وجود حياة في كوكب المرّيخ. وليس في هذا دلالة قطعية؛ لأن في تفسير الآية وجهاً آخر كما تقدم.

٥ً - المصائب في الغالب تكون بسبب الذنوب والمعاصي، فهي عقوبات على السيئات، وقد تكون للابتلاء كما قال ﷺ فيما رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة، كما في حق الأنبياء والأولياء.

والعقوبة عن الذنب في الدنيا كفارة له في الآخرة، وهذا في حق المؤمنين فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن آية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يكفّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه ؟

٦ً - إن قدرة الله عامة شاملة لكل شيء، ومهيمنة على كل شيء، فلن يستطيع الكفار والمشركون أن يعجزوه أو يفوتوه هرباً من سلطانه، ولن يجدوا لهم في الآخرة ولياً يتولى أمورهم، ويتعهد مصالحهم، ولا نصيراً يدفع عنهم عذاب الله وانتقامه، فهم في الدنيا والآخرة في قبضة القدرة الإلهية.

٧ً - من آيات الله تعالى أيضاً على قدرته، ونعمته على العباد: هذه السفن السائرة في عرض البحر على سطح الماء عند هبوب الرياح، أو ما حل محلها من الطاقة الدافعة لمحركاتها، مما صنعه الإنسان بإلهام الله وتعليمه والتمكن من اكتشافه، وشأن الأجسام الثقيلة الكثيفة الغرق في الماء، لكنه تعالى جعل للماء قوة لحمل السفن ومنع الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح.

والله قادر على جعل الرياح ساكنة هادئة، فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر، وقادر على تعطيل آلاتها وإيقاف محركاتها بأيسر الأشياء، وهو

قادرأيضاً على جعل الرياح عواصف فيوبق السفن، أي يغرق ركابها بذنوبهم، ويعفو عن كثير من أهلها فلا يغرقهم معها، وحينئذ يعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد أنه لا ملجأ لهم سوى الله تعالى، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة.

إن في أمر السفن دلالات وعلامات لكل صبار على البلوى، شكور على النعماء، قال قُطْرُب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر. وقال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلى غير صابر.

٨ً - لا ينبغي التفاخر بمظاهر الدنيا، فإن كل ما فيها من ثروات وقصور ومبان وآلات، هو متاع يستمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب. وما عند الله من الثواب على الطاعة خير وأدوم للذين صدّقوا بالله ووحّدوه، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم.

صفات المؤمنين الكمّل أهل الجنة

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

القراءات:

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (كبير الإثم).

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف مجرور على ﴿لِلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ في موضع جرّ أيضاً بالعطف عليه.

﴿هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ﴿هُمۡ﴾: إما تأكيد لضمير ﴿غَضِبُواْ﴾ و﴿يَغۡفِرُونَ﴾: جواب إذا، وإما مبتدأ، خبره: ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ والتقدير: فهم يغفرون، فحذف الفاء في جواب الشرط. وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ ﴿وَلَمَن﴾: اسم موصول مبتدأ، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ في حكم المبتدأ الثاني، والعائد محذوف تقديره: إن ذلك الصبر منه، وحذف للعلم به، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ الأول.

البلاغة:

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ عطف البعض على الكل.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ من قبيل المشاكلة، سمي جزاء السيئة سيئة للتشابه بينهما في الصورة.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ معطوف مع ما بعده على ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ مارتب عليه وعيد شديد، كشهادة الزور وعقوق الوالدين، أو كل ما يوجب حداً، كالقتل العمد والقذف والسرقة والزنى ونحوها ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش وعظم قبحه كالزنى والقتل ونحوهما، جمع فاحشة، وهو من عطف البعض على الكل ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ يعفون ويتجاوزون.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أجابوا إلى ما دعاهم إليه ربهم من التوحيد والعبادة، وأداء الفراض وترك النواهي ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ الشورى: مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، أي أمرهم ذو شورى، يتشاورون، ولا ينفردون برأي حتى يتشاوروا وذلك من فرط تيقظهم في الأمور، وإحكام الخطط، والظفر بالمطلوب، والشورى: تبادل الآراء لمعرفة الصواب منها ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أعطيناهم﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله.

﴿ٱلۡبَغۡيُ﴾ الظلم ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم، وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بأكمل الفضائل؛ لأن الحلم على العاجز محمود، وعلى الظالم مذموم، منعاً من الإغراء على البغي﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ﴾ هي الفعلة التي تسيء مرتكبها وهي الفعل القبيح ﴿سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ سميت الثانية (وهي الجزاء) سيئة لمشابهتها للأولى (الجريمة) في الصورة. وهذه المماثلة في العقوبة ظاهرة في الجراحات، فإنما يقتص فيها بمثلها .﴿عَفَا﴾ عن ظالمه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بالود ما بينه وبينه من عداوة ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي فثوابه على الله حتماً، وهذا وعد يدل على عظم الموعود ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البادئين بالظلم، فيعاقبهم.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ قابل الظالم بمثل فعله بعد أن ظلمه ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ مؤاخذة أو عتاب ومعاقبة ﴿يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدؤونهم بالإضرار﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مؤلم على ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، فلم ينتصر ﴿وَغَفَرَ﴾ تجاوز﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ معزومات الأمور، بمعنى المطلوبات شرعاً أو المشكورة المندوب إليها.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٧):

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ أو قيل: نزلت في عمر حين شُتم بمكة، وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله، وحين شُتم فحلُم.

نزول الآية (٣٨):

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا وأقاموا الصلاة.

نزول الآيات (٤١ - ٤٣):

ذكر الكلبي والفراء أنها نزلت أيضاً في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، فرد عليه، ثم أمسك.

المناسبة:

بعد بيان دلائل التوحيد والقدرة الإلهية، والتنفير من الدنيا، رغّب تعالى في الآخرة، فإنها خير وأبقى، ثم بيَّن أن الخيرية تحصل لمن اتصف بصفات معينة، ذكر أولاً منها صفتين وهما الإيمان بالله والتوكل عليه، وتابع هنا إيراد الصفات الأخرى للمؤمنين وهي: اجتناب كبائر الذنوب والفواحش، وإطاعة الله تعالى وترك نواهيه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والتشاور في الأمور العامة والخاصة، والشجاعة والبأس لاسترداد الحقوق المغتصبة.

التفسير والبيان:

وصف الله تعالى أهل الجنة بالإيمان بالله والتوكل عليه، وبالصفات التالية:

١ً- اجتناب الكبائر: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي الذين يتجنبون الوقوع في كبائر الذنوب التي أوعد الله عليها وعيداً شديداً، كالشرك والقتل العمد وعقوق الوالدين، والفواحش وهي كل ما استقبحه الشرع والعقل والطبع السليم من قول أو فعل، كالغيبة والكذب، والزنى، والسرقة والحرابة (الإفساد في الأرض).

٢ً - العفو عند المقدرة: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون عن

الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون عمن ظلمهم؛ لأن سجيتهم العفو والصفح وليس الانتقام من الناس. وهذا من محاسن الأخلاق يُشفقون على ظالمهم، ويصفحون عمن جهل عليهم، يطلبون بذلك ثواب الله وعفوه. جاء في الحديث الصحيح: «ما انتقم النبي ﷺ لنفسه قط، إلا أن تُنتهك حرمات الله» .

٣ً - تمام الانقياد والطاعة لله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه، من توحيده والتبرؤ من الشرك، وأطاعوا الرسل فيما أمر الله به وزجر عنه.

٤ً - إقام الصلاة: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة كاملة بإتمام أركانها وشروطها وخشوعها في مواقيتها المفروضة، وخصت الصلاة هنا بالذكر مع أمهات الفضائل؛ لأنها أعظم العبادات لله عز وجل، فهي معراج الوصول إلى الله، أو صلة بين العبد وربه.

٥ً - الأخذ بنظام الشورى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة، ولا ينفردون برأي في كل أمر من القضايا العامة، كتولي الحكم (أو الخلافة) وشؤون تدبير الدولة والتخطيط لمصالحها، وإعلان الحرب، وتولية الولاة والحكام والقضاة وغيرهم. وكان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه، وسلك الصحابة طريقه ومنهجه في عظائم الأمور كتولية الخلافة وحروب الردة واستنباط الأحكام الشرعية للقضايا والحوادث المستجدة، وشاور عمر رضي الله عنه الهُرْمزان حين وفد عليه مسلماً[١]، ولما طعن عمر جعل الأمر بعد شورى في ستة نفر، وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاتفقوا على تقديم عثمان رضي الله عنه للخلافة الثالثة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/١٦٥٦

وإذا كانت الآية هنا تقرر وصفاً ثابتاً للمؤمنين، فقد أمر الله تعالى بالشورى في آية أخرى، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] وقال الحسن البصري رحمه الله: «ما تشاور قوم إلا هُدوا لأرشد أمورهم» وقال ابن العربي[١]: الشورى أُلْفةٌ للجماعة، ومسبارٌ للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هُدوا، وقد قال حكيم:

إذا بلغ الرأي المشورةَ فاستعن برأي لبيب أو مَشُورة حازم
ولا تجعل الشُّورى عليك غَضَاضة فريش الخوافي قوة للقوادم

٦ - الإنفاق: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون في سبيل الله وطاعته بعض ما رزقناهم من أموال وخيرات؛ فالإنفاق من الأغنياء قوة للأمة، وعلاج لضعفها، وسبيل للحفاظ على هيبة الدولة ورفعة شأن أفرادها وعزها، وذلك بالإحسان إلى الأقرب فالأقرب ثم للمصالح العامة، كإغناء المحاويج، وإعداد القوى الحربية لمجابهة الأعداء.

٧ - الشجاعة: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي إذا تعرضوا للظلم والاعتداء انتصروا ممن ظلمهم؛ لأن الانتصار عند البغي واجب وفضيلة ولأن التذلل لمن بغى يتنافى مع عزة المؤمنين، إذ العجز والاستضعاف يؤدي إلى إغراء العدو على إلحاق صنوف أخرى من العدوان، فالمؤمنون أعزة كرام يحافظون على الحقوق والحرمات والكرامة، وليسوا بالعاجزين ولا الأذلّين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، فإذا قَدَرُوا عفوا.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين ما سبقها وهي: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فإن كل آية لها مجال وموضع، فالسابقة في موضع، واللاحقة في موضع، وذلك لأن العفو قسمان[٢]:

(١) أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٦

(٢) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٧٧

الأول - أن يكون سبباً لتسكين الفتنة، وتهدئة النفوس، ورجوع الجاني عن جنايته، وهذا محمود، تحمل عليه آيات العفو، مثل: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧] . وهذا مرغب فيه في داخل الأمة الواحدة.

الثاني - أن يكون سبباً لتجرؤ الظالم وتماديه في غيه واستضعافه الأمة، وهذا مذموم، تحمل عليه آيات الحث على الانتقام، وهذا واجب في مقاومة العدو الخارجي، وعند اغتصاب الحقوق، ويتوقف على توافر القوة المكافئة أو القدرة المطلوبة في نظام الإسلام بإلزام المؤمن الصمود أمام اثنين من العدو.

والأمثلة الموضحة كثيرة، منها: عفا يوسف عليه السلام عن إخوته وقال كما حكى القرآن: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه. وعفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها، وعفا عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وعفا عن غَوْرَث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه - سيف النبي ﷺ - وهو نائم، فاستقيظ ﷺ، وهو في يده مصلتاً، فانتهره، فوقع من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمد بن مَسْلَمة، التي سَمّت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت، فقال ﷺ: «ما حملكِ على هذا ؟ قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها ﷺ، ولكن لما مات منه - من السم - بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به.

وروي أن زينب أقبلت على عائشة، فشتمتها، فنهاها النبي ﷺ عنها، فلم

تنته، فقال النبي ﷺ: «دونك فانتصري»[1] وهذا تطبيق لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨/٤] . أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبّان ما قالا من شيء، فعلى البادي حتى يعتدي المظلوم» ثم قرأ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾

ثم إن الله تعالى لم يرغب دائماً في الانتصار، بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة، ثم أبان أن العفو أولى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

وشرط الله تعالى المماثلة بين الجناية والعقوبة في قوله تعالى:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أي إن عقاب السيئة عقاب مماثل للجُرْم، وإن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة، فإذا قال المسيْء: أخزاك الله، يقول: أخزاك الله، من غير أن يعتدي، وسمى جزاء السيئة سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤/٢] وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦/١٦] ، وقوله عز وجل: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠/٦] .

وهكذا فإن جميع العقوبات المدنية والجنائية في الإسلام تجب فيها المماثلة فالقصاص مثلاً من القاتل عمداً أو في الجروح واجب بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى

---

(١) أخرجه مسلم وأخرجه بلفظ آخر النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة، وجاء فيه «فقال لي: سبيها، فسببتها حتى جفّ ريقها في فمها».

﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩] وقوله عز وجل: ﴿وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] لكن رغّب تعالى بالعفو في آخر الآية الأخيرة، فقال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ وهنا قال:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي من عفا عن الظالم المسيء، وأصلح بالود والعفو ما بينه وبين معاديه، فثوابه على الله، يعطيه جزاء أعظم، كما قال ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

ووصف الله المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤] .

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم، ولا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم. والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حده. وهذا تأكيد لمطلع الآية في اشتراط المماثلة نوعاً ومقداراً.

ثم أكد الله تعالى مشروعية دفع الظلم والبغي، فقال:

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ أي والله إن المنتصر من الظالم بعد ظلمه له، لاسبيل عليه بمؤاخذة أو عقوبة؛ لأن الانتصار بحق، فيشرع القصاص في الجنايات العمدية، والضمان في جنايات الخطأ والإتلافات ويجوز الشتم والسب بالمثل دون اعتداء ولا تجاوز.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدؤون الناس بالظلم، أو يتعدَّوْن مبدأ المماثلة، ويتجاوزن الحد في الانتقام، ويَجْنُون على النفوس والأموال بغير الحق، ويتكبرون ويتجبرون بظلم الناس، وسلب الحقوق.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك البادئون بالظلم أو المتجاوزون الحدود لهم عذاب مؤلم شديد بسبب اعتدائهم.

ثم أكد الله تعالى الترغيب في العفو والصفح عند المقدرة، فقال:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ أي بعد أن ذم تعالى الظلم وأهله وشرع القصاص، ندب إلى العفو والصفح، فقال: إن من صبر على الأذى، وستر السيئة، وغفر خطأ من ظلمه، فإن ذلك الصبر والمغفرة لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي يثاب عليها بالثواب الجزيل والثناء الجميل؛ لأن الإنسان الغاضب يثبت فيها ويرسخ، ولا ينطلق وراء شهوة الانتقام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ً - ترغيب المؤمنين بالاتصاف بأمهات الفضائل التي ذكرت في الآيات ليكونوا ورّاث الجنة وأهلها، وتلك الصفات سبع هي: اجتناب كبائر الإثم والفواحش، وهي كل ما توعد الله عليه بالعذاب أو أوجب فيه حداً من الحدود المقدرة شرعاً، والتجاوز والحلم عمن ظلمهم، والانقياد والطاعة لأوامر الله تعالى، وإقام الصلاة، والتشاور فيما بينهم، والبذل والإنفاق في طاعة الله، والجرأة والشجاعة في دفع البغي والظلم.

٢ً - قال ابن العربي: مدح الله المشاورة في الأمور، ومدح القوم الذين يمتثلون ذلك، وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الأمور المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآثار كثير، ولم يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزَّلة من عند الله على جميع الأقسام: من الفرض، والندب والمكروه، والمباح، والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله به علينا، فكانوا يتشاورون في الأحكام،

ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وإن أول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة؛ فإن النبي ﷺ لم ينصّ عليها، حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما هو معروف، وقال عمر: نَرْضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، وتشاوروا في أمر الردّة، فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وتشاوروا في الجدّ وميراثه، وفي حد الخمر وعَددِه، وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب، حتى شاور عمر الهرمزان حين وفد عليه مسلماً في المغازي قائلاً: فمرِ المسلمين فلينفروا إلى كسرى[1]

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمرُكم شورى بينكم، فظهرُ الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شرارَكم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

٢ - إن آية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ هي غالباً في العلاقات الخارجية بين المسلمين وغيرهم، فقد أصابهم بغي المشركين في الماضي، قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وآذوهم وأخرجوهم من مكة، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم في الأرض، ونصرهم على من بغى عليهم؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآيات [٣٩ - ٤١].

وليست الآية مقصورة على الماضي، وإنما هي عامة في بغي كل باغ من كافر وغيره، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه. وهذا إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود[2] وإشارة إلى أن من صفات المؤمنين العزة والكرامة وإباء الذل والشمم، والاعتزاز بقوة الله والثقة بنصره.

(١) أحكام القرآن: ٤/١٦٥٦

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٣٨ - ٣٩

٤ً - أما إذا كان الظلم بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم، فإذا كان الباغي معلناً الفجور، وَقِحاً يؤذي الصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل، قال إبراهيم النَّخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترئ عليهم الفسّاق. أي إنه في حال وقوع الأذى أو الضرر العام يكون الانتقام.

وإذا وقعت الجناية خطأً أو فلتة أو تعمدها صاحبها ثم طلب المغفرة فالعفو ههنا أفضل، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧] وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٢] .

٥ً- إنَّ آية: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أصل كبير في علم الفقه وهو مقابلة الجناية بمثلها، سواء في العقوبات البدنية أو المالية. وتأول الشافعي في هذه الآية: أن للإنسان أن يأخذ من مال مَن خانه مثل ما خانه من غيرعلمه، واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوج أبي سفيان في الحديث المتفق عليه عن عائشة: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك» فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه.

٦ً - اختلف اجتهاد المجتهدين فيما إذا لم يكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة، بسبب التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني، وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ وذكر الرازي أمثلة عشرة لهذا الخلاف[1] أشير إليها بإيجاز:

المثال الأول - احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمي وأن الحر لا يقتل بالعبد: بأن قال: المماثلة شرط لجريان القصاص، وهي مفقودة في هاتين المسألتين، فوجب ألا يجري القصاص بينهما.

المثال الثاني - احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تقطع باليد

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٧٩ - ١٨٠

الواحدة، فقال: لا شك أنه إذا صدر كان القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص.

المثال الثالث - شريك الأب يشرع في حقه القصاص؛ لأنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٥/٤٥] .

المثال الرابع - قال الشافعي رضي الله عنه: من حرّق حرقناه، ومن غرَّق غرقناه، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله.

المثال الخامس - شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: تعمدنا الكذب، يلزمهم القصاص؛ لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه، فوجب أن يصير دمهم مهدراً لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال السادس - قال الشافعي رضي الله عنه: المكرَه يجب عليه القَوَد (القصاص) لأنه صدر عنه القتل، فوجب أن يجب عليه مثله، أي كالمكرِه.

المثال السابع - قال الشافعي رضي الله عنه: القتل بالمثقل كالحجر والخشب يوجب القود، لهذه الآية: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾.

المثال الثامن - الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً، كما تقدم؛ ولأن القاتل أتلف على مالك العبد شيئاً، فيجب ضمانه، وإذا وجب الضمان، وجب ألا يجب القصاص؛ إذ لا فرق.

المثال التاسع - منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه؛ لأن الغاصب فوَّت على المالك منافع تقابل في العرف بمال، فوجب أن يفوت على الغاصب مثلهمن المال، لهذه الآية: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾

المثال العاشر - الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لعلة ثالثة وهي أنه لو قُتل

بالعبد لكان هو مساوياً للعبد في المعاني الموجبة للقصاص، لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠/٤٠].

والخلاصة: إن قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقاً في كل الأحوال إلا ما استثني وخص بدليل.

٧ً - لمن عفا وأصلح النزاع بينه وبين الظالم بالعفو: أجر كبير عند الله تعالى. والمقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم، والانتصار قد يؤدي إلى تجاوز المساواة، والتعدي، خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً.

٨ً - للمظلوم الانتصار من الظالم دون مؤاخذة ولا عقوبة ولا حرج وهل له أن يستوفي ذلك بنفسه؟ هناك ثلاثة أقسام[١]

الأول - القصاص بالنفس إذا ثبت الحق فيه عند الحكام يجوز استيفاؤه من ولي الدم، لكن يزجره الإمام لجرأته على سفك الدم. أما إذا لم يثبت حقه عند الحاكم، فيجوز له استيفاؤه ديانة بينه وبين الله، لكن يؤاخذ قضاء ويعاقب على فعله.

الثاني - الحد الخالص لله تعالى الذي لا حق فيه للآدمي كحد الزنى وقطع السرقة: إن لم يثبت عند حاكم عوقب به، وإن ثبت عند حاكم فإن كان قطع يد أو رجل سقط به الحد، ويعزر وإن كان جلداً لم يسقط به الحد، لتعدّيه، فيؤاخذ بحكمه.

الثالث - الحقوق المالية: يجوز أخذها مغالبة ممن هو عالم بها، أما غير

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٤١

العالم بها، فإن أمكن أخذها منه بالمطالبة القضائية وجبت، ويجوز أخذها سراً، وإن لم يكن آخذها منه بالمطالبة القضائية، لجحود من هي عنده، ولا بينه تشهد بالحق، فيجوز أخذها سراً عند مالك والشافعي، ولايجوز ذلك عند أبي حنيفة.

٩ً - يؤاخذ الظلمة بعدوانهم، فيعاقبون في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة، وذلك سواء أكان الظلم في النفوس أم في الأموال. والحاكم هو الذي يؤاخذ.

١٠ً - قال ابن العربي في آية ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾: هذه الآية في مقابلة الآية المتقدمة في براءة، وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾[٩٢] فكما نفى الله السبيل عمن أحسن، فكذلك أثبتها على من ظلم[١].

١١ً - اختلف العلماء في فرض الحاكم الرسوم والضرائب والأموال على الناس، هل يجوز الخلاص منها لمن قدر على ذلك، مع أنه يستوفى جميع المطلوب من الآخرين ؟ قال سحنون من المالكية: لا، وقال أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي: نعم له ذلك إن قدر على الخلاص؛ لأن الظلم لا أسوة فيه، ولا يلزم أحد بظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾

١٢ً - اختلف العلماء في التحليل[٢] والمسامحة عن العِرْض والمال، فأجازه على العرض والمال سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين من التابعين، ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. ورأى سعيد بن المسيب: ألا يحلله بحال.

(١) أحكام القرآن: ٤/١٦٥٨

(٢) التحليل هنا: أن يجعل من ظلمه في حِلّ.

وجه الرأي الأول: أنه حقه، فله أن يسقطه كما يسقط دمه وعرضه. ووجه الرأي الثاني: أن التحليل في المال رفق، وفي العرض يتجرأ الظلمه ويغترون ويسترسلون في أفعالهم القبيحة.

ووجه الرأي الثالث: أنه تحليل ما حرّم الله، فيكون كالتبديل لحكم الله. والصحيح الجواز بدليل قصة أبي ضَمْضَم الذي كان قد استحل عرضه، أي سامح من يؤذيه ويشتمه، فقال النبي ﷺ فيما روى مسلم في صحيحه: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضَمْضَم ؟».

١٣ً - إن ثواب المال المأخوذ ظلماً لصاحبه طوال حياته وإلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته؛ لأن المال يصير لهم بالإرث.

١٤ً - من صبر على الأذى، وغفر بأن ترك الانتصار لوجه الله إذا كان الظالم مسلماً، كان صبره من عزائم الله التي أمر بها، ومن عزائم الصواب التي وفق لها.

أحوال الكفار أمام النار

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

الإعراب:

﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ﴿مِن﴾ : ابتدائية، أو بمعنى الباء.

﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: اسم إن، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبرها.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذل الله، فلا يوفقه إلى الإيمان ويضله بسبب رضاه بالكفر ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ فليس له أحد يلي هدايته ﴿مَرَدّٖ﴾ رجوع إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ طريق.

﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ خائفين ذليلين ﴿يَنظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ ضعيف النظر مسارقة، والطرف: العين، أو مصدر معناه إطباق أحد جفني العين على الآخر، والمرة منه: طرفة، و﴿مِن﴾ ابتدائية، أي يبتدئ نظرهم إلى النار من تحريك ضعيف لأجفانهم ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالتعريض لعذاب الخلد﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ دائم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله لهم.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ أي غيره ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ نصراء وأعوان يدفع عذابه عنهم ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ طريق إلى الهدى والنجاة والجنة في الآخرة.

المناسبة:

بعد بيان أن الذين يظلمون الناس ويفسدون في الأرض لهم عذاب أليم على بغيهم وعدوانهم، ذكر الله تعالى أحوال الكفار عند رؤية عذاب النار، فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا، ويقفون أمام النار ذليلين خائفين، وتتبين خسارتهم الفادحة بخلودهم في العذاب، دون أن يجدوا أنصاراً يخلصونهم من العذاب. وقد بدئت الآيات وختمت ببيان أن الإضلال من الله تعالى، وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من يخذله الله بإضلاله إياه، لعلمه بسوء استعداده للخير والإيمان، واقترافه المعاصي والآثام، فما له من أحد يتولى هدايته ونصره، والأخذ بيده إلى طريق الهدى والرشاد والفوز، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٨/١٧] وهذا تحقير لأمر الكفرة وبيان أنه لا يقع شيء في الكون من الهدى والضلال وغيرهما إلا بإرادة الله ومشيئته، حتى لا يوصف بالعجز، وكشف لأحوال الذين أعرضوا عن دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان بالله تعالى، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن.

ثم أخبر الله تعالى عن أحوال الظالمين في الآخرة، وهم المشركون بالله، فقال:

١ - ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ أي وتبصر المشركين الكافرين بالله المكذبين بالبعث، حين نظروا إلى النار، وعاينوا العذاب، يتمنون الرجوع إلى الدنيا من أي طريق، قائلين: هل من سبيل إلى الرجعة ؟

ونظير الآية قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٧-٢٨] .

٢ - ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي وتبصرهم أيضاً يعرضون على النار، وهم خائفون أذلاء، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف. وهذا شأن الرهبة من العقاب.

٣- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي ويقول المؤمنون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة: إن الخاسرين الخسار الأكبر، هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، بدخول النار والخلود فيها، وعلى هذا التأويل يكون ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ متعلقاً بـ ﴿وَقَالَ﴾ ويصح أن يتعلق بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا والظاهر: الأول.

أما خسرانهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا معذبين في النار، دون أمل في النّجاة، وأما خسرانهم لأهليهم، فإن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، ولأنهم كانوا هم السَّبب في تعذيبهم، وإن كانوا في الجنة فقد فرّق بينهم وبينهم.

٤ - ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ أي ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا ينتهي، ولا يخرجون منه، ولا محيد لهم عنه، وهذا تتمة كلام المؤمنين أو تصديق من الله لهم فهو من كلامه.

٥ - ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ أي وليس لهم أعوان وأنصار من غير الله، ينقذونهم مما هم فيه من العذاب.

٦ - ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ أي ومن يحجب الله عنه توفيقه إلى الإيمان بسبب علم الله السابق بما سيختاره ويقترفه من الآثام، فلا طريق له إلى النّجاة والجنّة. أي فلا غرابة في وقوع تلك الظّواهر؛ لأنهم ضالّون منحرفون عن سبيل الإيمان والحقّ.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على مايأتي:

١ - لا هادي ولا منقذ ولا ناصر لمن خذله الله، بسبب إعراضه عن الإيمان بالله، والمودّة في القربى، والتّكذيب بالبعث، وعدم إدراكه أن متاع الدنيا قليل.

٢ً - يرى المؤمنون الظالمين الكافرين عند عرض النار عليهم، حال كونهم حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذّل، يرونهم قائلين طالبين أن يردّوا إلى الدنيا، ليعملوا بطاعة الله، فلا يجابون إلى ذلك.

٣ً - ويرونهم أيضاً حين يعرضون على النار أذلّة صاغرين لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تامّاً؛ لأنهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الذَّليل بغضّ الطَّرف.

٤ً - يقول المؤمنون في الجنة، لما عاينوا ما حلّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء الكفار؛ فإنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم في العذاب المخلَّد، وخسروا أهليهم؛ لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حدثت القطيعة الدائمة بينهم وبينهم، ألا إن الظالمين في عذاب دائم لا ينقطع.

٥ً - ليس لأولئك الكافرين الظالمين أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله، وليس للأصنام التي كانوا يعبدونها بقصد الشفاعة لهم عند الله أي مجال في الشفاعة: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيـمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨/٤٠] ، ومن أضلّه الله وخذله، فلا طريق له يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لانسداد طريق النّجاة عليه.

الاستجابة لنداء اللّه مالك السماوات والأرض

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

الإعراب:

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿مَرَدَّ﴾: اسمها المبني على الفتح، والجارّ والمجرور الأول: صفة له، والآخر: خبره.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ﴿وَيَجْعَلُ﴾: بدل من﴿يَخْلُقُ﴾ بدل البعض من الكلّ.

البلاغة:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فيها ما يسمى بالتّقسيم.

المفردات اللغوية:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أجيبوا نداء ربّكم إلى ما فيه نجاتكم بالتّوحيد والعبادة الخالصة لله .﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة .﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يردّه الله بعد ما حكم به، فيكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة ﴿لَّا مَرَدَّ﴾ ويصح كونه صلة لـ: ﴿يَأْتِىَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه.

﴿مَّلۡجَإٖ﴾ مأمن أو منجى أو ملاذ تلجؤون إليه .﴿نَّكِيرٖ﴾ إنكار لذنوبكم يومئذٍ.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ عن الإجابة ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ رقيباً أو محاسباً لأعمالهم .﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد بلّغت. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نعمة كالصّحة والغنى .﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ الضمير يعود لجنس الإنسان .﴿سَيِّئَةُۢ﴾ بلاء من مرض أو فقر أو خوف أو موت عزيز مثلاً. ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بما قدّموا لأنفسهم من ذنوب وآثام، وعبّر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بها .﴿كَفُورٞ﴾ جحود للنّعمة، نسَّاء لها، ذكّار للبلية، يذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها. وهذا وإن اختصّ بالمجرمين من الناس، جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ، أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ الله المالك يهب ويمنح بعض الناس إناثاً فقط أو ذكوراً فقط، أو يجعل لهم الذّكور والإناث، أو يجعل من يشاء عقيماً، فلا يلد ولا يولد له. والمعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد أربعة أصناف مختلفة على مقتضى المشيئة، ولعل تقديم الإناث؛ لتكثير النسل وتطييب قلوب الآباء، والتّكريم والاهتمام رداً على العرب الذي يعدّونهن بلاء. وعرف ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ للمحافظة على فواصل الآيات على نسق واحد: ﴿نَّكِيرٖ﴾، ﴿كَفُورٞ﴾، ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ .﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ إنه تعالى يفعل بحكمة واختيار، عليم بما يخلق، قدير على ما يشاء.

المناسبة:

بعد الإفاضة في وعد المؤمنين ووعيد الكافرين وبيان أحوال الكفار أمام النار، ذكر الله تعالى الهدف والغاية، وهو الاستجابة لدعوة الله إلى التوحيد والعبادة الخالصة، محذِّراً من أهوال القيامة، ومبيِّناً أنهم إن أعرضوا عن

دعوته، فلا يؤبه بهم، وأن من شأن الإنسان جحود النعمة، لبيان سبب إعراضهم وإصرارهم على مذاهبهم الباطلة، ثم ذكر تعالى مثلاً من تقسيم هبات الأولاد ليكون دليلاً على تصرف الله في العالم.

التفسير والبيان:

يحذّر تعالى من أهوال يوم القيامة، ويأمر بالاستعداد له؛ فيقول:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي أجيبوا دعوة ربّكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله، واتّبعوا ما جاءكم به رسول الله ﷺ، من قبل مجيء يوم يكون كلمح البصر، ليس له دافع ولا مانع، فلا يردّه أحد، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به، وهو يوم القيامة. واستجاب وأجاب بمعنى واحد.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي ليس لكم فيه حصن أو ملجأ تتحصّنون أو تلجؤون إليه، ولا تجدون يومئذٍ من يُنكِرُ ما ينزل بكم من العذاب، ولا تقدرون إنكار شيء مما اقترفتموه من السّيئات؛ لرصده في صحفكم، وشهادة ألسنتكم وجلودكم به، فلا ملجأ من الله إلا إليه، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٠-١٢].

والنّكير بمعنى المُنكِر، كالأليم بمعنى المؤلم، أو بمعنى الإنكار، أي إنكار ما ينزل بهم من العذاب، والنّكير والإنكار: تغيير المنكر.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ أي فإن أعرض المشركون عن إجابة دعوة الله ورسوله، فما أرسلناك أيها الرّسول موكّلاً بهم، رقيباً عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، حتى تحاسبهم عليها، فما عليك إلا تبليغ ما أرسلناك به، وليس عليك غيره.

ونظائر الآية كثير، مثل: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٢]، ومثل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢] ، ومثل: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠] .

وهذا كله تسلية من الله تعالى لرسوله، ثم بيّن الله تعالى سبب إصرارهم على مذاهبهم الباطلة وهو طبع الإنسان، فقال:

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي وإننا إذا أعطينا الإنسان منا نعمة، وغمرناه بالرَّخاء كالصّحة والأمن وسعة الرّزق، فرح بذلك، وإن أصيب الناس بسيئة، كجدب ونقمة، وبلاء وشدّة، ومرض أو فقر، بسبب ما اقترف من المعاصي والذنوب، فإن الإنسان جحود ما تقدّم من النّعم، ينساها ولا يذكرها بسبب الضّر الواقع عليه، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة بطِر وأشِر، وإن أصابته محنة يئس وقنط. والكفور: المبالغ في كفران النّعم.

ويظهر أثر هذا في الواقع المتكرر من أكثر النّساء، كما قال رسول الله ﷺ للنّساء فيما أخرجه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر: «يا معشر النّساء، تَصَدَّقن، فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار، فقالت امرأة: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: لأنكنّ تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير - الزوج -، لو أحسنتَ إلى إحداهنّ الدهرَ، ثم تركتَ يوماً قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قطّ» .

أما المؤمن الصالح فشأنه كما قال ﷺ فيما أخرجه أحمد ومسلم عن صهيب: «إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء، صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» .

ثمّ حذَّر تعالى من الاغترار بالدنيا، وما ملكه الإنسان من المال والجاه، فقال مبيِّناً أن الكلّ ملك الله ونعم الله:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي إنه تعالى خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرِّف فيهما بما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي إنه تعالى يخلق ما يشاء من الخلق والأولاد، فيرزق من يشاء البنات فقط، ويرزق من يشاء البنين فقط، ويعطي من يشاء من الناس الصنفين معاً الذّكر والأنثى، فالتّزويج هنا: الجمع بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له؛ لأن الملك ملكه، ويمنح على وفق الحكمة والمصلحة، فإنه سبحانه عليم بمن يستحق كلّ صنف أو قسماً من هذه الأقسام، بليغ عظيم القدرة على ما يريد من تفاوت الناس في ذلك، على حسب الحكمة والعلم. يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم.

وإنما قدّم الله تعالى أولاً الإناث اهتماماً وعنايةً من الله بهنّ بسبب ضعفهنّ، وردّاً على العرب في النّفور من الأنثى، والفرح بالذّكور. وعبَّر عن الإناث بالتّنكير وعن الذّكور بالتّعريف، للتّنبيه على كون الذّكر أفضل من الأنثى، وقال في إعطاء الإناث وحدهنّ، وفي إعطاء الذَكور بلفظ الهبة: ﴿يَهَبُ﴾ وقال في إعطاء الصّنفين معاً: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ للدلالة على الاقتران، أي إنه تعالى يقرن الإناث والذّكور في جعلهم أزواجاً، وكل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان.

وأما التّعبير بالعقم فللدلالة على قدرة الله في منع الولد مع توافر الأسباب الظاهرة.

وأكثر المفسّرين على أن هذا الحكم عام في حقّ كلّ الناس؛ إذ لا معنى للتّخصيص؛ ولأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء

وأراد، لكنهم ذكروا أمثلة لكل حالة، لتكون سلوة المكروب والمحزون، فمثال الحالة الأولى: لوط وشعيب عليهما السّلام لم يكن لهما إلا البنات فكان للوط بنتان، ومثال الحالة الثانية: إبراهيم عليه السّلام لم يكن له إلا الذّكور وهم ثمانية، ومثال الحالة الثالثة: محمد ﷺ كان له من البنين ثلاثة: القاسم، وعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر، وإبراهيم، ومن البنات أربع: زينب ورُقَيَّة وأم كلثوم وفاطمة، وكلهم من خديجة رضي الله عنها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، ومثال الحالة الرابعة: عيسى ويحيى عليهما السّلام. قال واثلة بن الأسقع: إن من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذّكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - على البشر كافة إجابة ما دعاهم الله إليه من الإيمان به والطاعة، قبل مفاجأتهم بيوم القيامة الذي لا يردّه أحد بعدما حكم الله به، وجعله أجلاً ووقتاً معلوماً لديه، ولا منجى ينجي أحداً من العذاب، ولا ناصر ينصر.

٢ - إن أعرض الناس عن الإيمان، فليس الرّسول ﷺ موكّلاً بهم يستطيع إكراههم على الإيمان، ولا حافظاً لأعمالهم حتى يحاسبهم عليها، إنما عليه التبليغ فقط.

٣ - طبع الإنسان الكافر عجيب غريب، يفرح ويبطر عند الرحمة والرخاء والصحة والمتعة، ويجحد النعمة عند البلاء والشدّة بسبب ما اقترف من الذّنوب، فيعدد المصائب وينسى النّعم.

٤ - إن الله تعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما، يفعل ويتصرّف في ملكه ما يشاء بمقتضى علمٍ تام دقيق، وحكمة بالغة، فيهب الإناث فقط لمن

يريد، والذّكور فقط لمن يريد، والذَكور والإناث معاً لمن يريد، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له.

جاء في الحديث الصحيح «إذا سبق ماءُ الرّجل ماء المرأة أذكرا، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرّجل آنثا» وفي لفظ آخر: «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله».

أما الخنثى ففيه الذّكورة والأنوثة، ويغلَّب إحداهما بعمل جراحي، وفي الماضي من حيث يبول، روى ابن عباس عن النَّبي ﷺ أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكّر، من أين يورّث؟ قال: «من حيث يبول» واقتصر النّص القرآني على الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول عن غير العقيم.

أنواع الوحي

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ (٥٣) ﴾

القراءات:

﴿يُرۡسِلَ﴾، ﴿فَيُوحِيَ﴾:

وقرأ نافع (يرسلُ، فيوحيْ).

﴿صِرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾: اسم كان، و﴿لِبَشَرٍ﴾: خبرها، و﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال من اسمه تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمقدر، أي إلا موحياً أومكلِّماً من وراء حجاب .﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ معطوف بالنَصب على معنى قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ تقديره: أو أن يرسل رسولاً؛ لأن ﴿أَن﴾ مع الفعل في تأويل المصدر، فيكون عطف مصدر على مصدر، ويقرأ بالرفع: (أَوَ يُرْسِلُ) على الاستئناف تقديره: أو هو يرسل رسولاً.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ النّفي علق الفعل ﴿تَدْرِى﴾ عن العمل، وكان مابعده سادّاً مسدّ المفعولين.

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بدل من الأول.

البلاغة:

﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ وغير ذلك من مقاطع السورة: فيها ما يسمى توافق الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحّ وما استقام له .﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي: كلام خفي يدرك بسرعة، أو إلقاء شيء في القلب بإلهام في اليقظة أو في المنام. وهو يشمل المشافَه به كما في حديث المعراج، وما وعد به في حديث الرؤية، والمهتوفَ به كما حدث لموسى عليه السّلام في الطُّور وطوى ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه كما وقع لموسى عليه السّلام، فالآية دليل

على جواز رؤية الله في الآخرة، لا على امتناعها .﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي إلا أن يرسل رسولاً مَلَكاً كجبريل عليه السّلام .﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يوحي الرّسول إلى المرسل إليه بأن يكلّمه بإذن الله، ما يشاء الله .﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ عن صفات المخلوقين .﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلّم تارة بوسيط وتارة بغير وسيط، إما عياناً، وإما من وراء حجاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد .﴿رُوحًا﴾ ما أوحى به، وهو القرآن كالرّوح، وسمّي الوحي روحاً؛ لأن القلوب تحيا به .﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي من بعض أمرنا الذي نوحيه إليك .﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ تعرف قبل الوحي إليك .﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن .﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ولا حقيقة الإيمان الصحيح المشتمل على الشرائع والأحكام الموحى بها .﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ الرّوح أو الكتاب أو الإيمان .﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تدعو بالوحي إليك إلى الإسلام .﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً .﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ ترجع الأمور، من غير وسائط، وفيه وعد ووعيد للمطيعين والمجرمين.

سبب النزول:

نزول الآية (٥١):

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنّبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيّاً، كما كلّمه موسى؟ فنزلت، وقال: لم ينظر موسى إلى الله تعالى.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى دلائل كمال قدرته وعلمه وحكمته ونعمته مما هو محسوس، أتبعه ببيان أنواع وحيه وكلامه إلى أنبيائه من النّعم الروحية، التي

اختصّ بها الأنبياء والرُّسل من سائر الناس. وأوضح أن الوحي إلى النَّبي ﷺ بالقرآن المشتمل على الشرائع التي تصلح البشر وتهديهم إلى الحق هو مثل الوحي إلى الأنبياء السابقين. وهذا الختام للسورة مشابه لما بدئت به، لينسجم البدء والختام.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أي ما صحّ لبشر تكليم الله إلا بوحي يوحى، أو بسماع كلام من وراء ستار، أو بواسطة مَلَك. وقد نفى الله تعالى تكليم أحد من البشر إلا بأحد ثلاثة أوجه تحدث في الدنيا:

الأول - الوحي: وهو الإلهام والقذف بمعانٍ تُلْقى في القلب يقظة في الغالب، أو في المنام، كرؤيا إبراهيم الخليل عليه السّلام ذبح ولده. وقد يطلق الوحي على الإلهام المجرد، كما أوحى إلى أم موسى.

الثاني - سماع كلام من وراء حجاب: بأن يسمعه النَّبي مِن غير واسطة متيقناً أنه كلام الله من حيث لا يُرَى، كما كلَّم موسى عليه السلام ربّه، وسمّاه الله وحياً بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٢٠/١٣] . وكان موسى قد سأل الرؤية بعد التّكليم، فحجب عنها.

الثالث - إرسال رسول: وهو إرسال رسول من الملائكة إما جبريل أو غيره فيوحي ذلك الملك إلى الرّسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه، كما كان جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام.

إن الله عليٌّ عن صفات المخلوقين وصفات النَّقْص، يفعل ما تقتضيه حكمته حكيم في كل أحكامه، فيجعل الوحي معتمداً على وسيط، أو بغير وسيط.

وهذه الأنواع الثلاثة يتيقن النَّبي في كلّ منها أن الله تبارك وتعالى هو مصدر الوحي، دون أي شكّ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن رُوح القدس نفث في رُوعي[١] أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب» .

وقد جاء في السُّنّة بيان أنواع الوحي إلى النَّبي ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها - كما تقدّم - «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً، أي يسيل عرقاً.

ثم ذكر تعالى تشابه الوحي بين النَّبي ﷺ وبين الأنبياء السابقين، فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ أي مثلما أوحينا إلى سائر الأنبياء، أوحينا إليك هذا القرآن، الذي هو من أمر الله، وهو روح؛ لأنه يهتدى به، ففيه حياة سعيدة بعد موت الكفر، وكان نزوله حدّاً فاصلاً بين عهدين، استيقظ به العرب والمسلمون من رقدتهم، وصنعوا حضارة سامقة ومجداً.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ أي ما كنت أيها النَّبي قبل إنزال الوحي عليك تعرف ما القرآن، ولا معنى الإيمان، ولا تفاصيل الشرائع، ولا تهتدي إلى معالمها الصحيحة، وخصّ الإيمان؛ لأنه رأس الشريعة.

ولكن جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ضياءً ونوراً نهدي به من نشاء

(١) الّروع - بالضّم: القلب والعقل.والرَّوْع - بالفتح: الفزع.

هدايته، ونخرجه من ظلمات الجهالة والضلال إلى الهداية والمعرفة، ونرشده إلى الدين الحق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] ، وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ١٧/٨٢] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٥٧] .

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وإنك يا محمد لتهدي بذلك النوع إلى المنهج السليم، والحق القويم، الذي هو شرع الله الذي أمر به، وطريق الله الذي له ملك السماوات والأرض، وربّهما المتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقِّب لحكمه. وفي إضافة الصراط إلى اسم الجلالة تعظيم له وتفخيم لشأنه.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي ألا أيها الخلائق ترجع الأمور كلها يوم القيامة إلى الله تعالى، لا إلى غيره، فيحكم فيها بقضائه العدل. وهذا وعد للمتّقين المهتدين، ووعيد للظالمين الكافرين.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أً - إن مظاهر الوحي إلى الأنبياء والرُّسل منحصرة في ثلاثة أنواع هي:

الأول - الإلهام المباشر والإلقاء في القلب معاني ذات دلالة عامة وصبغة تشريعية، تستقر في النفس.

الثاني - إسماع الله كلامه للنَّبي من غير واسطة.

الثالث - إرسال رسول من الملائكة لتبليغ الرسالة، كإرسال جبريل عليه السلام.

٢ً - فَهِمَ المعتزلة من حصر الوحي بهذه الأنواع أن رؤية الله غير جائزة في الآخرة، إذ لو صحّت رؤية الله تعالى، لصحّ من الله تعالى أن يتكلّم مع العبد حالما يراه العبد، فيكون ذلك قسماً رابعاً زائداً، وقد نفاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة.

والجواب أن في الآية قيداً: هو ما كان لبشر أن يكلِّمه الله في الدنيا إلا على هذه الأقسام الثلاثة، وزيادة هذا القيد مفهومة من السياق، ويجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآية وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة، مثل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣].

٣ً - احتجّ بهذه الآية: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الإمام مالك والنّخعي على أن من حلف ألا يكلِّم رجلاً، فأرسل إليه رسولاً، أنه حانث؛ لأن المرسل قد سُمِّي مكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب. قال ابن عبد البَرّ: ومن حلف ألا يكلِّم رجلاً فسلَّم عليه عامداً أو ساهياً، أو سلَّم على جماعة هو فيهم، فقد حنث في ذلك كله عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً أو سلَّم عليه في الصلاة، لم يحنث.

٤ً - الصحيح عند أهل الحق أن الملَك عندما يبلِّغ الوحي إلى الرسول، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي.

والملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة.

ولا يسمى كلام الله مع ابليس من غير واسطة وحياً من الله تعالى إليه.

٥ً - حقيقة الوحي واحدة بالنسبة لجميع الأنبياء، ومظاهرها وأنواعها متعددة، ذكرت الآية منها هنا ثلاثة فقط.

٦ً - ظاهر الآية: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ يدلّ على أنه لم يكن النَّبي قبل الإيحاء

متّصفاً بالإيمان، والصّواب أن الأنبياء معصومون قبل النّبوة من الجهل بالله وصفاته والتّشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتنزيهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان. وإنما المراد بالإيمان هنا: الشرائع والأحكام المعتمدة على الوحي الإلهي، فقد أطلق الإيمان على الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

والآية دليل على أن النّبيﷺ لم يكن قبل النّبوة متعبّداً بشرع ما.

وذهبت المعتزلة إلى أنه لابدّ أن يكون على دين، ولكن عين الدِّين غير معلومة عندنا. وهذا إن كان جائزاً عقلاً، لكن ليس عليه دليل قاطع.

قال القرطبي: والذي يُقطع به أنه ﷺ لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً من أمته، ومخاطَباً بكلِّ شريعته؛ بل شريعته مستقلة بنفسها، مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعزّ. وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى، ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١] ولا حضر حلف المطيَّبين[٢] بل نزهه الله وصانه عن ذلك[٣].

ولكنه ﷺحضر حلف الفضول، فقال: «شهدت في دار عبد الله بن جُدْعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت».

٧ً - لم يكن النَّبي ﷺقبل البعثة عالماً بالقرآن، فهو أُميّ لا يقرأ ولا يكتب،

---

(١) السامر: الموضع الذي يجتمعون فيه للسّمر.

(٢) حلف المطيبين: حدث حينما اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيْم في دار ابن جدعان في الجاهلية، وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا على التّناصر والأخذ من المظلوم للظالم، فسّموا المطيبين.

(٣) تفسير القرطبي: ٥٩/١٦.

ولا بالإيمان، أي شرائع الإيمان ومعالمه، لا أصل الإيمان فإنه ﷺ كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ من حين نشأ إلى حين بلوغه، كما تقدّم.

٨ - إن القرآن العظيم الذي أوحى الله به إلى النّبي ﷺ هو نور وهداية، يدعو ويرشد إلى دين قويم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام. والمقصود بالهداية: الدعوة إلى الدّين الحقّ وإيضاح الأدلّة.

والله الذي أنزله له جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وعبداً وخلقاً وإليه مصير الخلائق جميعهم. وهذا وعيد بالبعث والجزاء، ووعد بالثواب للمؤمنين الصالحين، وتنبيه إلى أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السماوات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله، والإفادة بأنه تعالى يجازي كلّ إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

٩ - دلّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، أي يرشد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

مكية، وهي تسع وثمانون آية

تسميتها:

سميت (سورة الزخرف) لاشتمالها على وصف بعض مظاهر الحياة الدنيا ومتاعها الفاني وهو الزخرف، أي الذهب أو الزينة المزوقة ومقارنته بنعيم الآخرة الخالد في قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٤ - ٣٥].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين:

الأول - تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره: وهو الوحي الإلهي.

الثاني - التشابه في إيراد الأدلة القاطعة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها وأهوال النار التي يتعرض لها الكفار، ومقارنته بنعيم الجنة وإعداده للمؤمنين المتقين.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية يتعلق بغرس أصول العقيدة الإسلامية في النفوس، وهي: الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له، والرسالة والنبوة والوحي، والبعث والجزاء.

بدأت السورة ببيان مصدر القرآن العظيم وهو الوحي الإلهي وتأكيد عربيته ومصداقيته، وجعله معجزة الإسلام والنبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة، وكونه أداة إنذار قريش وقبائل العرب الذين أسرفوا في متع الدنيا، وكذبوا رسولهم كتكذيب من سبقهم من الأمم.

ثم أبانت بنحو قاطع أدلة وجود الله عز وجل وقدرته ووحدانيته من خلق السماوات، والأرض وتذليلها وتمهيدها وإيجاد طرقها، وإنزال الغيث النافع عليها، وخلق أصناف (أزواج) الأشياء والفلك (السفن) والأنعام لأهلها، واعتراف المشركين صراحة بأن الخالق هو الله عز وجل.

ولكنهم لوثوا ذلك الاعتراف بالوثنية والخرافة، فعبدوا الأصنام والأوثان، وزعموا أن الملائكة بنات الله، ولم يجدوا مسوغاً لتدينهم الفاسد إلا تقليد الآباء والأجداد، فصححت لهم آي القرآن انحرافهم، ونَعَتْ جهلهم وسفههم بتلك العبادة الباطلة، والزعم الذي لا دليل عليه، وحذرتهم من إنزال مثل العقاب الذي أهلك به الله أمثالهم من الأمم الغابرة.

وأوردت قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ليعتبروا بها ويتعظوا بأحداثها ونتائجها. وأردفت قصة إبراهيم بتفنيد شبهة المشركين حول رسالة النبي ﷺ، حيث اقترحوا إنزالها على أحد رجلين عظيمين من أهل الجاه والثراء في مكة والطائف، لا على يتيم فقير، فرد الله عليهم بأن ميزان الاصطفاء للنبوة هو مقومات أدبية خلقية إنسانية، لا مادية رخيصة، فالدنيا لا تساوي شيئاً عند الله تعالى، وأنه خشية

أن يكون الناس أمة واحدة على ملة الكفر، لمنحها بجميع زخارفها وأمتعتها الكفار، ومنعها المؤمنين.

وحذرتهم عقب ذلك من الإعراض عن ذكر الله، ورغَّبتهم في النعيم الأبدي في الآخرة، وامتنَّت عليهم بأن القرآن شرف لنبي الله ﷺ ولهم على السواء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [٤٤].

ثم ختمت السورة ببيان وصف نعيم الجنة الذي لا مثيل له، والمخصَّص للمؤمنين بآيات الله المسلمين المنقادين لربهم، وإيضاح أهوال القيامة وشدائد الأشقياء أهل النار حيث يتقلَّبون في عذاب جهنم، وإفلاسهم من شفاعة الأصنام والآلهة المزعومة، وإعلان اليأس من إيمان هؤلاء المشركين والإعراض عنهم، فسوف يعلمون ما يلقونه من العذاب.

القرآن كلام الله بلغة العرب
وعقاب المستهزئين بالأنبياء

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿قُرۡءَٰنًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قراناً).

﴿أَن كُنتُمْ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف (إن كنتم).

﴿نَّبِيٍّ﴾:

وقرأ نافع (نبيء).

الإعراب:

﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا﴾ بمعنى صيرناه معدى إلى مفعولين، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد، و﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾: خبران لـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ و﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بـ ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أو حال منه، و﴿لَدَيْنَا﴾ بدل من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو حال من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ﴾ ﴿صَفْحًا﴾: منصوب على المصدر؛ لأن معنى ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أفنصفح. و﴿أَن كُنتُمْ﴾ بالفتح بتقدير لأن كنتم، وقرئ بالكسر «إنْ» على أنها شرطية. وفاء ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ للعطف على محذوف، أي أنهملكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، أو حال، و﴿بَطْشًا﴾: تمييز.

البلاغة:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ، يعني أنا لا نترك هذا التذكير والإنذار بسبب كونكم مسرفين.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة

الأحكام المبينة في السورة ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أقسم بالقرآن على أنه مجعول قرآناً عربياً ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الموضح لطريق الهدى والشرائع والأحكام ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أوجدنا القرآن -﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾- ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه أيها العرب.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مثبت، معطوف على ﴿إِنَّا﴾ ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ رفيع الشأن لكونه معجزاً من بينها، مهيمناً على الكتب قبله ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أو محكم لا ينسخه غيره.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي أنهملكم ونترككم فنمسك عنكم القرآن إمساكاً، فلا تؤمرون ولا تنهون لأجل ما. أو أننحي عنكم القرآن، وتنحيته عنهم إعراض؛ يقال: ضربت وأضربت عنه: تركته، و﴿ٱلذِّكْرَ﴾: القرآن، و﴿صَفْحًا﴾: إعراضاً. والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب بلغتهم ليفهموه.

﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي لأن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ متجاوزين الحد في الإسراف، مشركين بالله، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم، أي لا نترككم لكونكم مشركين ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ أي ما أتاهم نبي إلا استهزؤوا به، وهذا تسلية للنبي ﷺ عن استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أشد من قومك قوة ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق وسلف في آيات الله بيان قصتهم العجيبة وإهلاكهم، فكذلك يكون قومك مثلهم، والآية وعد للرسول ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

الغاية والهدف من الآيات:

يريد الله تعالى أن يؤكد كون القرآن بلغة العرب، مما يقتضي إيمان العرب قاطبة به، فهم أقدر الناس على فهمه وإدراك معانيه، ويؤكد أيضاً أن القرآن كلام الله ومن عنده، فهو محفوظ مصون في اللوح المحفوظ، وليس من عند محمد ﷺ كما تزعمون، وأن الإعراض عنه لايكون سبباً لترك تذكيرهم به، فضلاً من الله ونعمة ورحمة، وليعتبروا بمصائر أمثالهم من الأمم التي أهلكها الله.

التفسير والبيان:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ تقدم بيان المراد من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾. ثم يقسم الله بالقرآن نفسه البيِّن الواضح الجلي المعاني والألفاظ، المبين طريق الهدى وكل ما يحتاج إليه الناس في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ أي إنا أنزلنا هذا القرآن بلسان العرب أو اللغة العربية التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، وقد جعلناه بلغة العرب فصيحاً واضحاً، لتفهموه أيها العرب، وتتدبروا معانيه، كما جاء في آية أخرى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٥].

والآية جواب القسم، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد. ولعل: للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور، فكان المراد هنا كما ذكر الرازي وغيره، أنزلناه قرآناً عربياً لكي تعقلوا معناه، وتحيطوا بفحواه.

هذا في الأرض، وأما في السماء فقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ أي وإن هذا القرآن في اللوح المحفوظ عندنا رفيع القدر، عالي الشأن في البلاغة والإرشاد وغير

ذلك[١] عظيم الشرف والمكانة، ذو حكمة بالغة، ومحكم النظم لا يوجد فيه لَبْس واختلاف ولا تناقض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٧-٨٠] وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ١١-١٦][٢].

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾؟ أي أنترككم دون إنذار، ونطوي عنكم القرآن طياً دون تذكير، ولا وعظ ولا أمر ولا نهي، لأنكم قوم منهمكون في الإسراف، مصرّون على الشرك؟ لا نفعل ذلك لطفاً ورحمة منا بكم، فلا نترك دعوتكم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كنتم مسرفين معرضين عنه، بل نأمر به ليهتدي المهتدون في قدر الله وعلمه، وتقوم الحجة على الأشقياء[٣].

ثم سلّى الله رسوله عما يلقاه من صدود قومه، فقال:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ ﴿وَكَمْ﴾: هنا خبرية، أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة، فكذبوهم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ أي وما أتاهم من نبي ولا رسول إلا كانوا به يكذبون ويسخرون، كتكذيب قومك واستهزائهم بك.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ أي فدمرنا وأهلكنا قوماً أشد قوة من هؤلاء القوم المكذبين لك يا محمد، وقد سلف في القرآن

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري: ٢٥/ ٤٣.

(٢) وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف، تشبهاً بالملائكة الأطهار لتعظيمه.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٢٢.

ذكرهم أكثر من مرة وعرفت سنة الله فيهم، وإذا علمتم ما آل إليه أمرهم بسبب تكذيب الرسل، فاحذروا الوقوع في مثل مصائرهم.

فالمثل: سنتهم أو عقوبتهم كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٢].

أو المثل: عبرتهم، أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٦] وقوله سبحانه ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية:

١ - القرآن الكريم أنزله الله بلسان العرب؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه، وجميع ما في القرآن عربي مادة ومعنى، لفظاً ونظماً، فقد أقسم الله سبحانه بالقرآن أنه جعله عربياً، وأنه جعله مبيّناً، فهو المبيَّن للذين أنزل إليهم؛ لأنه بلغتهم ولسانهم، ولأنه الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان فيه أحكامه وفرائضه.

٢ - ليس إنزال القرآن باللغة العربية دليلاً على أنه خاص بالعرب دون العجم؛ لأن نصوصه قاطعة الدلالة على عالمية الإسلام للناس كافة، كما هو معروف في مواضع متقدمة، لذا كان تفسير ابن زيد لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تتفكرون هو الأولى؛ لأنه على هذا التأويل يكون خطاباً عاماً للعرب والعجم. أما على تفسير ابن عيسى: لعلكم تفهمون أحكامه ومعانيه، فيكون خاصاً للعرب دون العجم[(١)]

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٦١

والظاهر إرادة كلا المعنيين ولا يلزم التخصيص بالعرب، لأن عموم الرسالة الإسلامية من المبادئ الكبرى المعروفة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يدل - كما ذكر الرازي - على أن القرآن كله معلوم، وليس فيه شيء مبهم مجهول، خلافاً لمن يقول: بعضه معلوم، وبعضه مجهول[1].

٣ - وصف الله تعالى القرآن في السماء بأنه في اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٢١-٢٢] ، ثم وصف اللوح المحفوظ بأربع صفات هي:

الأولى - أنه ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأصل كل شيء: أمه، أي أن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ.

الثانية - وأنه لدى الله بقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾. وإنما خصه الله بهذا التشريف لكونه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته.

الثالثة - كونه علياً، أي كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان.

الرابعة - كونه حكيماً، أي محكماً في وجوه البلاغة والفصاحة، وذو حكمة بالغة، ويرى مفسرون آخرون أن هذه الصفات كلها صفات القرآن.

وهذا على تفسير أم الكتاب باللوح المحفوظ، وفي تفسير آخر أنه الآيات المحكمات لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧] والمعنى: أن سورة ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

٤ - إن اختيار المشركين دين الشرك لا يمنع من تذكيرهم، ووعظهم،

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٩٣

وأمرهم، ونهيهم، لطفاً من الله ورحمة بهم، وقطعاً لحجتهم بعدم البيان والتكليف.

٥ً - إن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء، فلا داعي أيها الرسول وأتباعه للتأذي من أقوام، بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء؛ لأن المصيبة إذا عمَّت خفَّت.

٦ً - إن عدد الأنبياء في البشر كثير، فما أكثر ما أرسل الله من الأنبياء، ولكن الله تعالى أهلك أقوامهم الذين كذبوهم واستهزؤوا بهم، بالرغم من أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ومضى مَثَلهم في الأمم الغابرة. والمثل: العقوبة أو السنَّة أو الوصف والخبر، أي سلفت عقوبتهم، أو صفة الأولين بأنهم أهلكوا على كفرهم، أو مضت سنة الله فيهم.

فإذا سلك كفار مكة وغيرهم في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم، فقد ضرب الله لهم مَثَلهم، كما قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٩]. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٥].

من مصنوعات الله تعالى وصفاته

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿مَهْدًا﴾: قرئ:

١- (مَهْداً) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مِهاداً) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تُخْرَجُونَ﴾: قرئ:

١- (تَخْرُجون) وهي قراءة ابن ذكوان، وحمزة، والكسائي.

٢- (تُخْرَجون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ اللام: لام القسم و﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات: وواو الضمير لالتقاء الساكنين.

﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ حذف العائد اختصاراً، أي تركبونه، وإنما قال ﴿تَرْكَبُونَ﴾ مع أنه يقال: ركبوا الأنعام، وركبوا في الفلك، لأنه غلب المتعدي بغير واسطة، لقوّته على المتعدي بواسطة، فقيل: تركبونه.

﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ جمع الظهر مراعاة المعنى﴿مَا﴾ وذكّرالضمير نظراً للفظ ﴿مَا﴾.

البلاغة:

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تشبيه بليغ، أي كالمهد وهو الفراش، حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ استعارة تبعية، شبّه الأرض قبل نزول المطر بالميت، ثم أنشرها الله، أي أحياها بالمطر.

﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿ تَرْكَبُونَ ﴾ ﴿ لَمُنقَلِبُونَ ﴾ سجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ هذا مقول المشركين، أي خلقهن ذو العزة والعلم ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ استئناف من الله تعالى، المهد: الفراش، كالمهد للصبي، فتستقرون فيها ﴿ سُبُلًا ﴾: طرقاً، جمع سبيل، أي طريق ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار أو تقدير ينفع ولا يضر، بحسب الحاجة، ولم يجعله طوفاناً ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ أحيينا ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ خالية من النبات، وتذكير كلمة «ميت» لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإنشار (الإحياء) ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم أحياء.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أصناف المخلوقات ﴿ ٱلْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ لتستقروا على ظهور ما تركبون ﴿ سَخَّرَ ﴾ ذلل ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيقين، مأخوذ من أقرن الشيء: إذا أطاقه، وأصله: وجده قرينه ﴿ لَمُنقَلِبُونَ ﴾ راجعون، فالنقلة العظمى هي الانقلاب إلى الله تعالى، لتجازى كل نفس بما كسبت.

المناسبة:

هذه الآيات تذكير للمشتركين المسرفين في أعمالهم وإعراضهم عن القرآن بأنهم يقرون بوجود الخالق، وتذكير لهم أيضاً بنعم الله ومصنوعاته وصفاته التي عدَّد منها هنا ثماني صفات، ثم أردفها بتعليم عباده ذكر الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم، فعنه ﷺ: أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾- إلى قوله - ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات كما أشرت ثماني صفات له وهي:

١ -٣ -: كونه خالقاً للسماوات والأرض، العزيز، العليم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي تالله لئن سألت أيها النبي هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره من قومك: من الذي خلق السماوات والأرض؟ لأجابوا واعترفوا بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهو العزيز أي الغالب القوي، إشارة إلى كمال القدرة، العليم، أي الواسع العلم، إشارة إلى كمال العلم.

وكمال القدرة والعلم دليل على أن الموصوف به قادر على خلق جميع الممكنات. ومع هذا فهم يعبدون مع الله إلهاً آخر من الأصنام والأنداد.

٤ -الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي إنه تعالى الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش والبساط، صالحة للإقامة والاستقرار عليها، فمع أنها تدور وتتحرك، فهي ثابتة أرساها الله بالجبال، لئلا تميد وتضطرب.

٥ - وخلق فيها الطرق: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وأوجد فيها الطرق والمسالك بين الجبال والأودية، لتهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم، وتنتقلوا إلى أرجاء البلاد، للمتاجرة وطلب الرزق والسياحة وغير ذلك.

٦ - منزل الغيث النافع وباعث الناس: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ أي والله هو الذي أنزل المطر من السماء بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة للزروع والثمار والشرب، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم، لئلا يحدث الطوفان والغرق

وهدم المنازل وتلف المزارع، ولا دون الحاجة، حتى لا يكفي النبات والزرع والناس.

فأحيينا بذلك الماء البلاد الميتة المقفرة التي لا نبات فيها، فلما جاءها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وكما أحيينا الأرض بعد موتها نحيي الأجساد يوم المعاد بعد موتها، وتبعثون من قبوركم أحياء.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٣٥/٩].

وظاهر الآية هنا يقتضي أن الماء ينزل من السماء، والواقع أنه ينزل من السحاب، وسمي نازلاً من السماء؛ لأن كل ما سَمَاكَ أو علاك فهو سماء. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كما يدل على قدرة الله وحكمته، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة، كهذه الأرض التي أحييت بالنبات الأخضر والثمر اليانع بعدما كانت ميتة.

٧ً - كونه خالقاً أصناف الأشياء: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي والله هو الذي خلق الأصناف كلها من نبات وزرع وشجر وثمر، وإنسان وحيوان وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

٨ً - خالق وسيلة الركوب من الفلك والأنعام: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي والله الذي خلق لكم بالإلهام والتعليم وسيلة الركوب في البحر وهي السفن، وأوجد واسطة الركوب في البر من الأنعام وهي الإبل، إذ المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا هي، والله هو الذي ذلَّلها لكم وسخّرها ويسَّرها لركوب ظهورها، وكذا لأكل لحومها وشرب ألبانها والانتفاع بأوبارها، قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي

هريرة: «بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له: لم أُخلق لهذا، إنما خلقت للحرث، فقال النبي ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر»[1].

ولا تقتصر وسائل الركوب على السفن والإبل، فهناك آية أخرى تشمل الدواب والسيارات والقطارات والطائرات ونحوها من وسائل المواصلات الحديثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨/١٦] .

﴿لِتَسْتَوُوا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي لتستقروا ولتستعلوا متمكنين مرتفقين على ظهور هذا الجنس من المخلوقات وهو ما تركبونه من الفلك والأنعام، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألسنتكم نعمة الله التي أنعم بها عليكم من تسخير المراكب في البحر والبر، فتعرفوا أن الله تعالى خلق وجه البحر صالحاً للإبحار والرياح قوة دافعة، وعلَّم الإنسان كيفية صنع السفينة على نحو يتمكن فيها من الإبحار عليها إلى أي مكان شاء وأراد.

وتقولوا إذا استويتم وركبتم على المركوب. ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي تنزيهاً لله عن كل عجز ونقص لا يليق، الذي ذلل لنا هذا المركب، وما كنا مطيقين لتسخيره لولا أن سخره الله لنا.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي وإنا لصائرون راجعون إليه بعد مماتنا، فيجازي كل نفس بما عملت من خير أو شر. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك والأنعام عرضة لخطر الهلاك، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وأن يعتقد أنه هالك لا محالة، وأنه راجع إلى الله تعالى.

أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله

---

(١) ولم يكونا حاضرين حينئذ.

عنهما قال: «إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته، كبَّر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّن علينا السفر، واطْوِ لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون».

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ً - إذا سئل المشركون عمن خلق السماوات والأرض لأجابوا بأن الخالق هو الله القوي الغالب الكامل العلم، فأقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم.

٢ً - الله تعالى كامل القدرة فهو سبحانه الذي مهد لنا الأرض وجعلها صالحة للعيش عليها بسلام واستقرار، وأوجد فيها المعايش والطرق لنسلكها إلى حيث أردنا، ولنهتدي بها في الأسفار، ونستدل بمقدوراته على قدرته.

٣ً - الله تعالى لطيف بعباده رحيم بهم، فهو جل وعز ينزل المطر النافع بقدر الحاجة ومقتضى الحكمة، فلا يجعله طوفاناً مغرقاً، ولا قليلاً قاصراً عن الحاجة، حتى يكون معاشاً صالحاً للأنفس والأنعام، فينبت به الزرع والشجر، ويخرج به الغلال والثمار.

ومن قدر على إحياء الأرض بعد جدبها، قدر على بعث المخلوقات من القبور.

٤ً - الله تعالى جميل يحب الجمال، فهو الذي نوّع الأشياء كلها، وأوجد

فيها الأصناف المختلفة، وأبدع مباهج الحياة، وجعل فيها الحيوية والحركة بالانتقال في أرجاء الأرض بوسائط الركوب المتنوعة براً وبحراً وجواً.

٥ - قال القرطبي: علَّمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرّفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن: وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ ﴾ [هود: ١١/٤١] فكم من راكب دابة عَثَرت به أو شَمَسَت أو تقحَّمَت[١] أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرِقوا[٢].

والخلاصة: هناك أذكار ثلاثة ما ينبغي لعبد أن يدع قولها، وليس بواجب ذكرها في اللسان، وهي دعاء السفر في البحر: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ودعاء السفر في البر: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ودعاء دخول المنازل: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[٣].

---

(١) تقحم الفرس براكبه: ألقاه على وجهه.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٧/١٦

(٣) تفسير الرازي: ١٩٨/٢٧ وما بعدها.

عبادة المشركين الملائكة

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿يُنَشَّؤُا۟﴾ : قرئ:

١- (يُنَشَّأ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يَنْشَأُ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (عندَ الرحمن) - ظرفاً-.

﴿أَشَهِدُوا۟﴾ :

وقرأ نافع (أأُشهدوا).

﴿قَالَ أَوَلَوْ﴾ : قرئ:

١- (قال أَوَلَوْ) وهي قراءة ابن عامر، وحفص.

٢- (قلْ أَوَلَوْ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿جِئْتُكُم﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتكم).

الإعراب:

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي من رجال عباده، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿وَجْهُهُۥ﴾ : إما اسم ﴿ظَلَّ﴾ أو بدل من ضمير مقدر فيها مرفوع؛ لأنه اسمها. و﴿مُسْوَدًّا﴾ :خبرها، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ ﴿أَمِ﴾ : بمعنى بل والهمزة وتقديره: بل أأتخذ مما يخلق بنات، ولا يجوز أن يكون بمعنى «بل» بغير همزة، لأنه يؤدي التقدير إلى الكفر، وهو:بل اتخذ بنات.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ (مَنْ): إما في موضع نصب بتقدير فعل، أي أجعلتم من ينشأ، أو في موضع رفع؛ لأنه مبتدأ، وخبره محذوف أي كائن، وهو قول الفراء.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ تأكيد بإن واللام وصيغة المبالغة على وزن فعول وفعيل

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أسلوب تهكمي يراد به التوبيخ والتقريع، وبين لفظ «البنات» و «البنين» طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ أي جعل المشركون بعد ذلك الاعتراف بأن الله هو الخالق، من عباده ولداً، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، باعتبار أن الولد جزء من أبيه، والملائكة من عباد الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قائل ما تقدم ﴿لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ بالغ الكفر وظاهر الكفر.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ بل أتّخذ، والهمزة في﴿أَمِ﴾ همزة الإنكار والتعجب، أو القول مقدر أي أتقولون: اتخذ ﴿وَأَصۡفَىٰكُم﴾ خصكم واختاركم، وهذا لازم من قولكم السابق ﴿ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ أي جعل له شبهاً بنسبة البنات إليه؛ لأن الولد يشبه الوالد ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ متغيراً لما يعتريه من الكآبة، وقرئ: (مسودّ) و(مسوادّ)، على أن في ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشر و﴿وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾: جملة واقعة موقع الخبر ﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غماًوغيظاً.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ أي أو يجعلون لله من يتربى في الزينة ؟ والهمزة همزة الإنكار، وواو العطف يعطف جملة: يجعلون لله.. إلخ ﴿ٱلۡخِصَامِ﴾ الجدل والنقاش ﴿غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ غير مظهر الحجة لضعفه عنها وعجزه عن الجدل بالأنوثة. وفيه دلالة على فساد ما قالوه.

﴿أَشَهِدُواْ﴾ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إناثاً ؟ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ بأنهم إناث ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة، فيعاقبون على شهادة الزور، وهو وعيد﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ ما عبدنا الملائكة، فعبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راضٍ بها، أي إنهم استدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسنها، وذلك باطل؛ لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض، مأموراً كان أو منهياً، حسناً كان أو غيره،

ولذلك حكم عليهم بالجهل بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لقولهم من الرضا بعبادتهم أدنى علم بمراد الله ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيه ويَحْدِسون، فيعاقبون عليه.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي هل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن ينطق بصحة ما قالوه، ويقرر عبادة غير الله ؟ ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ متمسكون بذلك الكتاب، والمعنى: لم يقع ذلك.

﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ منعموها وأهل الترف فيها ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ ملة أو طريقة ومذهب ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ متبعون، قال البيضاوي: هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ ؟أي قال لهم النذير نبيهم: أتتبعون ذلك ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ وهذا حكاية أمر ماض أوحي إلى النذير ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال الأقوام للنذير: إنا كافرون بما أرسلت به أنت ومن قبلك .﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال الله: فانتقمنا من المكذبين للرسل قبلك ﴿عَٰقِبَةُ﴾ مصير ونهاية، فلا تكترث بتكذيبهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٩):

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن، فخرجت من بينهم الملائكة، فنزل فيهم: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾

نزول الآية (٢٢):

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ حكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد ابن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضاً، يعزّي نبيه ﷺ.

المناسبة:

بعد بيان اعتراف المشركين بأن الله خالق السماوات والأرض، ذكر الله تعالى ما يناقض ذلك وهو ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله، فلم يقتصروا أن جعلوا لله ولداً، وإنما جعلوه من الإناث ومن الملائكة، فرد تعالى عليهم بأجوبة ثلاثة: نفرتهم من الإناث، وضعف الإناث، وجهلهم بحقيقة الملائكة.

ثم ذكر تعالى شبهة أخرى للمشركين: وهي أن عبادة الملائكة بمشيئة الله، ورد عليهم بأن المشيئة ترجيح بعض الأشياء على بعض، ولا دلالة فيها على الرضا والغضب أو الحسن والقبح، فهم جهلة كاذبون، وليس لهم دليل نقلي صحيح يعتمدون عليه إلا محض التقليد للآباء والأجداد، دون برهان معقول، وشأنهم في الكفر شأن من سبقهم من الأمم التي كذبت الرسل، فانتقم الله منهم وأهلكهم.

التفسير والبيان:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي إن المشركين بالرغم من اعترافهم بألوهية الله وكونه خالق السماوات والأرض، أثبتوا له ولداً، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، باعتبار أن الولد جزء من أبيه، قال ﷺ فيما رواه أحمد والحاكم عن المِسْوَر: «فاطمة بَضْعة مني» إن الإنسان جحود نعم ربه جحوداً بيّناً، يقابل وضوح النعمة، فيكون الجحود من أبين الكذب. والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾.

وهذا من جهلهم بالله وصفاته، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة، ونسبوهم إلى الله نسبة تقتضي نسبة الأضعف من نوعي الإنسان، فالله ليس كمثله شيء، فلا يشبهه أحد من خلقه، ونسبة الولد له تقتضي جعله مشابهاً للحوادث، فلا يصلح إلهاً، ولأن هذا الادعاء للجزء يجعل الله مركباً من أجزاء فهو حادث.

ثم أنكر تعالى عليهم أشد الإنكار، فقال:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾؟ أي وإذ نسبتم الولد إلى الله، لزم منه أن الله اتخذ ولداً له من أضعف الجنسين، واختار لكم الأفضل، وهذا يعني أنه جعل لنفسه المفضول من الصنفين، ولكم الفاضل منهما، فكيف يصح هذا مع أنه تعالى هو الخالق ؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢١-٢٢] أي جائرة.

ومعنى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ بل أَتَّخذ ؟ الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيباً من شأنهم حيث جعلوا ذلك الجزء أضعف الجزأين، وهو الإناث دون الذكور.

ثم ذكر الله تعالى تتمة الإنكار والتوبيخ والتعجيب، فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين بما جعل لله مشابهاً، وهو الأنثى، أنف من ذلك واغتم، وعلته الكآبة من سوء ما بُشِّر به، فصار وجهه متغيراً، وأضحى ممتلئاً غيظاً، شديد الحزن، كثير الكرب، فكيف تأنفون أنتم من البنت، وتنسبونها إلى الله عز وجل ؟ !.

وللآية شبيه تام هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٨-٥٩] .

ثم أكد الله تعالى الإنكار، فقال:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي أو يجعل للرحمن من الولد من صفته أنه يتربى في الزينة والنعمة، وإذا احتاج إلى مخاصمة غيره لا يقدر على الجدال وإقامة الحجة ؟ فلا بيان عنده، ولا يأتي ببرهان يدفع ما يجادل به خصمه، لنقصان عقله وضعف رأيه.

والآية دليل على رقة المرأة وغلبة عاطفتها عليها، وميلها إلى التزين والنعومة، وعلى أن التحلي بالذهب والحرير مباح للنساء، وأنه حرام على الرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك عنواناً على الضعف والنقصان، وإنما زينة الرجل: الصبر على طاعة الله، والتزين بزينة التقوى، كما قال الرازي.

ومن مفتريات المشركين عدا ما ذكر من نسبة الإناث إلى الله: زعمهم أن الملائكة إناث، كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي حكموا بأن الملائكة إناث، وهذا مترتب على قولهم السابق: الملائكة بنات الله.

فأنكر الله عليهم ورد مقالهم بقوله:

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي هل حضروا وشاهدوا خلق الله إياهم حتى يشهدوا بأنهم إناث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٥٠] ستكتب شهادتهم بذلك في ديوان أعمالهم، لنجازيهم على ذلك، ويسألون عنها يوم القيامة، فهي شهادة زور. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد بالعذاب، ودليل على أن الادعاء من غير برهان وإثبات جريمة.

واستدلّ بهذه الآية: ﴿هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من قال بتفضيل الملائكة على البشر.

ثم أورد الله تعالى شبهة أخرى للمشركين، ولوناً آخر من ألوان افتراءاتهم، فقال:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي قال الكفار: لو أراد الله ما عبدنا هذه الملائكة، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، ويريدون بذلك القول إن الله راضٍ عن

عبادتهم للأصنام. وهو احتجاج بالقدر، وكلمة حق يراد بها باطل؛ لأن المشيئة لا تستلزم الأمر؛ إذ هي ترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب علمه، والله يأمر بالخير والإيمان، ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا.

وقد جمعوا في هذا القول بين أنواع كثيرة من الخطأ والكفر كما ذكر ابن كثير:

١ً - جعلهم لله تعالى ولداً، تقدّس وتنزّه عن ذلك.

٢ً - دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين؛ إذ زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى.

٣ً - عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عزّ وجلّ، بل بمجرد الأهواء وتقليد الأسلاف، وتخبُّط الجاهلية.

٤ً - احتجاجهم بتقدير الله ذلك، وتقديرهم على طريقتهم قدراً، وهذا جهل شديد، فإن الله منذ أن بعث الرُّسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لاشريك له، وينهى عن عبادة سواه[1] قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٥] .

ونحو الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٨] ، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٧] .

---

(١) تفسيرابن كثير: ٤/ ١٢٥

فردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ليس لهم أي علم أو دليل بصحة ما قالوه واحتجّوا به، وما هم إلا يكذبون فيما قالوا، ويتقولون، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء. والآية دليل على جهلهم الفاضح، وكذبهم وافترائهم الباطل.

ثم أبطل الله تعالى قولهم بالدليل النقلي قائلاً:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي أأعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ينطق بما يدّعون، مكتوباً فيه: اعبدوا غير الله؟ فهم يتمسكون بذلك الكتاب، ويحتجون به، أي ليس الأمر كذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٥] أي لم يكن ذلك أصلاً.

ثم ذكر الله تعالى أنه لا حجّة لهم إلا التّقليد، فقال:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بل إنهم قالوا: لقد وجدنا آباءنا على طريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام، وإنا سائرون على منهجهم مهتدون بهديهم. وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجّة عقلية ولا نقلية على الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد واتّباعهم في الضّلالة. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ - أي وراءهم - ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ مجرد دعوى منهم بلا دليل.

ثم أبان الله تعالى تشابه الأمم في الكفر والتّقليد والمقالة، فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن مقال هؤلاء قد سبقهم إليه أشباههم من الأمم السالفة المكذّبة للرّسل، فمثل تلك المقالة قال المترفون

المنعَّمون - وهم الرؤساء والزّعماء والجبابرة - من كل أمّة لرسولهم المرسل إليهم للإنذار من عذاب الله: إنّا وجدنا آباءنا على ملّة ودين، وإنا على طريقتهم سائرون متبعون.

وخصص المترفين تنبيهاً على أن التّنعم هو سبب المعارضة وإهمال النّظر وترك التّفكر في مضمون الرّسالة الإلهية.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٢-٥٣] .

وإنما قال أولاً: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ لادعاء الهداية كآبائهم، ثم قال ثانياً: ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ حكاية عن قوم تابعوا آباءهم في فعلهم، دون ادِّعاء الهداية، والمعنى تقريباً واحد.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وتنبيه على أنّ التّقليد في الاعتقاد والعبادة ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرُّسل لأقوامهم عن التّقليد، قائلاً:

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ أي قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟!.

فأجابوه معلنين كفرهم صراحة، في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا: لا نعمل برسالتك، ولا سمع لك ولا طاعة، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف. والمراد أنهم لو علموا وتيقّنوا صحة ما جئتهم به أيها الرّسول، لما انقادوا لذلك؛ لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحقّ وأهله. وقوله: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرُّسل، فالخطاب للنّبي ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه.

وما بعد الإصرار على الكفر إلا النّقمة والإهلاك، فقال تعالى:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذِّبة للرُّسل بأنواع من العذاب، كعذاب قوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم كيف بادوا وهلكوا، وإن آثارهم موجودة، عبرة للنّاظر المعتبر. وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة، وسلوة للرّسول، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

١ً - للمشركين افتراءات كثيرة، منها هنا: نسبة البنات إلى الله تعالى، فقالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءاً له. وقد عجّب الله المؤمنين من جهلهم، إذ أقرّوا بأن خالق السماوات والأرض هو الله، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السماوات والأرض لايحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النّقص كما أبان القرطبي.

ومن افتراءاتهم المذكورة في سورة أخرى: جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم (الأوثان) وبعضها لله تعالى، كما حكى تعالى عنهم قائلاً: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٣٦].

٢ً - ومن افتراءاتهم أنهم جعلوا له من الأولاد الأقل والأضعف وهو البنات.

٣ً - ووبّخهم الله تعالى على افترائهم ذاكراً انه كيف يتّخذ البنات - كما زعموا أن الملائكة بنات الله - واختصّهم وأخلصهم بالبنين؟!

٤ً - لم يعقل المشركون ما افتروه على الله في نسبتهم البنات له، فإنهم لا يرضونه لأنفسهم، فإنه إذا بُشِّر الواحد منهم بولادة بنت له، اسودَّ وجهه غمّاً وكدراً، وأنف من نسبة البنت له، وأضحى حزيناً مكروباً، فكيف ينسب إلى الله ما هو نافر منه ؟!

ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله، فقد جعل الملائكة شِبْهاً لله؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه، ومن اسودّ وجهه مما ينسب إليه مما لا يرضى، أولى من أن يسودّ وجهه بنسبة ذلك إلى من هو أجلُّ منه، فكيف إلى الله عزّ وجلّ ؟!

٥ً - وكيف يصح أن يجعل الله له من لا همَّ له إلا الحلي والزِّينة، وإذا خوصم لا يقدر على الدِّفاع عن نفسه ؟

وفي هذه الآية دلالة - كما تقدّم - على إباحة الحلي للنّساء، وتحريمه على الرجال، وهو حكم مجمع عليه ثابت بأخبار كثيرة.

٦ً - أوضح الله تعالى كذب المشركين وجهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث، وهم بنات الله، وحكمهم من غير دليل بأنهم إناث، فكيف تجرؤوا حتى حكموا بأنهم إناث، ولم يحضروا حالة خلقهم ؟!

إن شهادتهم الباطلة هذه مكتوبة عليهم في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها في الآخرة.

٧ً - ومن شُبَه المشركين المفتراة احتجاجهم بالقدرالإلهي، فقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرّحمن على زعمكم أيها المؤمنون ما عبدنا هذه الملائكة، والله أمرنا بهذا أو رضي لنا ذلك، ولهذا لم يعاجلنا بالعقوبة. وهذه كلمة حقّ أُريد بها باطل، فإن كل شيء بإرادة الله، وعلمه نافذ لا محالة؛ لكن

الإرادة أو المشيئة لا تقتضي الأمر والرِّضا وليس الأمر والإرادة متطابقين، ولا نعلم مراد الله، فكان علينا العمل بأمره ونهيه، وليس لقولهم: الملائكة بنات الله أي دليل علمي، وما هم إلا يَخْرِصون ويكذبون، فلا عذر لهم في عبادة غير الله عزّ وجلّ. وقوله: ﴿هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد حصر العبودية في الملائكة وذلك يدلّ على الفضل والشَّرف، مما يوجب كونهم أفضل من غيرهم.

٨ً - كذلك ليس لهم دليل نقلي على زعمهم، ولا كتاب لديهم بما ادَّعوه قبل هذا القرآن.

٩ً - لا دليل للمشركين على شركهم إلا التّقليد الأعمى لآبائهم وأسلافهم، وهم لما عجزوا عن الدَّليل لم يجدوا بدّاً من الاعتماد على تقليد الآباء، قائلين بأنهم وجدوهم على تلك الملّة او الطَّريقة والمذهب، فقلَّدوهم واهتدوا بهديهم.

وهذا دليل على إبطال التّقليد في العقائد والأصول؛ لأن الله ذمّهم على تقليد آبائهم، وتركهم النّظر فيما دعاهم إليه الرّسول ﷺ.

١٠ً - إن مقالتهم تلك تشبه مقالة من سبقهم من الأمم المكذبة لرسلها، فإن أهل التّرف والرؤساء فيهم اقتدوا بالآباء والأجداد دون دليل.

١١ً - إنهم مصرّون على الشرك والتّقليد الأعمى، حتى ولو جاءهم رسول الله من عند الله بأهدى وأرشد من ذلك الدِّين الباطل.

١٢ً - إن المنتَظر أمام هذا الإصرار على الكفر ما ذكره تعالى وهو الانتقام الشديد من الكافرين، وتدميرهم وإهلاكهم، وآثارهم ظاهرة للعيان، عبرة للمعتبر، فيا أهل مكة وأمثالكم انظروا في مصيركم المرتقب.

الرّد على تقليد الآباء، واختيار الأنبياء، وبيان حال الدنيا

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ :

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي. ووقف الباقون بالتاء.

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ : قرئ:

١ - (لبُيُوتهم) وهي قراءة أبي عمرو، وورش، وحفص.

٢- (لِبيُوتِهم) وهي قراءة الباقين.

﴿سُقُفًا﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (سَقْفاً).

﴿لَمَّا مَتَٰعُ﴾ : قرئ:

١- (لمَّا متاع) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (لَمَا متاع) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من إحدى القريتين، فحذف المضاف، وأراد بـ ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ : مكة والطائف.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ : بدل من ﴿لِمَن﴾ بإعادة الجار، بدل الاشتمال، وقرئ «سقفاً» و «سُقْفاً» فسُقْف: جمع سَقْف، نحو رَهْن ورُهْن. وسقف: واحد ناب مناب الجمع.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ إما منصوب بفعل مقدر، أي وجعلنا لهم زخرفاً، أو معطوف على موضع قوله تعالى: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ﴾ ﴿وَإِن﴾ : مخففة من الثقيلة، واسمها: إما ﴿كُلُّ﴾ إلا أنه لما خففت نقصت عن شبه الفعل، فلم تعمل وارتفع ما بعدها بالابتداء على الأصل، وإما بتقدير الهاء أي إنه كل ذلك، فحذف اسمها وهو الهاء وخففت، فارتفع ﴿كُلُّ﴾ بالابتداء، وجملة ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ﴾. من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر (إن). وهذا التقدير ضعيف لتأخير اللام في الخبر. و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا، ويصح أن تكون (إن) نافية بمعنى (ما). ويقرأ «لَمَا» بالتخفيف، فتكون ما: زائدة أو موصولة وصدر الصلة محذوف.

البلاغة:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ ﴿كَلِمَةً﴾: مجاز مرسل، والمراد بالكلمة: الجملة التي قالها، وهي: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر يا محمد وقت قول إبراهيم هذا. ليروا كيف تبرّأ من التقليد، وتمسّك بالدّليل .﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر .﴿بَرَآءٌ﴾ بريء من عبادتكم أو معبوديكم، وهو مصدر نعت به، فيستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث، وقرئ «بريء» و «برآء» ككريم وكرماء .﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلقني، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذي فطرني، أو متّصل على أن «ما» تعمّ ما كانوا يعبدون وهو الله والأوثان، كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني .﴿سَيَهْدِينِ﴾ يرشدني إليه، وهو مقرر لما قال مرة أخرى: ﴿يَهْدِينِ﴾ كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهو قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحّد الله ويدعو إلى توحيده .﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحّد، فيرجع عما كان عليه إلى دين إبراهيم أبي الأنبياء والمسلمين، وهو يشمل أهل مكة وغيرهم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي هؤلاء المعاصرين للرسول من قريش وآباءهم، فاغتروا بذلك وانهمكوا في الشهوات، ولم أعاجلهم بالعقوبة. وقرئ «متعتَ» بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ مبالغة في تعييرهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن ودعوة التوحيد .﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾

ظاهر الرسالة بما له من المعجزات، أو مبين للتوحيد بالحجج والآيات المتضمنة الأحكام الشرعية، وهو محمد ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن . ﴿لَوْلَا﴾ هلا . ﴿مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتين: مكة والطائف. والرجلان هما: الوليد بن المغيرة من مكة، وكان يسمى ريحانة قريش، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف . ﴿عَظِيمٍ﴾ زعيم ذي جاه ومال، فإن الرِّسالة منصب خطير لا يليق إلا بعظيم، ولم يعلموا أن معيار اختيار الأنبياء هو التّحلي بالفضائل والكمالات الأدبية، لا بالاعتبارات الدنيوية.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكّمهم، والرّحمة: النّبوة . ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جعلنا معيشتهم مقسومة فيما بينهم، فبعضهم غني، وبعضهم فقير، ويتفاوتون في مرتبتي الغنى والفقر . ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ جعلنا بينهم تفاوتاً في الرّزق وغيره . ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ وهو الغني . ﴿بَعْضًا﴾ وهو الفقير . ﴿سُخْرِيًّا﴾ مسخراً في العمل بالأجرة، أي يستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم، والياء: للنسب، وقرئ بكسر السين «سِخرياً» . ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النّبوة ومايتبعها، أو الجنّة . ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي خشية أن يكون جميع الناس على ملّة واحدة وهي الكفر . ﴿سُقُفًا﴾ جمع سقف، وقرئ: «سَقْفاً» . ﴿وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعد جمع مِعْرَج كَمِنْبَر، وقرئ: «معاريج» جمع معراج . ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون ويعلون إلى السطوح . ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ من فضة . ﴿وَسُرُرًا﴾ من فضة، جمع سرير . ﴿يَتَّكِئُونَ﴾ يستندون . ﴿وَزُخْرُفًا﴾ ذهباً أو زينة مزوقة، والمراد به الزينة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ١٠/٢٤] ، ومعنى الآية: لولا خوف الكفر على المؤمنين من إعطاء الكافر ما ذكر، لأعطيناه ذلك لاحتقار الدنيا عندنا.

﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا[1] و(إنْ) نافية، وعلى قراءة التخفيف «لَمَا» تكون ما زائدة. ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يتمتع به فيها ثم يزول. ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي نعيم الآخرة وهو الجنة عند الله - عندية مكانة وتشريف لا عندية مكان - لمن اتّقى الكفر والمعاصي.

سبب النّزول:

نزول الآيتين (٣١ - ٣٢).

تقدّم في سورة يونس في الآية (٢) سبب نزول الآية ﴿لَوْلَا نُزِّلَ﴾ وفيه: أخرج ابن جرير عن ابن عباس «أن العرب قالوا: وإذا كان النّبي بشراً فغير محمد كان أحق بالرّسالة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ يكون أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، عروة ابن مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾».

وروى ابن المنذر عن قتادة «أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ريحانة قريش - كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل عليّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النّبوة. فيضعونها حيث شاؤوا».

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى فساد اعتماد المشركين على التّقليد في العقائد والأصول، بيَّن فساده بأسلوب المشركين أنفسهم، وهو أن إبراهيم الخليل عليه السلام أبو العرب وأشرف آبائهم تبرأ من دين آبائه بالدّليل، وحكم بأن

(١) حكى سيبويه: نشدتك الله لَمَّا فعلت كذا، أي إلا فعلت كذا.

اتِّباع الدَّليل أولى من متابعة الآباء، فوجب تقليده في ترك تقليد الآباء وفي ترجيح الدَّليل على التّقليد.

ثم أبان الله تعالى مفاسد اعتماد قريش على التّقليد وترك التّفكر في الحجة والدّليل، وهي: أولاً - اغترارهم بالمهلة والمدّ في العمر والنّعمة، واشتغالهم بالتّنعم واتِّباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد، وثانياً - تكذيبهم رسول الله ﷺ ووصفهم له بأنه ساحر كذاب، وثالثاً - قولهم بأن الرّجل الشريف وهو كثير المال ورفيع الجاه هو الأحقّ بالنّبوة من محمد الفقير اليتيم.

فردّ تعالى عليهم بأنه هو الذي قسم الأرزاق والحظوظ بين عباده، وأن التّفاوت في شؤون الدنيا هو الأصلح لنظام المجتمع، وأن ميزان الاصطفاء للنّبوة إنما يعتمد على القيم الأدبية والروحية والأخلاقية، وألا قيمة للدنيا وأمتعتها وزخارفها وثرواتها، ولو لا خوف انتشار الكفر وشموله بين العالم، لجعل الله للكفار ثروات طائلة، وبيوتاً ذات سقف وأبواب وسرر ومصاعد من فضة، وزينة في كل شيء، وإنما نعيم الآخرة للمتّقين الذين يتّقون الكفر والمعاصي.

التفسير والبيان:

يخبرالله تعالى عن إبراهيم الخليل إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وأشرف آباء العرب عليه السلام بأنه تبرأ من دين الآباء بالحجة والدليل، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي واذكر أيها الرّسول لقومك قريش المعتمدين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام: حين تبرأ إبراهيم عليه السلام مما يعبد أبوه آزر، وقومه من الأصنام، إلا من عبادة خالقه وخالق الناس جميعاً، والذي قال بأنه سيرشدني لدينه، كما أرشدني في الماضي، ويثبتني على الحق. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إما استثناء متّصل؛ لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم،

وإما منقطع؛ أي لكن الذي فطرني فهو يهديني، قال ذلك ثقة بالله، وتنبيهاً لقومه أن الهداية من ربّه.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم، فلا يزال فيهم- ولله الحمد- من يوحّد الله سبحانه، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم كأهل مكة، فإنهم إذا ذكروه، تبعوه في ملّته الحنيفية، وتأثّروا بأبوته إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة: «لا يزال من عَقِبه من يعبد الله إلى يوم القيامة».

ثمّ ندّد الله تعالى بموقف أهل مكة ووبّخهم على اغترارهم بالنّعمة وطول العمر واستمرار السّلطة والنّفوذ، فقال:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي بل متّعت هؤلاء المشركين من أهل مكة وآباءهم من ذريّة إبراهيم بطول العمر والسّعة في الرّزق، وأنعمت عليهم في كفرهم، فاغتروا بالمهلة، وأكبّوا على الشّهوات وطاعة الشّيطان، وشغلوا بالتّنعم عن كلمة التّوحيد، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم، والرّسول المبين الذي أوضح مبدأ التّوحيد بالبراهين الساطعة، وشرع الله وأحكامه القاطعة، وهو محمد ﷺ.

وزاد في توبيخهم بإعراضهم عن رسالة الحقّ- رسالة محمد ﷺ- فقال:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي حينما جاءهم القرآن والرّسول المؤيَّد بالمعجزات دليلاً على صدقه، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل، وليس بوحي من عند الله، وقالوا: إنا بما أرسل به جاحدون مكابرةً وعناداً وحسداً وبغياً، فضّموا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه، والاستهزاء به، والتّصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من الكفر وهو النّوع الرّابع من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة[١] فقال:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي وقال كفار قريش وأمثالهم: هلا أنزل القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي، فكل منهما عظيم المال والجاه، وسيِّد في قومه. المعنى: أنه لو كان قرآناً لنزل على رجل عظيم من عظماء القرَيتين. وهذا اعتراض منهم على الله الذي أنزل القرآن على رسوله.

فأبطل الله تعالى هذه الشّبهة من ثلاثة وجوه:

الأول- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٢]؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ أي إن هؤلاء المشركين تجاوزوا حدودهم وأقدارهم، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم، وليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلىَ الله عزّ وجلّ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم وأطهرهم أصلاً. أيجوز لهم أن يقسموارحمة ربِّك وهي النّبوة، فيختاروا لها من يريدون؟ نحن الذين نقسم الأرزاق والحظوظ بين العباد، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة والضعف، والعلم والجهل، والشهرة والخمول، والغنى والفقر؛ لأنا لو سوّينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم، ولم يتمكنوا من استخدام بعضهم بعضاً، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض، وإلا فسد نظام العالم.وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار أو الاستعمال على عمل شيء من الذّلّ والمهانة؛ لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام،

(١) الثلاثة المتقدمة: هي جعلهم الملائكة بنات الله، وجعل الملائكة إناثاً، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾.

(٢) الاستفهام هنا للإنكار والتّعجب.

وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة توجب عليه الترّفع عن الغبن والظلم والأذى والإساءة، فإن عجزوا عن تغيير نظام الدنيا، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص النبوة والرّسالة في بعض العباد؟! والمعنى: إنكار أن الرّزق منهم، فكيف تكون النّبوة منهم؟!

الوجه الثاني- ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي إن ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خير مما يجمعون من الأموال وسائر متاع الدنيا، وإذا خصّ الله بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدِّين، فهذه الرّحمة خير من أموال الدنيا كلها؛ لأن عَرَض الدنيا زائل، ورحمة الله وفضله باقٍ دائم.

ثم أبان الله تعالى حقارة الدنيا، فقال:

الوجه الثالث - ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ أي ولولا الخوف وكراهة أن يكون الناس كلهم على ملّة الكفر، ميلاً إلى الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، لأعطينا الكفار ثروات طائلة، وجعلنا سقُف بيوتهم، وسلالمهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها، وأبواب البيوت والسّرر التي يتكئون عليها من فضة خالصة، وذهب وزينة ونقوش فائقة، لهوان الدنيا عند الله تعالى.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كل ذلك إلا شيئاً يتمتع به تمتعاً قليلاً في الدنيا؛ لأنها زائلة قصيرة الأجل، والآخرة بما فيها من أنواع النّعيم والجنان هي لمن اتّقى الشّرك والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته؛ فإنها الباقية التي لا تفنى، ونعيمها الدائم الذي لايزول، وهي لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم.

أخرج التّرمذي وابن ماجه والبغوي والطّبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا تَزِن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شَرْبة ماء» ، وفي رواية: «لوكانت الدنيا..» ،وفي رواية الطبراني «أنه لما آلى النّبي ﷺ من نسائه، جاءه عمربن الخطاب رضي الله عنه، فرآه على رمال حصير، قد أثّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر، هما فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس وقال: أو في شكٍّ أنت يابن الخطاب؟ ثم قال ﷺ: أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية: « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة »[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - لقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من عبادة الأصنام، وخرج على المألوف الفاسد بالحجة والدليل.

٢ً- إن ترك التّقليد في العقيدة والرّجوع إلى متابعة الدّليل واجب متعيِّن على كلّ إنسان في أمر الدِّين، وكذلك ترك التّقليد،واتِّباع الدَّليل هو الأولى في شؤون الدنيا أيضاً، ليكون المرء على بيِّنة من أمره، إلا فيما تتطلبه ظروف القيادة الحربية ونحوها للحفاظ على الأسرار، فيجب تنفيذ أمر القائد وطاعته، وإن لم يعرف الدّليل.

٣ً - جعل إبراهيم عليه السلام كلمة التّوحيد ومقالته السابقة: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ باقية في عقبه، وهم ذريته، ولده وولد ولده، أي إنهم توارثوا البراءة من عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضاً في ذلك. والعقب: من يأتي بعده.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٢٧/٤

٤ً- قال ابن العربي: كان لإبراهيم في الأعقاب دعوتان مجابتان:

إحداهما - في قوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤] ، فقد قال له: نعم، إلا من ظلم منهم فلا عهد له.

ثانيهما- قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥] .

وقيل: بدل الأولى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤] ، فكلّ أمّة تعظّمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو في نوح[١]

٥ً - وقال ابن العربي أيضاً: جرى ذكر العَقِب ههنا موصولاً في المعنى بالْحِقَب، أي متّصلاً مستمراً على ممرّ السنين، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العُمْرَى[٢]أو التّحبيس، قال النّبي ﷺ فيما أخرجه أبو داود والنسائي عن جابر: «أيّما رجل أعمرعمرى له ولِعَقِبه، فإنها للذي أُعطيَها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث»[٣]أي إن الهبات والأوقاف تشمل الدرجة الأولى من الأولاد ذكوراً وإناثاً، وولد الذّكور دون الإناث لغةً وشرعاً في الدرجة الثانية وما يليها، وهذا مذهب المالكية. وقال جماعة كابن عبد البّر وغيره: إن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس (الأوقاف الذُّرية أو الأهلية).

٦ً - عجباً لقريش وأمثالها متّعهم الله وآباءهم بوافر النّعم في الدنيا، ولما جاء الحقّ وهو القرآن المشتمل على التوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم، وكلمته الباقية في عقبه، وجاءهم الرّسول محمد ﷺ، كفروا به وقالوا: إنه سحر لا وحي.

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٦٦

(٢) العمرى: تمليك الشيء مدة العمر.

(٣) أحكام القرآن: المرجع والمكان السابق.

٧ً - وقالوا أيضاً: هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين: مكة والطائف، إما الوليد بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل من مكة، وإما أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، ظانين أن النبوة لصاحب المنصب العالي والرجل الشريف وهو كثير المال، رفيع الجاه.

وفاتهم أن معيار الاصطفاء للنّبوة إنما هو القيم الرّوحية والأدبية والنّفسية. وفاتهم أيضاً أنهم يتدخلون في ولاية الله وسلطانه ومشيئته، فيضعون النّبوة حيث شاؤوا، وهذا افتئات على سلطان الله، فإن مرسل الرّسل هو الذي يختارهم، وفاتهم كذلك أن رحمة الله وفضله ونعمته في الآخرة وهي الجنة، ونعمته في الدنيا وهي النبوة أفضل مما يجمعون من الدنيا.

٨ً - إن الله سبحانه هو لا غيره الذي يقسم الأرزاق والحظوظ بين عباده، بمقتضى حكمته ومشيئته، فيفقر قوماً ويغني آخرين، فإذا لم يكن أمر الدنيا لأحد من العباد، فكيف يفوِّض أمر النّبوة إليهم؟!

٩ً - وإن الله تعالى هو الذي يفاضل بين عباده ويفاوت بينهم في مقومات الحياة وقيمها من القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلاهة، والشهرة والخمول، لأن تحقيق المساواة في هذه الأمور يؤدي إلى الإخلال بنظام العالم، ويفسد المصالح، ويعطِّل المكاسب، فيعجز الواحد من تسخير غيره لخدمة أو عمل، مقابل أجر عادل.

١٠ً - ليس التّفوق المادي في الدنيا دليلاً على صلاح أصحابه؛ إذ لا قيمة للدنيا وثرواتها في ميزان الله، ولولا كراهة أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطاهم الله ما وصف من زخارف الدنيا؛ لهوانها عند الله عزّ وجلّ.

والخلاصة: ردّ الله تعالى على اقتراح العرب كون الرّسالة لأحد رجلين

بوجوه ثلاثة: أولها - قوله على سبيل الإنكار: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي النّبوة فيضعونها حيث شاؤوا، وثانيها- قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأن الدنيا فانية، ودين الله باقٍ لايزول. وثالثها- قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كما تقدّم تفسيرها[١].

١١ - استدلّ ابن العربي بقوله تعالى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ على أن السَّقف لصاحب السّفل، ولا حقّ فيه لصاحب العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السُّقوف للبيوت، كما جعل الأبواب لها، وهذا مذهب مالك رحمه الله تعالى.

أما السُّفْل فاختلفوا فيه، فمنهم من قال: هو له، ومنهم من قال: ليس له في باطن الأرض شيء، والرّاجح ما بيَّنه حديث الإسرائيلي الصحيح: أنّ رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جَرَّة من ذهب، فجاء بها إلى البائع، فقال: إنما اشتريتُ الدّار دون الْجَرَّة، وقال البائع: إنما بعتُ الدّار بما فيها، وكلاهما تدافعها،فقضى النَّبي ﷺ أن يزوِّج أحدهما ولده من بنت الآخر، ويكون المال بينهما.

قال ابن العربي وتبعه القرطبي: والصّحيح أن العُلْو والسُّفْل له، إلا أن يخرج عنهما بالبيع، فإذا باع أحدهما أحد الموضعين، فله منه ما ينتفع به، وباقيه للمبتاع منه[٢]

ثم استطرد القرطبي في بيان بعض أحكام العُلْو والسُّفْل، نجتزئ منها ما يلي[٣]

أ - ليس لصاحب السّفل أن يهدم إلا لضرورة، ويكون هدمه أرفق لصاحب العلو، لئلا ينهدم بانهدامه العلو.

---

(١) غرائب القرآن للنّيسابوري: ٢٥/ ٤٩

(٢) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٧٠، تفسير القرطبي: ١٦/ ٨٥-٨٦

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/ ٨٦

ب - وليس لربِّ العلو أن يبني على علوه شيئاً لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لايضرّ بصاحب السّفل.

جـ - ولو انكسرت خشبة من سقف العلو أدخل مكانها خشبة ليست أثقل منها، منعاً من ضرر صاحب السّفل.

د - وباب الدار على صاحب السّفل.

هـ - ولو انهدم السّفل أجبر صاحبه على بنائه، وليس على صاحب العلو أن يبني السّفل، فإن أبى صاحب السّفل من البناء قيل له: بِعْ ممن يبني.

وَ - إن إصلاح السّفل على صاحبه.

ز - ليس لصاحب السّفل أن يحدث ما يضرّ بصاحب العلو، فإن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه دون صاحب السّفل، ولصاحب العلو منعه من الضّرر، لحديث السفينة الذي أخرجه البخاري والترمذي وغيرهما عن النعمان بن بشير: «مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثَل قوم اسْتَهَمُوا - اقترعوا - على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء، مرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» . والعبارة الأخيرة تدلّ على جواز منع الضّرر، وفي الحديث دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها.

١٢ً- إن التَّمتع بالدنيا قليل وعمرها قصير، والآخرة أي الجنة لمن اتّقى وخاف. أخرج التِّرمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر» . وقد تقدّم حديث الترمذي عن سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» .

حال المعرض عن ذكر الله، وتثبيت النبي ﷺ على دعوته

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ : قرئ:

١- (ويحسَبون) وهي قراءة: ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (ويحسِبون) وهي قراءة الباقين.

﴿جَآءَنَا﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (جاءانا).

﴿فَبِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فبيس).

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿وَسْـَٔلْ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي (وسل).

﴿رُّسُلِنَآ﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

الإعراب:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ﴾ ﴿وَمَن﴾: شرطية، وما بعدها فعل الشرط وجوابه.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ جمع الضميرين مراعاة لمعنى (مَن) إذ المراد جنس العاشي والشيطان المقيض له. وأما ضمير ﴿لَهُۥ﴾ فروعي فيه لفظ ﴿وَمَن﴾ وهكذا أعاد الضمير أولاً على اللفظ، ثم على المعنى. وضمير ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائد على جنس الشيطان وبما أن لكل عاشٍ شيطاناً قريناً، فجاز أن يعود الضمير مجموعاً. وقال ابن عطيه: ضمير ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائد على الشيطان، وضمير ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائد على الكفار، قال أبو حيان: والأولى ما ذكر أولاً لتناسق الضمائر في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ وفي ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ لمدلول واحد كأن الكلام: وإن العشاة ليصدونهم الشياطين عن سبيل الهدى والفوز .﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ﴾ ﴿إذ﴾ بدل من اليوم.

﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في طلب النون المؤكدة.

البلاغة:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الكفار بالصم والعمي. والهمزة: إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد استغراقهم في الضلال.

﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ جناس الاشتقاق، لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.

المفردات اللغوية:

﴿يَعْشُ﴾ يتغافل ويتعام ويعرض، لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات، وقرئ «يعشَ» بالفتح، وقرئ «يعشو» على أن ﴿وَمَن﴾ موصولة يقال: عَشي يعشى كرضي يرضى وعرج يعرج: إذا كان في بصره آفة ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ القرآن. ﴿نُقَيِّضْ﴾ نهيئ ونسبب ونضم إليه شيطاناً. ﴿قَرِينٌ﴾ رفيق ملازم لايفارقه، يوسوسه ويغويه دائماً.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين. ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي العاشين. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريق الهدى. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار. ﴿جَآءَنَا﴾ العاشي، بقرينه يوم القيامة. ﴿يَٰلَيْتَ﴾ (يا) للتنبيه ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، مغلِّباً المشرق على المغرب. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، و﴿ٱلْقَرِينُ﴾ الصاحب والصديق.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي العاشين تمنيكم وندمكم في القيامة. ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾ أي تبين لكم ظلمكم بالإشراك. ﴿أَنَّكُمْ﴾ أي لأنكم مع قرنائكم، بتقدير لام العلة، وقرئ «إنكم» بالكسر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تشتركون مع شياطينكم في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه.

﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وهو الذي في أذنه صمم .﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ بيِّن، فهم لا يؤمنون، وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عطف على العمي، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك وأمتناك قبل تعذيبهم .﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك في الدنيا أو الآخرة .﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي نبصرنك ما وعدناهم به من العذاب .﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون على عذابهم.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أي تمسك بالقرآن وقرئ «أوحى» أي الله تعالى .﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق .﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ لاعوج له .﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم به تذكر ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لنزوله بلغتهم .﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة عن القيام بحقه، بأداء التكاليف فيه من أمر ونهي .﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل سلالتهم وعلماء دينهم .﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ غيره. ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت ملة من الملل به؟ والمراد الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والدلالة على أن الأمر به قديم غير جديد.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٦):

﴿وَمَن يَعْشُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشاً قالت: قيِّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيَّضُوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللَّات والعُزَّى، قال أبو بكر: وما اللاَّت؟ قال: ربنا، قال: وما العُزَّى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال

طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الآية.

سبب نزول الآية (٤١):

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾: كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه، وهم لايزيدون إلا غياً، فنزلت الآية: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن المال متاع الدنيا، وهو زائل، نبَّه إلى آفات المال؛ لأن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله، وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون الناس عن طريق الهداية في الدنيا، أما في الآخرة فيتبرأ الكافر من قرينه الشيطان. وهما في العذاب مشتركان، والاشتراك في العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا.

وبعد أن وصف الله تعالى المعرضين عن ذكره بالعشا، وصفهم أيضاً بالصمم والعمى، بسبب كونهم في ضلال مبين، ولما بيَّن تعالى أن دعوة الرسول ﷺ لا تؤثر في قلوب هؤلاء، تسلية للرسول ﷺ، بيَّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم، إما حال حياته أو بعد وفاته، ثم أمره ربه أن يتمسك بما أمره به، فإنه على صراط مستقيم نافع، هو منهج القرآن الذي فيه شرف عظيم له ولقومه، وسوف يسألون عن القيام بحقه.

ثم أبان تعالى أن إنكار عبادة الأصنام في رسالة محمد ﷺ ليس خاصاً به، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مجمعين على إنكاره.

التفسير والبيان:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي ومن

يتعامَ ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به، نهيئ له شيطاناً يوسوس له ويغويه، فهو له ملازم لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يزين له به. والعشا في العين: ضعف البصر، والمراد هنا عشا البصيرة.

والمراد بالآية: إن من يعرف كون القرآن حقاً ولكنه يتجاهل ذلك فهو في ضلال، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا وأهلها، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر، ثم يصير بالتدريج كالعشا، ثم كالعمى.

والآية مثل قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٥] . وجاء في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قريناً من الجن، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي وإن الشياطين الذين يقيِّضهم الله لكل من يعشو عن ذكر الرحمن، ليمنعونهم بالوسواس عن سبيل الحق والرشاد، ويحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم مهتدون إلى الحق والصواب.

ثم يتبرأ الكافر في الآخرة من قرينه الشيطان، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ أي حتى إذا وافانا الكافر يوم القيامة، يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ويتبرأ منه، ويتمنى الكافر أن بينه وبين الشيطان المقارن له من البعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب الملازم للإنسان شيطانه.

وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاآنا» أي القرين والمقارَن.

ويقال لهم يوم القيامة توبيخاً كما حكى تعالى:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي ويقال لهم في الآخرة توبيخاً وتأنيباً وتيئيساً: لن ينفعكم في هذا إذ تبين أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا اشتراككم في العذاب، فلا يخفف عن كل منكما شيء منه، بخلاف حال الدنيا، فإن المصيبة فيها إذا عمت هانت. وهذا يدل على أن خصول الشركة في العذاب لا يفيد التخفيف، كما كان يفيده في الدنيا؛ لأن اشتغال كل واحد بنفسه في شدة العذاب، يذهله عن حال الآخر، فلا تفيد الشركة الخفة، ولا يتمكن كل واحد من مواساة الآخر في كربه وحزنه وألمه، فلكل قدر مشترك من العذاب.

ثم بيَّن الله تعالى لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم تسلية له، فقال:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي أتستطيع يا محمد إسماع أهل الصم أو هداية أهل العمى أو إرشاد من كان مستغرقاً في ضلال واضح بيِّن. وهذا بعد أن وصفهم تعالى بالعشا، ووصفهم بأوصاف ثلاثة هي: الصمم والعمى والضلال البيِّن، فهؤلاء الكفار ضعاف البصيرة، بمنزلة الصم الذين لايسمعون ما جئت به أيها الرسول، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه، وهم مفرطون في الضلالة والكفر والجهالة.

وكان التناسب بينهم وبين الرسول ﷺ عكسياً، فهو ﷺ يبالغ في دعوتهم إلى الإيمان الحق، وهم لا يزدادون إلا غياً وتعامياً عن بيِّنات القرآن ودلائل النبوة، إمعاناً في الكفر، وعناداً في الباطل.

ثم أعلم الله رسوله بانتقامه منهم، فقال:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي إنهم لا يفلتون من العقاب في العاجل أو الآجل، فإن قبضنا روحك وأمتناك أيها الرسول قبل نزول العذاب بهم، فنحن منتقمون منهم إما في الدنيا أو في الآخرة، وإن أبصرناك الذي وعدناهم به من

العذاب قبل موتك، فنحن قادرون أيضاً عليه، ومتى شئنا عذبناهم. وقد أقر الله عينه في حال حياته، فقهرهم يوم بدر، وأصبح المتحكم فيهم، المالك لحصونهم وقلاعهم.

والتعبير بالوعد دليل على وقوعه حتماً؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

وبعد هذا الوعد بالنصر، أمره الله بشدة التمسك بالقرآن وهديه، فقال:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣)﴾ أي تمسّك أيها الرسول بالقرآن الموحى به إليك من ربك، فإنك على طريق قويم ومنهج سليم، مؤد إلى السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وإن كذّب به من كَذّب، فذاك لا يضيرك.

ثم أبان تعالى منزلة القرآن، فقال:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ أي وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقريش والعرب عامة، إذ نزل بلغتهم، وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف عملتم به واستجبتم له وما يلزمهم من القيام بحقه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠] أي شرفكم، أخرج البخاري والترمذي عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر: «الناس تبَع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».

وهذا التنويه بمنزلة العرب يجعلهم أولى الناس باتباع القرآن والعمل بأحكامه وشرائعه، وإن كانت الرسالة الإسلامية عامة للناس قاطبة.

ثم نبّه الله تعالى إلى أن الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك قديمة، فقال: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي واسأل سلالات الأمم التي أرسلنا فيها الأنبياء وعلماءهم: هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟ والمعنى: جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لاشريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/٣٦] .

والمراد بهذا التنبيه على إجماع المرسلين على التوحيد، وعلى أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به، وهذا يدل على وحدة الدين الحق في أصوله، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم السلام.

وسبب هذا الأمر أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ: إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير والتأكيد، لا لأنه كان في شك منه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يلي:

أ -إن الإضلال من الله تعالى لا يكون إلا بعد إعراض الناس عن أوامر الله، فمن يتعامَ ويتغافل عن آيات القرآن وشرائعة وأحكامه، ويعرض عنها إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم، نهيئ له شيطاناً يغويه، جزاء على كفره، فهو له قرين وصاحب ملازم في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية، وقرين له في الآخرة في العذاب المشترك بينهما. قال أبو سعيد الخدري: «إذا بُعث الكافر زوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار» .

٢ً - إن مهمة الشياطين خطيرة تستوجب الحذر من وساوسهم وإغواءاتهم، فهم يصدون الناس عن سبيل الهدى، حتى يخيل للكفار ويجعلهم يظنون أنهم مهتدون. وقيل: ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون، فيطيعونهم.

٣ً - تتجلى الحقيقة المُرَّة في الآخرة، حين يتبرأ الكافر من الشيطان، ويتمنى البعد عنه كالبعد بين المشرق والمغرب، ويقول له: فبئس القرين أنت؛ لأنه يورده النار. قال الفراء: أراد المشرق والمغرب، فغَلَّب اسم أحدهما، كما يقال: القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبي بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة (الظهر) والعصر.

٤ً - يقول الله للكافر يوم القيامة توبيخاً: لن ينفعكم اليوم إذا أشركتم في الدنيا هذا الكلام؛ وهو قول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي لا تنفع الندامة، فإنكم في العذاب مشتركون. أو لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه، ولا ينفع أهل النار التأسي كما يتأسّى أهل المصائب في الدنيا، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة؛ فيسكّن ذلك من حزنه، فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسي شيئاً لشغلهم بالعذاب.

٥ً - سلّى الله نبيه عن حزنه وأسفه لإعراض قومه عن قبول رسالته، وقال له: ليس لك من الأمر شيء، فلا تستطيع هداية العُشي الصمّ العُمْي الضالين، فلا يضِق صدرك إن كفروا.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ : فيه رد على القدرية وغيرهم، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خَلْق الله تعالى، يضلّ من يشاء، ويهدي من يشاء.

٦ً - إن تعذيب المشركين آتٍ عاجلاً أم آجلاً، سواء في حال حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، فالله قادر على كل شيء.

٧ً - رفع الله تعالى من معنويات نبيه إلى القمّة بأمرين:

الأول - إعلامه بأنه على صراط مستقيم يوصله إلى الله ورضاه وثوابه.

الثاني - إعلاء مجده وشرفه بالقرآن الذي هو شرف له ولقومه من قريش والعرب قاطبة؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، وسوف تسألون عن الشكر عليه، وعن العمل بتكاليفه. قال المحققون: في الآية دلالة على أن الذكر الجميل أمر مرغوب فيه لعموم أثره وشموله كل مكان وكل زمان.

وقال القرطبي: والصحيح أنه شرف لمن عَمِل به، كان من قريش أو من غيرهم.

أخرج الطبري عن ابن عباس قال: أقبل نبي الله ﷺ من سَريّة أو غَزاة، فدعا فاطمة، فقال: «يا فاطمة اشتري نفسك من الله، فإني لا أُغني عنك من الله شيئاً» وقال مثل ذلك لنِسْوته، ولِعتْرته، ثم قال ﷺ: «ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريش بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة كجِمَام[١] الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى» .

وأخرج الطبري أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم، أو يكونون شَرّاً عند الله من الجِعْلان التي تدفع النَّتْن بأنفها، كلكم بنو آدم، وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي»[٢]

(١) الجمام: ما علا رأس المكيال من الطفاف.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/ ٦٤

٨ - إن دين التوحيد قديم، ونبذ الشرك قديم، فإذا سئلت أمم الرسل عليهم السلام قبل الرسول ﷺ: هل أذن الله بعباده الأوثان، وهل أمر بعبادة غير الله؟ أجابوا عن السؤالين بالنفي. والسبب الأقوى في بغض الكفار وعداوتهم للنبي ﷺ إنكاره لأصنامهم، فبين تعالى أنه غير مخصوص بهذا الإنكار، ولكنه دين كل الأنبياء ودعوتهم.

العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا﴾:

وقرأ نافع، والبزي، وأبو عمرو (تحتيَ أفلا).

﴿أَسْوِرَةٌ﴾:

١- قرأ حفص (أَسْوِرَة).

٢- وقرأ الباقون (أساورة).

﴿سَلَفًا﴾ :

وقرأ حمزة والكسائي (سُلُفاً).

الإعراب:

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الواو: إما عاطفة على﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ و﴿تَجْرِى﴾ حال منها، أو واو الحال، و﴿وَهَٰذِهِ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفتها، و﴿تَجْرِى﴾ خبرها.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا: منقطعة؛ لأنه لو أراد أم المعادلة لقال: أم تبصرون، لكنه أضرب عن الأول بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ وكأنه قال: أنا خيرمنه، فلما كان فيه هذا المعنى، لم تكن ﴿أَمْ﴾ للمعادلة للهمزة.

البلاغة:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام للتقرير، لا للإنكار، أي أقروا بما تعلمون من أني ملك مصر.

المفردات اللغوية:

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآيات هي المعجزات .﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أشراف قومه ورعاياهم القبط، والمراد بإيراد القصة هنا الاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، وتسلية الرسول ومناقضة قول قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ حين جاءهم بآياتنا الدالة على رسالته، فاجؤوه بضحكهم منها واستهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من آيات العذاب كالطوفان والجراد. ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا وهي أعظم في الإعجاز بحيث يظن أنها أكبر من الآيات الأخرى، و﴿أُخْتِهَا﴾ قرينتها التي قبلها، والمراد وصف الكل بالكبر، كقولك: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض، أو إلا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي أخذ قهر بعذاب كالسنين (الجدب) والطوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا عن الكفر أو على نحو يرجى رجوعهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ لموسى لما رأوا العذاب. ﴿السَّاحِرُ﴾ العالم الماهر؛ لأن السحر عندهم علم عظيم. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده إليك أنا إن آمنا كشف العذاب عنا، أو بعهده عندك من النبوة. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون بشرط أن تدعو لنا، فيكشف عنا العذاب. ﴿يَنكُثُونَ﴾ ينقضون العهد الذي عاهدوا به موسى، ويصرون على الكفر.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ افتخاراً، إما بنفسه أو بواسطة مناديه، في مجمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَـٰرُ﴾ فروع النيل، وأهمها أربعة: نهر المِلك، ونهر طُولون، ونهر دمياط، ونهر تِنيس، والمشهور الآن فرع دمياط وفرع الرشيد المكونان لدلتا النيل فيما بينهما. ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ تحت قصري وفي جناتي. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة أي بل أنا مع هذا الملك والسعة أفضل من موسى، أو متصلة بمعنى: أم تبصرون فتعلمون أني خير منه. ﴿الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير ليس أهلاً للرياسة، مأخوذ من المهانة: وهي القلة. ﴿يُبِينُ﴾ يفصح عن مراده بكلامه، بسبب لُثْغته في لسانه بالجمرة التي تناولها في صغره.

﴿فَلَوْلَآ﴾ هلا .﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقاً .﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ جمع سوار كأخمرة وخمار، وقرئ «أساورة» جمع الجمع، أي جمع أسورة، وهذا تأثر منه بعادة الملوك، فإنهم كانوا إذا سوَّدوه وتوَّجوه ألبسوه أسورة ذهب وطوق ذهب .﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين به يعينونه على مخالفه، أو متتابعين يشهدون بصدقه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ استخف واستصغر عقولهم، فدعاهم إلى الضلال، فأجابوه .﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى .﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ هذا تعليل للطاعة .﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العصيان والعناد، والأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يطلق على أحدهما. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في اليم .﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، جمع سالف، كخدم وخادم، وقرئ «سُلُفاً» جمع سليف كرغف .﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.

المناسبة:

بعد بيان طعن قريش بنبوة محمد ﷺ لكونه فقيراً عديم المال والجاه، ذكر الله تعالى شبيهاً لذلك في قصة فرعون حيث قال: إني غني كثير المال والجاه. ولما أمر الله نبيه بسؤال أمم المرسلين، ذكر هنا قصة موسى، وبعده عيسى عليهما السلام، للاستدال بما جاءا به من التوحيد، وإبطال عبادة الأصنام. ثم ذكر شبهة لفرعون وهي أن الملك يلازم النبوة، فطلب من موسى بما جرت العادة لديهم أنهم إذا جعلوا منهم رئيساً لهم سوَّروه بسوار من ذهب، وطوَّقوه بطوق من ذهب، أو طلب أن تصاحبه الملائكة لدعم موقفه أمام المخالفين.

وأعقب هذا توضيحاً لأثر السلطة والحكم، فإن فرعون استخف عقول قومه، حينما دعاهم إلى تكذيب موسى، فأطاعوه لضلالهم، فانتقم الله منهم أشد الانتقام.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي لقد بعثنا موسى مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدقه وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعهم من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وقال لهم: إني مرسل إليكم من الله رب العالمين: الإنس والجن. ومعجزاته: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، والسنين: أي نقص الزروع والأنفس والثمرات، واليد، والعصا، فاستكبروا عن الإيمان بها وكذبوها وسخروا منها، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي فلما أتاهم بتلك الآيات والأدلة على صدقه، إذا فرعون وقومه يضحكون ويسخرون ممن جاءهم بها. وقوله: ﴿إِذَا هُم﴾ معناه أنهم فاجؤوا المجيء بها بالضحك عليها والسخرية منها.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وما نري فرعون وملأه من كل حجة دالة على صدق موسى في دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، والدلالة على صحة دعوته إلى التوحيد، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، لقوله: ﴿أُخْتِهَا﴾ أي مثيلتها وقرينتها في الدلالة على صدق نبوة موسى.

ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، فأخذناهم أخذ قهر بإنزال العذاب عليهم بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، لكي يرجعوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ويطيعوه فيما أمر ونهى.

وكانوا كلما جاءتهم آية يصفونها بالسحر وبأن موسى ساحر، كما قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩)﴾ أي وقالوا يا أيها الساحر العالم - وكانوا يسمون العلماء سحرة تعظيماً لهم- ادع لنا ربك لكشف العذاب عنا بما أخبرتنا به من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب، فإننا بعدئذ لمؤمنون بما جئت به.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)﴾ أي فدعا موسى ربه، فكشف عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب، نقضوا عهدهم، وعادوا إلى كفرهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)﴾ [الأعراف: ٧/١٣٣-١٣٥].

ثم أخبر الله تعالى عن تمرد فرعون وعُتوّه وكفره وعناده، فقال:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)﴾؟ أي لما خاف فرعون ميل القوم إلى موسى، فجمعهم ونادى بصوته فيهم مفتخراً، أو أمر مناديا ينادي بقوله: أليس لي ملك مصر العظيم، فلا ينازعني فيه أحد، والسلطة المطلقة لي، وأنهار النيل تجري من تحت قصري وبين يدي في جناتي، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وتستدلون به على أحقيتي بالسلطة وفرض النظام، وتنظروا إلى فقر موسى وضعفه هو وأتباعه عن مقاومتي؟.

ونحو الآية: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥)﴾ [النازعات: ٧٩/٢٣-٢٥].

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ أي بل أنا خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا، أي موسى الذي هو ضعيف حقير ممتهن في نفسه، لا عِزَّ له، ولا يكاد يبين الكلام، لما في لسانه من العقدة، وهذا حكم عليه بما يعلم عنه في الماضي، دون أن يدري أن الله الكريم أزال عقدته، فقال تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٢٧-٢٨و ٣٦] فقد كان أصاب لسانه في حال صغره شيء من اللكنة بسبب الجمرة التي تناولها، فسأل الله عز وجل أن يحل عقدة لسانه، ليفقهوا قوله، فاستجاب الله ذلك. والتعييب بالأشياء الخِلْقية التي ليست من فعل العبد خِسّةٌ ونقيصة في صاحبه الذي يعيب، فذلك لا يعاب به ولا يذم عليه. وفرعون، وإن كان يدرك هذا، لكنه أراد الترويج على رعيته الجهلة الأغبياء.

ثم استعلى فرعون على موسى بمظاهر الترف والملوك،ظناً منه أن الرئاسة تلازم النبوة، فقال تعالى:

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي فهلاّ حُلِّي بأساور الذهب إن كان عظيماً، أو هَلَّا أُلْقَى عليه ربه أساور الذهب إن كان صادقاً في نبوته، وهذا يشبه قول كفار قريش عن استحقاق عظيم القريتين النبوة.

أو جاء معه الملائكة متتابعين متقاربين إن كان صادقاً، يعينونه على مهمته، ويشهدون له بالنبوة، فأوهم قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبابرة أو محفوفين بالملائكة، ونظر إلى الشكل الظاهر، ولم يدرك الجوهر المعنوي لحقيقة الرسل.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي فاستهان بعقول قومه ورعيته، ودعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له، وأطاعوه فيما أمرهم به، وكذَّبوا موسى، إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي فلما أسخطونا وأغضبونا، انتقمنا منهم أشد الانتقام، فأغرقناهم جميعاً في البحر، وإنما أهلكوا بالغرق ليناسب ما تفاخروا وتباهوا به وهو قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي وابن أبي حاتم عن عُقْبَة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له، ثم تلا ﷺ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾».

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي فجعلنا فرعون وقومه قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق العذاب، وعبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الكافرين، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من القصة ما يأتي:

أ - إن هذه القصة تمثل صراع الجبابرة الطغاة أصحاب الثروة والمال مع أهل القيم الإنسانية والدينية الرشيدة ذوي الدخل المتوسط أو الفقراء، تشابهت حالة فرعون مع موسى، مع حالة النبي ﷺ مع كفار قريش أصحاب النفوذ والثراء.

اتفق الأنبياء كلهم على توحيد الإله، فكذب فرعون وقومه موسى عليه السلام، بالرغم من تدعيمه بالمعجزات وهي التسع آيات، فكانت عاقبتهم الإغراق بسبب التكذيب، ونجّى الله موسى وقومه بني إسرائيل، وجعلت العاقبة الحميدة له. وكذلك حصل الأمر مع النبي ﷺ كذّبه قومه فأهلكهم الله، ونصر رسوله والمؤمنين بدعوته.

٢ً - كانت حيثيات الحكم ومسوغاته على فرعون وقومه هي الضحك والسخرية والاستهزاء من معجزات موسى عليه السلام، كالسنين (نقص الأنفس والزروع) ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع، وكانت هذه الآيات عذاباً لهم وآيات لموسى. وكانت المعجزات قوية التأثير، فما من آية إلا وهي أعظم من أختها - سابقتها- ومع ذلك لم يؤمنوا بها، فأخذهم الله بالعذاب على تكذيبهم بتلك الآيات.

ووصفوا موسى بأنه ساحر لما عاينوا العذاب، وتعظيماً له على حسب عادتهم في احترام السحرة، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويحتمل أنهم أرادوا به الساحر على الحقيقة على الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا، وطلبوا منه كشف العذاب عنهم بما أخبرهم عن عهد الله إليه أنهم إن آمنوا كشف عنهم، فقالوا: إنا لمهتدون فيما يستقبل.

فلما دعا فكشف الله عنهم الكرب والغم، عادوا إلى كفرهم، ونقضوا العهد والميثاق الذي جعلوه على أنفسهم، فلم يؤمنوا.

٣ً- وبعد أن حكى الله معاملة فرعون مع موسى، حكى أيضاً معاملة فرعون مع ربه، فلما رأى آيات موسى خاف ميل القوم إليه؛ فجمع قومه، فقال، ونادى بمعنى قال، فرفع صوته بينهم: يا قوم، أليس لي ملك مصر، لاينازعني فيه أحد، وأنهار النيل تجري من تحت قصري، أفلا تبصرون عظمتي وقوتي وضعف موسى؟.

ثم صرح بحاله فقال: بل أنا خير من موسى المهين الحقير الضعيف، والذي لا يكاد يفصح كلامه بسبب العقدة التي كانت في لسانه بحسب علمهم السابق عنه، ومن لا بيان له ولا لسان كيف يكون نبياً؟! والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟!

ثم تعاظم فرعون وتغطرس واعتز بالثروة والملك والمال، فقال: هلا ألقي

عليه أساور من ذهب، جرياً على عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف، أو تأيد بجماعة من الملائكة يمشون معاً متتابعين مقترنين إن كان صادقاً يعاونونه على من خالفه؟ والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه، حتى يتعزَّز بهم ويستعملهم في أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب.

فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في المظاهر، ولم يعلم أن رسل الله إنما أُيِّدوا بالجنود السماوية، وكل إنسان عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرده من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء، كان أبلغ في التأييد من أن يكون له أسورة ذهب أو ملائكة أعوان وأدلة على صدقه.

٤ً - ثم حكى الله علاقة فرعون بقومه، فإنه استخف عقولهم واستجهلهم فأطاعوه لخفة أحلامهم وقلة عقولهم، إنهم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الله تعالى.

٥ً - لما تجاوز فرعون وقومه الحدود القصوى، وأسخطوا الله وأغضبوه، عاجلهم بالانتقام الشديد، وأغرقهم الله في اليم.

والفرق بين السخط والغضب: أن السخط إظهار الكراهة، والغضب إرادة الانتقام، ولما كان ذكر الأسف والانتقام في حق الله محالاً، أوَّل المفسرون ذلك فجعلوا الغضب في حق الله إرادة العقاب، والانتقام إرادة العقاب لجرم سابق.

٦ً - جعل الله قوم فرعون قدوة لمن عمل عملهم من الكفار، وعبرة وعظة لهم ولمن يأتي بعدهم من الكافرين.

والخلاصة: إن المقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين:

أحدهما- أن الكفار والجهال يحتجون دائماً على الأنبياء بشبهة الفقر والضعف، وهذا هو سر النبوة والقوة، فلا يلتفت لما يقولون.

الثاني - أن فرعون في أعز حالاته في الدنيا صار مقهوراً، فيكون الأمر في حق أعداء رسول الله هكذا إلى يوم القيامة[١].

العبرة من قصة عيسى عليه السلام

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿يَصِدُّونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي (يَصُدُّون).

﴿صِرَٰطٌ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿جِئْتُكُم﴾:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/٢١٧

وقرأ قنبل، وحمزة وقفاً (جيتكم).

الإعراب:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿مَرْيَمَ﴾: ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والعُجْمة، أو للتعريف والتأنيث.

﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا متصلة؛ لأنها معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى «أي» وتقديره: أيهما خير؟ كقولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أي أيهما عندك.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ من: إما بمعنى البدل، أي لو نشاء لجعلنا بدلاً منكم، أو زائدة، أي لجعلناكم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾: بدل من الساعة، والمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة؟

المفردات اللغوية:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ جعل مثلاً، أي حجة وبرهاناً، حين نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] فقال المشركون- على لسان ابن الزِّبَعرى أو غيره-: رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى؛ لأنه عُبد من دون الله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي إذا المشركون في قريش من المثل يضحكون ويصيحون ويضجون فرحاً بما سمعوا.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي قال المشركون: هل آلهتنا الأصنام خير عندك أم عيسى فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه، أو هل آلهتنا الملائكة خير أم عيسى؟ فإذا جاز أن يعبد، ويكون ابن الله، كانت آلهتنا الملائكة أولى بذلك ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ المثل ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل

والخصومة بالباطل، لعلمهم أن ﴿مَا﴾ لغير العاقل، فلا يتناول عيسى عليه السلام ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شديدو الخصومة معتادو اللجاج.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جعلناه بإيجاده من غير أب كالمثل السائر في الغرابة، يستدل به على قدرة الله تعالى على ما يشاء ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بأن نهلككم ونخلفكم بالملائكة في الأرض. والمعنى: أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة، فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلكم ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً، ويحتمل خلقها إبداعاً، فمن أين لكم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله تعالى؟

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى أو نزوله لدليل تعلم الساعة بنزوله ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكن فيها، حذف منها نون الرفع للجزم، وواو الضمير لالتقاء الساكنين ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يصرفكم عن دين الله ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا شرعي وهداي القائم على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذي آمركم به ﴿صِرَاطٌ﴾ طريق ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ قويم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ يمنعنكم عن المتابعة ويصرفكم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بيِّن العداوة ثابت عليها.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمر الدين لا من أمر الدنيا، فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه، ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أنس وعائشة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» . ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة لمجموع الأمرين، وهو تتمة كلام عيسى عليه السلام، أو استئناف من الله يدل على مقتضي الطاعة في ذلك.

﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث هو إليهم في عيسى: أهو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة ﴿فَوَيۡلٌ﴾ كلمة عذاب أو وادٍ في جهنم ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا بما قالوه في عيسى من المتحزبين ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ أي هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغۡتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بوقت مجيئها لاشتغالهم بأمور الدنيا.

سبب النـزول:

نزول الآية (٥٧):

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾: أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله، وفيه خير، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عُبد من دون الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ الآية» .

وقد تقدم في آخر سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أن عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْمي قال: خصَمْتُ وربَّ هذه البنية، يعني الكعبة، ألست - الخطاب للنبي ﷺ- تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيراً؟ قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ - الملائكة وعزير وعيسى عليهم السلام- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾ هذا لون

آخر من تعنت قريش في كفرهم وعنادهم وجدلهم بالباطل ونوع خامس من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة[(١)] والمعنى: ولما جعل ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً في مجادلته مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] إذا قومك قريش منه يضجون ويصيحون فرحاً بذلك المثل المضروب. أو لم يدروا أن ﴿وَمَا﴾في قوله ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل، وأن المقصود الأصنام والأوثان، ولا تتناول الآية عيسى والعزيز والملائكة، فهؤلاء كلهم عباد الله موحدون، قال عيسى في وصية قومه: الربُّ إلهنا إله واحد.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ أي وقال كفار قريش مجادلين بالباطل: آلهتنا ليست خيراً من عيسى، فإن كان كل من عُبِدَ من غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة. وما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك، فهم قوم شديدو الخصومة، كثيرو اللَّدَدِ والجدل. أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن جرير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾» .

ثم أبان الله تعالى أن عيسى عبد من عبيد الله، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ أي ما عيسى ابن مريم إلا عبد من عبيدنا أكرمناه وأنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل، وبرهاناً وحجة على قدرتنا على من نشاء،

(١) الأربعة السابقة: هي(١) أنهم جعلوا لله من عباده جزءاً (٢) ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ (٣) قولهم: لو شاء الرحمن ما عبدنا الأصنام (٤) قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

فإنا خلقناه من غيرأب، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص وكل مريض بإذن الله، وخلْقُه أسهل من خَلْق آدم من غير أب ولا أم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩/٣] . والله قادر على كل شيء، ومن مظاهر قدرته:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي ولونشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يعمرونها يخلفونكم فيها. قال بعض النحويين: مِنْ: تكون للبدل، أي لجعلنا بدلكم ملائكة، مثل قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨/٩] أي بدل الآخرة. والمراد بالآية التهديد والتخويف وبيان عجائب قدرة الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي وإن نزول المسيح وخروجه أمارة ودليل على وقوع الساعة، لكونه من أشراطها - علاماتها- لأن الله سبحانه ينزّله من السماء قبيل الساعة، كما أن خروج الدجال قبله من أمارات الساعة، فلا تشكوا في وقوعها ولا تكذبوا بها فإنها كائنة لا محالة، واتبعوا هداي فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك، وهذا المأمور به المدعو إليه طريق قويم موصل إلى النجاة والسعادة.

قال ابن كثير: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً[١].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي ولا يصرفنكم الشيطان عن اتباع الحق بوساوسه التي يلقيها في نفوسكم، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٣٢

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ أي لما جاء عيسى بالمعجزات والآيات الدالة على صدقه، وبالشرائع في الإنجيل قال لبني إسرائيل: قد جئتكم بالشرائع الصالحة التي ترغب في الجميل وتكف عن القبيح، وبأصول الدين العامة، من توحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، وجئتكم أيضاً لأوضّح لكم بعض ما تختلفون فيه من أحكام التوارة، فاتقوا المعاصي، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وشرائعة وتكاليفه.

ورأس الآمر: التوحيد والعبادة، فقال مبيناً ما أمرهم أن يطيعوه فيه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي إن الله عز وجل هو ربي وربكم وإلهي وإلهكم، فأخلصوا العبادة له، وعبادة الله وحده، فإن العمل بشرائعه هو الطريق القويم والمنهج الصحيح السليم.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ أي فاختلفت الفرق المتحزبة من اليهود والنصارى الذين بعث إليهم عيسى، في شأنه أهو الله ام ابن الله أم ثالث ثلاثة؟ وصاروا فرقاً وأحزاباً، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله، وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، وقد استقر أمر طوائف النصارى الكاثوليك والأرثوذكس على أنه هو الرب والإله، وكتبوا على الصفحة الأولى من الإنجيل: «هذا كتاب ربّنا وإلهنا يسوع المسيح» .

فالويل ثم الويل والعذاب الشديد للذين ظلموا من هؤلاء المختلفين في طبيعة المسيح، أهي بشرية أم ناسوتية إلهية؟ وهم الذين أشركوا بالله، ولم يعملوا بشرائعه، إنه عذاب مؤلم شديد دائم في يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا مجيء القيامة فجأة، وهم لا يشعرون أو لا يعلمون بمجيئها لانشغالهم بشؤون الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- ذكر الله تعالى أنواعاً خمسة من كفريات المشركين في هذه السورة:

أولها- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾.

ثانيها- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾.

ثالثها- قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾.

رابعها- قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

خامسها- قوله هنا: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢ً - يتعلق المشركون عادة بشُبَه واهية، فتراهم يسلكون مسلك الغوغائية، فيضجون ويصيحون إذا وجدوا شبهة يمكن التعلق بها في الظاهر، فلو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة، وإن كانوا معبودين.

٣ً - يعتمد المشركون على الجدل السوفسطائي الذي يفقد الموضوعية والهدف، فهو جدل بالباطل، لذا قالوا: آلهتنا خير أم عيسى؟ وما ضربوا هذا المثل للنبي ﷺ إلا بقصد إرادة الجدل غير الهادف، الذي أريد به الغلبة في الكلام، لا طلب الفرق بين الحق والباطل.

٤ً - تمسك القائلون بذم الجدل بهذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ والحق التفرقة بين نوعين من الجدل: الجدل لتقرير الحق، وهذا محمود،

والجدل لتقرير الباطل، وهذا مذموم، قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤٠/٤] .

٥ً - إن جميع الأنبياء والرسل صرحوا لأقوامهم أنهم بشر عبيد لله تعالى، فلا يصح رفع أحد عن المنزلة البشرية كسائر الناس، وعلى هذا فإن عيسى عليه السلام ذو طبيعة بشرية، وليست إلهية كما يزعم النصارى، وما هو إلا عبد كسائر عبيد الله أنعم الله عليه بالنبوة، وجعل خَلْقه من غيرأب آية، وعبرة لبني إسرائيل والنصارى، يُستدل بها على قدرة الله تعالى، وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام كلها بإذن الله، ولم يجعل هذا لغيره في زمانه، وكان بنو إسرائيل يومئذٍ أحبَّ الخلق إلى الله عز وجل، لإيمانهم بالله وتوحيدهم إياه، فلما كفروا هانوا وغضب الله عليهم.

٦ً- الله تعالى قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يجعل بدل الإنس ملائكة يكونون خلفاء عنهم في الأرض، يعمرونها ويشيدون حضارتها، ويتعاقبون بعضهم إثر بعض في تولي شؤونها كلها.

٧ً - إن خروج عيسى عليه السلام ونزوله من السماء آخر الزمان من أعلام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة. ورد في صحيح مسلم: «فبينما هو - يعني المسيح الدجال- إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دِمَشق بين مَهْرَودَتَين[1]واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَان كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه، فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدّ[2]فيقتله..» .

---

(١) أي شقتين أو حلتين.

(٢) اللُّد: بلد معروف قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

وثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ عيسى ابن مريم حَكَماً عادلاً، فليكسرَنَّ الصليب، وليَقْتُلَنَّ الخنزير، ولَيَضَعَنَّ الجِزْية، ولتُتْرَكَنّ القِلاص[1] فلا يُسعى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال، فلا يقبله أحد».

٨ً - لمَّا جاء عيسى عليه السلام بالحكمة وهي أصول الدين كمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وبعض الذي يختلفون فيه وهو فروع الدين، أمر قومه بني إسرائيل أن يتقوا الشرك ولا يعبدوا إلا الله وحده، وأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه من التوحيد، وأعلن أن الله ربه وربهم، وأمرهم بإخلاص العبادة لله، والتوحيد والعبادة صراط مستقيم، وما سواه معْوَجّ لا يؤدي إلى الحق.

وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام، فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله؟

٩ً- اختلفت أحزاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو الفرق المتحزبة بعد عيسى من النصارى وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية، اختلفوا في عيسى، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعاقبة: هو الله، وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله، فويل للذين كفروا وأشركوا عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة.

١٠ً - لا ينتظر الأحزاب إلا مجيء القيامة فجأة، وهم لا يفطنون بمجيئها، ولا يشعرون بحدوثها. وفائدة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ بيان أنهم لا يعرفون وجودها بسبب من الأسباب التي يشاهدونها.

---

(١) القلاص: جمع القُلُص، والقلص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة من الإبل.

ألوان نعيم المتقين أهل الجنة

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

القراءات:

﴿يَـٰعِبَادِ لَا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (ياعباديْ لا).

﴿تَشْتَهِيهِ﴾: قرئ:

١- (تشتهيه) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (تشتهي) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صفة لـ (عبادي).

﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حال من واو ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿تُحْبَرُونَ﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ بعد الكلمة الأخيرة ما يسمى بحذف الإيجاز، أي أكواب من ذهب، وحذف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ عام بعد خاص هو قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ الأحباء في الدنيا، جمع خليل: وهو الصاحب والصديق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ؛ لأن مودتهم في الدنيا كانت قائمة على المعصية ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتحابين في الله على طاعته فإنهم أصدقاء؛ لأن الصداقة إذا كانت مبنية على تقوى الله بقيت نافعة إلى الأبد.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هذا ما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صفة أو نعت لكلمة ﴿يَٰعِبَادِ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين، وهذه العبارة آكد من سابقتها؛ لأنها عبرت عن الإخلاص ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نساؤكم أو زوجاتكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرُّون وتكرمون، يقال: حبره الله: سرَّه، والحبور يدل على ظهور أثر السرور على الوجه نضارة وحسناً.

﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع صحفة: وهي كالقصعة: إناء يوضع فيه الأكل يكفي خمسة، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب: وهو إناء لا عروة له يشرب منه الشارب ﴿وَفِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ تلذذاً ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الخلود ينبئ بمعنى الاستقرار والأمان، فإن كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ شبَّه جزاء العمل بالميراث؛

لأنه يخلفه ويأتي بعده ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تأكلون بعضها لكثرتها ودوام نوعها، فكل ما يؤكل يخلف بدله.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٧):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: حكى النقَّاش أن هذه الآية نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحي وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، كانا خليلين؛ وكان عقبة يجالس النبي ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً، ولم تَتْفُلْ في وجهه، ففعل عقبة ذلك، فنذر النبي ﷺ قتله، فقتله يوم بدر صَبْراً[١] وقُتل أمية في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية.

المناسبة:

بعد التهديد بمجيء القيامة بغتة، ذكر الله تعالى عقيبه بعض أحوال القيامة، ووصف هنا ألوان نعيم أهل الجنة، ثم أتبعه ببيان أوصاف عذاب أهل النار، فذكر هنا تعادي الأخلاء إلا المتقين، واطمئنان المؤمنين في نعيم الجنة في سرور دائم وتمتعهم بأصناف الترف جزاء عملهم الصالح في الدنيا.

التفسير والبيان:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي الأصدقاء في الدنيا المتحابون فيها يعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة إلا المتقين فإن صداقاتهم تستمر في الآخرة، والمعنى: أن كل صداقة وصحابة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ

---

(١) الصبر: نصب الإنسان للقتل.

وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤] وكما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٥].

ثم وصف الله تعالى أنواع نعيم المتقين، فقال:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله: لاتخافوا من العقاب في الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، فإن نعيم الآخرة هو الباقي، والدنيا فانية.

روى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله تعالى يوم القيامة بينهما، يقول: هذا الذي أحببته فيَّ».

وبعد أن نفى تعالى عنهم المخاوف والأحزان، خصص ذلك بالمؤمنين المسلمين بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي إن القول المتقدم ليس لجميع الناس، بل للمؤمنين بالقرآن، المنقادين لأحكام الله، المخلصين له العبادة والطاعة، أي آمنت قلوبهم، وانقادت جوارحهم لشرع الله، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة، فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فييأس الناس منها غير المؤمنين.

ثم بشرهم صراحة بالجنة قائلاً:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي يقال لهم: ادخلوا

الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تكرمون وتنعمون وتسعدون غاية الإكرام والسعادة.

وألوان النعيم هي:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي لكم في الجنة أنواع مختلفة من المطاعم والمشارب، يقدم فيها الطعام والشراب بآنية الذهب، والكوب: كوز لا عروة له. ولكم فيها من ألوان الأطعمة والأشربة وغيرها من الألبسة والمسموعات كل ما تطلبه النفوس وتهواه كائناً ما كان، وكل ما يمتع الأعين من المستلذات والمشاهد والمناظر الخلابة، وأسماها النظر إلى وجه الله الكريم من غير حصر ولا كيف، وأنتم فيها ماكثون على الدوام، لا تموتون ولا تخرجون منها، ولا تبغون عنها تحولاً.

وسبب هذا الجزاء عملهم الصالح، فقال تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي إن تلك الجنة بما فيها من ألوان النعيم صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث، بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يَرَى منزله من الجنة، فيكون له حسرةً، فيقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقول: وما كنا لنتهتدي لولا أن هدانا الله، فيكون له شكراً» ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافرُ يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾». وبعد ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لإتمام النعمة، فقال تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي لكم في الجنة غير الطعام والشراب فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، تأكلون منها مهما اخترتم وأردتم، كلما قطفتم ثمرة جددت لكم ثمرة أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات الأحكام التالية من أحكام يوم القيامة:

١ - الأصحاب والأصدقاء في الدنيا يكونون يوم القيامة أعداء، يعادي بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً إلا المتقين، فإنهم أصدقاء متحابون في الدنيا والآخرة.

وهذا دليل على أن الخُلَّة أو الصحبة إذا كانت على المعصية والكفر، صارت عداوة يوم القيامة، أما الموحدون الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى، فإن خلتهم لا تصير عداوة.

٢ - عباد الله المؤمنون المطيعون المتقون آمنون في الآخرة من الخوف، متخلصون من الحزن، قد أزال الله عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، وأشعرهم بالفرح من نواح أربع هي:

أ - خاطبهم تعالى بنفسه من غير واسطة، بقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾

ب - وصفهم تعالى بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، كما شرف محمداً ﷺ ليلة المعراج، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/١].

ج - أزال عنهم الخوف يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم.

د - نفى عنهم الحزن عما فاتهم من نعيم الدنيا الماضية[١]

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٢٢٥.

٣ - يكرم الله المؤمنين إكراماً على سبيل المبالغة، فيدخلهم الجنة هم وأزواجهم المؤمنات المسلمات في الدنيا، بعد أن أمَّنهم من الخوف والحزن. وهذا يعني أن حسابهم يمر على أسهل الوجوه وأحسنها.

٤ - تُقَدَّم الأطعمة والأشربة لأهل الجنة فيها بآنية الذهب. أما في الدنيا فيحرم استعمال أواني الذهب والفضة، جاء في الصحيحين عن حُذَيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لاتلبسوا الحرير ولا الدِّيباح، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة» .

وروى الأئمة من حديث أم سَلَمة عن النبي ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم» وهذان الحديثان يقتضيان التحريم، بلا خلاف في ذلك.

والنهي عن الأكل والشرب يدل على تحريم الاستعمال والانتفاع بمختلف الأوجه، لأنه نوع من المتاع، فلم يجز، ومن استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

أما الإناء المضبب بالذهب أو الفضة أو المشتمل على حلقة منهما، كالمرآة ذات الحلقة الفضية، فلا يُشرب فيه، ولا ينظر في المرآة.

وإذا لم يجز استعمال الإناء لم يجز اقتناؤه؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[١]

٥ - في الجنة كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها باقون دائمون فيها، روى الترمذي عن سليمان بن بُرَيدة عن أبيه: «أن رجلاً سأل النبي

(١) الطنبور: من آلات الطرب، ذو عنق طويل، وستة أوتار من نحاس.

ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: إنِ الله أدخلك الجنة، فلا تشاء أن تُحمل على فرس من ياقوته حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت. وسأله رجل، فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من إبل؟ قال: إنْ يُدخلك الله الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولَذت عينك» .

٦ً - إن الظفر بنعيم الجنة يكون بسبب العمل الصالح في الدنيا.

٧ً - في الجنة ألوان كثيرة من الفواكه المختلفة والثمار الطيبة كلها، رطبها ويابسها، سوى الطعام والشراب، يأكل أهلها منها، دون انقطاع ولا فناء، وهذا تعويض لمن حرم منها في الدنيا، وتكميل للرغبة، وتقوية لدواعي العمل المؤدي إليها.

عذاب أهل النار وأسبابه

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

القراءات:

﴿جِئْنَـٰكُم﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيناكم).

﴿يَحْسَبُونَ﴾: قرئ:

١- (يَحْسَبُون) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (يَحْسِبُون) وهي قراءة الباقين.

﴿وَرُسُلُنَا﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿لَدَيْهِمْ﴾ :

وقرأ حمزة (لديهُم).

الإعراب:

﴿عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبران لـ ﴿إِنَّ﴾ أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر، والظرف متعلق به.

البلاغة:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ التفات من الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ إلى الغيبة للإشعار بأن الإبرام أسوأ من كراهتهم للحق.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ بين السر والنجوى طباق، أي الخفاء والعلانية.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ذوي الجريمة الكبرى وهم الكفار الذين هم جعلوا في مقابل المؤمنين بالآيات ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لايخفف عنهم، بجعل العذاب متقطعاً على فترات﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة، حزينون من شدة اليأس، من الإبلاس وهو الحزن الناشئ من شدة اليأس، ويصاحبه عادة سكوت.

﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ خازن النار﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، أي سل ربك أن يقضي علينا، من قضى عليه إذا أماته﴿مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب دائماً، لا

خلاص لكم بموت ولا غيره ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ قال تعالى: لقد جئناكم يا أهل مكة بالحق الثابت على لسان الرسول ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ بل أحكموا تدبير أمر في كيد النبي محمد وتكذيب الحق ورده، ولم يقتصروا على كراهيته ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون كيدنا في إهلاكهم ومجازاتهم.

﴿سِرَّهُمْ﴾ حديث الخفية مع النفس أو الغير في مكان ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ تناجيهم فيما بينهم وهو ما يجهرون به بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظة ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم، ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

سبب النـزول:

نزول الآية (٧٩):

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾ قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم في المكر به - بالنبي ﷺ- في دار الندوة.

نزول الآية (٨٠):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ : أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها: قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فأنزلت: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ الآية.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضاً، ليبين فضل المطيع على العاصي، ولما ذكر تعالى الوعد، أردفه بالوعيد، على الترتيب المستمر في القرآن، فبعد أن ذكر ما أعد لأهل الجنة المتقين من ألوان النعيم، ذكر ما أعد لأهل النار الكفار من العذاب الأليم وأسبابه وهي الكفر

والمعاصي، مع إحباط مكائدهم ومؤامراتهم لرد الحق المنزل، وإعلامهم بأن الله عليم بذلك، والحفظة الملازمون لهم يكتبون كل ما بدر منهم من قول أو فعل، ليكون عنصر إثبات وحجة عليهم.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي إن الذين ارتكبوا الكفر بالله في دار الدنيا هم معذبون في عذاب النار، عذاباً دائماً، مخلَّدون فيه أبداً.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لا يخفف عنهم ذلك العذاب فترة أو لحظة ليستريحوا منه، وهم آيسون من النجاة ومن كل خير، حزينون أشد الحزن.

وسببه ما اقترفوا في الدنيا كما قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي ما عذبناهم بغير ذنب، ولا زدناهم على ما يستحقونه، ولكنهم ظلموا أنفسهم بما ارتكبوا من الذنوب، وبما عملوا من الأعمال السيئة، حيث كفروا بالله ربهم، وكذبوا رسله وعصوا ما جاؤوا به، فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي ونادى المجرمون للتخلص مما هم فيه من العذاب الشديد، يا مالك-وهو خازن النار- ليمتنا الله أو ليقبض أرواحنا، فيريحنا مما نحن فيه من العذاب، فأجابهم بقوله: إنكم مقيمون في العذاب، لاخروج لكم من النار، ولا محيد لكم عنها. قال المحققون: سمي خازن النار مالكاً؛ لأن المِلْك عُلْقة، والتعلق من أسباب دخول النار، كما سمي خازن الجنة رضواناً، لأن الرضا بحكم الله سبب كل راحة وسعادة، وصلاح وفلاح.

وذلك كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦] وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/١١-١٣] . وقد روي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، وسألوهم أن يخفف عنهم ربهم يوماً واحداً من العذاب، فردت الخزنة عليهم أسوأ رد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٩-٥٠].

ثم ذكر الله تعالى سبب عقابهم قائلاً:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي لقد بينا لكم الحق ووضحناه وفسرناه، وأرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم إلى الصراط المستقيم، فأبيتم وكذبتم وكفرتم وعاندتم، وكان أكثركم أي كلكم كارهين للحق وأهله لا يقبلونه.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفسادهم في الدنيا، فقال بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة لبيان كون تدبيرهم أسوأ من كراهتهم للحق.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي بل دبّر مشركو مكة بإحكام كيداً للنبي ﷺ في دار الندوة بمكة ليقتلوه أو يحبسوه أو يطردوه، والمعنى أنهم كلما أحكموا أمراً في المكر بمحمد ﷺ، فإنا نحكم أمراً في مجازاتهم، وإنا محكمون لهم كيداً، أي نبيّت لهم جزاء وعقاباً شديداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٠] وقال سبحانه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٢] . وكل من الكيد والمكر يراد به العقاب من الله تعالى، جزاءً على تحايلهم في رد الحق بالباطل، ورد وبال ذلك عليهم، وإحباطه، ولهذا قال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي بل أيظنون أننا لا نسمع سرهم وعلانيتهم، سواء ما يضمرونه من شر وسوء وكيد، أو ما يتناجون به فيما بينهم علانية لحبك المؤامرة، والتخطيط لإنفاذها؟ بلى، نحن نسمع ذلك ونعلم به تماماً، والملائكة الحفظة أيضاً يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل، صغير أو كبير: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨] .

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات ما يأتي:

١ - إن جزاء الكفار الذين لم يؤمنوا بوجود الله ووحدانيته، ولم يصدقوا بالرسل والكتب الإلهية هو نار جهنم. وقد وصفهم الله تعالى بصفة المجرمين.

٢ - وصف تعالى عذاب جهنم بثلاث صفات: هي أولاً- الخلود وهو في رأي الرازي: عبارة عن طول المكث، ولا يفيد الدوم، وثانياً- عدم التخفيف من العذاب، وثالثاً- الإياس من الرحمة أو السكوت سكوت يأس.

٣- لا ظلم للكفار بالعذاب يوم القيامة، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم بالشرك، وإن أعظم جريمة في حق الله هي الشرك به، لذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] .

٤ - يطلب الكفار من مالك خازن جهنم أن يتخلصوا من العذاب بالموت الأبدي، وهم بالرغم من أنهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، طلبوا ذلك إما على سبيل التمني أو على وجه الاستغاثة، وكلا الأمرين تعبير عن الحيرة والقلق والاضطراب ونحوها مما يفعله اليائس المتخبط في أحواله كلها، فأُجيبوا بأنهم مقيمون على الدوام في نار جهنم.

ويذكر المفسرون أن بين سؤالهم هذا وبين جوابهم ثمانين سنة، أو ألف سنة، أو مئة سنة، أو أربعين سنة، الأول قول عبد الله بن المبارك، والثاني قول الأعمش، والثالث قول ابن عباس، والرابع قول عبد الله بن عمرو[١] وكل ذلك يحتاج لدليل أوثق وأثبت، ونفوض العلم فيه إلى الله تعالى.

٥ - إن سبب عقاب الكفار أن الله تعالى جاءهم بالحق فلم يقبلوا، وكلهم نافر من محمد ﷺ ومن القرآن، شديد البغض لقبول الدين الحق، وهو الإسلام ودين الله تعالى.

٦ - أحبط الله كل مؤامرات الكفار على النبي ﷺ؛ لأن الله عاصمه من الناس، قال مقاتل- كما تقدم-: نزلت آية ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ۝٧٩﴾ في تدبيرهم بالمكر بالنبي ﷺ في دار النَّدْوَة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل، ليشتركوا في قتله، فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت الآية[٢].

٧ - يخطئ الناس وبخاصة الكفار حين يظنون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم، والسر: ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خالٍ، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم، فإن الله سميع بصير، يسمع ويعلم كل شيء، والملائكة الحفظة يكتبون عليهم تلك الأحوال، وستكون الكتابة في سجل الأعمال يوم القيامة يحاسبون بناء عليها، وحجة وبرهاناً لإثبات معاصيهم ومنكراتهم، وهذا تأكيد لعلم الله.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/١١٧

(٢) المرجع السابق: ١٦/١١٨

تنـزيه اللَّه سبحانه عن الولد والشريك

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ﴾ :

قرأ نافع بإثبات الألف وصلاً ووقفاً.

وقرأ الباقون بحذفها وصلاً، وإثباتها وقفاً.

﴿تُرْجَعُونَ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (يُرْجَعون).

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ : قرئ:

١- (وَقِيْلِهِ) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (وقِيْلَهُ) وهي قراءة الباقين.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (تعلمون).

الإعراب:

﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ ﴿إن﴾: إما شرطية على سبيل الافتراض، أي إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده، على أنه لا ولد له، أو على حد قول الرجل لصاحبه: إن كنت كاتباً فأنا حاسب، والمعنى: لستَ بكاتب، ولا أنا حاسب. او أن تكون ﴿إن﴾ بمعنى (ما) وتقديره: ما كان للرحمن من ولد.

﴿فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ كل من الجار والمجرور متعلق بما بعده.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ اللام في ﴿وَلَئِن﴾ لام القسم. و﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع وواو الضمير.

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ بالجر لكلمة ﴿وَقِيلِهِ﴾ عطفاً على﴿السَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم الساعة وعلم قيله؛ أو بالرفع عطفاً على ﴿عِلْمُ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي وعلم قيله، فحذف المضاف، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: وقيلُه: يارب، مسموع؛ أو بالنصب على المصدر، أي ويقول قيله، أو عطفاً على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ في قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أو عطفاً على معنى ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي ويعلم الساعة ويعلم قيله، أو عطفاً على المفعول المحذوف لـ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ذلك ويكتبون قيله.

﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ ﴿سَلَامٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي أمري سلام، أي مسالمة منكم، وليس من السلام بمعنى التحية.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي إن وجد له ولد على

سبيل الفرض والتقدير، وثبت ذلك بالدليل القاطع، فأنا - أي محمد النبي ﷺ- أول العابدين أي المعظمين للولد تعظيماً للوالد، لكن ثبت ألا ولد له تعالى، فانتفت عبادته وبطلت ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي تنزيهاً لله عن كونه ذا ولد وعن كل نقص ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ العرش أو الكرسي: مخلوق عظيم أعظم من السماوات والأرض، الله أعلم به ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقولون كذباً بنسبة الولد إليه.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم ﴿يَخُوضُوا۟﴾ يعبثوا في باطلهم، ويبطلوا مع المبطلين ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة الذي يوعدون فيه العذاب ﴿إِلَٰهٌ﴾ أي إنه هو معبود في السماء ومعبود في الأرض ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم، وهما دليلان على استحقاق العبادة، والمعنى أن الله في السماء والأرض بالألوهية والربوبية، وليس الاستقرار.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ تعالى وتعاظم ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء وجميع المخلوقات ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون، وهم الكفار ﴿مِن دُونِهِ﴾ من غير الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لأحد ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي قال: لا إله إلا الله. والاستثناء إما متصل؛ لأن من جملة مَنْ يدعونهم الملائكة وعيسى وعزيراً، أو منقطع، أي لكن من شهد بالتوحيد عن علم وبصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يتيقنون بقلوبهم مثلما شهدت به ألسنتهم، وهم عيسى وعزير والملائكة، فهؤلاء هم الذين يشفعون بإذن الله للمؤمنين ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن عبادة الله .﴿وَقِيلِهِۦ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم الساعة وعلم قيله، أي قيل محمد النبي ﷺ، والقيل والقال والمقاله والقول بمعنى واحد، أي وقوله ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ سلام متاركة وهجران، لاسلام تحية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يطلعون على ما أعد لهم من عذاب، وهذا تهديد وتوبيخ لهم أي للكفار.

المناسبة:

بعد بيان أحوال المجرمين الكفار في الآخرة، أردفه تعالى ببيان استحالة نسبة الولد والشريك له، وأنه المعبود بحق في السماء والأرض وأنه الحكيم في صنعه العليم بكل شيء، وأن الله سبحانه مالك السماوات والأرض ومالك كل شيء في الكون، وأن الآلهة المعبودة من دون الله ليس لها أي نفع كالشفاعة في الآخرة، وأن المشركين متناقضون حين يقرون بأن الخالق للكون هو الله، ثم يعبدون معه غيره، وأن حسابهم آتٍ يوم القيامة الذي لا يعلم بميقاته أحد غير الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي قل يا محمد: إن ثبت ببرهان صحيح لله تعالى ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، وأول من يعظمه كما يُعظِّم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، ويستحيل أن يكون له ولد فهو محال في ذاته؛ لأنه يؤدي إلى العجز والحاجة لغيره والنقص، والإله كامل الصفات. والجملة شرطية لفظاً ومعنى، مركبة من شرط وجزاء، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل، بقصد المبالغة في نفي الولد، وهو أبلغ وجوه النفي وأقواها، كما تقول لمن يجادلك: إن ثبت ما تقول بالدليل فأنا أول من يعتقد به.

وهو مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٤] وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٢] أي لو كان في السماوات والأرض أكثر من إله لفسدت.

ويؤكد نفي الولد قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي تنزيهاً له وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً، ويفترون عليه تعالى ما لا يليق بجنابه، أو تعالى وتنزه وتقدس خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فهو مالك السماوات والأرض، ورب العرش المحيط بالكون، وهو منزه عما يصفه به المشركون كذباً من نسبة الولد إليه.

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عن المشركين المعاندين قائلاً:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي فاتركهم أيها النبي يخوضوا في جهلهم وباطلهم وضلالهم، ويلعبوا ويلهوا في دنياهم، حتى يلقوا يوم القيامة الذي يوعدون به. وفي هذا تهديد ووعيد.

ويزيد الله تعالى تأكيده تنزيه نفسه عن الولد قائلاً:

١- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ أي هو الله المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، فلا يستحق العبادة سواه، وهو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، والمعنى: كما أنه تعالى ليس له ولد، ليس له مكان يستقر فيه، بل له الألوهية والربوبية في الكون كله، وفي كل مكان، ويستحيل عليه المكان؛ لأنه يكون محدوداً محصوراً في جهة معينة، له حجم ونهاية، وتلك صفات الحوادث، والله منزه عنها، فلا يحده زمان ومكان، والحكمة البالغة والعلم الواسع يتنافيان مع إثبات الولد لله.

ثم أبطل الله تعالى قول الكفرة: إن الأصنام تنفعهم، قال:

٢- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي تعاظم وتعالى وزادت خيراته وبركاته الله مالك السماوات ومالك الأرض، وما بينهما من الفضاء والهواء وأنواع الحيوان

والإنسان وخالق كل شيء، وهو المختص بعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة، وإليه مرجع ومصير الخلائق كلها، فيجازي كل إنسان بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وهذه صفات تتنافى كلها أيضاً مع إثبات ولد لله؛ لأنه تعالى غير محتاج لمعونة أحد من خلقه، كما أن له السلطان المطلق في الحساب والجزاء في عالم القيامة، ولما نفى الله تعالى الولد أتبعه بنفي الشركاء، فقال مؤكداً عدم نفع الأصنام:

٣- ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1] أي ولا تملك- ولا تقدر- الأصنام وكل معبود مدعو من دون الله- الشفاعة عند الله كما يزعم عبادها أنهم يشفعون لهم، لكن من آمن وشهد بالحق على بصيرة ويقين بأن الله واحد لا شريك له، فإن شفاعته مقبولة عند الله بإذن الله. فقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: وهم على علم وبصيرة بما شهدوا به. وهذا دليل على أن إيمان المقلِّد وشهادته غير معتبرين.

ثم أبان الله تعالى تناقض المشركين قائلاً:

٤ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي وتالله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره عمن خلقهم؟ لأجابوا بأنه الله، فهم يعترفون بأنه الخالق للأشياء جميعها، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، فكيف يصرفون عن العبادة الحقه عبادة الله إلى عبادة غيره، مع هذا الاعتراف؟ إنهم في هذا التناقض في غاية الجهل والسفاهة وسخافةالعقل، وهذا مدعاة للعجب من إشراكهم، والغرض من الآية: التعجيب من حالهم أنهم يعترفون بالصانع، ثم يجعلون له أنداداً.

---

(١) استثناء منقطع بمعنى لكن، ويجوز أن يكون متصلاً كما بينا.

ثم أعلن الله تعالى علمه بشكوى النبي ﷺ من إعراض قومه قائلاً:

٥ - ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي ويعلم الله تعالى علم الساعة وقول النبي ﷺ وشكواه إلى ربه من قومه الذين كذبوه: يا ربّ، إن هؤلاء القوم الذين أرسلتني إليهم قوم لا يؤمنون ولا يصدقون بك ولا برسالتي إليهم، كما أخبر تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٠].

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عنهم ونبذهم لإشراكهم قائلاً:

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي اصفح عن المشركين صفح المغاضب لا الموافق المجامل، وأعرض عما يقولون وما يرمونك به من السحر والكهانة، واصبر على دعوتهم إلى أن يأتي أمر الله، وقل: أمري معكم مسالمة ومتاركة إلى حين، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد من الله لهم، ووعد ضمني بنصر الإسلام والمسلمين عليهم، وقد أنجز الله وعده، فأيد رسوله والمؤمنين، وهزم أركان الشرك والمشركين، وطهر جزيرة العرب من فلولهم وآثارهم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام- ولله الحمد- في المشارق والمغارب.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي:

أ - إن إنكار وجود الولد لله تعالى ليس عناداً ولا منازعة، وإنما بدلالة الأدلّة القاطعة على نفي وجود الولد، فالعبرة للدّليل، وقد أثبت الدّليل القاطع عدم وجود الولد لله تعالى؛ لأن صفة الألوهية تقتضي الكمال والقدرة والحكمة والعلم، واتخاذ الولد دليل العجز والنقص.

وهذا مأخوذ من معنى الآية الأولى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾ أي لو كان له ولد كنت أول من عبده؛ على افتراض أن له ولداً ثابتاً بالبرهان، ولكن لا ينبغي ذلك، ولم يقم دليل عليه.

٢ - نزّه الله نفسه ربّ السماوات والأرض عن كلّ ما يقتضي الحدوث، وأمر النّبيّ ﷺ بالتّنزيه عما يقوله المشركون من الكذب.

٣ - أمر الله نبيّه أيضاً أن يترك المشركين يخوضون في باطلهم، ويلعبون في دنياهم، حتى يأتيهم إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

٤ - كذب الله المشركين بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ في أن لله شريكاً وولداً، فهو وحده المستحق للعبادة في السماء والأرض.

قال الرّازي: هذه الآية من أدلّ الدّلائل على أنه تعالى غير مستقرّ في السماء؛ لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالألوهية كنسبته إلى الأرض، فلما كان إلهاً للأرض، مع أنه غير مستقرّ فيها، فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء، مع أنه لايكون مستقرّاً فيها[١]

٥ - الله تعالى مصدر الخير والبركة، وهو صاحب العظمة، مالك السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والموجدات والعناصر، وهو العالم بوقت قيام القيامة، وإليه مصير الخلق للحساب والجزاء. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بعد بيان كمال قدرته: هو التّنبيه على أن من كان كامل الذّات والعلم والقدرة، امتنع عليه اتّخاذ ولد كعيسى موصوف بالعجز وعدم الاطّلاع على أحوال العالم.

٦ - نفى الله تعالى الولد إليه، ثم نفى الشُّركاء بقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لايملك عيسى وعزير والملائكة وغيرهم من الأصنام الشّفاعة إلا من شهد بالحقّ وآمن على علم وبصيرة، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٢٣٢

٧ً - دلّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على أمرين:

الأول- أنّ الشفاعة بالحقّ غير نافعة إلا مع العلم، وأن التّقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة.

الثاني- أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها، كما روى البيهقي والحاكم وابن عدي عن ابن عباس- وهو ضعيف -عن النَّبي ﷺ: «إذا رأيت مثل الشمس فاشهد، وإلا فَدَعْ».

٨ً - المشركون قوم متناقضون كما ثبت في أول السورة وآخرها، فلما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى، فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام جامدة لا تضرّ ولا تنفع؟ الواقع أنهم يكذبون على الله حين يقولون: إن الله أمرنا بعبادة الأصنام.

ودلّ قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم.

٩ً - شكا النَّبي ﷺ قومه إلى ربِّه بأنّهم لا يؤمنون بالله وحده لا شريك له، ولا برسالته ولا بالقرآن المنزل عليه. وهذه الشكوى صدرت منه ﷺ بعد أن ضجر منهم، وعرف إصرارهم على الكفر. وهذا قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٧١/٢١].

١٠ً - أمر الله نبيّه بالصَّفح عن المشركين صفح الغاضب النّاقم لا الرّاضي بفعلهم، وبالمتاركة حتى حين، فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وهذا تهديد للمشركين، ولا حاجة كما ذكر الرّازي إلى القول بأن هذه الآية منسوخة بآية السَّيف؛ لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ، وأما التّكرار فيكون بدليل آخر، كما أن اللفظ قد يتقيَّد بقرينه العرف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الدخان

مكية، وهي تسع وخمسون آية

تسميتها:

سمّيت (سورة الدُّخَان) لما فيها من تهديد المشركين في الماضي بالجدب والقحط الذي يجعل الجائع كأنه يرى في الفضاء دخاناً من شدة الجوع، وتهديد الأجيال المقبلة بظهور الدُّخان في السماء مدة أربعين يوماً والذي يعدّ أمارة من أمارات السّاعة.

مناسبتها لما قبلها:

تتجلّى مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حاميم من وجوه ثلاثة:

١ - افتتاح كلتا السُّورتين بالقسم بالقرآن العظيم تنويهاً به، في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

٢ - تشابه خاتمة السّورة المتقدِّمة ومطلع هذه السّورة، حيث ختمت سورة الزّخرف بالتّهديد والوعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾ [٨٣] فذكر يوماً غير معيّن ولا موصوفاً، ثم أبان وصفه في سورة الدُّخان في القسم الأول منها حيث أنذر تعالى المشركين في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [١٠].

٣ - حكاية ما قاله النَّبي ﷺ لقومه وما قاله أخوه موسى عليه السّلام لقوم فرعون، فقال النَّبي ﷺ في السّورة المتقدِّمة: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [٨٨]، ثم قال الله له: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَـٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [٨٩]، وحكى الله عن موسى في هذه السُّورة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [٢٢]، وقال موسى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [٢٠-٢١]، والتّشابه واضح في الموقعين.

ما اشتملت عليه السُّورة:

موضوع سورة الدُّخان المكيّة كسائر موضوعات السُّور المكيّة وسور آل حاميم السَّبع، وهو بيان أصول العقيدة الإسلامية: التوحيد، والنّبوة والرِّسالة، والبعث.

بدئت السورة ببيان تاريخ بدء إنزال القرآن في ليلة القدر من رمضان، رحمة من الله بعباده، وأن منزله هو مالك الكون كله والمخلوقات جميعها، وأنه هو الإله الحقّ الواحد الذي لا شريك له، غير أن المشركين في شكّ وارتياب من أمر القرآن.

ثم أوعدَتهم بالعذاب الشديد، وبالدُّخان المخيف الذى ينذرهم بأسوأ العواقب، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا.

وأردفت ما سبق بعظتهم بقصة فرعون وقومه مع موسى عليه السّلام، حيث نجَّى الله المؤمنين، وأغرق الكافرين في البحر.

ثم وصفت مشركي مكة بأنهم قوم منكرون للبعث في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٥]، وهدّدتهم بالإهلاك كما أهلك المجرمين الأشدّاء من قبلهم، مثل قوم تُبَّع الحميري، مع إيراد الدَّليل على قدرة الله عزّ وجلّ على كلِّ شيء.

ثمّ وصفت لهم أهوال يوم القيامة وما فيه من الحساب والعقاب وطعام الزّقوم في نار جهنم وغير ذلك مما يرهب ويرعب، ويثير المخاوف الشّديدة في النّفوس.

وختمت السُّورة بنعت وبيان مصير الأبرار ومصير الفجّار، لترغيب الفريق الأول وتبشيره بالعاقبة الحميدة، وترهيب الفريق الثاني وإنذاره بالنّكال والعذاب الشّديد.

فضلها:

ذكر المفسّرون أحاديث في فضل سورة الدُّخان، لكنها لا تخلو من ضعف[١] منها ما رواه الدّراميّ في مسنده عن أبي رافع قال: «من قرأ الدُّخان في ليلة الجمعة،أصبح مغفوراً له، وزُوِّج من الحور العين» ورواه الثّعلبي مرفوعاً عن أبي هريرة أنّ النّبي ﷺ قال: «من قرأ الدّخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له» وفي لفظ آخر للتّرمذي: «من قرأ حم الدُّخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف مَلَك» ، وعن أبي أمامة قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: «من قرأ حم الدُّخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة، بنّى الله له بيتاً في الجنة» .

(١) وهكذا أغلب الأحاديث الواردة في فضائل السُّور ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها، لذا استبعدت ذكر هذه الأحاديث، وأوردت بعضها هنا للتّنبيه والبيان.

إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزله

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿رَبِّ﴾ : قرئ:

١- (ربِّ) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (ربُّ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ ﴿أَمْرًا﴾ : إما منصوب على الحال بمعنى آمرين، أو منصوب على المصدريّة، أو منصوب بفعل مقدرّ، أي أعني أمراً، وهو قول أبي العباس المبرِّد.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ﴿رَحْمَةً﴾ : إما منصوب على أنه مفعول لأجله، أي للرّحمة، وحذف مفعول ﴿مُرْسِلِينَ﴾ ،أو لأنه مفعول ﴿مُرْسِلِينَ﴾ والمراد بالرّحمة حينئذٍ النّبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١]، أو منصوب على البدل من قوله: ﴿أَمْرًا﴾ ، أو منصوب على المصدر، أو منصوب على الحال، وهو قول أبي الحسن الأخفش.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالجرّ: بدل من ﴿رَّبِّكَۚ﴾، وبالرّفع: خبر آخر، أو صفة، أو استئناف على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو ربّ السماوات.

البلاغة:

﴿حَكِيمٍ﴾ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة على وزن فعيل.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ بينهما طباق.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ حثّ وتحريض على الإيمان والتّفكر والتّبصر.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن، والتّنبيه على خطورة ما يلقى من أحكام في هذه السّورة، كما تقدّم. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ هذا قسم بالقرآن، أي والقرآن ذي البيان الواضح لكل حاجات الإنسان في الدِّين والدنيا.

﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ هي ليلة القدر، ابتدئ فيها إنزال القرآن، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وبركتها لأن نزول القرآن سبب للمنافع الدِّينية والدُّنيوية. ﴿مُنذِرِينَ﴾ مخوّفين به، وهو استئناف يتبّين فيه المقتضي للإنزال.

﴿فِيهَا﴾ في ليلة القدر. ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصّل ويبيّن. ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم لا لبس فيه، من الأمور المحكمة التّشريعية، والأرزاق والآجال وغيرها على مدار السّنة إلى تلك الليلة.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآۚ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو مزيد تفخيم للأمر. ﴿مُرْسِلِينَ﴾ الرّسل: محمد ﷺ ومن قبله عليهم السّلام. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ رأفة بالمرسل إليهم. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وأحوالهم، وهو وما بعده بيان أنّ الرّبوبية لا تحقّ إلا لمن

هذه صفاته، مما ينفي ربوبية غيره. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم وفي أنه تعالى ربّ السماوات والأرض، أو كنتم تطلبون اليقين وتريدونه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه. ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ كما تشاهدون. ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ من البعث، وهو ردّ لكونهم موقنين. ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ يعبثون استهزاء بالنَّبي ﷺ، لذلك قال: «اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف».

التفسير والبيان:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم الذي هو الكتاب الموضِّح لكلّ ما يحتاجه الإنسان من أمور الدِّين والدُّنيا، على أنه أنزل القرآن في ليلة كثيرة الخيرات التي هي ليلة القدر، كما جاء مبيّناً في آية أخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: ٩٧/ ١] ، من ليالي شهر رمضان الذي نزل فيه القرآن، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] ، أي أنه بدئ بإنزاله في ليلة القدر من ليالي رمضان، واستمرّ نزوله منجّماً ثلاثاً وعشرين سنة، أو أنزل القرآن كلّه في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدُّنيا.

إنّا كنّا بهذا القرآن منذرين الناس من العذاب الأليم في الآخرة إذا اقترفوا الشّرك والمعاصي، ومعلِّمين النّاس ما ينفعهم ويضرّهم شرعاً لتقوم حجّة الله على عباده.

قال ابن كثير: ومن قال: إنها ليلة النّصف من شعبان- كما روي عن عكرمة- فقد أبعد النّجعة- أي الطلب- فإن نصّ القرآن أنها في رمضان[١].

وقال القرطبي بعد حكاية قول عكرمة: إنها ليلة النّصف من شعبان:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٣٧

والأول - أي الرأي القائل بأنها ليلة القدر- أصح، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ (١)

وسبب بدء نزوله في ليلة القدر ما قال تعالى:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ أي في ليلة القدر يفصّل ويبيّن الأمر المحكم، فيكتب فيها ما يكون في السّنة من الآجال والأرزاق، من خير وشرّ، وحياة وموت، وغير ذلك، أو ما يكون من أمور محكمة لا تبديل فيها ولا تغيير، بتشريع الأحكام الصالحة لهداية البشر في الدنيا، والسعادة في الآخرة، فالحكيم: معناه ذو الحكمة. وإنما أنزل القرآن في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكمية، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذي حكمة.

والغاية من إنزال القرآن ما قال سبحانه:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ أي أنزل الله القرآن من لدنه متضمناً وحيه وشرعه، وقد فعلنا ذلك الإنذار، وأرسلنا الرسول وجميع الأنبياء إلى الناس لتلاوة آيات الله البيِّنات، رحمة ورأفة منا بهم؛ لبيان ما ينفعهم وما يضرّهم، ولئلا يكون للناس حجّة بعد إرسال الرُّسل، فرسالة الرُّسل هي الرَّحمة المهداة الدَّائمة إلى البشر، وتتمثل الآن بالثَّابت القطعي النُّزول منها، وهو القرآن ورسالة النَّبي ﷺ. قال أبو حيان في تفسير ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسَل، أي مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد، فالجملة المؤكّدة مستأنفة، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٦/١٢٦

(٢) البحر المحيط: ٨/٣٣

وإنما فعل الله ذلك؛ لأنه السَّميع لأقوال البشر، العليم بأحوالهم وبما يصلحهم، فأرسل الرّحمة إليهم رعاية لحاجتهم.

والدَّليل على السَّمع والعلم وإنزال القرآن ما قاله تعالى:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ أي إن الله السَّميع العليم الذي أنزل القرآن هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات، وخالقها ومالكها وما فيها، إن كنتم تريدون معرفة ذلك عن يقين تام لاشكّ فيه، قال أبو مسلم: معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا.

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى هي الوحدانية والقدرة فقال:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ أي بعد إثبات الرّبوبية لله أثبت الوحدانية، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثم أكّد الرّبوبية على البشر بالذّات، فهو ربّكم أيها المخاطبون وربّ آبائكم وأجدادكم الأولين، ومدبِّر شؤونهم، فهو المستحق للعبادة، دون غيره من الآلهة المزعومة، ثم ذكر حقيقة المشركين، فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ أي بل هؤلاء المشركون في شكٍّ من أمر البعث والتّوحيد والإقرار الذي صدر منهم بأن الله هو خالقهم، وهم في الواقع عابثون لاهون لاعبون، لا جدّية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسّلوك المطابق له.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أولاً - عظّم الله تعالى القرآن في هذه الآيات بأمور هي:

١ً - أقسم به، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، ولله أن يقسم بما يشاء على ما يشاء في أي وقت يشاء.

٢ً - أقسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزّة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيِّه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة. ذكر الطبري عن قتادة أنه قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوارة لستّ ليال منه، والزَّبور لاثنتي عشرة مضت، والإنجيل لثماني عشرة منه، والفرقان لأربع وعشرين مضت.

٣ً - وصف الله القرآن بكونه كتاباً مبيناً.

٤ً - وصف الله ليلة إنزال القرآن بأنه يفرق فيها كل أمر حكيم، قال ابن عباس وغيره: يُحْكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقال ابن عمر: إلا الشّقاء والسّعادة، فإنهما لا يتغيّران.

٥ً - الغاية من القرآن إنذار البشر وتخويفهم العذاب ليصلح حالهم في الدنيا.

٦ً - إن إنزال القرآن كان بأمر الله ومن عنده.

٧ً- كان إنزاله رحمة من الله بعباده.

٨ً - كان إنزاله محققاً لمصالح الناس وحاجاتهم؛ لأن الله هو السَّميع العليم، ربّ السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، وهو الواحد القهّار، يحيي الأموات ويميت الأحياء، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء، ومالك الناس عند نزول القرآن ومالك من تقدّم

منهم ومالك من سيوجد إلى يوم القيامة، فما على الناس إلا اتّقاء تكذيب النّبي محمد ﷺ لئلا ينزل بهم العذاب.

ثانياً - أظهر الله تعالى حقيقة اعتقاد المشركين مبيِّناً أنهم ليسوا في الواقع على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقهم، وإنما يقولونه تقليداً لآبائهم من غير علم ولا حجة ولا برهان، فهم في شكٍّ بيِّن، وإن توهَّموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم على وفق أهوائهم من غير حُجَّة.

تهديد المشركين بالعذاب

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ الجملة حالية.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ : مبتدأ، و﴿أَنَّىٰ لَهُمُ﴾ : خبره.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ : منصوب على الظرف، والعامل فيه: إما فعل مقدر، يدلّ عليه﴿مُنتَقِمُونَ﴾ أي ننتقم يوم نبطش، ولا يجوز تعلّقه بقوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لأن ما بعد (إنَّ) لايعمل فيما قبلها، أو يكون العامل فيه﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ .

المفردات اللغوية:

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن واضح، والمراد من الدُّخان: يوم

الشّدة والمجاعة في الماضي، فإن الجائع يرى ما فوقه إلى السّماء ظلاماً من شدّة الجوع، وضعف البصر، كهيئة الدُّخان، وفي المستقبل يمكن تفسير الدُّخان بالغبار الذَّري الذي يهدِّد البشرية بالموت ويعقبه ظلام .﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يحيط بهم من كلّ جانب، وهو صفة للدُّخان .﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يقولون: هذا عذاب مؤلم، ويقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ مصدِّقون بك وبنبيِّك، وهذا وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟ أي من أين لهم، وكيف يتذكرون في هذه الحال؟ المعنى: لاينفعهم الإيمان عند نزول العذاب .﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الرِّسالة، بيَّن لهم بالآيات والمعجزات ما يوجب الإيمان والتّذكُّر .﴿مُعَلَّمٌ﴾ أي يعلمه غيره القرآن، قالوا: يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ نكشف العذاب بدعاء النَّبي ﷺ، فإنه دعا، فرفع القحط، ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو زمناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر، فعادوا إليه بعد كشف العذاب.

﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بقوة وشدة، والبطش: الأخذ الشديد، والبأس. ﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر .﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ ننتقم منهم بسبب كفرهم.

سبب النّزول:

نزول الآية (١٠):

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ﴾: أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصوا على النَّبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسِنِيّ يوسف، فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام، فجعل الرّجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي

ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾ فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، استسق الله لمُضَر، فإنها قد هلكت، فاستسقى، فسقوا، فنزلت.

نزول الآيتين (١٥-١٦):

﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ، يَوۡمَ نَبۡطِشُ﴾ أخرج البخاري في تتمة الرواية السابقة: فلما أصابتهم الرّفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى المشركين بأنهم في شكّ من التّوحيد والبعث وقدرة الله، ذكر تعالى أوصاف يوم العذاب الذي سيحلّ بهم في الدُّنيا والآخرة، تهديداً لهم، وتسليةً لرسوله، وأنه لا يؤمل اتِّعاظهم بالرغم من تهديدهم وإظهار المعجزات والبيِّنات على يد رسول الله، ووصفهم له بأنه معلَّم مجنون.

التفسير والبيان:

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾ هذا توعُّد من الله وتهديد للمشركين، يقول الله فيه لنبيِّه: فانتظر اليوم الذي تأتي فيه السماء بهيئة كالدُّخان الواضح المنتشر في الفضاء، وهذا الدُّخان بالنسبة للماضي هو ما أصاب قريشاً من الجدب والقحط مدة سبع سنين، بدعاء النَّبي ﷺ، حتى كان الرجل يرى من شدّة الجوع ما بين السماء والأرض دخاناً، لضعف البصر وزيغانه، كما تقدّم في بيان سبب النّزول عن ابن مسعود رضي الله عنه، أو هو غبار الحرب يوم بدر.

وأما بالنسبة للمستقبل فهو أمارة وعلامة من أشراط الساعة، يمكث في الأرض أربعين يوماً، حيث يظهر في الفضاء غبار ذري أو غيره كالدُّخان، يجعل الجو مظلماً، وهذا ماأكَّده العلماء في نهاية العالم، حيث تضعف الطاقة الشمسية، وصفة ذلك الدُّخان العموم والشمول، كما قال تعالى:

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي يشمل الناس ويحيط بهم من كل جانب، فيقولون: هذا عذاب أليم جداً، أو يقول الله لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً.

وحينئذٍ يستغيث الناس بالله قائلين:

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي يقولون: يا ربَّنا اكشف عنّا عذابك، إنّا مصدِّقون بالله ورسوله، أو إن كشفت عنّا هذا العذاب أسلمنا وآمنا، والمراد بالعذاب في الماضي الجوع الذي كان بسببه رؤية ما يشبه الدُّخان. روي أن المشركين أتوا النَّبي ﷺ وقالوا: «إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا».

وأما في المستقبل فهو عذاب أشدّ يحدث قبيل الساعة، ويكون من أشراطها وعلاماتها.

وهذا كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧]، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٤].

ثم نفى الله صدقهم في الوعد بالإيمان قائلاً:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ أي من أين وكيف لهم التّذكر والاتّعاظ والوفاء بالوعد بالإيمان بعد كشف العذاب؟ وكان قد جاءهم رسول مبين أدلّة الإيمان، ظاهر الآيات والمعجزات، ثم أعرض هؤلاء الكفار عنه، وقالوا عنه: إنما يعلمه القرآنَ بشر، وقالوا أيضاً: إنه مجنون لا عقل له، وهذا يدلّ على أنّ الآيات نزلت في

قريش، أي كيف يتذكر هؤلاء وأنّى لهم الذِّكرى؟ وقد سبق ما حدث منهم من الإعراض عن رسول الله وعن القرآن وهديه، وافتروا على الرّسول بأن معلمه غلام رومي وأنه مجنون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٣].

ثم أعلن الله تعالى عودتهم صراحة إلى الكفر، فقال:

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي إنا سنرفع عنكم العذاب زماناً قليلاً، وسنؤخِّره قليلاً بعد توافر أسبابه، وهذا كالحكم الصادر بالعقوبة مع وقف التّنفيذ، فإنكم راجعون إلى ما كنتم عليه من الشّرك والكفر والعناد، وقد رجعوا فعلاً.

وهذا كقوله تعالى في قوم يونس: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٨].

وتأخير العذاب إلى يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي إنكم مؤجلون إلى عذاب شديد هو عذاب النار في يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكون فيه البأس الأكبر والأخذ الأشد، وفيه ننتقم أشدّ الانتقام، أي نعاقب هؤلاء الكفار.

وقيل كما روي عن ابن مسعود: إنه يوم بدر، لما عادوا إلى التّكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم، انتقم الله منهم بوقعة بدر، قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر.

والظاهر كما رجّح ابن جرير الطبري وابن كثير أن ذلك يوم القيامة، وبه قال الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً - هدد الله المشركين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وطالب نبيَّه بأن ينتظر وجود العذاب بهؤلاء الكفار، أما في الدنيا فيتعرّضون لظلمة في أبصارهم من شدةالجوع؛ لأن النَّبي ﷺ لما دعا عليهم بقوله: «اللهم اجعل سنِيهم كسني يوسف» ارتفع المطر وأصابت قريشاً شدة المجاعة، حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل، لِمَا به من الجوع يرى ما بينه وبين السماء كالدُّخان، كما قال ابن عباس وغيره.

وأما في الآخرة فينتقم الله منهم يوم البطشة الكبرى- يوم القيامة- ويدخلهم النار.

ثم إن من علامات القيامة ظهور دخان في العالم، أي ظلمة بسبب ضعف الطاقة الشمسية في ذلك الوقت، وذلك يوم عسير وشديد على الكافرين، وأما المؤمنون فينجيهم من بأس ذلك اليوم، ويحميهم من شدته.

روى أبو سعيد الخدري مرفوعاً: «أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة؛ يأخذ المؤمن منه كالزَّكْمَة(الزّكام) وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كلّ مسمع منه». وعن حُذيفة أنّ النَّبي ﷺ قال: «أوّلُ الآيات: الدُّخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عَدَن أبْيَنَ، تسوق الناس إلى المحشر» وأبين: اسم رجل بنى هذه البلدة ونزل بها.

٢ً - شأن الكافر وطبيعته اللجوء إلى الله وقت الشّدة والمحنة، ثم العودة إلى الكفر بعد الفرج وكشف الضّرّ. وهذا ما حدث لمشركي مكة، فقد روي: أن قريشاً أَتَوْا النَّبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول.

٣ً - الله سبحانه عليم بما يحدث من الكفار، ولكن اقتضت رحمته أن يشمل عباده جميعاً باللطف المرة تلو المرة، لعلهم أن يصلحوا أحوالهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ لأنه يمهل ولا يهمل.

وهذا معروف عن قريش، فمن أين لهم التّذكر والاتِّعاظ والاعتبار عند حلول العذاب؟ وقد جاءهم رسول من أنفسهم يبين لهم الحق، ثم أعرضوا عنه، بل إنهم اتَّهموه زوراً وبهتاناً بأنه يعلِّمه بشر وهو غلام رومي لبعض ثقيف، أو تعلِّمه الكهنة والشياطين، ثم هو مجنون وليس برسول: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٨/٥] .

٤ً - مع كلّ هذا ومع علم الله الشامل بما سيكون، وعد أن يكشف عن قريش ذلك العذاب في زمان قليل، ليَعْلَم أنهم لا يَفُون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه، كما قال ابن مسعود، فلما كشف عنهم باستسقاء النَّبي ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه.

ومن قال: إن الدُّخان منتظر قرب القيامة قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية، من آيات قيام الساعة، ثم من أصرّ على كفره استمرّ عليه.

ومن قال: هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر.

٥ً - إن يوم القيامة يوم رهيب، فهو يوم البطشة الإلهية الكبرى، ويوم الانتقام من الظالمين والمشركين والكافرين، وذلك بعذاب جهنم.

والخلاصة: تضمّنت الآيات تحليلاً دقيقاً لطبائع الكفار، ونبّهت إلى أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرّعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف، وأخبرت عن تهديدات متكررة، وتقريعات وتوبيخات متوالية بقصد الرّدع والزّجر وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

ضرورة الاعتبار بقوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ آتيكم).

﴿تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾:

وقرأ ورش (تومنوا).

﴿فَأَسْرِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (فَاسْر).

﴿وَعُيُونٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (وعِيون).

الإعراب:

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَنْ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف الجر، أي وجاءهم رسول بأن أدوا، و﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: إما منصوب بـ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ أو منصوب على النداء المضاف، ومفعول ﴿أَدُّوٓاْ﴾ محذوف، تقديره: أدوا إليّ أمركم يا عباد الله. و﴿أَنْ﴾: مفسرة لأن ﴿وَجَآءَهُمْ﴾ تتضمن معنى القول؛ لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله، أو هي المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث: أدّوا إلي.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: في موضع نصب بالعطف على ﴿أَنْ﴾ الأولى.

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي: من أن ترجمون.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بفتح ﴿أَنَّ﴾: في موضع نصب بـ ﴿فَدَعَا﴾ ومن قرأ بالكسر فعلى تقدير: (قال) أي (فقال: إن هؤلاء).

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ﴿رَهْوًا﴾: حال، أي ساكناً، حتى يدخلوا فيه من غير نفرة عنه.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ الكاف: إما في موضع رفع، خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، وإما في موضع نصب على الوصف لمصدر محذوف، تقديره: يفعل فعلاً كذلك بمن يريد إهلاكه. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾: عطف على الفعل المقدر، أو على (تركوا).

﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ، مِن فِرْعَوْنَ﴾: ﴿مِن﴾: إما بدل من ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وتقديره: من عذاب فرعون، فحذف المضاف، أو حال من ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي كائناً من فرعون، فلا يكون فيه حذف مضاف.

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان أو حال من ضمير ﴿عَالِيًا﴾.

البلاغة:

﴿فَتَنَّا﴾ استعارة تبعية، حيث شبه الابتلاء والاختبار بالفتنة.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ إيجاز بحذف كلام، أي وقلنا له: فأسر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ استعارة تمثيلية، أي لم تحزن على هلاكهم السماء والأرض، وهذا أسلوب عربي يقال للتحقيّر والتهكم بحالهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ رثاء وتفجع وإظهار الأسى والحسرة للعبرة والعظمة للأحياء.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَنَّا﴾ بلونا واختبرنا وامتحنا .﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، او بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم، وقرئ بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم .﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه فهو جامع لخصال الخير والأفعال الحميدة، وهو موسى عليه السلام .﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بأن أدوا إلي حق الله من الإيمان وقبول الدعوة، أي أظهروا إيمانكم لي يا عباد الله، أو أطلقوا معي بني إسرائيل وأرسلوهم .﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مؤتمن على ما أرسلت به، غير متهم، لدلالة المعجزات على صدقه، أو لائتمان الله على وحيه ورسالته، وهو علة الأمر.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا تتكبروا على الله بترك طاعته، والاستهانة بوحيه ورسوله .﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي ببرهان بيّن واضح على رسالتي، وهوعلة النهي .﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي التجأت إليه وتوكلت عليه أن ترجموني بالحجارة، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً، أو تقتلوني. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾ تصدقوني .﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني، واتركوا أذاي، ولا تتعرضوا لي بسوء، فإن ذلك ليس جزاء من دعاكم إلى الفلاح.

﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن هؤلاء. ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾ مشركون، وهو تعريض بسبب الدعاء عليهم. ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ أي فقال: أسرِ ببني إسرائيل، أي سر بهم ليلاً، وقرئ بوصل الهمزة من (سرى). ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده. ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ ساكناً منفرجاً مفتوحاً كما هو على هيئته بعد تجاوزه، ولا تضربه بعصاك، ولا تغير منه شيئاً، حتى يدخل فيه القبط شعب فرعون. ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ أي لأنهم غارقون.

﴿جَنَّٰتٖ﴾ بساتين. ﴿وَعُيُونٖ﴾ ينابيع جارية. ﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ مجالس ومنازل حسنة. ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾ من النعم، أي تنعم وحسن ومتعة ونضرة، والنّعمة: ما ينعم به على الإنسان، من الإنعام. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ متنعمين أصحاب فاكهة، وقرئ «فكِهين» أي أشرين بطرين مستهزئين.

﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ أي الأمر كذلك، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها. ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ أي ورثنا أموالهم. ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ بني إسرائيل.

﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، تقول العرب إذا مات رجل خطير في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض، وبكته الريح، وأظلمت له الشمس، وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

الشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة ... تبكي عليك، نجومَ الليل والقمرا

أي يا نجوم الليل والقمر.

وقالت الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

قال الزمخشري: وذلك على سبيل التمثيل والتخييل، مبالغة في وجوب

الجزع والبكاء عليه. والمراد لا أسف على فرعون وقومه، بخلاف المؤمنين يبكي عليهم بموتهم مصلاهم من الأرض، ومصعد عملهم من السماء. ﴿مُنظَرِينَ﴾ ممهلين ومؤخرين التوبة إلى وقت آخر.

﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستخدامه نساءهم. ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ إما على حذف مضاف، أي عذاب فرعون أو حال من العذاب كما تقدم. ﴿عَالِيًا﴾ متكبراً جباراً. ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الشر والفساد، وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً، أو حال من ضمير ﴿عَالِيًا﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم. ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ منا بحالهم أي عالمين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ اخترناهم على عالمي زمانهم. ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ اختبار ظاهر.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى إصرار مشركي مكة على كفرهم، بيَّن أن كثيراً من المتقدمين كانوا أمثالهم في تكذيب الرسل، وفي طليعتهم قوم فرعون، الذين كذبوا رسولهم موسى عليه السلام، فنصره الله عليهم، وأغرقهم، وجعلهم عبرة للمعتبر.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي لقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، أرسل الله إليهم رسولاً كريماً جامعاً لخصال الخير والأفعال المحمودة، وهو موسى عليه السلام، وهو كريم على الله، وكريم في قومه.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي وجاءهم رسول بأن أرسلوا معي عباد الله وهم بنو إسرائيل، وأطلقوهم من العذاب، فإني رسول من الله مؤتمن على الرسالة غير متهم، وهذا كقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٢٠/٤٧].

ويجوز أيضاً أن يكون قوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ نداء لهم، والتقدير: أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته، وهذا هو الظاهر المناسب لأصول دعوة الرسول قومه وللكلام الآتي بعده، أما إطلاق بني إسرائيل فهو مطلب فرعي ثانوي بالنسبة لأصل الدعوة.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ أي لاتتجبروا ولا تتكبروا عن اتباع آيات الله، والانقياد لبراهينه، ولا ترفعوا عن طاعته ومتابعة رسله، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] إني آتيكم بحجة ظاهرة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والمعجزات القاطعات كالعصا واليد وسائر الآيات التسع، فهددوه بالرجم كما قال تعالى:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي أستعيذ بالله وألتجئ إليه وأتوكل عليه مما تتوعدوني به من القتل بالحجارة أو الإيذاء والشتم.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ أي وإن لم تصدِّقوني وتقرّوا بنبوتي وبما جئتكم به من عند الله، فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى إلى أن يحكم الله بيننا.

فلما يئس من إيمانهم، ولمس إصرارهم على الكفر وعنادهم، دعا عليهم فقال:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي فدعا موسى ربه حين كذبوه وهمُّوا بقتله بأن هؤلاء قوم مكذبون رسلك مشركون بك، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ١٠/٨٨-٨٩].

وحينئذ أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر سراً ليلاً:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسير بقومه بني إسرائيل ليلاً؛ لأن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٢٠/٧٧].

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي دع يا موسى البحر ساكناً منفرجاً مفتوحاً، لا تضربه بعصاك حتى يعود كما كان، ليدخله فرعون وجنوده، فإنهم قوم مغرقون في اليم. وهذه بشارة من الله بنجاتهم وإهلاك عدوهم ليسكن قلب موسى عليه السلام، ويطمئن جأشه.

ثم ذكر تعالى ما خلّفوه وراءهم من عز ومجد ونعيم وثراء، فقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي كثيراً ما تركوا في مصر وراءهم من بساتين خضراء، وحدائق غناء، وأنهار متدفقة وآبار مترعة بالماء، وزروع نضرة، ومنازل ومجالس حسنة وثيرة، وتنعم بالمال والخير الوفير، كانوا يرفلون بالنعمة ويتنعمون بعيشة هنية، ويستمتعون بأنواع اللذة، كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة، فيأكلون ويلبسون ما شاؤوا.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي مثل ذلك الإهلاك والسلب والتدمير فعلنا بالذين كذبوا رسلنا، ونفعل بكل من عصانا، وأورثنا تلك البلاد بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٧] .

ثم تهكم الله بهم وأبدى عدم الاكتراث بشأنهم قائلاً:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي لا أسف ولا حزن عليهم من أحد بسبب بغيهم وفسادهم، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم، ولم يمهلوا لتوبة؛ لأنها غير منتظرة منهم.

ثم أتبع الله تعالى ما يقابل النقمة بالنعمة للعبرة، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي لقد خلصنا شعب بني إسرائيل بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة، من عذاب فرعون الذي كان متعالياً عنيداً، متكبراً متجبراً، ومن المسرفين في الكفر بالله، وارتكاب معاصيه، ورأس الكفر: ادعاؤه الألوهية والربوبية بقوله: أنا ربكم الأعلى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٤] وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٤٦] .

ويلاحظ أن بيان الإحسان إلى موسى وقومه كان بعد بيان كيفية إهلاك فرعون وقومه؛ لأن دفع الضرر مقدم على جلب المصالح والمنافع.

ثم بيّن الله تعالى مدى تكريمه لبني إسرائيل حين ذاك قائلاً:

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي لقد اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، لكثرة الأنبياء فيهم، ولصبرهم مع موسى، وجهادهم في سبيل الله، فلما بدلوا الإيمان بالكفر، والصلاح بالفساد غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير.

وأعطيناهم على يد موسى عليه السلام المعجزات الظاهرة والبراهين الواضحة، وخوارق العادات، مما فيه اختبار ظاهر، وامتحان واضح لمن اهتدى به، ولننظر كيف يعملون. ومنها: إنجاؤهم من الغرق، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى لهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

١ً - لا يغترن أحد بمال أو جاه أو سلطان أو عزّ أو حكم قوي، فذلك كله للاختبار والامتحان، فقد ابتلى الله قوم فرعون بالأمر بطاعة الله ورسولهم موسى عليه السلام، فكذبوا وكفروا، والمقصود أنه عاملهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذبوا فأهلكوا، وهكذا يفعل بأعداء محمد ﷺ إن لم يؤمنوا.

٢ً - طلب موسى عليه السلام من فرعون وقومه أن يتبعوه في رسالته، كما قال ابن عباس، أو أن يرسلوا معه بني إسرائيل ويطلقوهم من العذاب، كما قال مجاهد، وهو في الحالين أمين على الوحي، فما عليهم إلا أن يقبلوا نصحه.

٣ً - اتبع موسى عليه السلام معهم أسلوباً لطيفاً، فنصحهم بألا يتكبروا على الله ولا يترفعوا عن طاعته، وخاطبهم بما يقنع عقلاً ومنطقاً، فذكر لهم أنه يأتيهم بحجة بينة وبرهان واضح على صدقه، وصحة دعوته، وإثبات

ألوهية الله الواحد الأحد، وحرص على مسالمتهم قائلاً: إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني، فدعوني واتركوني، وخلّوا سبيلي وكُفّوا عن أذاي.

٤ً - لم يَدْعُ نبي على قومه إلا بعد اليأس من إيمانهم، وهكذا فعل موسى عليه السلام، فإنه لما وجد إصرار فرعون وقومه على الكفر دعا ربه بأن هؤلاء قوم مشركون، امتنعوا من الإيمان، ومن إطلاق بني إسرائيل.

٥ً - أجاب الله دعاء موسى عليه السلام، فأمره بأن يسير بمن آمن بالله من بني إسرائيل ليلاً قبل الصباح، فإن فرعون وقومه سيتبعونهم حينما يعلمون بخروجهم.

وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف إما من العدو، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان.

وأمره ربه أيضاً أن يترك البحر الذي فتح لهم أثناء العبور بأمر من الله مفتوحاً ساكناً على حاله، لا يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، وذلك استدراج لقوم فرعون ليعبروا فيغرقهم الله بعد أن نجّى بني إسرائيل.

٦ً - دلت آية ﴿كَمْ تَرَكُواْ﴾ على أنه تعالى أغرق فرعون، ثم ذكر أنهم تركوا أشياء خمسة: هي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والنَّعْمة بالفتح من التنعيم، أي حسن العيش ونضارته، أو سعة العيش والراحة.

أما النِّعمة بالكسر من الإنعام: فهي إحسان الله وعطاؤه وإفضاله.

وورَّث تعالى تلك الديار بما فيها من الخيرات لبني إسرائيل، بعد أن كانوا مستعبدين فيها، فصاروا لها وارثين، كوصول الميراث إلى مستحقيه.

٧ً - لا أسف ولا حزن على إهلاك فرعون وجنوده؛ لأنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم السماء والأرض لأجله، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح، فتبكي فَقْد ذلك.

قال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمنين أربعين صباحاً. وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما في المؤمن: إنه يبكي عليه مُصَلاَّه من الأرض، ومصعد عمله من السماء. وهذا تعبير كنائي يراد به فقد الأعمال الصالحة. قال الواحدي في البسيط: روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال فيما رواه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية: «ما من عبد مسلم إلا له بابان في السماء: باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله وكلامه، فإذا فَقَداه بكيا عليه» وتلا هذه الآية.

٨ً - امتن الله تعالى بحق على بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وقومه إذ نّجاهم أولاً من بطش فرعون وظلمه واستعباده لهم، وقتله الأبناء، واستخدام النساء، وتكليفهم بالأعمال الشاقة؛ لأن فرعون كان جباراً عالياً من المشركين، وليس هذا علو مدح بل علو إسراف.

٩ً - ثم ذكر ثانياً أنه تعالى اختارهم على علم منه باستحقاقهم على عالمي زمانهم، لكثرة الأنبياء منهم، وإيمانهم بموسى وصلاحهم، فلما بدّلوا تبدل الحال، وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

١٠ً - ثم أبان ثالثاً أنه تعالى أمدهم بالآيات البينات في التوارة، وبمعجزات موسى التسع، كإنجائهم من فرعون، وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى.

١١ً - لقد تبين الفارق الواضح في هذه القصة بين الكافرين وبين المؤمنين، فقد أغرق الله الكفار الأشداء، ونـجّى المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين، والنصر للصادقين الصابرين المستضعفين، وهذا عدل من الله تعالى، إذ لا يعقل التسوية بين الطائعين والعصاة.

فليعتبر بهذا كفار قريش وأمثالهم، فقد أهلك الله من هم أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وأعز سلطاناً ومجداً، وأقوى علماً وحضارة.

إنكار المشركين البعث وإثباته لهم

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾: ﴿إِنْ﴾: بمعنى «ما» مثل قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ و﴿هِىَ﴾ مبتدأ، و﴿مَوْتَتُنَا﴾: خبره، ولا يجوز أن تعمل ﴿إِنْ﴾ هنا في لغة من أعملها، لدخول ﴿إِلَّا﴾ لأن «إلا» إذا دخلت على «ما» بطل عملها، ومثلها «إن».

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: إما مرفوع على أنه مبتدأ، و﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ خبره، أو على أنه معطوف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وإما منصوب بفعل مقدر دلّ عليه ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وتقديره: وأهلكنا الذين من قبلهم أهلكناهم.

﴿لَٰعِبِينَ﴾حال.

البلاغة:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارة هنا للتحقير.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أسلوب التعجيز.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار، للتحقير والاستصغار.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفار قريش؛ لأن الكلام فيهم، قال البيضاوي: وقصة

فرعون- السابقة- وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حل بهم .﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ما نهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، وليس هناك حياة أخرى. ﴿بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين أحياء بعد الموتة الأولى، يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم: أحياهم ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور والبعث من الرسل والأنبياء .﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في وعدكم.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة .﴿تُبَّعٍ﴾ كل من ملك اليمن والشِّحْر وحضر موت، وجمعه التبابعة وهم ملوك اليمن، وهذا شبيه بفرعون لدى قدماء المصريين، وهو كل من ملك مصر. ومن التبابعة: ذو القرنين أو إفريقش ويسمى الصعب، وجاء بعده عمرو زوج بلقيس، ثم أبو كرب ابنه، ثم ذو نواس.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كعاد وثمود .﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ بكفرهم، والمراد: ليس كفار قريش أقوى منهم، وأهلكوا ﴿لَـٰعِبِينَ﴾ لاهين عابثين .﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي محقين في ذلك، ليستدل به على قدرتنا على البعث وغيره وعلى وحدانيتنا وغير ذلك .﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كفار مكة لا يعلمون ذلك. لقلة نظرهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ليتعظ بها كفار قريش، عاد إليهم بعد أن وصفهم أولاً بأنهم في شك من البعث والقيامة، وأنهم في إصرارهم على كفرهم مثل قوم فرعون الذين أهلكهم ونجّى بني إسرائيل، وذكر هنا صراحة أنهم منكرون للبعث، ثم رد عليهم بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما قادر على بعثهم، ثم توعدهم بالهلاك، كما أهلك قوم تبَّع من قحطان ملوك اليمن، الذي هم أقوى منهم.

وبه تبين أن الله هدد كفار مكة بمصير مشؤوم، مثل مصير قوم فرعون وقوم تبَّع.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي إن كفار مكة هؤلاء يقولون: ما هي وما العاقبة إلا الموتة الأولى التي نموتها بعد هذه الحياة الدنيوية، ولا حياة بعدها، ولابعث، وما نحن بمبعوثين.

وهذا إنكار من الله تعالى على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٩].

ثم احتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا مخاطبين النبي والمؤمنين:

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي فإن كان البعث حقاً، فأرجعوا إلينا آباءنا بعد موتهم إلى الدنيا، إن كنتم صادقين فيما تدعونه من البعث.

يروى أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يعجل الله لهم إحياء الموتى، فينشر كبيرهم قصيّ بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد ﷺ وصحة البعث، فلم يجبهم الله إلى ذلك.

وهذه حجة واهية، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً.

ثم هددهم تعالى وتوعدهم وأنذرهم بأسه الذي لا يرد، فقال:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي

أهم كفار قريش الذين هم عرب من عدنان خير في القوة والمنعة، أم قوم تُبَّع الحميري الذين هم عرب من قحطان، الذين كانوا أقوى جنداً وأكثر عدداً، وكان لهم دولة وحضارة عريقة ومجد، وكذلك الأمم الذين سبقوهم، كعاد وثمود ونحوهم، أهلكناهم جميعاً لكفرهم وإجرامهم، فإهلاك من هو دونهم لجرمه وضعفه وعجزه بالأولى، فهم ليسوا بخير من قوم تبع في العدد والعز والمنعة.

وتُبّع: رجل صالح دار في الدنيا بجيوشه وغلب أهلها وقهرهم، وقد كانت حمير وهم سبأ، كلما ملَك فيهم رجل سموه تُبّعاً، كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس، و(قيصر) لمن ملك الروم، و(فرعون) لمن ملك مصر كافراً، و(النجاشي) لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من الألقاب السلطانية.

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبّوا تُبّعاً فإنه قد أسلم» . وكان يكتب إذا كتب: بسم الله الذي ملك براً وبحراً.

ثم أقام تعالى الدليل على قدرته الفائقة ليستدل بذلك على إمكان البعث، فقال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي كيف ينكرون البعث، وقد شاهدوا أدلة قدرتنا في خلق هذا الكون، فإنا خلقنا هذه السماوات والأرضين وما بينهما من المخلوقات المنظورة وغير المنظورة، ما خلقنا ذلك عبثاً ولعباً، وباطلاً ولهواً، وإنما بإبداع لا مثيل له، ولحكمة منقطعة النظير، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٧] وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥-١١٦]

فهذا برهان على صحة البعث. وإنما جمع السماوات في قوله .﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لموافقة قوله في أول السورة: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا خلقاً ملازماً للحق، ولإظهار الحق، وهو الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك، لقلة نظرهم، فصاروا لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لا يؤمن المشركون بالبعث، فهو قوم ماديون دهريون كما في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٤] وقالوا هنا: ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى في عالم الذر والنطف دون الموتة الثانية.

٢ - احتجوا بحجة واهية وهي الإتيان بآبائهم وأجدادهم أحياء، بعد أن ماتوا، وتلك مغالطة؛ لأن المقصود بالبعث: هو إحياء جميع الخلق بعد فناء الدنيا، ولأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف مرة أخرى.

قيل: إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما- قُصِيّ بن كِلاَب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت.

٣ - إنهم بهذا القول استحقوا العذاب؛ إذ ليسوا هم خيراً من قوم تبّع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك، فكذا هؤلاء. وكان من قبلهم أظهر نعمة وأكثر أموالاً، وأعز وأشد وأمنع جانباً، فأهلكهم الله لكفرهم وإجرامهم.

قال القرطبي: وليس المراد بتُبَّع رجلاً واحداً، بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة، فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفرس، وقيصر للروم.

ثم قال: والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال ﷺ: «ولا أدري أتبّع لعينٌ أم لا؟» ثم قدر روي عنه أنه قال فيما رواه أحمد عن سَهل بن سعد: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» . فهذا يدلك على أنه كان رجلاً واحداً بعينه، وهو- والله أعلم- أبو كرب الذي كسا البيت بعدما أراد غَزْوَه، وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهَاجَر نبي اسمه أحمد[١]

٤ً - لم يخلق الله السماوات والأرض عبثاً ولهواً، وإنما خلقهما بالأمر الحق، وللحق، ولإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته، ولكن أكثر الناس وهم في الماضي مشركو مكة لا يعلمون ذلك.

٥ً - لم يذكر كفار مكة في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يجاب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار، لذا اقتصر الله تعالى على الوعيد والتهديد بأن يتعرضوا للهلاك مثلما أهلك قوم فرعون وقوم تُبَّع.

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٤٤ وما بعدها.

أهوال يوم القيامة التي يتعرض لها الكفار والعصاة

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿شَجَرَتَ﴾ :

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿يَغْلِى﴾ : قرئ:

١- (يغلي) وهي قراءة ابن كثير، وحفص.

٢- (تغلي) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (فاعتُلوه).

﴿رَأْسِهِۦ﴾ :

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (راسه).

﴿ذُقۡ إِنَّكَ﴾:

وقرأ الكسائي (ذق أنك).

الإعراب:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَـٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ﴿يَوۡمَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ و﴿مِيقَـٰتُهُمۡ﴾: خبرها، و﴿أَجۡمَعِينَ﴾: توكيد ضمير ﴿مِيقَـٰتُهُمۡ﴾.

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى﴾ ﴿يَوۡمَ﴾: بدل منصوب من ﴿يَوۡمَ﴾ الأول.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ ﴿مَن﴾: بالنصب على الاستثناء المنقطع، وبالرفع: إما بدل من ضمير ﴿يُنصَرُونَ﴾ أي ولا ينصر إلا من رحم الله، أو بدل من ﴿مَوۡلًى﴾ الأول، أي يوم لا يغني إلا من رحم الله، أو مبتدأ، تقديره: إلا من رحم الله فيعفى عنه.

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾: خبر ثان، و﴿يَغۡلِي﴾ بالياء: لتذكير المهل، وهو خبر ثالث، ويقرأ بالتاء: لتأنيث الجرَّة، وهو حال من المهل.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ بالكسر: على الابتداء، وتقرأ بالفتح بتقدير حذف حرف الجر، أي ذق لأنك العزيز الكريم عند نفسك.

البلاغة:

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿ٱلۡكَرِيمُ﴾ سجع رصين لا تكلف فيه، فيه جمال.

المفردات اللغوية:

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يفصل فيه بين الناس، فيفصل المحق عن المبطل بالجزاء، ويفصل الحق عن الباطل ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ وقت موعدهم للعذاب الدائم ﴿لَا يُغْنِى﴾ لا يدفع عنه ﴿مَوْلًى﴾ ناصر بقرابة أو صداقة، ويطلق المولى في الأصل على السيد والعبد وابن العم والناصر والحليف والقريب والصديق ﴿شَيْـًٔا﴾ من العذاب أو الإغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون منه.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعه فيه، وهم المؤمنون فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذن الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في انتقامه من الكفار، فلا ينصر من أراد تعذيبه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ من أراد أن يرحمه، وهم المؤمنون.

﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ هي شجرة ذات ثمر مرّ، تنبت بتهامة، شبهت بها شجرة الجحيم، وهي الشجرة الملعونة التي ينبتها الله تعالى في قعر جهنم ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ الكثير الإثم، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، مثل أبي جهل وأصحابه وأمثالهم من الملاحدة ذوي الإثم الكبير في كل عصر. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ ما يمهل في النار حتى يذوب أو دردي الزيت الأسود، أي عكر الزيت والقطران ومذاب النحاس أو غيره من المعادن ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الساخن الشديد الحرارة.

﴿خُذُوهُ﴾ أي يقال للزبانية: خذوا الأثيم ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ بكسر التاء وضمها: جُرُّوه وسوقوه بغلظة وشدة وعنف، ومنه العتل: الجافي الغليظ ﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وسط النار ﴿عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي من الحميم الذي لا يفارقه العذاب، فهو أبلغ من قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ لأن المراد: يصب من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم، للمبالغة، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيدت ﴿مِن﴾ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ﴾ أي يقال له: ذق العذاب، استهزاءً به أو تقريعاً على ما كان يزعمه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ بزعمك وقولك: ما بين جبليها أعز وأكرم مني ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إن هذا العذاب ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ تشكون فيه أو تمارون.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٣) وما بعدها:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ﴾: أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزُّبْد، فيقول: تزقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت: ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ، طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

نزول الآية (٤٩):

﴿ذُقۡ إِنَّكَ﴾: أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمه قال: «لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فنزع يده من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمتَ أني امْنَعُ أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأذله وعيَّره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾».

وأخرج ابن جرير الطبري عن قتادة نحوه. قال أبو جهل لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعزّ ولا أمنع مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، فنزلت الآية.

المناسبة:

بعد إثبات البعث والقيامة، أعقبه تعالى بذكر ما يتعرض له الكافر يوم القيامة من أهوال بفقد الأعوان والنصراء، وتجرع الزقوم، وشرب المهل عكر

الزيت والقطران، وجره بشدة وعنف إلى جهنم، وصب الماء الحميم البالغ منتهى السخونة والحرارة فوق رأسه، وتقريعه والاستهزاءِ به فيما زعمه من عز وإكرام، جزاء الشك بيوم البعث والقيامة.

التفسير والبان:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إن يوم القيامة الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين، ويثيب المؤمنين، هو ميعاد جمعهم ووقت حسابهم وجزائهم جميعاً، يجمعهم كلهم أولهم عن آخرهم، ليميز المحسن من المسيء، والمحق من المبطل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧/٧٨]

وسمي يوم القيامة (يوم الفصل) لأنه تعالى يفصل بين عباده في الحكم والقضاء، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار، أو يفصل بين المؤمنين وبين ما يكرهون، وبين الكافرين وبين ما يشتهون، فيفصل بين الوالد وولده، والرجل وزوجته، والمرء وخليله.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي يوم لا ينفع قريب قريباً، ولا يدفع عنه شيئاً من العذاب أو الإغناء، ولا هم يمنعون من عذاب الله، فلا يفيد المؤمن الكافر ولا ينصر القريب قريبه، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣/٦٠] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١/٢٣] وقوله عزو وجل: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٠-١١] أي لايسأل أخ له عن حاله، وهو يراه عياناً، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨/٢] .

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ أي لكن من رحمه الله فإنه ينتصر وينجو، ولا يحتاج إلى ناصر غيره، إن الله هو الغالب الذي لا

يفلت أحد من أعدائه من عذابه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ : ذو الرحمة الواسعة بعباده المؤمنين، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، ويجوز أن يكون متصلاً؛ أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

وبعد إقامة الدليل على أن القيامة حق، ووصف ذلك اليوم، أردفه تعالى بوعيد الفجار الكفار الجاحدين لقاءه، قائلاً:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن الشجرة التي خلقها الله في جهنم وهي الشجرة الملعونة، يكون ثمرها طعام أهل النار الكثيري الإثم، قولاً وفعلاً، فإذا جاعوا أكلوا منها، ويدخل معهم أبو جهل. و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ : مبالغة الآثم.

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي وذلك الطعام يشبه دردي الزيت، وعكر القطران، والنحاس المذاب، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء الشديد الحرارة، لحرارته ورداءته. شبه ما يصير في البطون منها بالمهل: وهو النحاس المذاب.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ يقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوا هذا الأثيم، فادفعوه وجروه إلى وسط النار بعنف وغلظة.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ أي ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة المتقدم الوصف، كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وقولوا له تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً: ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم في زعمك في الدنيا.

﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي إن هذا العذاب هو الذي كنتم تشكون فيه، حين كنتم في الدنيا. وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ

إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ٥٢/١٣-١٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن يوم القيامة هو يوم الحسم النهائي في مصير الخلائق، وهو يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، فيتميز المسيء من المحسن، والمبطل من المحق، ويكون هناك فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد.

٢ً - من خصائص يوم القيامة: فقد النصراء والأعوان والأقارب، فلا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقرابته، لكن من رحمه الله فإنه ينجو وينتصر بنصر الله، ولا يحتاج إلى معونه المخلوقين، والله سبحانه في ذلك اليوم هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٤٠/٣] . فقرن الوعد بالوعيد.

٣ً - إن طعام أهل النار وهم الآثمون الفجار هو الثمر الشديد المرارة من شجرة الزقوم التي لا تقبل الاحتراق في النار، وهو لشدة حرارته ورداءته يغلي في بطون الكفار، كغلي الماء الشديد السخونة، فإذا جاع أهل النار أكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار.

٤ً - يتعرض أهل النار لأنواع كثيرة من الإهانة والذل، منها: أنهم بواسطة الزبانية يدفعون في النار على وجوههم دفعاً قوياً جداً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويلقون في وسط النار ليذوقوا عذابها الشديد.

ومنها: أنه يقال للأثيم الفاجر توبيخاً وتقريعاً وتهكماً واستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك كنت تزعم أنك المتعزز المتكرم، والمراد: إنك أنت الذليل المهان.

ومنها: أن ملائكة العذاب زبانية جهنم تقول للكفار: إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكّون فيه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ١٠٢/٥-٧].

ما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في الجنان

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿مَقَامٍ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (مُقام).

﴿وَعُيُونٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (وعِيون).

الإعراب:

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ﴾.

﴿يَلْبَسُونَ﴾ خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾ أو حال من الضمير في الجارّ، أو استئناف.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال من واو ﴿يَلْبَسُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ الكاف: إما في موضع الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، أو في موضع النصب على أنها وصف لمصدر محذوف، تقديره: يفعل بالمتقين فعلاً كذلك.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿يَدْعُونَ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ والباء: ليست للتعدية؛ لأن ﴿يَدْعُونَ﴾ متعد بنفسه، وإنما هي للحال، تقديره: متلبسين بكل فاكهة، بمنزلة الباء في قولهم: خرج زيد بسلاحه، أي متلبساً بسلاحه.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي لكن قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا، والبصريون يقدرون «إلا» في الاستثناء المنقطع بـ «لكن» والكوفيون يقدرونه بـ «سوى».

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ ﴿فَضْلًا﴾: إما منصوب على المصدر المؤكد، وتقديره: ويفضل عليهم فضلاً، أو منصوب بفعل مقدر، وتقديره: أعطاهم فضلاً.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ الهاء تعود على الكتاب، وقد تقدم ذكره في أول السورة في قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

المفردات اللغوية:

﴿فِى مَقَامٍ﴾ مجلس أو مكان، والمَقَام والمُقَام بمعنى واحد ﴿أَمِينٍ﴾ يؤمن فيه من كل خوف وهمّ وحزن ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع جارية ﴿سُندُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج أو الحرير ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه وهما مُعَرَّبان ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض، فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك، أو آتيناهم مثل ذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ بنساء بيض حسان واسعات الأعين ﴿يَدْعُونَ﴾ يطلبون ويأمرون

بإحضار ما يشتهون من الفواكه وغيرها ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي في الآخرة، بل يحيون فيها دائماً ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستثناء منقطع أو متصل، والمراد به المبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت، فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ حماهم وحفظهم، وقرئ: « ووقيهم ».

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب ﴿يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلنا القرآن حيث أنزلناه بلغتك، لتفهمه العرب منك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتعظون به، فيؤمنون بك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر هلاكهم إذا لم يتذكروا ولم يؤمنوا ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون هلاكك وما يحل بك.

المناسبة:

بعد وعيد الكفار الأشقياء وبيان ما يتعرضون له من أهوال الآخرة، ذكر تعالى وعده للمتقين الأبرار السعداء وما أعده لهم من جنات النعيم ذات المآكل والمشارب والملابس والزوجات الفائقة، وأنه نعيم أبدي. ثم أتبعه بختام للسورة يناسب مطلعها وهو الامتنان على العرب بنزول القرآن بلغتهم ليعملوا بأحكامه، فإن كذّبوا انتقم الله منهم.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة أنواع لنعيم الجنان لبيان وعد الأبرار، وهي:

أ - ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي إن المتقين لله في الدنيا باتقاء الشرك والمعاصي وامتثال الفرائض، لهم مساكن آمنة من جميع المخاوف، طيبة المكان والنزهة، فهي في بساتين غناء وينابيع متدفقة

بالماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٢-٢٨] .

وهذا في مقابلة ما للكفار من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

٢ و ٣ - ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي ملابسهم من الحرير الرقيق والغليظ، ذي البريق واللمعان والجمال الأخّاذ، وجلوسهم على صفة التقابل بقصد الاستئناس ونظر بعضهم لبعض، كقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٣-٤٤] .

٤ - ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي هذا العطاء، مع تزويجهم أو قرنهم بالزوجات الحسان الحور البيض الواسعات الأعين، اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٥٦، ٥٨]. أكثر المفسرين على أنه لا عقود زواج بالحور، وأن المراد: قرناهم بهم.

٥ - ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي يطلبون في الجنة ما شاؤوا من أنواع الثمار أو الفاكهة، وهم آمنون من انقطاعها وامتناعها، بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وآمنون من الأوجاع والأسقام، ومن الموت والتعب والشيطان.

وهذا دليل على أنه اجتمعت لهم انواع اللذة والشهوة المادية والمعنوية، بهذه الأنواع الخمسة من النعيم في المسكن والملبس والمأكل والزواج والأنس والأمان، وتلك أعلى أصناف الخيرات والراحات.

ثم بيّن الله تعالى أن حياتهم دائمة، فقال:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ أي لا يموتون في الآخرة أبداً، ولا يذوقون طعم الموت بعدئذ، لكن الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا قد ذاقوها وانتهى أمرها، وحماهم الله من عذاب النار، ونجاهم منه، وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم. قال الزمخشري: هذا من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها. وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت». وأخرج مسلم وعبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرَمُوا أبداً».

وأخرج أبو بكر بن أبي داود السِّجستاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها، ولا يبأس، ويحيا فيها، فلا يموت، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وأخرج أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: «سئل نبي الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون».

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ أي تفضل الله عليهم وأعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه وإحساناً إليهم، أو لأجل إسباغ الفضل منه، ذلك هو الفوز الأكبر الذي لا يعلوه فوز.

ثبت في الصحيح عند مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» .

وبعد أن بيَّن الله تعالى دلائل قدرته، وأوضح الوعد والوعيد، ووصف القرآن في أول السورة بكونه كتاباً مبيناً (أي كثير البيان والفائدة) ذكر تعالى في خاتمة السورة ما يؤكد ذلك، فقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن وأنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها، والذي هو لسانهم ولغتهم، وجعلناه ميسراً للفهم، كي يفهمه قومك يا محمد، فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه، والمعنى: إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما أنزلناه عربياً بلغتك ليتذكروا ويتعظوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٢] .

وبالرغم من هذا الوضوح والبيان، كفر بعضهم وعاند وخالف، فسلَّى الله رسوله ووعده بالنصر، وتوعد من كذبه بالهلاك، فقال:

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي انتظر أيها النبي ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم وما يحل بهم إن استمروا على الكفر، فإنهم منتظرون ما يحل وما ينزل بك من موت أو غيره، وسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١-٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - يفيض الله على عباده المتقين الأبرار في الجنة أنواع النعم الحسية والمعنوية، ذكر منها هنا خمسة أنواع تشمل المساكن، والملابس، والتقابل في الجلسات واستئناس البعض بالبعض، والأزواج، والمآكل الدائمة. قال مجاهد: إنما سميت الحُور حوراً لأنهن يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهن وصفاء لونهنّ.

وهل الحور العين أفضل أو نساء الآدميات؟ اختلفوا في ذلك، فقال حِبّان ابن أبي جَبَلة- فيما ذكره ابن المبارك-: إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وروى ابن المبارك مرفوعاً: «إن الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف» .

وقال آخرون: إن الحور العين أفضل؛ لقوله ﷺ في دعائه فيما رواه مسلم عن عوف بن مالك: «وأبدلْه أهلاً خيراً من أهله» .

وأما مهورهن فروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العين قبضات التمر، وفِلَق الخبز» وعن أبي قِرْصافة: سمعت النبي ﷺ يقول: «إخراجُ القُمامة من المسجد مهور الحور العين» وذكر الثعلبي عن أنس أن النبي ﷺقال: «كَنْس المساجد مهور الحور العين» .

٢ً - إن تلك النعم في الجنان لها صفة الدوام والاستمرار، دون أن يطرأ عليها انقطاع، ولا ينشأ عنها أذى أو مكروه.

٣ً - أهل الجنة وأهل النار في خلود دائم، فكل منهم خالد إما في النعيم وإما في العذاب الأليم، ولا يطرأ عليهم موت، لكن الموتة الأولى في الدنيا قد ذاقوها. قال المحققون: إن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس، وفرحها بمعرفة الله

وبمحبته؛ فالإنسان الكامل هو في الدنيا في الجنة، وفي الآخرة أيضاً في الجنة، فقد صح أنه لم يذق في الجنة إلا الموتة الأولى.

واكتفى الله تعالى هنا ببشارة أهل الجنة بالخلود مع أن أهل النار يشاركونهم فيه، للدلالة على أن دوام الحياة مقرون مع ما ذكر سابقاً من حصول الخيرات والسعادات.

٤ً - أكرم الله المتقين بألوان النعيم، وحفظهم من عذاب الجحيم، تفضلاً منه عليهم، وتلك هي السعادة، والربح العظيم، والنجاة العظيمة، والفوز الأكبر الذي لا مثيل له على الإطلاق. ودل قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ على أن التفضيل أعلى درجة من الثواب المستحق، لوصفه بأنه فضل من الله، وكونه فوزاً عظيماً، أي إن المنحة الإلهية أفضل من الأجر والأجرة.

٥ً - إنما أنزل الله القرآن الكريم بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب، وسهله عليهم وعلى كل من يقرؤه ولو من غير العرب، ليتعظوا وينزجروا. وهذا في ختام السورة حث على اتباع القرآن، ودليل على أنه تعالى أراد من كل الناس الإيمان والمعرفة، وأنه ما أراد من أحد الكفر.

٦ً - هدد الله تعالى المخالفين المكذبين للقرآن ورسول الله بالهلاك والدمار، ووعد نبيه بالنصر عليهم، وسلاه عن مكابدته المشاق معهم، وأمره بانتظار ما وعده به من النصر عليهم، فإنهم منتظرون له الموت والهلاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

مكية، وهي سبع وثلاثون آية

تسميتها:

سميت (سورة الجاثية) أخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي كل أمة باركة على الرُّكَب لشدة الأهوال التي يشاهدها الناس يوم القيامة، انتظاراً للحساب، قبل قسمة الخلائق فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

١ً - ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى، والذي هو مكمِّل لما ختمت به السورة المتقدمة من جعل القرآن بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب، فهو عربي اللسان نصاً وفحوى، ومعنى وأسلوباً، وفي ذلك حث على اتباعه والإيمان به.

٢ً - تشابه السورتين في الغايات الكبرى التي يستهدفها القرآن: وهي إثبات وحدانية الله من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في خلق السماوات والأرض، ومناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة التي أهلكها الله لتكذيبهم الرسل.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السورة المكية، وبخاصة آل حم السور السبعة، وهو تأصيل عقيدة الإسلام الأساسية وإثبات عناصرها وأركانها الثلاثة: وهي الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله، وبنبوة محمد ﷺ ورسالته، والتصديق باليوم الآخر والحساب والبعث والجزاء.

ابتدأت السورة ببيان مصدر القرآن الكريم وهو الله تعالى، وإثبات وجود الخالق ووحدانيته بخلق السماوات والأرض، وخلق البشر والدواب، وتعاقب الليل والنهار، وإنزال المطر سبب الحياة، وتسخير الرياح.

ثم هددت وأوعدت كل من كذَّب بآيات الله، واستكبر عنها، واتخذها هزواً بعذاب جهنم.

وأخبرت عن نعم الله العظمى وأولها كون القرآن هدى للناس، ثم تسخير البحر لجريان السفن فيه والاتجار بين الأقطار، وتسخير جميع ما في الكون لعباد الله تعالى.

وأردفت ذلك بمبادئ خلقية واجتماعية إنسانية سلمية هي عفو المؤمنين وترفعهم عن زلات الكافرين، فالعمل الصالح أو الفاسد يعود أثره على صاحبه، وتذكير بني إسرائيل بما امتن الله عليهم من نعم روحية ومادية هي التوارة، والحكمة والفقه وفصل الخصومات بين الناس، والنبوة، ورزق الطيبات، والتفضيل على العالمين في عصرهم، والإتيان بالبينات وهي الآيات والمعجزات، وأمر الرسول بعدم إطاعة المشركين واتباع أهوائهم، والتعجب من حالهم وتجرؤهم على إنكار البعث، واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً.

وفي مقابل ذلك بيان استقلال الشريعة الإسلامية وإثبات ذاتيتها، وأمر الرسول والمؤمنين باتباعها وحدها دون ما عداها، والاعتزاز والثقة بالله الذي يمدّ نبيه بالعون وأنه ولي المتقين، والتزام منهج الله وهدايته ورحمته وهو القرآن العظيم، ومعرفة قانون الله وعدله وحكمته في التفرقة بين المؤمنين الأبرار والمجرمين الأشرار، وبين المتبصرين بآيات الله، ومن أغلق على نفسه منافذ الهداية، فحجب السمع والبصر والقلب عن نور الله.

ثم رد الله تعالى على المشركين منكري البعث بأن الله هو المحيي والمميت وجامع الناس ليوم القيامة، فهو صاحب القدرة العجيبة ومالك السماوات والأرض، والمتفرد بالسلطان الأعظم في الآخرة ذات الأهوال الرهيبة في العرض والحساب وشهادة صحف الأعمال على أصحابها.

وختمت السورة ببيان الجزاء الحق العادل، وقسمة الناس فريقين: فريق الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وفريق النار الذين كفروا بالله ورسوله، واقترفوا السيئات والمعاصي، وهزئوا بآيات الله، واغتروا بالحياة الدنيا.

وذلك كله يستوجب الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله وحده الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

سبب نزولها:

ذكر المهدوي والنحاس عن ابن عباس: أنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة، فأراد أن يبطش به، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [١٤] ثم نسخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٥]. فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية.

مصدر القرآن وإثبات الخالق ووحدانيته

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿ءَايَٰتٌ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (آياتٍ).

﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (الريح).

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ : قرئ:

١- (يؤمنون) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (تؤمنون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿تَنزِيلُ﴾ : مبتدأ، وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾.

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالضم: مرفوع بالابتداء، ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ : خبره، أو بالعطف على موضع إن واسمها وخبرها، أو مرفوع بالظرف. ومن

قرأ بالكسر: جعله منصوباً بالعطف على لفظ اسم ﴿إِنَّ﴾، أو بالعطف بالجر على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو منصوب على البدل من ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾. وكذا قوله ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقرأ بالكسر وبالضم بالأوجه السابقة.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ «نتلو» و﴿نَتْلُوهَا﴾: حال، عاملها معنى الإشارة.

البلاغة:

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ﴾ فيها تأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام للرد على المخاطبين منكري وحدانية الله.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي مطر، مجاز مرسل علاقته المسببية؛ لأن المطر النازل من السماء هو سبب الرزق والنبات، أما الرزق فلا ينزل من السماء.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ①﴾ هذه الحروف للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى أهمية ما يتلى بعدها ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيل القرآن من الله تعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القوي الغالب في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة للعباد.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن في خلق السماوات والأرض، بدليل قوله ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ لدلائل دالة على قدرة الله ووحدانيته تعالى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بهذه الدلائل ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أي في خَلْق كل واحد منكم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة إلى أن يصبح إنساناً ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ أي وخلق ما ينشر ويفرق في الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ هي ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم ﴿يُوقِنُونَ﴾ يصدقون عن يقين وإذعان بقدرة الله على البعث وغيره.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقبهما ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ مطر يكون سبب الرزق ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تقليبها وتحويلها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ يفكرون ويتدبرون الدليل، فيؤمنون ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ حججه ودلائله الدالة على وحدانيته ﴿نَتْلُوهَا﴾ نقصها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلازمة ملتبسة بالحق الواضح الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي بعد حديث الله وهو القرآن، وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم، كقول الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٣] ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ حججه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، وهم كفار مكة، وقرئ «تؤمنون».

قال الصاوي على الجلالين: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستة في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير: أن الإنسان إذا تأمل في السماوات والأرض، وأنه لا بد لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه. وهذا مأخوذ من كلام الزمخشري[1].

وقال البيضاوي: لعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

التفسير والبيان:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ ﴿حمٓ ۝١﴾: تقدم شرحها إن هذا القرآن منزل من عند الله القوي الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في كل شيء بتدبيره ووضعه في المكان المناسب له، وتحقيقه المصلحة لعباده، ويقتضي إثبات هاتين الصفتين لله عز وجل: كونه قادراً على جميع الممكنات،

(١) الكشاف: ٣/ ١١٢

عالماً بجميع المعلومات، غنياً عن كل الحاجات، فلا يصدر منه العبث والباطل.

ثم ذكر الله تعالى ما تقتضيه العزة والحكمة، فقال:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي إن في خلق السماوات وخلق الأرض لدلائل قاطعة على وجوده ووحدانيته وقدرته العظيمة، وهذا دليل من الكون، ثم ذكر تعالى دليلاً من الأنفس، فقال:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ أي وإن في خلقكم دون وجود سابق، ومروركم في أطوار مختلفة من الخلق، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، إلى أن يصير الواحد منكم إنساناً كامل الذات والصفات البشرية، وفي خلق ما يفرق وينشر من دابة في نواحي الأرض المختلفة، وأقاليمها المتفاوتة حرارة وبرودة واعتدالاً، وأراضيها الرطبة والجافة، وأنواع حيواناتها الإنسية والوحشية، البرية والبحرية والجوية، آيات ودلائل أخرى شديدة الوضوح، تدل على قدرة الصانع العظيم وحكمته، التي يعتبر بها أهل اليقين، الذين آمنوا ثم قبلوا الحق، ثم ازدادوا إيماناً وأذعنوا ورسخ الإيمان في قلوبهم كالجبال الثوابت، فأيقنوا يقيناً تاماً لا يخالطه أي شك.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي وإن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتفاوتهما في الطول والقصر، والحرارة والبرودة، والضياء والظلمة، وفيما أنزل الله من السحاب من مطر يكون سبباً لرزق العباد وإحياء الأرض بإخراج النبات، وفي تقليب الرياح وتغييرها من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتارة تكون حارّة، وتارة تكون باردة، وأحياناً نافعة، وأحياناً ضارة، كل ذلك أيضاً لأدلة عظيمة

وحجج باهرة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته، التي ينتفع بها عادة أهل العقول الراجحة، المتأملون بها، الفاهمون لحقائقها، ولا ينتفع بها أهل الجهل والعناد.

وهكذا يترقى المتأملون في تلك الآيات من إثبات أصل الإيمان في قلوبهم، إلى اليقين، إلى اكتمال العقل والنظر، وهو ترقٍّ من حال إلى ما هو أعلى منها، وهذه سمة المؤمنين الكُمَّل الذين استخدموا طاقاتهم الفكرية والنظرية للوصول إلى أسمى الغايات وأمثل الحالات.

وهذه الآيات شبيهة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤].

ثم أوجز الله تعالى العبرة من تلك الآيات بقوله:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه وبيناته نتلوها عليك أيها النبي متضمنة الحق المبين، ونحن محقون صادقون فيما ننزله عليك من القرآن المتلو، ليستفيد منها البشر قاطبة، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها، فبأي حديث أو كلام بعد حديث الله وكلامه وآياته وهو القرآن يؤمنون ويصدقون؟! وعبَّر بـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى علو مرتبة الآيات.

والخلاصة: من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث بعده.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أً - كون مصدر القرآن الكريم هو الله عز وجل، وليس له أي مصدر آخر سواه.

٢ً - إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته بأدلة ستة في ثلاث آيات:

الدليل الأول من الكون - خلق السماوات والأرض فهو يدل على وجود الإله - كما ذكر الرازي من ستة وجوه[1]

أولاً- أنها أجسام حادثة، وكل حادث له محدث.

ثانياً- أنها مركبة من أجزاء متماثلة في مواضع متفاوته عمقاً وسطحاً، مما يدل على أن وقوع كل جزء في موضعه لا بد له من مرجح ومخصص.

ثالثاً - أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في ماهيتها الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة، واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية، وذلك لا بد له من مرجح.

رابعاً - أن أجرام الكواكبَ مختلفة في الألوان مثل كُمودة زُحَل، وبياض المشتري، وحمرة المريخ، والضوء الباهر للشمس، ودرية الزهرة، وصفرة عطارد، ونور القمر ومحوه، واختلافها في تلك الصفات دليل على أنه الإله القادر المختار هو الذي خصص كل واحد منها بصفته المعينة.

خامساً- أن كل فلك مختص بحركة إلى جهة معينة، ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء، وذلك دليل على مخصص فاعل مختار وهو الله وحده.

سادساً - أن كل فلك مختص بمهمة معينة، فلا بد من مخصص فاعل مختار.

الدليل الثاني والثالث من الأنفس- وهما خلق الإنسان والدواب بتركيب

---

(١) تفسير الرازي: ٣٧/ ٢٥٧-٢٥٨

عضوي عجيب، وخواص وطاقات مادية ومعنوية مذهلة، يدلنا ذلك على أن هناك خالقاً مبدعاً لتلك الأنفس وهو الله تعالى.

الدليل الرابع والخامس والسادس من الظواهر الكونية- وهي تعاقب الليل والنهار بنحو دائم وتفاوتهما، وإنزال الأمطار والثلوج لإحياء الأرض بالنبات وتغذية الينابيع والأنهار، وتقليب الرياح وتغييرها، كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر القاهر، الحكيم الصنع، البديع الخلق والإتقان.

٣ - هذه آيات الله، أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته، أنزلها الله في قرآنه بياناً متلواً إلى يوم القيامة، مشتملاً على الحق الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه، فإذا لم يؤمن الناس بها، ولم يصدقوا بالقرآن وآياته البينات، فلن يجدوا سواها طريقاً للإيمان وتصحيح العقيدة.

ولقد قال الله تعالى في هذه الآيات عبارات ثلاثاً أولها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وثانيها ﴿يُوقِنُونَ﴾ وثالثها ﴿يَعْقِلُونَ﴾ والمقصود بها كما قال الرازي: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

أو أن الآيات النفسية تحتاج إلى الإيقان؛ لقربها من الإنسان، وأما الآيات الخارجية الفلكية فيكفي فيها التصديق لبعدها عن الإنسان، وأما العلوية فتحتاج إلى النظر والاستدلال.

وهذا دليل قاطع على أن القرآن اشتمل على أصول العقيدة والإيمان ودلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة، كما اشتمل في مواضع أخرى على الأحكام الفقهية الجزئية في العبادات، والمعاملات، وأحكام الأسرة، والدولة، والأخلاق، والاجتماع، والسياسة، والحكم، وغير ذلك.

وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿هُزُوًا﴾:

قرأ حفص (هُزُواً) وحمزة (هُزْءاً) وقرأ الباقون (هزؤاً).

﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾:

١- قرأ ابن كثير، وحفص (من رجزٍ أليمٌ).

٢- وقرأ الباقون (من رجزٍ أليمٍ).

الإعراب:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع: صفة ﴿عَذَابٌ﴾ ويقرأ بالجر: صفة ﴿رِّجْزٍ﴾.

البلاغة:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ من صيغ المبالغة على وزن فعّال وفعيل.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكمي، لأن استعمال البشارة التي تكون عادة بالخير في الشر تهكم.

﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ تشبيه مرسل، أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ وصف القرآن بالمصدر الذي هو هدى للمبالغة، كأنه لوضوح حجته عين الهدى.

المفردات اللغوية:

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب، أي كثير الكذب والإفك ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والمعصية ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره، والإصرار على الشيء: ملازمته ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً متعاظماً عن الإيمان بالآيات، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه لم يسمعها. فخففت وحذف ضمير الشأن، والجملة في موقع الحال، أي يصرّ مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره، والبشارة للتهكم ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الأفاكون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، أي عذاب مخز مذل.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم وقدامهم: لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم؛ لأنه بعد آجالهم﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾ لايدفع عنهم ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ من المال والأولاد والفعال ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء وأعوان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن هاد من الضلالة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ لهم حظ من العذاب ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ الرجز: أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع.

سبب النزول:

نزولة الآية (٨):

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يشتري

أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن. والآية عامة في كل من صد عن الدين وتكبر عن هديه.

المناسبة:

بعد بيان الآيات للكفار، وبيان أنهم إن لم يؤمنوا بها مع ظهورها، فلا يؤمنوا بعدها بشيء، أتبعه تعالى بوعيد عظيم بالعذاب الشديد لكل من كذب بتلك الآيات، ثم أصر على كفره بها، ثم ذكر أن جزاءهم جهنم، دون أن تنفعهم أصنامهم شيئاً، وأن القرآن العظيم هو الهدى فقط من الضلالة.

التفسير والبيان:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أي الهلاك وأشد العذاب لكل كذاب بآيات الله، كثير الإثم والمعاصي، ولهذا الأفاك حالتان:

الأولى- الإصرار والاستكبار: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ أي إن هذا الأفاك إذا سمع آيات القرآن تتلى على مسامعه، وفيها الدلالة الواضحة على وحدانية الله وقدرته، ووعده ووعيده، بقي مصراً على كفره، وأقام على ما كان عليه إقامة بقوة وشدة، ولم يتعظ بما يسمع من كلام الله، وتكبر وتعاظم عن الإيمان بالآيات، معجباً بنفسه، وكأنه لم يسمعها، مشبهاً حاله بحال غير السامع في عدم الالتفات إليها، فأخبره بأن له عند الله عذاباً شديد الإيلام، جزاء إصراره واستكباره وعدم استماعه إلى الآيات.

والتعبير عن هذا الخبر المحزن بالبشرى تهكم شديد واحتقار لهم.

ونظير الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١] .

الحال الثانية- الاستهزاء بالآيات: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ أي وإذا علم هذا الأفاك من آيات الله شيئاً، اتخذ ذلك الشيء هزواً، أي موضوعاً للسخرية والتندر مما حوته من المعاني، أولئك الأفاكون الذين سبقت صفاتهم لهم عذاب موصوف بالإهانة والذل والخزي بسبب إصرارهم واستكبارهم عن سماع آيات الله واتخاذها موضوع استهزاء واستهانة بالقرآن، والعذاب المهين: هو المشتمل على الإذلال والفضيحة.

روي- كما تقدم- أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ دعا بتمر وزُبْد وقال لأصحابه: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شَهْداً- عسلاً- وحين سمع قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي على النار قال: إن كانوا تسعة عشر، فأنا ألقاهم وحدي.

ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب المهين، فقال:

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ أي إن أمام أولئك الأفاكين جهنم يوم القيامة؛ لأنهم متوجهون إليها مثل قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/١٦] أي من أمامه، أو لأن وراء تعززهم بالدنيا وتكبرهم عن الحق جهنم، فإنها خلفهم وستدركهم، ولا يدفع شيئاً من العذاب عنهم ما كسبوا في الدنيا من الأولاد والأموال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ [آل عمران: ٣/١١٦] ، ولا ينفعهم أي نفع، ولا تنفعهم أيضاً الأصنام التي اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله، يرجون منها النفع، ودفع الضرر، ولهم عذاب عظيم دائم مؤلم في جهنم التي هي من ورائهم، وكل ما توارى عنك فهو وراء، تقدَّم أو تأخر، كما ذكر في غرائب القرآن.

وسبب التفرقة بين قوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وقوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن

الوصف الأول يدل على حصول الإهانة مع العذاب، والوصف الثاني يدل على كونه بالغاً أقصى المراتب في كونه ضرراً.

ثم وصف الله تعالى القرآن بقوله:

﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي هذا القرآن والآيات المتقدمة في هذه السورة هي هادية إلى الحق، ومرشدة إلى الصواب، وموجهة إلى النور من الظلمة والضلال، والذين كفروا بآيات الله القرآنية لهم أشد العذاب يوم القيامة.

فقوله ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ أي كامل في كونه هدى، والرجز: أشد العذاب لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢/٥٩] وقوله سبحانه: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: ٧/١٣٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - توعد الله تعالى بوعيد شديد كل من ترك الاستدلال بآيات الله بالرغم من وضوحها التام، ثم كفر بها وكذب بما جاءت به، وتمادى في كفره، متعظماً في نفسه عن الانقياد لها، وجحد بها استكباراً وعناداً.

والآية عامة في مثل هؤلاء، وإن كان سبب نزولها الخاص هو النضر بن الحارث، أو الحارث بن كَلَدة، أو أبو جهل وأصحابه.

٢ً - يتضمن الوعيد أيضاً حال كل من استهزأ بآيات الله، وتحدى قدرة الله، فوصف الزقوم بأنه الزبد والتمر، وقال في خزنة جهنم: إن كانوا تسعة عشر، فأنا ألقاهم وحدي.

٣ً - وصف الله تعالى نوع عذاب هؤلاء الأفاكين الكذابين الآثمين الكفرة

المعاندين بأوصاف أربعة هي: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

٤ً - احتاط الله تعالى لحرمة كتابه القرآن، فلم يعرضه للاستهانة والاستهزاء به، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو».

٥ً - لن يغني ولن يفيد هؤلاء الكافرين في تخليصهم من ذلك العذاب كل ما كسبوه في الدنيا من المال والولد، ولا الأصنام التي اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله.

٦ً - القرآن الكريم هدى للبشرية من الضلالة، ثم أكد تعالى وعيده للذين جحدوا دلائله بأن لهم عذاباً هو أشد العذاب.

والخلاصة: إن الله تعالى جعل مؤيدات جزائية صارمة وشديدة لكل من كفر بالقرآن، ولم يتفكر بآيات الله ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته، وذلك إنذار دائم شديد التأثير لكل من حاد عن منهج القرآن وعقيدة الإسلام.

من نعم الله تعالى على عباده

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

القراءات:

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي (لنجزيَ قوماً).

الإعراب:

﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بحال، أي كائنه منه تعالى.

﴿يَغْفِرُواْ﴾ مجزوم؛ لأن تقديره: قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا، وحقيقة جزمه بتقدير حرف شرط مقدر.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا﴾ أي ليجزي الله، وهو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، و﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. وقرئ: «ليَجزِين» بفتح الياء وكسر الزاي، و «ليُجْزَى» بضم الياء وفتح الزاي، و« لِتَجزي » بفتح التاء، ومن قرأ «ليُجزَى» بالبناء للمجهول، نصب ﴿قَوْمًا﴾ على تقدير: ليُجزَى الجزاءُ قوماً، وهذا جائز على مذهب الأخفش والكوفيين، وغير جائز على مذهب البصريين؛ لأن المصدر لايجوز إقامته مقام الفاعل مع مفعول صحيح. وقرئ: « لنجزي » بالنون على التعظيم.

البلاغة:

﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إطناب لإظهار الامتنان.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿سَخَّرَ﴾ هيأ وذلل ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ السفن ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإذنه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وماء وغيره ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيرها، والمراد: خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ﴿مِّنْهُ﴾ حال، أي سخرها كائنة منه تعالى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

﴿يَغْفِرُوا۟﴾ يعفوا ويصفحوا، وقد حذف المقول لدلالة الجواب عليه، والمعنى: قل لهم: اغفروا للكفار أذاهم لكم يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يخافون وقائعه بأعدائه، يقال: أيام العرب، أي وقائعهم ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي الله ﴿قَوْمًۢا﴾ هم المؤمنون ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من المغفرة للكفار أذاهم، أو الإساءة.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ أي لها ثواب العمل، وعليها عقابه، والمراد: فلنفسه عمل، وعليها أساء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون، فيجازيكم على أعمالكم، يجازي المصلح والمسيء.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾: ذكر الواحدي النيسابوري والقشيري عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب وعبد الله بن أُبيّ وجماعتهما، وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المُصْطَلِق على بئر يقال لها: المُرَيْسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على قفّ - فم - البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَب النبي وقرب أبي بكر وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّنْ كلبك يأكلك، فبلغ عمر رضي الله عنه، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾

وذكر الواحدي والثعالبي عن ابن عباس وميمون بن مِهْران سبباً آخر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال يهودي بالمدينة يقال له: فِنْحاص بن عازوراء: احتاج رب محمد، فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: إن ربك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء قال: يا عمر ضع سيفك، قال: صدقت يا رسول الله، أشهد أنك أرسلت بالحق، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية، فقال عمر: لا جرم- حقاً- والذي بعثك بالحق، ولا يرى الغضب في وجهي[١].

المناسبة:

بعد إيراد أدلة وجود الله ووحدانيته، أورد الله تعالى بعض نعمه الدالة أيضاً على قدرته؛ وهي تسخير السفن في البحار لحمل التجارات والركاب، وتسخير ما في السماوات والأرض، ثم أمر المؤمنين بالعفو عن الكفار، وأبان أن جزاء العمل الصالح والسيّئ يعود على نفس العامل خيراً أو شراً.

التفسير والبيان:

يذكر الله تعالى نعمه على عباده وهي:

أ - ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي إن الله الذي ثبت لكم وجوده ووحدانيته بالأدلة السابقة هو الذي ذلل لكم البحر لجريان السفن فيه بإذنه، والاتجار بين الأقطار، والغوص للدّر، وصيد الأسماك وغير ذلك، أي للمتاجر والمكاسب، ولتشكروا نعم الله الحاصلة لكم بسبب هذا التسخير، ومنافعه المجلوبة لكم من البلاد النائية.

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢١٥، غرائب القرآن للحسن بن محمد النيسابوري: ٢٥/٧٦

وتسخير البحر بثلاثة أشياء: هي أولاً- الرياح المساعدة على مسيرة السفن في الماضي وثانياً- قدرة تحمل الماء لآلاف الأطنان بل أكثر من خمس مئة ألف طن، وثالثاً- وجعل الخشب طافياً على وجه الماء دون غوص فيه.

٢ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي وذلل لكم أيضاً جميع ما في السماوات من كواكب وغيرها، وجميع ما في الأرض من جبال وبحار وأنهار ورياح وأمطار ومنافع أخرى فضلاً منه ورحمة، إن في ذلك التسخير لدلائل واضحة على قدرة الله وتوحيده، لقوم يتفكرون فيها ويستدلون بها على التوحيد.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ١٦/٥٣].

وبعد بيان أدلة التوحيد والقدرة الإلهية أمر الله تعالى بمحاسن الأخلاق، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي قل أيها النبي للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله: اعفوا واصفحوا وتحملوا أذى هؤلاء المشركين الذين لا يخافون وقائع الله وأنواع عذابه، ليجزي الله أولئك المؤمنين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي منها الصبر على أذى الكفار وكظم الغيظ واحتمال المكروه. وتنكير ﴿قَوْمًا﴾ لتعظيم شأن المؤمنين المذكورين في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ معناه: لا يخشون مثل عذاب الأمم الخالية.

ثم أوضح الله تعالى أن الإحسان والإساءة يعودان على المحسن والمسيء، فقال ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي من عمل الأعمال الصالحة التي أمر الله بها وانتهى عما نهى عنه، فلنفسه عمل، ومن اقترف السيئات والمعاصي، فعلى نفسه جنى، ثم تعودون إلى الله يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم عليها خيرها وشرها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - امتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من تسخير البحر لجريان السفن فيه بإذنه ومشيئته، ولتحقيق المكاسب ومنافع المتاجر، والغوص على اللؤلؤ والمرجان، واصطياد الأسماك، لكي يشكروه على نعمه.

٢ - وكذلك امتن الله تعالى على العباد بتسخير جميع ما في السماوات وما في الأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب، وجبال وسهول وأنهار ومعادن وزروع وأشجار ونباتات وغيرها، ففي ذلك كله دلائل واضحة على توحيد الله وقدرته.

٣- الأخلاق الحسنة تابعة للعقيدة الصالحة، لذا بعد أن علَّم تعالى عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، علمهم محاسن الأخلاق وفضائل الأفعال، فأمر بالعفو والصفح عن المشركين والمنافقين واليهود، ليكون ذلك سبباً لجزاء المؤمنين على ما كسبوا في الدنيا من الأعمال الطيبة. والآية ليست منسوخة بناء على أنها نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المُصْطَلِق.

٤ - إن ثواب العمل الصالح، وعقاب العمل السيّئ يرجع إلى صاحبه، فينفعه أو يضره في آخرته، وإن جميع الخلائق عائدون إلى ربهم للحساب والجزاء، فالعمل الصالح يعود بالنفع على فاعله، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمر بهذا، ونهى عن ذلك، لحظّ العبد، لا لنفع يرجع إليه.

وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل.

نعم الدين وإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

وقرأ نافع (والنبوءة).

الإعراب:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بين الفعلين الأول والثاني ما يسمى بطباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي والحكمة النظرية والعملية أو الفهم والقضاء والفصل في الخصومات بين الناس؛ لأنهم

كانوا ملوكاً وحكاماً ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ النبوة لموسى وهارون وكثير من الأنبياء؛ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المباحات اللذائذ كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانهم البشر، حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ دلائل واضحات في أمر الدين، ومنها المعجزات ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ في ذلك الأمر الديني ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ العلم بحقيقة الحال عداوة وحسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ طريقة ومنهج من أمر الدين، وأصل الشريعة: مورد الماء، ثم استعير للدين؛ لأن الناس يردون فيه ما تحيا به نفوسهم ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ اتبع شريعتك الثابتة بالحجج ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات.

﴿لَن يُغْنُواْ عَنكَ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي إن جنس الظلم علة موالاة بعضهم بعضاً، فلا تواِلهم باتباع أهوائهم ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نصير المؤمنين ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ معالم للذين يتبصرون بها وجه الفلاح في الأحكام والحدود ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين.

المناسبة:

بعد بيان بعض نعم الله في الدنيا على الناس جميعاً فهي نعم عامة، ذكر تعالى نعم الدين والدنيا على بني إسرائيل فهي نعم خاصة، وبما أن نعم الدين أفضل من نعم الدنيا، بدأ تعالى بتعداد نعمه الدينية عليهم، وأتبعها النعمة العظمى على الإنسانية وهي الشريعة الإسلامية التي لم يبق في الوجود دليل آخر

سواها على صحة مصدريتها من الله سبحانه، فكانت هي البصائر والهدى والرحمة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي تالله لقد أعطينا بني إسرائيل نعماً خاصة، أذكر منها هنا ستاً وهي:

١ - إنزال التوارة على موسى عليه السلام التي فيها هدى ونور.

٢ - الفهم والفقه لفصل القضاء والخصومات بين الناس؛ لأنهم جمعوا بين حكم الدين وحكم الدنيا، فجعل الملك فيهم.

٣ - إرسال الرسل إليهم، كموسى وهارون عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الكثيرين.

٤ - إمدادهم بطيبات الرزق المباحة المستلذة من المآكل والمشارب كالمن والسلوى.

٥ - تفضيلهم على عالمي زمانهم من الناس، حيث كثر فيهم الأنبياء، وجمعوا بين الملك والنبوة، وأوتوا من المعجزات العامة المادية الباهرة، كفلق البحر وتظليل الغمام، والإنجاء من ظلم فرعون وجنوده، فكانوا أرفع درجة وأعلى منقبة بين الشعوب في عصرهم.

٦ - إيتاؤهم الحجج والبراهين والمعجزات والأدلة القاطعةَ، والأحكام والمواعظ والشرائع الواضحه في الحلال والحرام.

ومع كل هذا لم يشكروا تلك النعم، بل اختلفوا في أمر الدين، كما قال تعالى:

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في أمر الدين إلا بعد العلم بحقيقة الحال، وبعد قيام الحجة عليهم، حباً للرئاسة، وعداوة وحسداً وعناداً، وبغياً منهم على بعضهم بعضاً.

والخلاف في الأشياء يستتبع القضاء، لذا قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي إن الله سيفصل بينهم بحكمه العدل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبيِّن المحقَّ من المبطل.

وفي هذا تحذير للأمة الإسلامية أن تختلف مثل اختلاف بني إسرائيل، لذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين يوصلك إلى الحق، فاتبع ما أوحي إليك من ربك، واعمل بأحكام شريعتك المؤيدة بالأدلة الواضحة في أمتك، ولا تتبع ما لا حجة فيه من أهواء الجهال المشركين الذين لا يعلمون توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم. قال الكلبي: إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى ملة آبائك، وهم كانوا أفضل منك وأسنّ، فزجره الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ الآية، أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة لصرت مستحقاً للعذاب، وهم لا يقدرون على دفعه عنك.

وعلة النهي عن اتباع أهوائهم هي ما قال تعالى:

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي إن هؤلاء المشركين الجهلة لن يدفعوا عنك من الله شيئاً أراده بك إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعتك.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هؤلاء

الكافرين ينصر بعضهم بعضاً، فالمنافقون أولياء اليهود في الدنيا، ولكن تناصرهم لا يفيدهم شيئاً في الآخرة، ولا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً؛ والله ناصر المؤمنين الذين اتقوا الشرك والمعاصي، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. وهذه تفرقة واضحة بين ولاية الله للمتقين، وولاية الظالمين لبعضهم.

ثم بيّن الله تعالى فضل القرآن الدائم الخالد، قائلاً:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي هذا القرآن المشتمل على شرائع الله الخالدة إلى يوم القيامة هو دلائل وبراهين للناس جميعاً فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، وهادٍ إلى الجنة من عمل به، ورحمة من الله وعذابه في الدنيا والآخرة لقوم من شأنهم الإيقان وعدم الشك بصحته وتعظيم ما فيه.

وإنما خص الموقنين بذلك؛ لأنهم المنتفعون به.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على ما يأتي:

١ - امتن الله تعالى على بني إسرائيل بنعم ست هي التوارة، وفهم الكتاب أو الحكم بين الناس والقضاء في الخصومات، وإرسال كثير من الأنبياء فيهم وهم من عهد يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام، ورزقهم من طيبات الحلال من الأقوات والثمار وأطعمة الشام، وتفضيلهم على عالَمي زمانهم، وإيتاؤهم بيِّنات الأمر، أي دلائل الحق الواضحة، وشرائع الحلال والحرام، والمعجزات الداعية إلى الصدق والإيمان.

٢ - لم يقع الخلاف بين بني إسرائيل بإيمان بعضهم وكفر بعضهم إلا بعد

قيام الحجة عليهم، وتعريفهم بحقيقة الحال، وإدراكهم صحة نبوة النبي ﷺ بوثائقهم الدينية وإخبار كتبهم وبشائرها بنبي آخر الزمان.

وكان خلافهم نابعاً من الأغراض الذاتية، كالحسد والعداوة وحب الرياسة، لا من أجل المصلحة العامة.

وتحذيراً من هذا الخلاف توعدهم الله بقضائه الحاسم وحكمه العادل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين في الدنيا.

٣ - وبما أن الأمر المختلف فيه عقيدةً وشريعةً لا يصلح للبقاء والاستمرار، أوصى الله نبيه محمداً ﷺ وأمته والبشرية كلها باتباع شريعة القرآن. والشريعة: ما شرع الله لعباده من أمر الدين. وتلك الشريعة منهاج واضح يؤدي إلى الحق والسعادة والنجاة في الآخرة؛ لأنها تتضمن أوامر الله ونواهيه وحدوده وفرائضه الثابتة ثبوتاً قطعياً لاشك فيه، أما ما قبلها فلم يقم دليل واحد على صحة ما يتناقله أهلها منها، أو ثبوته ثبوتاً صحيحاً من عند الله تعالى، لضياع التوارة، وكتابة الإنجيل كتابة متأخرة عن تاريخ نزوله على السيد المسيح عليه السلام. فإن فرض ثبوت شيء من شرائع من قبلنا، فلا خلاف في أن الله تعالى جعل الشريعة واحدة في أصولها في التوحيد ومكارم الأخلاق ومصالح الناس، وإنما خالف بينها في الفروع الجزئية لا في الأصول حسبما تقتضي المصلحة في علم الله تعالى.

٤ - قال ابن العربي المالكي الذي يرى كغيره من المالكية أن شرع من قبلنا شرع لنا: ظن بعض من يتكلم في العلم[1] أن هذه الآية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبي

(١) وهو رد على الشافعية الذين يرون أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ولهذه الآية.

ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي ﷺ وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء، هل يلزم اتباعه أم لا؟ ولا إشكال في لزوم ذلك[١]

٥ - إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام، بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل في سائر الآيات روحاً وحياة، وهو هدى من الضلالة، ورشد وطريق يؤدي إلى الجنة، ورحمة من العذاب في الآخرة لمن آمن واتقى.

جعلنا الله تعالى من القائمين بشرعه، المهتدين بهديه، المخلصين في اتباع أمره ونهيه، الظافرين بفضل الله ورحمته في الآخرة والدنيا.

الفارق بين المحسنين والمسيئين في المحيا والممات

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿سَوَآءً﴾: قرئ:

١- (سواءً) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (سواءٌ) وهي قراءة باقي السبعة.

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٨٢

﴿غِشَٰوَةً﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (غَشْوة).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ : قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ ﴿أَن﴾ وصلتها: سدت مسد مفعول ﴿حَسِبَ﴾. و﴿سَوَآءً﴾: حال من ضمير ﴿نَّجْعَلَهُمْ﴾ و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: مرفوعان بـ ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنه بمعنى مستوٍ ويقرأ بالرفع « سواءٌ » على أنه خبر مقدم، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾: عطف عليه. و﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إن كانت ﴿مَا﴾ معرفة، كانت في موضع رفع بـ ﴿سَآءَ﴾ وإن كانت نكرة، كانت في موضع نصب على التمييز.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: في موضع نصب على الحال، وليست باؤه للتعدية.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يقدر له مفعول ثان بعد قوله ﴿غِشَٰوَةً﴾ أي لرأيت أيهتدي.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي من بعد هداية الله.

البلاغة:

﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بينهما طباق. وكذا بين ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَمْ﴾ الهمزة: همزة الإنكار، وأم منقطعة عما قبلها، أي أبل، والمراد

إنكار الحسبان ﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا ومنه الجارحة: أعضاء الإنسان. ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ هذا الضمير وما قبله في ﴿اجْتَرَحُوا﴾ للكفار، والمعنى: إنكار أن يستوي الفريقان بعد الممات في الكرامة، أو ترك المؤاخذة، كما استووا في الرزق والصحة في الحياة. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، فهم في الآخرة في العذاب على خلاف عيشهم وحالهم في الدنيا، أي ساء حكمهم هذا، أو بئس شيئاً وحكماً حكمهم هذا، و﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق؛ لأن الخلق بالحق يستدعي العدل والتفاوت بين المسيء والمحسن. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ من المعاصي والطاعات، فلا يساوي الكافر المؤمن، وهي عطف على ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنه في معنى العلة لما سبق، أي ليستدل بذلك على قدرته، وليعدل ويجزي.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أخبرني. ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى من عبادة الحجر؛ لأنه كان يعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وعبد الآخر، والهوى: ما تهواه نفسه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ خذله عالماً بضلاله، وفساد استعداده وحاله قبل خلقه. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ طبع عليهما بالخاتم بعد كفره، فلم يسمع الهدى والمواعظ، ولم يتفكر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ظلمة، فلم ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، ولم يبصر الهدى.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد هداية الله وإضلاله إياه، أي لايهتدي. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. وقرئ «تتذكرون».

سبب النزول:

نزول الآية (٢١):

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عُبيدة

ابن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عُتْبة وشَيْبة والوليد بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنّا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبيَّن أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات[١]

نزول الآية (٢٣):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه، طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية(٢٣):

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي جهل، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة، ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، فقال له: مَهْ، وما دلَّك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنا نسمِّيه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكَمُل رشده نسمِّيه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم أنه صادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتَّبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللّات والعُزَّى إن اتبعته أبداً، فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/٢٦٦

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٧٠

المناسبة:

بعد بيان الفرق بين الظالمين الكافرين وبين المتقين في الولاية، بيَّن الفرق بينهما من وجه آخر وهو الرحمة والثواب في الآخرة، ثم ذكر تعالى دليل التفاوت بين المحسنين والمسيئين وهو خلق الكون بالحق المقتضي للعدل، وجعل الجزاء منوطاً بالكسب والعمل، ثم أخبر تعالى عن المسيء المتبع هواه بأنه موضع تعجب، وأنه لا سبيل إلى هدايته بعد هداية الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي بل أظن هؤلاء الذين اقترفوا الإثم والشرك والمعاصي في الدنيا، فكفروا بالله ورسله، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا الأعمال الصالحة من إقامة الفرائض واجتناب المحارم، بأن نسوِّي بينهم في الجزاء والثواب والرحمة في دار الدنيا والآخرة، كلا لا يستوون، فإن حال أهل السعادة في الآخرة غير حال أهل الشقاوة، لقد ساء ما ظنوا، وبئس ما حكموا أن نسوي بين الأبرار الطائعين وبين الفجار العاصين في الدنيا والآخرة. والمعنى: إنكار أن يستوي الفريقان حياة وموتاً؛ لأن المحسنين عاشوا على الطاعة، وإنهم عاشوا على المعصية، ومات أولئك على البشرى والرحمة ومات هؤلاء على الضدّ. وقيل: معناه إنكار أن يستويا في الممات، كما استووا في الحياة من حيث الصحة والرزق، بل قد يكون أحسن حالاً من المؤمن، فالفرق المقتضي لسعادة المؤمن وشقاوة الكافر إنما يظهر بعد الوفاة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠] وقوله سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٥-٣٦] وقوله عز وجل:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٨] .

وهذا دليل واضح أيضاً على التفرقة في مصير المؤمن الطائع والمؤمن العاصي.

أخرج الطبراني عن مسروق أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد بيان التفاوت بين المؤمن والكافر في الآخرة والدنيا، أقام الدليل على صحة هذا المبدأ وحكمته، فقال تعالى:

١ - ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أوجد الله وأبدع السماوات والأرض بالحق المقتضي للعدل بين العباد، فلو لم يوجد البعث والحساب والجزاء، لما كان ذلك الخلق بالحق بل كان بالباطل، ومن العدل: اختلاف الجزاء بين المحسن والمسيء.

٢ - ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي خلق الله السماوات والأرض بالحق، ليدل بهما على قدرته، ولكي تجزى كل نفس بما قدمت من عمل صالح أو سيّئ، وهم أي المخلوقون لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب، فلو ترك الظالم الذي ظلم غيره في الدنيا، ولم يقتص منه في الآخرة، لما كان خلق السماوات والأرض بالحق.

فيكون قوله ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والتقدير: وخلق الله السماوات والأرض لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس، والمعنى أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لايتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين.

ثم أبان الله تعالى أحوال الكفار وقبائحهم وسوء جناياتهم، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؟ أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه، وترك الهدى، واتخذ دينه ما يهواه، فكأنه جعل الهوى إلهه يعبده من دون الله، فلا يهوى شيئاً إلا تبعه، دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه، فهذا مما يدعو إلى العجب، وكان الحارث بن قيس لا يهوى شيئاً إلا فعله، والعبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله وخذله مع علمه بالحق، ومعرفته الهدى من الضلال، وقيام الحجة عليه، وطبع على سمعه، حتى لا يسمع الوعظ، وعلى قلبه، حتى لا يفقه الهدى، وجعل غطاء على بصره وبصيرته، حتى لا يبصر الرشد ويدرك آيات الله في الكون التي تدل على وحدانية الله تعالى.

فمن يوفقه للصواب والحق من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال؟!

ونظير مطلع الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٠-٤١] .

ونظير وسط الآية قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦-٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - كما أن هناك فرقاً في الولاية بين المتقين والظالمين، هناك فرق آخر بين المحسنين والمسيئين في الجزاء في الدنيا والآخرة، فالله ولي المتقين وناصرهم في الدنيا والآخرة، والظالمون الكافرون يوالي بعضهم بعضاً في الدنيا، وتنقطع ولاياتهم في الآخرة، والمحسنون المؤمنون سعداء الدنيا والآخرة، والمسيئون الكفار أشقياء في الآخرة، وإن تساووا في الدنيا مع المؤمنين في الصحة والرزق والكفاية، أو كانوا أحسن حالاً من المؤمنين فيها.

٢ً - لابد من التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحسنين والمسيئين، عدلاً من الله؛ لأنه بالعدل قامت السماوات والأرض، ولكي تجزى كل نفس في الآخرة بما كسبت في الدنيا، وهم لا يظلمون فيها بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

٣ً - إن اتباع أهواء النفس مذموم دائماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله هوىً في القرآن إلا ذمَّه، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٨] وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠/٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٢٨/٥٠] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٣٨/٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما ذكره النووي في كتاب الحجة للمقدسي عن عبد الله بن عمرو: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقال أبو أُمامة رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى». وقال شدَّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس: «الكَيِّس: من دانَ نفسه وعمِل لما بعد الموت،

والفاجر: من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله» وقال ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني: «إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوى مُتَّبعاً، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة» وقال ﷺ فيما أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وهو ضعيف: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوىً متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب».

٤ً - لا يُضلُّ الله قوماً إلا بعد أن هداهم وبعد أن أعلمهم وعلمهم، ولا يمنع عنهم فضله ورحمته إلا بسبب جحودهم وظلمهم وكفرهم، ولا يحجب عنهم منافذ الهداية من الاستبصار بنور البصيرة والقلب، والنظر في أسباب الرشد، وسماع المواعظ ليفقه الهدى إلا بعد إعراضهم وعنادهم وغيهم.

قال المفسرون: هذه الآية رد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه من الاعتقاد وفعل الخير وارتكاب الشر؛ لأن الله تعالى صرح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره، أي فالله هو الخالق لأفعال الإنسان، وليس العبد خالقاً لها، وإنما هو كاسب وآخذ ومختار أيَّ الطريقين من الخير أو الشر.

٥ً - إن أسباب ضلال المضلين إما اتباع الإنسان ما تدعو إليه نفسه الأمَّارة بالسوء: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وإما تجاهل الحقائق بعد العلم بوجوه الهداية: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وإما العناد: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ وإما إنكار البعث باعتقاد ألا حياة إلا هذه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [٢٤] وإنكار المبدأ قائلين: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [٢٤].

وقد أجاب الله على شبهتهم بقوله فيما يأتي من الآيات: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لهم على ما قالوه دليل، وإنما ذكروا ذلك ظناً وتخميناً

واستبعاداً، فلا ينبغي لعاقل أن يلتفت إلى قولهم؛ لأن الحجة قامت على نقيض ذلك، وهي دليل المبدأ والمعاد المذكور مراراً، وليس قولهم: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [٢٥] من الحجة في شيء؛ لأنه ليس كل مالا يحصل في الحال، فإنه يمتنع حصوله في الاستقبال[١].

الدهرية وإنكار البعث وأهوال القيامة

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

الإعراب:

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ حال.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ الأول: منصوب بـ ﴿يَخۡسَرُ﴾ و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: للتأكيد.

﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ﴿كُلُّ﴾ بالرفع: مبتدأ، وخبره: ﴿تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ ويقرأ بالنصب على أنه بدل من ﴿كُلَّ﴾ الأولى، و﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ في موضع نصب على الحال، إن جعلت ﴿وَتَرَىٰ﴾ من رؤية العين، أو في موضع المفعول الثاني إذا جعلته من رؤية القلب.

---

(١) غرائب القرآن: ٢٥/ ٧٨-٧٩

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿يَنطِقُ﴾ حال من (الكتاب) أو من (ذا) ويجوز جعله خبراً ثانياً لـ (ذا). ويجوز جعل ﴿كِتَٰبُنَا﴾ بدلاً من ﴿هَٰذَا﴾ و﴿يَنطِقُ﴾: خبر المبتدأ.

البلاغة:

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بينهما طباق.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿يَنطِقُ﴾: استعارة تصريحية، أي يشهد عليكم بالحق، وهذا أبلغ من شهادة اللسان؛ لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا﴾: أي المشركون منكرو البعث. ﴿مَا هِيَ﴾ أي الحياة. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي إلا حياتنا التي في الدنيا. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلا مرور الزمان، والدهر في الأصل: مدة بقاء العالم، مأخوذ من دهره: غلبه. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس لهم بذلك المقول من دليل علمي. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يظنون؛ إذ لا دليل لهم عليه، وإنما قالوه بناء على التقليد.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن الدالة على قدرتنا على البعث. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات. ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ متشبث. ﴿ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾ أحياء. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أننا سنبعث، وإنما سماه حجة على حسبانهم. ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بناء على ما هو معروف من الحجج. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أحياء. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فيه، فإن من قدر على الابتداء في الخلق قادر على الإعادة؛ لحكمة معروفة هي إقامة العدل التام والجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على المحسوسات أمامهم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميم أو إعمام للقدرة بعد تخصيصها. ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون. ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الرُّكَب، أو مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، وقرئ «جاذية» أي جالسة على أطراف الأصابع. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفة أعمالها. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ ديوان الحفظة الذي كتبناه عليكم؛ وأضافه إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم. ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان. ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتب الملائكة، ونثبت ونحفظ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالكم.

سبب النـزول:

نزول الآية (٢٥):

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾: أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾

المناسبة:

بعد بيان حجب المشركين عن الوصول إلى الحق والخير، بسبب كفرهم وعنادهم، ذكر الله تعالى بعض مفاسد اعتقاداتهم وهي إنكار البعث، وإنكار الإله القادر، معتمدين على مجرد الظنون والأوهام والتخمينات، والتقليد، مطالبين بإعادة إحياء آبائهم للدلالة على البعث، وتلك شبهة ضعيفة جداً.

فرد الله عليهم بالتنبيه على ما هو الدليل القاطع في الواقع ونفس الأمر، وليس مجرد إثبات الإله بقول الإله، وهو قدرة الله على الإعادة بناء على ثبوت قدرته على الإحياء الأول، ثم عمم تعالى الدليل ببيان قدرته على جميع الممكنات

في السماوات والأرض. ثم ذكر تعالى بعض أهوال يوم القيامة من الجثو على الركب بسبب المخاوف، والاحتكام إلى صحائف الأعمال المسجلة في الدنيا، والشاهدة على أصحابها.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب وأمثالهم في إنكار المعاد أو القيامة، فقال منكرو البعث هؤلاء المشركون: ما الحياة الحاصلة إلا الحياة التي نحن فيها في الدنيا، فليس ثَمَّ دار إلا هذه الدار، يموت قوم، ويعيش آخرون، ولا معاد ولا قيامة، وليس وراء ذلك حياة. وهذا تكذيب واضح للبعث، وإنكار صريح للقيامة. وما يميتنا إلا مرور الأيام والليالي، فمرورها هو المفني والمهلك للأنفس، أي بالطبيعة، وهذا إنكار بيِّن للإله الفاعل المختار.

وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل، فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه، نسبوا ذلك إلى الدهر، فقيل لهم: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر، أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تنسبونها إلى الدهر، فيرجع النسب إليه سبحانه.

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار» . وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية.

وذكر محمد بن إسحاق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يقول الله تعالى: استقرضت عبدي، فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر». وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر».

وفسر الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» بقولهم: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال[1]

ثم فنّد الله تعالى قولهم مبيناً عدم اعتماده على دليل، فقال:

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما قالوا هذه المقالة، إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة، فلا دليل لهم من نقل أو عقل، وما مستندهم إلا الظن والتخمين من غير حجة أصلاً.

قال الرازي: وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى[2]

ثم ذكرتعالى شبهتهم ودليلهم على إنكار البعث قائلاً:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي إذا تليت عليهم بعض آيات القرآن واضحات الدلالة على قدرة الله والبعث، واستدل عليهم، وبيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٥١

(٢) تفسير الرازي: ٢٧/ ٢٧٠

إعادة الحياة إلى الأنفس بعد فنائها، لم يكن لهم حجة إلا طلب إعادة إحياء آبائهم الذين ماتوا، إن كنتم أيها المؤمنون صادقين في إمكان البعث، وأحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، ليشهدوا لنا بصحة البعث.

وهذا كلام ساقط، فإن البعث يكون بعد نهاية الدنيا، ولا يلزم من عدم حصول الشيء في الحال امتناع حصوله في المستقبل يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى دليل إمكان البعث قائلاً:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين منكري البعث: إن الله أحياكم في الدنيا، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم جميعاً يوم القيامة جمعاً لا شك فيه، فإن الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] ..

وهذا إشارة إلى الآية المتقدمة: وهو أن كونه تعالى عادلاً منزهاً عن الجور والظلم، يقتضي صحة البعث والقيامة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس وهم مشركو العرب حينذاك ينكرون البعث، من غير تأمل وتدبر وروية، ولا يدركون الحقيقة العلمية، ويقصرون نظرهم على المحسوسات، دون تفكر بالغيبيات، فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٦-٧] . كذلك لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً أعم على قدرته بعد التخصيص، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي إن الله مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما والمتصرف بهما وحده في الدنيا والآخرة، من غير مشاركة أحد من عباده، ولا من الأصنام المعبودة.

وبعد بيان إمكان القول بالحشر والنشر، بدأ تعالى بذكر أحوال القيامة، وأولها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي ويوم تقوم القيامة يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل، بدخول جهنم، يظهر خسرانهم في ذلك اليوم، لصيرورتهم إلى النار.

ثم أبان الله تعالى أهوال يوم القيامة قائلاً:

١ - ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي وتنظر أصحاب كل ملة ودين واحد جاثين على الركب من شدة الخوف والرعب، فالناس لشدة الأمر يجثون بين يدي الله عند الحساب.

٢ - ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي كل أمة تدعى إلى كتابها المنزل على رسلهم، أو إلى صحيفة أعمالها، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٩].

٣ - ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في يوم القيامة يجزيكم الله بما عملتم في الدنيا من خير وشر، تجازون بها من غير زيادة ولا نقص.

٤ - ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي هذه صحيفة الأعمال التي أمرنا الملائكة الحفظة بكتابتها، تشهد عليكم، وتذكر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/٤٩].

إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم وتثبتها وتحفظها عليكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين هم في ديوان الأعمال على ما بأيدي

الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة في القدم على العباد، قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - هذا خبر صريح يتضمن إنكار المشركين والدَّهْرية للآخرة، وتكذيبهم للبعث، وإبطالهم للجزاء، مأخوذ من قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا، أو نموت نحن، وتحيا أولادنا، وما يفنينا إلا السنون والأيام.

٢ً - ليس لهم دليل نقلي أو عقلي على إنكار الآخرة، فما هم إلا قوم يتكلمون بالظن والتخمين.

قال القرطبي: وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء منكرو البعث، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين، فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب خيالات تقع للأرواح بزعمهم، فشرّ هؤلاء أضرُّ من شر جميع الكفار، لأن هؤلاء يُلْبسون على الحق، ويُغْتَرُّ بتلبيسهم الظاهر، والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم[١].

٣ً - إذا قرئت على المشركين آيات الله المنزلة في جواز البعث لم يكن لهم دفع وحجة أو شبهة إلا أن قالوا: ائتوا بآبائنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون.

فرد الله عليهم بأن الله يحييكم بعد أن كنتم نُطَفاً أمواتاً، ثم يميتكم، ثم

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٧٢

يجمعكم يوم القيامة كما أحياكم في الدنيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله يعيدهم كما بدأهم، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

وسمي قولهم حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة، أو لأنه أسلوب يراد به: ما كان حجتهم إلا ما ليس حجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة أصلاً.

٤ً - ومن أدلته تعالى على قدرته الفائقة وإمكان البعث خلق السماوات والأرض وملكها والتصرف بها، ويوم تقوم القيامة يظهر خسران الكافرين الجاحدين.

٥ً - ليوم القيامة أهوال عظام ومخاوف جسام منها:

أن كل أهل ملة يجثون على الركب خوفاً من شدة الأمر، قال سلمان الفارسي: إن في يوم القيامة لساعةً هي عشر سنين، يَخِرُّ الناس فيها جُثَاةً على ركبهم، حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي: «لا أسألك اليوم إلا نفسي».

ومنها: أن كل أمة تدعى إلى حسابها وكتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر.

ومنها: أن الجزاء على قدر العمل ونوعه من خير أو شر.

ومنها: قطعية الإثبات للأقوال والأفعال، فإن صحائف الأعمال التي تسجلها الملائكة الحفظة على كل إنسان في الدنيا تشهد على أصحابها.

ومنها: المفاجأة بالحقيقة والواقع وهو أن الله كان يأمر ملائكته بنسخ ما يعمله بنو آدم في الدنيا، قال علي رضي الله عنه: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم.

جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ﴾:

وقرأ حمزة (والساعةَ لاريب).

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواكم).

﴿هُزُوًا﴾: قرئ:

١- (هُزُواً) وهي قراءة حفص.

٢- (هُزْءاً) وهي قراءة حمزة.

٣- (هُزُؤاً) وهي قراءة الباقين.

﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لا يَخْرُجون).

الإعراب:

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ بالرفع: مبتدأ ومعطوف على موضع ﴿إِنَّ﴾ وما عملت فيه، وقرئ بالنصب عطفاً على لفظ اسم إن، وهو ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ .

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ بالرفع: مبتدأ، و﴿مَّا﴾ : خبره، وقرئ بالنصب على أنه مفعول ﴿نَدْرِى﴾ و﴿مَّا﴾ : زائدة. و﴿إِن نَّظُنُّ﴾ إلا ظناً تقديره: إن نظن إلا ظناً لا يؤدي إلى العلم واليقين. وإنما افتقر إلى هذا التقدير؛ لأنه لا يجوز أن يقتصر على أن يقال: ما قمت إلا قياماً؛ لأنه بمنزلة: ما قمت إلا قمت، وذلك لا فائدة فيه.

﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ بدل من ﴿رَبِّ﴾ الأول.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ : مبتدأ وخبر مقدم، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : حال، أي كائنة.

البلاغة:

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ استفهام توبيخ.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ استعارة تمثيلية، مثَّل تركهم في العذاب بمن سُجن في مكان ثم نسيه السجّان من غير طعام ولا شراب، ووجه الشبه منتزع من متعدد والمراد: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي؛ لأن الله تعالى لا ينسى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، لإهمالهم وعدم العناية بشأنهم.

المفردات اللغوية:

﴿فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ في جنته ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظفر البين الظاهر؛ لخلوصه عن الشوائب ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي﴾ أي يقال لهم ذلك، وآياتي: آيات القرآن وما قبله من الكتب المنزلة الثابتة المتضمنة شرائع الله ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين: فالمجرم: ضد المسلم، فهو المذنب بالكفر.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قيل للكفار ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالبعث وبأنه محيي الموتى من القبور، و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: إما الموعود أو المصدر، و﴿حَقٌّ﴾: ثابت كائن لا محالة ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ ما نظن أو إن نحن إلا نظن ظناً، دخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بمتحققين أن الساعة آتية.

﴿وَبَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ ظهر لهم في الآخرة جزاء أو عقوبات أعمالهم، أو عرفوا مدى قبح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل أو حل وأحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي الجزاء والعذاب ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ نتركككم في النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ تركتم العمل للقاء هذا اليوم، وإضافة اللقاء إلى اليوم: إضافة المصدر إلى ظرفه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مانعين منه يخلصونكم من أهواله.

﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها، و﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: القرآن ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ خدعتكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها، حتى قلتم: لا بعث ولا حساب ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ الفعل مبني للمجهول، وقرئ بالبناء للمعلوم، ومنها أي من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم بأن يرضوه بالتوبة والطاعة، لفوات الأوان، وعدم النفع يومئذ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ الشكر والثناء بالجميل على وفاء وعده في المكذبين ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق هذه الأشياء، والعالم: كل ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه. وهذه الأشياء نعمة من الله ودالة على كمال قدرته ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والسلطان ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قَدَّر وقضى.

المناسبة:

بعد بيان أحوال القيامة وأهوالها، أبان الله تعالى أحوال المؤمنين الطائعين وما أعد لهم من الرحمة أي الثواب، وأحوال الكافرين وما أعد لهم من العقاب، والتوبيخ على تفريطهم في الدنيا، وما حل بهم جزاء استهزائهم بالعذاب وانخداعهم بالدنيا، ومعاملتهم معاملة المنسي بتركهم في النار، دون انتظار الخروج منها أو التوبة واسترضاء الله عن الذنوب السالفة.

التفسير والبيان:

هذه الآيات تبين حكم الله في خلقه يوم القيامة، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، فقال تعالى مبيناً حكم الفريق الأول:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ أي فأما المصدقون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، والذين عملوا الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع، فيدخلهم ربهم الجنة، وذلك أي الإدخال فيها هو الظفر بالمطلوب، وهو الفلاح والنجاح الظاهر الواضح.

وسمى الثواب رحمة، والرحمة جنة، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى قال للجنة: أنتِ رحمتي، أرحم بكِ من أشاء».

ثم قال تعالى مبيناً حكم الفريق الثاني وموبخاً إياهم:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي وأما الذين أنكروا وحدانية الله والبعث، فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى، فاستكبرتم وأبيتم الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها واتباعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، ترتكبون الآثام والمعاصي، وتكذبون في قلوبكم بالمعاد والثواب والعقاب؟ لذا أردف ذلك بقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين: إن وعد الله بالبعث والحساب، وبجميع الأمور المستقبلة في الآخرة حق ثابت، وواقع لا محالة، والقيامة لا شك في وقوعها، فآمنوا بذلك، واعملوا لما ينجيكم من العذاب، قلتم: لا نعرف ما القيامة، إن نتوهم وقوعها إلا توهماً مرجوحاً أو ظناً لا يقين فيه ولا علم، وما نحن بمتحققين ولا موقنين أن القيامة آتية، أي كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾.

وبعد هذا التوبيخ والنقاش، ذكر الله تعالى مايفاجؤون به من العذاب:

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي وظهر لهم قبائح أعمالهم وعقوبة أفعالهم السيئة، وأحاط بهم، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار، وعوقبوا بما كانوا يهزؤون به في دار الدنيا من العذاب والنكال، ويقولون: إنه أوهام وخرافات.

ثم أيأسهم تعالى من النجاة قائلاً:

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي ويقال لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم وكالشيء المنسي الملقى غير المبالى به، فنترككم في العذاب، كما تركتم العمل لهذا اليوم،

وتجاهلتم ما جاء عنه في كتب الله؛ لأنكم لم تصدقوا باليوم الآخر، ومسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه هو النار، وليس لكم من أنصار ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

وبذلك جمع الله عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة ألوان هي:

الأول- أنه قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية.

الثاني- أنه جعل مأواهم النار.

الثالث- فقدان الأعوان والأنصار.

ثبت في الصحيح: «أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجْك، ألم أكرمْك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول، أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني».

ثم ذكر الله تعالى أسباب هذا العقاب أو الجزاء، فقال:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي ذلك العذاب الذي وقع بكم بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وزينتها، فاطمأننتم إليها، وظننتم ألا دار غيرها، ولا بعث ولا نشور، فاليوم لا يخرجون من النار، ولا يطلب منهم العتبى بالرجوع إلى طاعة الله، واسترضائه؛ لأنه يوم لا تقبل فيه التوبة، ولا تنفع فيه المعذرة.

وبعد أن أثبت تعالى قدرته على البعث بدلائل الآفاق والأنفس، وذكر حكمه في المؤمنين والكافرين، أثنى على نفسه بما هو أهل له تعليماً لنا، فقال:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي الحمد الخالص والشكر الكامل على النعم الكثيرة لله خالق ومالك السماوات، ومالك الأرض، ومالك ما فيها من العوالم المختلفة المخلوقة من إنس وجن وحيوان، وأجسام وأرواح، وذوات وصفات.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ أي ولله العظمة والجلال والسلطان في أرجاء السماوات والأرض، وهو سبحانه القوي القاهر في سلطانه فلا يغالبه أحد، الحكيم في كل أقواله وأفعاله وشرعه وجميع أقضيته في هذا العالم.

ورد في الحديث القدسي الصحيح عند أحمد ومسلم وأبي داود وابن ماجه عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما، أسكنته ناري» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ً - إن ثواب المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال، فأدوا الفرائض، واجتنبوا المعاصي والمنكرات هو دخول جنات الخلد والنعيم.

٢ً - إن جزاء الكافرين الذين أشركوا بالله إلهاً آخر، واقترفوا المعاصي، وتكبروا عن طاعة الله وقبول أحكامه واتباع شرائعه هو دخول نار جهنم.

وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع.

٣ً - يوبخ الكفار ويقرّعون على تركهم اتباع آيات الله في قرآنه وكتبه المنزلة على رسله والاستماع إليها.

٤ً - إذا قام المؤمنون بتذكير الكفار بوعد الله بالثواب والعقاب وتأكيد أن

الساعة آتية لا ريب فيها، أنكروا ذلك وكذبوه، وأجابوا بأنا لا ندري هل الساعة (القيامة) حق أم باطل؟ وإن نحن إلا نظن ظناً لا يؤدي إلى العلم واليقين، ولسنا متحققين ولا واثقين بأن القيامة آتية، وهؤلاء من المشركين هم الفريق الشاكون بالبعث والقيامة، وهم غير أولئك الفريق المذكورين سابقاً القاطعين بنفي البعث في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

٥ - في الآخرة تنكشف الحقائق وتنجلي الأمور بنحو قاطع، ويظهر لهؤلاء الكفار جزاء سيئات ما عملوا، وقبح جرم ما ارتكبوا، ويحيط بهم إحاطة تامة ما كانوا يستهزئون به من عذاب الله.

٦ - للعذاب ألوان ثلاثة: قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية، وصيرورة مسكنهم ومستقرهم النار، وفقدانهم الأعوان والأنصار.

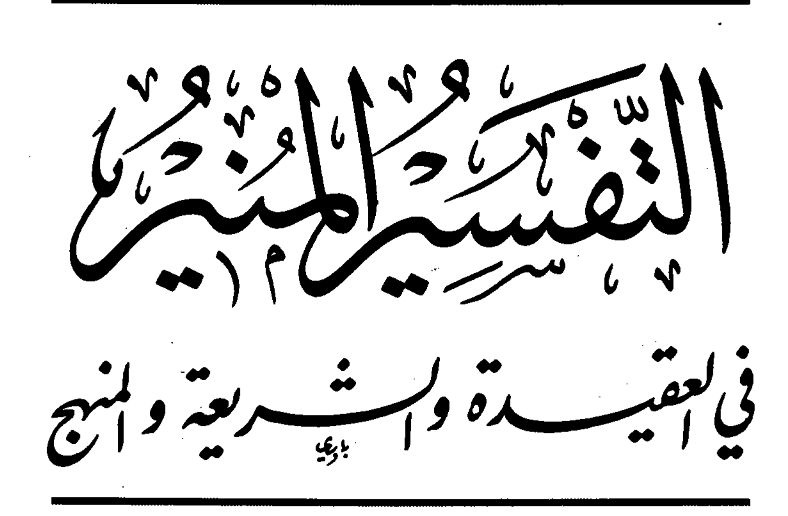
٧ - يقال لهم: استحقاقهم ألوان العذاب الثلاثة المذكورة بسبب إتيانكم ثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة: وهي الإصرار على إنكار الدين الحق، والاستهزاء به والسخرية منه، والاستغراق في حب الدنيا، والإعراض بالكلية عن الآخرة والوجهان الأول والثاني داخلان في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ والوجه الثالث هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨ - لا خروج إلى الأبد من النار، ولا أمل في استرضاء الله والتوبة والإنابة إليه والاعتذار منه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٠].

٩ - الحمد والثناء بالجميل كله على الله تعالى الخالق والمالك لكل الكون سمائه وأرضه، وعوالمه، والمتفرد بالعظمة والجلال، والبقاء والسلطان، والقدرة والكمال، والحكمة الباهرة والرحمة والفضل والكرم، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو، ولا رب سواه، ولا محسن ولا متفضل إلا هو.



بسم الله الرحمن الرحيم





بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

مكية، وهي خمس وثلاثون آية

تسميتها:

سميت (سورة الأحقاف) للحديث فيها عن الأحقاف: وهي مساكن عاد في اليمن الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية بسبب كفرهم وطغيانهم، في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [٢١].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١ - تطابق مطلع السورتين في: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢ - تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.

٣ - ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك، وبدئت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم، ومطالبتهم بالدليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المكية وهو إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة: وهي التوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء.

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله تعالى، وإنما كرر لأنه بمنزلة عنوان الكُتُب (الكتابة) ثم أقامت الأدلة على وجود الإله والتوحيد والحشر، وذمَّت المشركين عبدة الأصنام، وردَّت عليهم رداً دامغاً مقنعاً، وأجابت عن شبهاتهم حول الوحي والنبوة.

ثم ذكرت حال فريقين: فريق أهل الاستقامة الذين أقروا بتوحيد الله واستقاموا على مِلَّته، وأطاعوا والدِيهم وأحسنوا إليهم، فكانوا أصحاب الجنة، وفريق الكافرين الخارجين عن هدي الفطرة، المنهمكين في شهوات الدنيا، المنكرين البعث والحساب، العاقين لوالدِيهم، بالتنكر للإيمان والمعاد، فكانوا أصحاب النار.

ثم ضربت المثل بقصة هود عليه السلام مع قومه (عاد) الطغاة الذين اغتروا بقوتهم، وأصروا على عبادة الأصنام، فأهلكهم الله بريح عاتية، تدمّر كل شيء بأمر ربها، إرهاباً لكفار قريش، وتحذيراً من استبدادهم وتكذيبهم رسول الله ﷺ، وإنذاراً بعذاب مماثل جزاء استهزائهم.

كما ذكَّرتهم بإهلاك القرى المجاورة، وبمبادرة الجن إلى الإيمان بما سمعوه من آيات القرآن، ودعوة قومهم إلى إجابة نبي الله والإيمان برسالته، فإن من عاند وأعرض عن إجابة داعي الله، فهو في ضلال مبين.

ثم ختمت السورة بالتأكيد على قدرة الله على البعث؛ لأنه خالق السماوات والأرض، وبأن تعذيب الكافرين بالنار حق كائن لا محالة، وبالتهديد بأهوال

القيامة، وبأن العذاب أو الهلاك لايكون إلا للقوم الفاسقين الخارجين عن حدود الله وطاعته، فما على الرسول إلا الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وعدم استعجال العذاب.

إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ووقوع الحشر والرد على عبدة الأوثان

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

الإعراب:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ مفعول به ثان لـ ﴿أَرُونِي﴾.

البلاغة:

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ صيغة مبالغة.

﴿أَرَءَيۡتُم﴾ فيه مجازان، حيث أطلق الرؤيا وأراد الإخبار، والعلاقة السببية، واستعمل همزة الاستفهام في الأمر؛ لأن كلاً من الاستفهام والأمر يدل على الطلب، و﴿أَرُونِي﴾ توكيد لأرأيتم.

﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أمر يراد به التعجيز.

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي لا أحد أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو الأصنام من دون الله، فيتخذها آلهة ويعبدها، وهي إذا دعيت لا تسمع.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ①﴾ هذه الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن وتحدي العرب في أنه منظوم من حروفهم الهجائية، وللتنبيه على خطورة ما يتلى في السورة ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن الكامل في كل شيء، وإنما كرر مع بداية السورة السابقة لتأكيد مدلول الكتابة ﴿الْعَزِيزِ﴾ القوي القاهر في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وصنعه، يضع كل أمر في موضعه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا خلقاً ملازماً للحق: وهو ما تقتضيه الحكمة والعدل، للدلالة على قدرة الله ووحدانيته، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للجزاء والحساب ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل، وهو يوم القيامة ﴿أُنذِرُوا﴾ خُوِّفوا به من العذاب ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مدبرون، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له.

﴿أَرَأَيْتُم﴾ أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل فيها ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ أخبروني، وهو تأكيد لما سبق من طلب الإخبار ﴿أَمْ﴾ همزة الإنكار ﴿شِرْكٌ﴾ نصيب ومشاركة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مشاركة مع الله في خلق السماوات ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ منزَّل ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ بقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ يؤثر ويروى عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام أنها تقرّبكم إلى الله ﴿صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد ﴿مِن دُونِ

﴿اللَّهِ﴾ غيره، وهم الأصنام، لا يجيبون عابديهم إلى شيء يسألونه أبداً ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ عبادتهم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم جماد لا يعقلون أو عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ جمعوا يوم القيامة ﴿كَانُوا۟﴾ أي الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ لعابديهم ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عابديهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾ جاحدين.

التفسير والبيان:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي إنه تعالى كما بدأ سورة الجاثية هو الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، وليس من عند محمد ﷺ كما يزعم المشركون، وهو مع هذا التنزيل موصوف بالعزة التي لا يفوقها شيء، فهو القوي القاهر الذي لا يُغلَب، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وأقواله وأفعاله، يضع كل أمر في موضعه. وإذا كان الأمر كذلك، فما على الناس إلا الإيمان بالقرآن والتصديق بما جاء فيه، والإيمان بصدق محمد ﷺ في نبوته، وفيما دعا إليه من التوحيد الخالص، وإثبات البعث والجزاء، ودعوة الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة، والأخلاق الكاملة النافعة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ أي ما أوجدنا وأبدعنا السماوات العلا، والأراضي السفلى وما بينهما من سائر المخلوقات إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذي تقتضيه المشيئة الإلهية، وليس على وجه العبث والباطل، فليس خلقها عبثاً ولا باطلاً.

وقد خلقناها إلى مدة معينة محددة لا تزيد ولا تنقص، وهي يوم القيامة، فإن السماوات والأرضين والمخلوقات تنتهي، وتتبدل السماوات والأرض بغيرها.

أما الذين جحدوا بالله، بالرغم من هذه الأدلة، ومن إنزال الكتب، وإرسال الرسل، فهم لاهون عما يراد بهم، مولّون عما خُوِّفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء، غير مستعدين له، وسيعلمون غب ذلك وعاقبته.

وبعد إثبات وجود الإله ووقوع الحشر والبعث يوم القيامة، ردَّ الله تعالى على عبدة الأوثان بقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: أخبروني وأرشدوني عن حال آلهتكم من الأصنام وأصحاب القبور، بعد التأمل في خلق السماوات والأرض وما بينهما، هل استطاعوا الاستقلال بخلق شيء في الأرض، وهل لهم مشاركة في ملك السماوات والتصرف فيها؟.

الواقع أنهم لم يخلقوا شيئاً ولا شركة لهم في السماوات والأرض، فكيف تعبدون مع الله الخالق لكل شيء غيره وتشركون به؟

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أحضروا لي دليلاً مكتوباً قبل القرآن مما نزل على الأنبياء كالتوارة والإنجيل يدل على صحة عبادتكم لآلهتكم، أو بقية من علم الأولين والأنبياء السابقين يرشد إلى صحة هذا المنهج الذي نهجتموه، إن كنتم صادقين في ادعائكم ألوهية الأصنام. والمعنى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك.

وبعد أن نفى الله تعالى القدرة عن الأصنام في الخلق وغيره، أتبعه بنفي العلم عنهم من كل الوجوه، فقال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد من دون الله

أصناماً، ويطلب منها ما لاتستطيعه إلى يوم القيامة، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة؟ والأصنام التي يدعونها غافلون عمن دعاها، لا يسمعون ولا يعقلون؛ لكونهم جمادات.

والمعنى: أن الأصنام لا قدرة لها على شيء، ولا علم لديها بشيء، فما هي إلا جماد، وعبادة الجماد محض الضلال، وهذا يستدعي التوبيخ والتهكم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تأبيد على عادة العرب، أي ما دامت الدنيا.

ثم أكد الله تعالى نفي العلم بعبادة الناس لها بقوله:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ أي وإذا جمع الناس العابدون للأصنام في موقف الحساب، كانت الأصنام لهم أعداء، تتبرأ منهم وتلعنهم، وكانوا جاحدين مكذبين منكرين لعبادتهم، فيخلق الله الحياة في الأصنام فتكذبهم، وتتبرأ الملائكة والمسيح وعُزير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة.

ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨١-٨٢] أي سيكذبونهم ويعادونهم في وقت أحوج ما يكونون إليهم. وقال تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات البينات إلى ما يأتي:

١ً - تأكيد مطلع سورة الجاثية: وهو كون مصدر القرآن من الله العزيز الحكيم، لا من عند محمد ﷺ ولا غيره من العرب أو العجم.

٢ً - دلت آية: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على أمور ثلاثة: هي إثبات الإله بخلق هذا العالم، وإثبات أن إله العالم عادل رحيم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان، وإثبات البعث والقيامة، إذ لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين، ولتعطل إيفاء الثواب للمطيعين، وإقامة العقاب على الكافرين، وذلك ينافي كون خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

٣ً - دل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ على أن الكفار معرضون عن هذه الدلائل، غير ملتفتين إليها، وهذا كما ذكر الرازي يدل على وجوب النظر والاستدلال، أي لتكوين العقيدة وتصحيحها، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا.

٤ً - بعد إثبات أصول العقيدة الثلاثة المتقدمة، فرَّع الله تعالى عنها التفاريع، فرد على عبدة الأصنام بأنها عديمة القدرة على خلق الأشياء، وغير عالمة أصلاً بعبادة الوثنيين لها، وكل من الأمرين ينفي صلاحيتها للعبادة، فهي لا قدرة لها أصلاً على الخلق والفعل، والإيجاد والإعدام، والنفع والضر، وهي جمادات لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه، لم يبق مسوغ للعبادة ببديهة العقل، فهي لا تضر ولا تنفع.

ثم وبخ الله تعالى عبدة الأصنام، وأبان لهم أنه لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد الأوثان، وهي إذا دُعيت لا تسمع، ولا يتصوّر منها الإجابة لا في الحال، ولا بعد ذلك إلى يوم القيامة.

٥ً - أرشد قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ إلى جواز الاعتماد على الخط

المكتوب، وكان الإمام مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه، أو عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه، فيحكم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير، وقد روي عنه أنه قال: «يُحدِث الناس فجوراً، فتحدث لهم أقضية».

ولكن أجاز مالك الأخذ بشهادة الشهود على أن هذا خط الحاكم وكتابه، وكذلك الوصية، أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك.

٦ً - قال ابن العربي: إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا **الرؤيا**، فإنه أذن فيها وأخبر أنها جزء من النبوة، وكذلك **الفأل**، فأما **الطِّيَرة والزَّجْر** فإنه نهى عنهما. **والفأل**: هو الاستدلال بما يستمع من الكلام على ما يريد من الأمرإذا كان حسناً، فإن سمع مكروهاً فهو تطيُّر، وأمر الشرع بأن يفرح بالفأل، ويمضي على أمره مسروراً به. وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله، وقال- كما علَّمه النبي ﷺ «اللهم لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»[١].

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٨٥

- ١ -

شبهات المشركين حول الوحي والنبوة والقرآن

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ حال.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ تمييز منصوب.

﴿مَا يُفْعَلُ بِى﴾ ﴿مَا﴾: إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة.

﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ جملة حالية.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ﴾ أدغمت الدال من ﴿وَشَهِدَ﴾ في الشين من ﴿شَاهِدٌ﴾ لقرب الدال من الشين، كما يجوز إدغام الثاء والسين والضاد في الشين، فالثاء كقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والسين كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ والضاد كقوله تعالى: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾. وإنما أدغمت هذه الأحرف في الشين، ولم يدغم الشين في هذه الأحرف؛ لأنها أزيد صوتاً منها، لما فيها من التفشي.

البلاغة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: بمعنى (بل) الإضرابية، والإضراب: الانتقال من معنى لآخر، والهمزة للإنكار.

﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ استعارة تبعية، استعمل الإفاضة في الأخذ في الشيء والإندفاع فيه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ظاهرات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي آيات القرآن والمعنى في شأن الحق ولأجله ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل أيقولون، والهمزة الاستفهامية للإنكار، والمراد: الإضراب عن تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه وهو القرآن ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الافتراض ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة، فلا تقدرون على دفع شيء منها، فكيف أجترئ عليه، وأعرِّض نفسي للعقاب من غير توقع نفع، ولا دفع ضرّ من قبلكم ﴿تُفِيضُونَ﴾ تندفعون وتقولون في القرآن من القدح والطعن والتكذيب ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيد بالجزاء على إفاضتهم في آيات القرآن ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير المغفرة والرحمة، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار بحلم الله، فلم يعاجلهم بالعقوبة.

﴿بِدْعًا﴾ أو بديعاً، أي مبتدعاً ليس له مثال أو سابقة، وقرئ: بدَعاً جمع

بدعة ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لست أول مرسل، فقد سبق قبلي كثيرون منهم، فكيف تكذبونني؟ ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ في الدارين: إذ لا علم لي بالغيب، و﴿وَلَا﴾ لتأكيد النفي، و﴿مَا﴾ إما موصولة منصوبة، أو استفهامية مرفوعه ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي ما أتبع إلا القرآن الموحى به، ولا أبتدع شيئاً من عندي، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ منذر بيِّن الإنذار بالشواهد والمعجزات عن عقاب الله.

﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني عن حالكم ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سَلاَم، وشهادته بما في التوارة من نعت الرسول ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ مثل القرآن، أي شهد على مثل ما في القرآن من التوارة من المعاني المصدِّقة للقرآن المطابقة لها، أو شهد على مثل ذلك وهو كون القرآن من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾ تكبرتم عن الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا دليل على جواب الشرط المحذوف، تقديره: ألستم ظالمين؟.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠):

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه، دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يَحُطُّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه، فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف، فإذا رجل من خَلْفه، فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل، فقال: أي رجل تعلموني يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا

رجلاً كان أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوارة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شراً، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الآية.

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله بن سَلاَم نزلت، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله. وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردويه عن عبد الله بن سَلاَم قال: « فيَّ نزلت » ونزل فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/٤٣] .

المناسبة:

بعد تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، ذكر الله تعالى أمر النبوة وشبهات المشركين حولها وحول القرآن، فأبان أنهم يسمون معجزة القرآن بالسحر، وأنهم متى سمعوا القرآن قالوا: إن محمداً افتراه واختلقه من عند نفسه، ثم أبطل تعالى شبهتهم، فقال: إن افتريته على سبيل الفرض، فإن الله تعالى يعاجلني بالعقوبة، وأنتم لا تقدرون على دفع العذاب عني، فكيف أقدم على هذه الفرية، وأعرِّض نفسي لعقابه؟!

ثم حكى عنهم نوعاً آخر من الشبهات، وهو أنهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات، فأجابهم الله تعالى بأن يقول لهم النبي ﷺ: لست بأول رسول أرسله الله، حتى تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم، وتنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد، ونهيي عن عبادة الأصنام، فإن كل الرسل إنما بعثوا لهذه الأهداف والغايات، وأنا من جنس الرسل وواحد منهم لا أستطيع ولا أقدر على الإتيان بالمعجزات والإخبار عن المغيبات، فذلك ليس في وسع البشر، وإنما هو بقدرة الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ أي إذا تليت على المشركين آيات القرآن حال كونها بيّنة واضحة جلية، قالوا في شأن الحق الذي أتاهم وهو القرآن: هذا سحر واضح وتمويه خادع، فكذبوا به وافتروا، وكفروا وضلوا.

ثم ذكر الله تعالى ما هو أشنع من وصف القرآن بالسحر ورد عليهم، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي بل أيقولون: افترى محمد هذا القرآن واختلقه من عند نفسه، كذباً على الله؟ فرد الله تعالى عليهم: قل لهم أيها الرسول: لو افتريته وكذبت على الله على سبيل الفرض والتقدير كما تدّعون، وزعمت أنه أرسلني رسولاً إليكم، ولم يكن الأمر كذلك، لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يدفع عقابه عني، فكيف أقدُم على هذه الفرية، وأعرِّض نفسي لعقابه؟

وقوله: ﴿أَمْ﴾ للإنكار والتعجيب كما تقدم، كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٢-٢٣] . وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٧] وذكر هنا:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي الله أعلم بما تقولون في القرآن، وتخوضون فيه، من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة، وكفى بالله شاهداً صادقاً يشهد لي بأن القرآن من عنده،

وبالبلاغ لكم، وبالتكذيب والجحود منكم، ومع كل هذا الذي صدر منكم فالله هو الغفور لمن تاب وآمن، وصدّق بالقرآن، وعمل بما فيه.

وهذا جمع بين الوعيد والتهديد وبين الترهيب والترغيب لهم في التوبة والإنابة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥-٦].

ثم رد الله على المشركين شبهة أخرى هي اقتراح الإتيان بمعجزات، والإخبار عن مغيبات فقال:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ أي لست بأول رسول جاء إلى العالم، بل قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل، فما أنا بالأمر المبتدع الذي لا نظير له، حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، ولست أعلم ما يفعل بي ولا بكم في مستقبل الزمان في الدنيا وكذا يوم القيامة، هل أبقى في مكة أو أخرج منها؟ وهل أموت أو أُقتل، وهل تُعجل لكم العقوبة أيها المكذبون أم تمهلون؟ والمعنى: إني لا أعلم بما لي بالغيب، فأفعاله تعالى وما يقدره لي ولكم من قضاياه لا أعلمها[1].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إنّما أتبع الوحي الذي ينزله الله عليّ في القرآن والسنة، ولا أبتدع من عندي شيئاً، ولست إلا نذيراً لكم أنذركم عقاب الله وأخوفكم عذابه على نحو واضح ظاهر لكل عاقل.

وهذا دليل على أن النبي ﷺ لايدري ما يؤول إليه أمره وأمر المشركين في دار الدنيا، أما في الآخرة فهو ﷺ جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وذلك في الجملة، ولا يقطع لشخص معين بالجنة إلا الذي نص الشارع على

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥٦

تعيينهم كالعشرة المبشرين بالجنة[١]، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقرّاء السبعين الذين قتلوا ببئر مَعُونة، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رَوَاحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم، والدليل على ذلك الحديث التالي:

أخرج أحمد والبخاري عن أم العلاء - وهي امرأة من نساء الأنصار- قالت: «لما مات عثمان بن مَظْعون، قلت: رحمك الله أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريكِ أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يفعل بي ولا بكم، قالت أمّ العلاء: فوالله لا أزكي بعده أحداً».

وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس: «أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابنَ مَظْعون الجنةُ، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مُغْضَب، وقال: وما يدريكِ؟ والله، إني لرسول الله، وما أدري ما يفعل الله بي، فقالت: يا رسول الله، صاحبك وفارسك وأنت أعلم، فقال: أرجو له رحمة ربي تعالى، وأخاف عليه ذنبه».

ثم أكد الله تعالى خسارة المشركين قائلاً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله في الحقيقة، والحال أنكم قد كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوارة على صحته وعلى مثله وهو القرآن، أو على مثل ما قلت،

(١) وهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بنَ العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

فآمن الشاهد بالقرآن لما تبيَّن له أنه من كلام الله، وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام الذي أسلم بعد الهجرة، ثم تكبرتم عن الإيمان به، فقد ظلمتم أنفسكم[١] وكنتم من الخاسرين. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معناه لا يوفقهم إلى الخير، وهو استئناف بياني، تعليل لاستكبارهم.

وبعبارة أخرى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي قد جئتكم به قد أنزله الله علي لإبلاغكم به، وقد كفرتم به وكذبتموه، ألستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟! أو ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم؟ يدل على هذا الجواب المحذوف قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والشاهد في رأي أكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام، بدليل ما ذكر صاحب الكشاف: « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر- أي ابن سلام - إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر، وقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ماأول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ:

أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته، فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أيّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنَا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله،

---

(١) هذا جواب الشرط المحذوف لقوله: ﴿إِنَّ﴾ المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ والمفعول الثاني لقوله ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ مقدر، أي ألستم ظالمين؟

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر»[١].

أما إنكار أن يكون الشاهد هو عبد الله بن سلام؛ لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وهذه السورة مكية، فالجواب عليه- كما ذكر الكلبي- بأن السورة مكية إلا هذه الآية، فإنها مدنية، وكانت الآية تنزل، فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا، فهذه الآية نزلت بالمدينة، وإن الله تعالى أمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية، في هذا الموضع المعين[٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - عادى مشركو مكة النبي ﷺ، فكذبوا كون القرآن نازلاً من عند الله، وكذبوا النبوة، ووصفوا القرآن بأنه سحر واضح.

٢ - ولم يكتفوا بوصف القرآن بأنه سحر، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك، قالوا: إن محمداً اختلقه وافتراه من عند نفسه، لا من عند الله.

٣ - ردَّ الله عليهم افتراءهم بأنه لو افتراه محمد ﷺ على سبيل الفرض والتقدير لعجَّل الله له العقوبة في الدنيا، ولم يقدر أحد أن يرد عنه عذاب الله، والله أعلم بما يتقوّله ويخوض به من التكذيب هؤلاء المشركون، وكفى بالله شاهداً على أن القرآن من عند الله، وأنه يعلم صدق نبيه وأنهم مبطلون.

وبالرغم من ذلك فالله الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فإذا آمن هؤلاء المشركون، غفر لهم ما قد سلف منهم من الذنوب والمعاصي.

---

(١) الكشاف: ٣/١١٩

(٢) تفسير الرازي: ٢٨/١٠

٤ - ليس النبي ﷺ أول رسول يرسل، بل هو خاتم الرسل الكرام، قد كان قبله رسل، فليست دعوته إلى التوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وعدم علمه بالغيب مقصوراً عليه، وتلك دعوة قديمة هي دعوة جميع الرسل.

٥ - النبي ﷺ غير عالم بالغيبيات إلا بطريق الوحي، فلا وجه لطلب إخباره بمغيبات لا يعلم بها، فهو لا يدري بما يفعل به ولا بالناس من أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، من الأحكام والتكاليف وما يؤول أمر المكلفين إليه. وبه يعلم أن ما يُدَّعى من علم بعض الأولياء بالغيب هو أمر باطل وكذب مفترى.

لكن نظراً لأن النبي ﷺ يعلم كونه نبياً، فهي يعلم أنه لا تصدر عنه الكبائر، وأنه مغفور له، وقد تأكد هذا بقوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢] وقوله سبحانه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الفتح: ٤٨/٥] وقوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٧] .

٦ - لا نسخ في آية: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ لما ذكر الواحدي وغيره عن ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء؛ فقصَّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا، ثم قال: « إنما هو شيء رأيته في منامي، ما أتبع إلا ما يُوحى إلي » أي لم يوح إليّ ما أخبرتكم به. قال القُشَيري: فعلى هذا لا نسخ في الآية.

٧ - دلت آية ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على إنذار المشركين الظالمين

بعذاب أليم إذا استمروا في تكذيبهم بالقرآن، وتكبروا عن الإيمان به وعن اتباعه وطاعة الرسول المنزل عليه، بالرغم من شهادة رجل منصف عارف بالتوارة بأن القرآن حق، سواء أكان عبد الله بن سلام أم موسى عليه السلام. وعلى كل حال فهذه الآية بشارة بالنبي ﷺ في التوارة وعلى لسان موسى عليه السلام ولسان علماء بني إسرائيل، فهي كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦] .

وفي الآية تقديم وتأخير، تقديره: قل: أرأيتم إن كان من عند الله، وشهد شاهد من بني إسرائيل على ذلك، أي على صدق القرآن، فآمن هو، وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، أي الكافرين المعاندين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تهديد، وهو قائم مقام الجواب المحذوف للشرط: ﴿إن﴾ والتقدير: قل أرأيتم إن كان من عند الله، ثم كفرتم به، فإنكم لا تكونون مهتدين، بل تكونون ضالين.

- ٢ -

شبهات أخرى للكفار

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾

القراءات:

﴿لِيُنْذِرَ﴾ :

وقرأ نافع، والبزي، وابن عامر (لتنذر).

الإعراب:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ﴿كِتَٰبُ﴾: مبتدأ، و﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾: خبره، و﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: منصوبان على الحال من الضمير في الظرف، أو من (الكتاب).

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: منصوبان على الحال من ضمير ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أو من (الكتاب) لأنه قد وصف بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أو من (ذا) والعامل فيه معنى الإشارة، أي أشير إليه لساناً عربياً، أو أنبه عليه لساناً عربياً .﴿وَبُشْرَىٰ﴾: إما مرفوع عطفاً على كتاب، أو منصوب على أنه مصدر.

﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾: منصوب على الحال من ﴿أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ﴾ والعامل فيها معنى الإشارة ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ كقولك: هذا زيد قائماً.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَآءً﴾: إما مفعول لأجله، أو منصوب على المصدر المؤكد، أي جوزوا جزاء.

البلاغة:

﴿لِّيُنذِرَ﴾ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم قريش، وقيل: بنو عامر وغَطَفان وأسد وأشْجَع، لما أسلمت جُهَينةُ ومُزَينةُ وأَسْلَمُ وغِفَار، وقيل: اليهود حين أسلم ابن سلام وصحبه.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي لأجلهم وفي حقهم، وقيل: إليهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان. ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ فهم أناس أدنياء؛ إذ عامتهم فقراء وموالي ورعاة. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي حينما لم يهتد القائلون بالقرآن، وإذ للماضي ظرف لمحذوف مثل: ظهر عنادهم. ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي القرآن كذب قديم، مثل قولهم: أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوارة. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ أي القرآن مؤيد لكتاب موسى. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم مشركو مكة، وهو علة لقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي والقرآن مبشر للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على الطاعة، أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين والعمل، وقوله ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تأخير رتبة العمل وتوقفه على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه في المستقبل. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب في الماضي، والفاء في ﴿فَلَا﴾ لتضمن جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشرط. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أخرج الطبراني عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعزّ، ونحن ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أَمَةٌ أسلمتْ قبلَه يقال لها(زِنِّين) أو (زِنِّيرة) فكان عمر يضربها على إسلامها حتى

يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنين، فأنزل الله في شأنها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ الآية.

وقال عروة بن الزبير: إن زِنِّيرة - رومية كان أبو جهل يعذبها- أسلمت، فأصيب بصرها، فقالوا لها: أصابك اللاتُ والعُزَّى، فرد الله عليها بصرها، فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زِنِّيرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس والكلبي والزجاج: إن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأسَد وحَنْظَلة وأشْجَع، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجُهَيْنة ومُزَينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم؛ إذ نحن أعزّ منهم.

وقال أكثر المفسرين: إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا- يعني عبد الله بن سَلاَم وأصحابه-: لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه.

المناسبة:

هذه شبهة أخرى للقوم: المشركين أو اليهود، في إنكار نبوة محمد ﷺ، تتعلق بإيمان جماعة من الفقراء كعمّار وصهيب وابن مسعود، فقالوا: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء. ثم رد الله تعالى عليهم بأن التوارة دلت على صدق القرآن، وبشرت ببعثة محمد ﷺ.

وبعد تقرير دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين والإجابة عنها، ذكر تعالى جزاء المؤمنين العاملين عملاً صالحاً، طبقاً لما جاء به القرآن المجيد.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي قال

كفار مكة أو اليهود لأجل إيمان بعض الفقراء والمستضعفين، كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم رضي الله عنهم: لو كان هذا الدين حقاً وكان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إلى الإيمان به، ظناً منهم أنهم سبَّاقون إلى المكارم، وأن لهم وجاهة عند الله، وله بهم عناية.

وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، فإن الله سبحانه يصطفي للنبوة ولدينه من يشاء، والآية كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٦/٥٣] أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معناه كما ذكر الزمخشري: لأجلهم، يعني أن الكفار قالو لأجل إيمان الذين آمنوا: لو كان خيراً ما سبقونا إليه. ويصح أن يكون المعنى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا، على وجه الخطاب، كما تقول: قال زيد لعمرو، ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ١٠/٢٢].

ثم وصف الله تعالى حال أولئك الكفار بعد ذلك القول وأجاب عنه بقوله:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وحين لم يهتدوا بالقرآن، ظهر عنادهم، وسيقولون بعدئذ: هذا كذب مأثور عن الناس الأقدمين، كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بقصد انتقاص القرآن وأهله. وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود: «الكبر: بطَر الحق، وغَمْص- أو غمط- الناس» أي احتقارهم. وبطر الحق: دفعه ورده.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على صدق القرآن وصحته، فقال:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي ومما يدل على أن القرآن حق وصدق وأنه من عند الله: اعترافكم بإنزال الله التوارة على موسى، الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين، وهو رحمة لمن آمن به، وهذا القرآن الموافق للتوارة في أصول الشرائع مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب الإلهية المتقدمة، أنزله الله حال كونه بلغة عربية واضحة فصيحة يفهمونها، من أجل أن ينذر به هذا النبي من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة، ويبشر به المؤمنين الذين أحسنوا عملاً، فهو مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين. وهو ليس إفكاً قديماً كما يزعمون، بدليل توافقه مع التوراة.

وبعد ذكر شبهات المنكرين، ذكر الله تعالى حال المؤمنين وجزاءهم قائلاً:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾
أي إن الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي، وجزاؤهم ما قال تعالى:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي أولئك المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله هم أهل الجنة، ماكثين فيها على الدوام، مقابل ما قدموه من أعمال صالحة في الدنيا، أي إن الجزاء بسبب العمل الصالح في الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن شأن المتكبرين المقصرين تسويغ تقصيرهم بأتفه الأسباب وأسخف المقالات بدافع الكبر والاستعلاء، لذا قال أهل مكة: لو كان هذا الدين حقاً ما سبقنا إليه هؤلاء العبيد والمستضعفون، وأضافوا إلى ذلك حينما لم يهتدوا

افتراءهم بقولهم: هذا القرآن كذب متوارث، وأساطير الأولين. ومن جهل شيئاً عاداه.

٢ً - مما يدل على صدق القرآن وأنه من عند الله توافقه في أصول العقيدة والشريعة مع التوارة كتاب موسى عليه السلام الذي يقرُّون بأنه كتاب الله، فهو قدوة ورحمة يؤتم به في دين الله وشرائعه، والقرآن مصدِّق للتوارة ولما قبله من كتب الله في أن محمداً ﷺ رسول حقاً من عند الله، وهو بلغة عربية فصيحة بيِّنة واضحة لكل من نظر فيه وتأمل، يشتمل على إنذار الكافرين وبشارة المؤمنين.

وكأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن: أنكم لا تَنَازعون في أن الله تعالى أنزل التوارة على موسى عليه السلام، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به، ثم إن التوارة مشتملة على البشارة بمقْدَم محمد ﷺ، فإذا سلَّمتم كون التوارة إماماً يقتدى به، فاقبلوا حكمه في كون محمد ﷺ رسولاً حقاً من عند الله تعالى.

٣ً - إن الذين جمعوا بين الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبين الاستقامة على الشريعة في غاية السعادة النفسية والمادية، فهم آمنون مطمئنون مرتاحون لا يعكر صفوهم مخاوف المستقبل ولا أحزان الماضي، وهم خالدون دائمون في جنات النعيم، بسبب ما قدموا من عمل صالح في دار الدنيا.

الوصية ببر الوالدين

- ١ -

وصف الولد البار بوالديه

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿إِحْسَٰنًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (حُسْناً).

﴿كُرْهًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (كَرْهاً).

﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ﴾:

وقرأ ورش، والبزي (أوزعنيَ أن).

﴿نَتَقَبَّلُ﴾، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: قرئ:

١- (نتقبل، نتجاوز) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (يُتقبل، يُتجاوز) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقرئ: حُسْناً وحَسَناً، وإحساناً: منصوب على المصدر، أي أن يحسن إحساناً. وحسناً: صفة لمفعول محذوف، أي ووصينا الإنسان بوالديه أمراً ذا حُسْن، وحَسَناً: تقديره: فعلاً حسناً.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ ﴿ثَلَٰثُونَ﴾: خبر مبتدأ الذي هو ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾ وإنما رفع: لأن في الكلام مقدراً محذوفاً، تقديره: وقدّر حَمْله وفصاله ثلاثون شهراً. وفي هذا ما يدل على أن أقل الحمل ستة أشهر، مراعاة لآية أخرى هي: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٣] فإذا أُسْقِط حولان من ثلاثين أشهراً بقي مدة الحمل ستة أشهر.

﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ حال، أي كائنين في جملتهم.

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه.

البلاغة:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ بعد قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية بالأم.

﴿حَمَلَتْهُ﴾ ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ من التوصية والإيصاء والوصية: وهي الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام، أي أمرنا ﴿إِحْسَٰنًا﴾ أن يحسن لهما إحساناً: وهو ضد الإساءة، والحسن ضد القبيح، أي أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن ﴿كُرْهًا﴾ مشقة. ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾ مدة حمله. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فطامه، أي المدة القصوى لفطامه من الرضاع سنتان، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، والباقي أكثر مدة الرضاع. ﴿حَتَّىٰٓ

إِذَا﴾ غاية لجملة مقدرة، أي وعاش حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ بلوغ الأشد: كمال العقل والرأي والقوة، وأقله ثلاثون أو ثلاث وثلاثون سنة. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي تمامها، وهو أكثر الأشد، قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه إذا حط منه للفصال حولان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] بقي ذلك، وبه قال الأطباء. ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما.

﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ووفقني ورغّبني. ﴿نِعْمَتَكَ﴾ نعمة الدين وغيرها من النعم. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ نكّر كلمة ﴿صَٰلِحًا﴾ أي عملاً صالحاً للتعظيم، أو أنه أراد أي عمل أو نوع من جنس الأعمال يحقق رضا الله عز وجل. ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ اجعل الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي قائلو هذا القول. ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي حسن أعمالهم وطاعاتهم، فإن المباح حسن ولا يثاب عليه وقرئ: (يتقبل). ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لتوبتهم وقرئ: (ويتجاوز). ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ أي كائنين في عدادهم أو معدودين فيهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢].

سبب النزول:

نزول الآية (١٥):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: روى الواحدي عن ابن عباس قال: أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ، وهو ابن ثماني عشرة سنة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فنزلوا منزلاً فيه سِدْرة (شجرة السدر) فقعد رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى

أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبيّ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره، فلما نبّئ رسول الله ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدّق رسولَ الله ﷺ، فلما بلغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[1].

وقال السدّي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، أخرج مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

وقال الحسن البصري: (هي مرسلة نزلت على العموم). وهذا هو الأولى؛ لأن حمل اللفظ على العموم منذ بداية نزول الوحي أوقع وأفيد وأشمل، وإن كانت العبرة دائماً لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين الموحدين المستقيمين على الشريعة، أمر ووصى ببر الوالدين، وأشاد بصفة خاصة بالبارّ والديه بعد بلوغه سن الأربعين، وبشّره بقبول أعماله الصالحة، والتجاوز عن سيئاته، وجعله في عداد أصحاب الجنة، وعداً منجزاً لا خُلْف فيه.

---

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ص٢١٦، تفسير القرطبي: ١٦/ ١٩٤

التفسير والبيان:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وصيناه وأمرناه أن يحسن إليهما إحساناً في الحياة وبعد الممات بالحنو عليهما وبرهما والإنفاق عليهما عند الحاجة والبشاشة عند لقائهما، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣] وقوله سبحانه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/١٤].

وجاءت الأحاديث النبوية الكثيرة المؤيدة للقرآن في هذا الأدب العظيم، وجعل بر الأبوين من أفضل الأعمال، وعقوقهما من الكبائر، ووصل البر بعد الوفاة، منها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» ومنها ما أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي أُسَيْد مالك بن ربيعه الساعدي رضي الله عنه قال: «بَيْنَا نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سَلِمة، فقال: يارسول الله، هل بقي من بِرِّ أبويّ شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصَل إلا بهما، وإكرامُ صديقِهما».

ثم ذكر سبب التوصية وخص الأم لزيادة العناية والاهتمام بها، فقال تعالى:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته في بطنها بمشقة، وولدته بمشقة، فإنها قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغشيان وثقل وكرب، ووضعته بمشقة أيضاً من ألم الطَّلْق وشدته، ووجع الولادة ثم الرضاع والتربية، وكانت أيام الوحم تمتنع من الطعام والشراب، وتعاف كل شيء، مما يستدعي البر بها والإحسان الزائد إليها، كما قال تعالى:

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي إن مدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً، أي عامان ونصف، عانت فيهما الأم آلام السهر، وعناء الرضاع والغذاء والتنظيف والتربية بمحبة وحنان، دون ضجر ولا سأم.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة، وأرضعته وحضنته، وعنيت به بتعب وصبر، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وإن تعب في الكسب والإنفاق، لذا جاءت الأحاديث النبوية تؤكد بر الأم، وتقدُّمه بمراتب ثلاث على مرتبة الأب، أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، مَنْ أحقُّ الناس بحُسن صحابتي؟ قال: أمُّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّك، قال: ثم من ؟ قال: أمُّك، قال: ثم مَنْ ؟ قال: أبوك» .

وفي الآية أيضاً إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر(نصف عام) وكان علي رضي الله عنه أول من استدل بهذه الآية وآية لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [١٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن أكثر مدة الرضاع والفطام حولان كاملان، فبقي للحمل من الثلاثين شهراً ستة أشهر.

وهو استنباط صحيح، وافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، روى ابن أبي حاتم ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية عن مَعْمَر ابن عبد الله الجُهَني قال: تزوَّج رجل منا امرأة من جُهَيْنَة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها، بكت أختها، فقالت: وما يبكيكِ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خَلْق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه،

فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقّى إلا ستة أشهر، فقال عثمان رضي الله عنه: والله ما فطنت بهذا، عليّ بالمرأة، فوجدوها قد فُرغ منها[1]، فقال معمر: فو الله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه، قال: ابني والله، لا أشك فيه.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر، كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر، فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي حتى إذا قوي وشب وارتجل، فاستحكم عقله وقوته، وذلك بين الثلاثين والأربعين، وتناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه ببلوغ الأربعين سنة. وقوله ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لمحذوف تقديره: فعاش أو طالت حياته حتى إذا بلغ الأشد، أي القوة، وذلك يكون بكمال قوته المادية والعقلية، لذلك قيل: إنه لم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي إذا بلغ الأربعين قال: رب ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي وعلى والدي من نعمة الهداية إلى الحق والتوحيد وغير ذلك من نعم الدنيا، كسلامة

(١) وفي رواية: أن عثمان رجع عن قوله ولم يحدّها، أي أن الأمر تم قبل الحدّ.

العقل، والصحة والعافية، وسعة العيش، وتمام الخلقة السوية، وحنان الأبوين حين ربياني صغيراً.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ أي ألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه مني، والعمل الصالح المرضي: هو ما يكون سالماً من غوائل عدم القبول، واجعل الصلاح سارياً في ذريتي[١]، متمكناً راسخاً فيهم، حتى يكون لهم طبعاً وخُلُقاً.

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني تبت وأنبت إليك من جميع الذنوب، والآثام، وإني من المستسلمين لك، المنقادين لطاعتك، المخلصين لتوحيدك، الخاضعين لربوبيتك.

قال ابن كثير: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها[٢]، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلّمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألّفْ بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل السلام، ونجّنا من الظلمات إلى النور، وجنِّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثْنِين بها عليك، قابليها، وأتِّمها علينا».

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء الصالحين قائلاً:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي أولئك الذين هذه طريقتهم، الموصوفون بالصفات المتقدمة التائبون إلى الله المنيبون إليه، هم الذين يكرمهم

(١) أصلح: يتعدى بنفسه، وإنما عدي بالحرف ﴿فِى﴾ هنا لإفادة الرسوخ والسريان.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/١٥٧ وما بعدها.

الله، فيتقبل عنهم ما قدموا من صالح العمل، وأعمال الخير في الدنيا المنسجمة مع أوامر الله، ويعفو عنهم ويغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، إذ هي تتلاشى بجانب الحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله عز وجل، كما وعد الله من تاب إليه وأناب، فهو وعد منجز لا خُلْف فيه ولا شك في حصوله، وهو الوعد الذي وعدهم الله به في كتبه وعلى لسان أنبيائه، والله مُنْجِزٌ ما وعد.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وجمعه باعتبار أفراد الإنسان الذين تحقق فيهم ما ذكر من الأوصاف من معرفة حقوق الوالدين، والرجوع إلى الله بسؤال التوفيق للشكر، وهو إيذان بأن هذه الأوصاف هي صفات الإنسانية الكاملة.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي حسن ما عملوا، فيشمل الحسن والأحسن.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لما قبله، أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن الإحسان إلى الوالدين فرض في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ والتوصية: الأمر، والأمر يقتضي الوجوب.

٢ً - إن سبب وجوب الإحسان إلى الأبوين واضح وهو كونهما كانا سبباً لوجود الأولاد، وتربيتهم وتنشئتهم، وعلى التخصيص الأم التي تعاني من

أجل الولد معاناة شديدة ربما تضحي بحياتها له، فقد حملته بكُرْه ومشقة، ووضعته بكُرْه ومشقة، وسهرت على راحته الليالي الطوال، وعانت في حضانته ورضاعته عناء لا يقدر.

٣ً - إن حق الأم كما تقدم بدلالة الآية أعظم من حق الأب؛ لأنه تعالى قال أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ فذكَرهما معاً، ثم خص الأم بالذِّكْر، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم، وأن تحملها المشاق بسبب الولد أكثر.

٤ً - دلت الآية أيضاً كما تقدم على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهراً، وكان أقصى مدة الرضاع حولين كاملين، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر، بعد إسقاط مدة حولي الرضاع، وهي أربع وعشرون شهراً من الثلاثين. روي عن عمر أن امرأة رفعت إليه، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي: لا رجم عليها، وكذلك روي عن عثمان أنه هَّم بذلك، فأبان له علي أو ابن عباس ما دلت عليه الآيات كما تقدم، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها.

وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً، حملته أمه تسعة أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

٥ً - ودلت الآية أيضاً على أن أكثر مدة الرضاع سنتان، لأنه إذا دلت على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فإنها تدل على الباقي من الثلاثين شهراً على أن أكثر مدة الرضاع حولان كاملان، وتأيّد هذا بآية: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] .

٦ً - إن بلوغ الأشد يكون قبل الأربعين سنة، والآية تدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى رعاية الوالدين له إلى مدة قريبة من مدة الأربعين سنة.

٧ً - على الإنسان أن يشكر نعمة الله عليه إذا بلغ أربعين سنة، وهي مرحلة كمال العقل والبنية، وأن يطلب من الله تعالى توفيقه للعمل الصالح الذي يرضيه، وأن يجعل الصلاح سارياً في ذريته، راسخاً متمكناً فيهم.

قال علي رضي الله عنه: هذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه! أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده.

ووالده: هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم.

وأمه: أم الخير، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. وأم أبيه أبي قحافه: (قَيْلة). وامرأة أبي بكر الصديق اسمها (قُتَيْلة) بنت عبد العُزَّى.

وقال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: أجاب الله دعاء أبي بكر، فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم بلال وعامر بن فُهَيْرة؛ ولم يدع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه. ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده. ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر. وهذا دليل على استجابة دعاء أبي بكر.

ومن فضائل أبي بكر: ما ذكر في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، قال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» .

٨ً - دلت الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ على أن الآية التي قبلها:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ مرسلة، نزلت على العموم، وهو قول الحسن كما تقدم، فتشمل أبا بكر وغيره.

٩ً - وهذه الآية أيضاً تدل على أن المتصف بالصفات التي قبلها هو أفضل الناس؛ لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله، ويتجاوز عن كل سيئاته، يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم.

وأجمعت الأمة على ان أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، لدلالة الآية عليه، وأنه هو أولاً المراد منها، وتنطبق على أمثاله من بعده.

١٠ً - وصف الله تعالى هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء هي: أن يوفقه الله للشكر على نعمته، وأن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، وأن يصلح له في ذريته، وبذلك جمع جوانب السعادة النفسية والبدنية والخارجية. ويلاحظ منها أنه تعالى قدم الشكر على العمل، وأن طلب إلهام الشكر على نعم الله دليل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، وأنه لا يكفي كون الشيء صالحاً في ظنه، بل يكون صالحاً عنده وعند الله تعالى.

١١ً- دل آخر الآية: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة والإسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

- ٢ -

وصف الولد العاق لوالديه منكر البعث

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿أُفٍّ﴾: قرئ:

١- (أفٍّ) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (أفَّ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٣- (أفِّ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (أتعدانَنِيَ أن).

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾: قرئ:

١- (ليوفيهم) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم.

٢- (وليوفيهم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَذْهَبْتُمْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (أأذهبتم).

الإعراب:

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾: في موضع رفع مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: وفيما يتلى عليكم الذي قال لوالديه أو خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ﴾. و﴿أُفٍّ﴾ اسم فعل مضارع مبني على الكسر بمعنى أتضجر. و﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ بكسر النون، على الأصل في نون التثنية، وهو الكسر، في اللغة المشهورة الفصيحة، وقرئ بالفتح على لغة بعض العرب تشبيهاً لها بنون الجمع، كما كسروا نون الجمع تشبيهاً لها بنون التثنية، حملاً لإحداهما على الأخرى، وقرئ أيضاً بالإدغام.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ ﴿وَيْلَكَ﴾: منصوب على المصدر، وهو من المصادر التي لا أفعال لها، وهي ويحك، وويسك، وويبك. والأجود في هذه المصادر إذا كانت مضافة النصب، والرفع فيها جائز، والأجود فيها إذا كانت غير مضافة الرفع، والنصب جائز فيها.

البلاغة:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بصيغة الحصر.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ فيها استعارة، استعار الدرجات للمراتب.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ إيجاز بالحذف مع التقريع والتوبيخ، أي يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أراد به الجنس من أي قائل، وإن صحّ نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص. ﴿أُفٍّ﴾ بكسر الفاء وفتحها، اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر، أو مصدر، أي: نتناً وقبحاً، والأصل فيه أنه صوت يظهر عند التضجر والتبرم. ﴿لَّكُمَآ﴾ أتضجر منكما. ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أبعث من القبر. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِى﴾ مضت الأمم من قبلي ولم يخرج أحد من القبور. ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان له: الغياث بالله منك، أي من كفرك، إنكاراً واستعظاماً له، أي يطلبان الغوث من الله من كفره، أو يطلبان من الله أن يغيثه بالتوفيق للإيمان، أي يسألان الله أن يوفقه للإيمان، ويقولان له: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ بالله وبالبعث. ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أي هلكت، آمن بالبعث، والويل: دعاء بالهلاك والثبور، أو واد في جهنم، والمراد به الحث على الفعل أو تركه حتى لا يهلك، لا حقيقة الهلاك. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي ما هذا القول بالبعث ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيب الأقدمين وأباطيلهم التي سطروها في كتبهم من غير حقيقة.

﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وجب عليهم الحكم بالعذاب وأنهم من أهل النار، قال البيضاوي: وهو يردّ النزول في عبد الرحمن بن أبي بكر؛ لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك، وقد جبَّ عنه إن كان لإسلامه. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل للحكم على الاستئناف، أي إنهم من الذين ضيعوا الفكر والنظر، الشبيه برأس المال، باتباعهم وساوس الشياطين.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي ولكل من الفريقين المؤمن والكافر مراتب ومنازل من جزاء وسبب ما عملوا من الخير والشرّ، فدرجات المؤمنين في الجنة عالية، ودرجات الكافرين في النار سافلة. والدرجات غالبة في المثوبة والعلو، وجاءت هنا على التغليب، ويقابلها الدركات في الانخفاض والنزول.

و﴿عَمِلُوا۟﴾ أي عمل المؤمنون من الطاعات، والكافرون من المعاصي. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وقرئ (ولنوفيهم) .﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً بنقص ثواب للمؤمنين وزيادة عقاب للكافرين.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون فيها، أو تكشف لهم. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، فالقول مضمر وتقرأ بهمزتين مخففتين، وبهمزة ومدة، وبهمزة وتسهيل الثانية. ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ لذائذكم وشبابكم وقوتكم. ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ تمتعتم بها، فما بقي لكم منها شيء .﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهوان والذلّ .﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبرون. ﴿تَفْسُقُونَ﴾ أي تخرجون عن طاعة الله، وقرئ بكسر السين. وهذا دليل على أن تعذيبهم بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبويه، وكانا قد أسلما، وأبى هو، فكانا يأمرانه بالإسلام، فيرد عليهما، ويكذبهما ويقول: فأين فلان وأين فلان؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد، فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس مثله.

لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال: قال مروان بن الحكم في عبد الرحمن بن أبي بكر: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري.

وأخرج عبد الرزاق من طريق مكي: أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمَّتْ رجلاً.

وقال الحافظ ابن حجر: ونفي عائشة أصح إسناداً، وأولى بالقبول.

وقال ابن كثير: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه[1]. وقال القرطبي نقلاً عن الزجاج: الصحيح أن الآية نزلت في عبد كافر عاق لوالديه[2].

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى الولد البار بوالديه وفوزه وتقبل الله عمله، وصف الولد العاقّ لوالديه هنا وجزاءه المستحق له، ثم أخبر تعالى أن لكل من الفريقين منازل ودرجات عند ربهم: إما رفعةً وإما انخفاضاً، وأخبر أيضاً عما يقال للكفار توبيخاً وتقريعاً حين عرضهم على النار: إنكم تمتعتم في الحياة، وتكبَّرتم عن اتباع الحق، وفسقتم عن طاعة الله، فتُجازَوْن اليوم جزاء ما عملتم ومن أجل ما عملتم.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ هذا عام في كل من قال هذا، إذ قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: أُفٌّ لكما، أي تضجرٌ وتبرم مما تقولانه، أأنتما تخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث بعد الموت لمستبعد

(١) تفسير ابن كثير: ٤/١٥٨

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/١٩٧

مستنكر، فقد مضت الأمم السابقة الكثيرة من قبلي، كعاد وثمود، ماتوا ولم يبعث منهم أحد، وذهبوا ولم يرجع منهم مخبر.

والخلاصة: المراد بالآية الجنس؛ لأن خصوص السبب لا يوجب التخصيص.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ووالداه يسألان الله أن يوفقه للإيمان، ويقولان له: ويلك آمن بالله وبالبعث، أي هلاكاً لك أو هلكت، صّدِّق بوعد الله في اليوم الآخر الذي وعد به خلقه أنه باعثهم من قبورهم، ووعد الله حق لا خُلْف فيه، والمراد بالدعاء عليه: الحث والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول هذا الولد مكذباً لما قال والداه، ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سطّروها في الكتب، فما البعث في الحقيقة إلا أمر باطل، لا يقبله العقل، أي في زعمه ووهمه.

ثم ذكر الله تعالى جزاء هذا القائل، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي إن أولئك القائلين هذه المقالة هم الذين وجب عليهم العذاب، واستحقوا غضب الله، في جملة الأمم الكافرة المتقدمة، فهم منضمون في ذلك إليهم، سواء كانوا من الجن أو الإنس الذين كذبوا الرسل؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، لتضييعهم الفكر والنظر الشبيه برأس المال، باتباعهم وساوس الشيطان.

والمراد بالقول: قول الله إنه يعذبهم في جملة أمم قد خلت من قبلهم من

الجن والإنس. وهذا يقتضي أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس[١]. ولعل المراد بالقول هنا قوله سبحانه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٣٨/٨٥]. والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للتحقير.

ثم ذكر الله تعالى مراتب كل من الفريقين: المحسن والمسيء، فقال:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي ولكل فريق من الفريقين: المؤمنين المحسنين الأبرار، والكافرين الأشقياء المسيئين الأشرار من الجن والإنس مراتب ومنازل عند الله يوم القيامة إما عليا وإما دنيا، من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منها، وليوفيهم جزاء أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وهم لا يظلمون شيئاً بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، ولا يظلمهم الله مثقال ذرة فما دونها.

والدرجات: بمعنى المنازل والمراتب تشمل درجات أهل الجنة العالية، ودركات أهل النار النازلة، لكنه عبر بالدرجات للتغليب، إذ الثواب درجات والعقاب دركات.

وبعد بيان إيصال الحق لكل أحد، بيَّن الله تعالى أولاً أحوال العقاب وأهوال القيامة التي يتعرض لها الكافرون، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي واذكر أيها النَّبي لقومك حين تعرض النار على الكفار، أي يعذبون فيها، أو يوم ينكشف الغطاء، فينظرون إلى النار، ويقربون منها، فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: استوفيتم وأخذتم لذائذكم في الدنيا، وتمتعتم بها،

---

(١) البحر المحيط: ٨/٦٢

باتباع الشهوات واللذات في معاصي الله سبحانه، دون مبالاة بالذنب، وتكذيباً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظوظكم شيء منها، ففي هذا اليوم تجازون بالعذاب الذي فيه ذلّ لكم، وخزي عليكم، وإهانة، بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده، وخروجكم عن طاعة الله وعملكم بمعاصيه.

وهكذا جوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم، واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة في دركات جهنم، أعاذنا الله منها.

أما الاستمتاع بالطيبات المباحات من غير اعتداء ولا تجاوز الحدود، فهو مباح للمسلم والكافر على السواء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧] ، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن عقوق الوالدين من الكبائر، وإن من أكبر الكبائر الإشراك بالله، وإنكار البعث والمعاد.

٢ - إن عاطفة الأبوين الصادقة المتأججة تدفعهما إلى الاستغاثة بالله وسؤاله ودعائه بالهداية لولدهما الكافر منكر البعث، أو الاستغاثة بالله من كفره، وهما يقولان له: ويلك آمن، أي صدِّق بالبعث، إن وعد الله صدق لا خُلْف فيه، والمراد بالدعاء الحثّ والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك.

٣ً - لم يقابل الولد تلك العاطفة بالتقدير والاحترام، فأجاب والديه: ما هذا الذي تقولانه من أمر البعث وتدعوانني إليه إلا أكاذيب الأولين الأقدمين وأباطيلهم. ولم يكن قوله بلطف وإنما بتضجر وتبرم، وذلك من الكبائر أيضاً.

٤ً - كان هذا الولد القائل وأمثاله من الذين حقت عليهم كلمة العذاب، أي وجب عليهم العذاب بكلمة الله: « هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي » مع أمم تقدمت ومضت من قبلهم من الجن والإنس الكافرين، وإن تلك الأمم الكافرة ومن سار في منهجهم كانوا خاسرين لأعمالهم، ضيعوا سعيهم، وخسروا الجنة.

٥ً - لكل واحد من فريقي المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم، وليوفيهم الله أعمالهم ولا يظلموا حقوقهم، فلا يزاد على مسيء، ولا ينقص من محسن.

٦ً - يقال للكافرين تقريعاً وتوبيخاً حين تقريبهم من النار ونظرهم إليها، أو عند تعذيبهم بها: لقد تمتعتم بطيبات الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات، يعني المعاصي، فاليوم تجزون عذاب الخزي والفضيحة والهوان، بسبب استعلائكم على أهل الأرض بغير استحقاق، وتكبركم عن اتباع الحق والإيمان، وخروجكم عن طاعة الله بغياً وظلماً.

ويلاحظ أن الاستكبار عن قبول الحق: ذنب القلب، والفسق: عمل الجوارح (الأعضاء).

ويحتج بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات:

قال المفسرون: والأشياء الطيبة اللذيذة غير منهي عنها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ

مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢] ، ولكن التقشف وترك التكلف دأب الصالحين، لئلا يشتغل بغير المهم عن المهم، ولأن ما عدا الضروري لا حصر له، وقد يجرّ بعضه بعضاً إلى أن يقع المرء في حد البعد عن الله تعالى[١].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ دخل على أهل الصُّفَّة، وهم يرقعون ثيابهم بالأَدَم[٢]، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدُكم في حُلَّة، ويرُوح في أُخرى، ويُغْدَى عليه بِجَفْنةٍ، ويُرَاح بأخرى، ويستُر البيت كما تُسْتَرُ الكعبة؟» قالوا: نحن يومئذٍ خير، قال: « بل أنتم اليوم خير ».

وذكر قتادة عن عمر رضي الله عنه، قال: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة، لأن الله وصف قوماً، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾.

وعن عمر أن رجلاً دعاه إلى طعام فأكل، ثم قدَّم شيئاً حُلْواً فامتنع، وقال: رأيت الله نعى على قوم شهواتهم، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ الآية، فقال الرجل: اقرأْ يا أمير المؤمنين ما قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولستَ منهم، فأكل وسرَّه ما سمع.

وفي صحيح مسلم وغيره: أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو في مَشْرُبته[٣] حين هجر نساءه، قال: فالتفتُ فلم أرَ شيئاً يردّ البصر إلا أُهُباً[٤] جلوداً معطونة، قد سطع ريحها؛ فقلت: يا رسول الله، أنت رسول

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري النظّام: ٢٦/ ١٢
(٢) أدم: جمع أديم وهو الجلد.
(٣) المَشْرَبه: الموضع الذي يشرب منه الناس، والمشرُبة: الغرفة.
(٤) الأُهب: جمع إهاب: وهو الجلد.

الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الدِّيباح والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: « أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » فقلت: استغفرْ لي، فقال: «اللهم اغفر له» .

والخلاصة: إن الآية للنعي على الكفار الذين يعذبون بالنار، وإن استمتاعهم بالطيبات في الدنيا ليحرموا منها في الآخرة، عدلاً من الله وفضلاً ورحمة. وليس في الآية أن كل من أصاب الطيبات المباحات في الدنيا، فإنه لا يكون له منها حظ في الآخرة، والمؤمن يؤدي بإيمانه شكر المنعم، فلا يوبَّخ بتمتعه بالدنيا.

وعلى كل حال كان السلف الصالح يؤثرون التقشف في الدنيا، ليكون ثوابهم في الآخرة أكمل، أما التمتع بزخارف الدنيا المباحة فليس ممتنعاً، للآيات المتقدمة: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧] ، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢] . قال الرازي: نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى؛ لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض، وحينئذٍ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي، وذلك مما يجرُّ بعضه إلى بعض، ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٥

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

القراءات:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿ أَجِئۡتَنَا ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أجيتنا).

﴿ وَأُبَلِّغُكُم ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وأُبْلِغُكم).

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ﴾ :

وقرأ نافع، والبزي، وأبو عمرو (ولكنيَ أراكم).

﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ : قرئ:

١- (لا يُرى إلا مساكنُهم) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (لا تَرى إلا مساكنَهم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ ﴿إِذۡ﴾ : بدل اشتمال.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ قد: حرف يقرب الماضي من الحال ويقلل المستقبل. و﴿فِيمَآ﴾ أي في الذي و﴿إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾ تحتمل ﴿إِن﴾ وجهين: إما بمعنى (ما) النافية، أو زائدة .﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ : ما: إما نافية، ويؤيده دخول (من) للتأكيد في قوله تعالى: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ أو استفهامية منصوبة بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ والتقدير: أي شيء أغنى هو﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ﴾ : ﴿مَّا﴾ فاعل (حَاقَ) وهي مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وحاق بهم عقاب استهزائهم؛ لأن نفس الاستهزاء لا يحل عليهم، وإنما يحل عليهم عقابه.

﴿قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ ﴿قُرۡبَانًا﴾ : إما منصوب على المصدر، أو مفعول لأجله، أو مفعول ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ و﴿ءَالِهَةَۢ﴾ بدل منه.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ﴿وَمَا﴾ : مصدرية، أو موصولة، والعائد محذوف، أي فيه.

البلاغة:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم قال: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾ من قبيل الإطناب بتكرار اللفظ لزيادة التقبيح عليهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ توافق الفواصل الذي يزيد في جمال الكلام.

المفردات اللغوية:

﴿أَخَا عَادٍ﴾ هو هود عليه السلام، وعاد قبيلة عربية من إرَم . ﴿أَنذَرَ﴾ خوف . ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وادٍ باليمن فيه منازلهم، بين عُمان ومَهْرَة، وهي في الأصل جمع حِقْف: وهو رمل مستطيل مرتفع معوج فيه انحناء . ﴿خَلَتِ النُّذُرُ﴾ مضت الرسل التي تنذر، والنذر جمع نذير أي منذر، والجملة معترضة أو حال . ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن بعده. (ألّا) أي بأن قال: (لا تعبدوا) أو النذر بألا تعبدوا، فإن النهي عن الشيء إنذار بمضرته. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله . ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شرككم.

﴿لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ لتصرفنا عن عبادتها . ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على الشرك . ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك أنه يأتينا . ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ قال هود: لا يعلم أحد متى يأتيكم العذاب، ولا مدخل لي فيه فأستعجل به، وإنما علمه عند الله، فيأتيكم به في وقته المقدّر له . ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ . ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ باستعجالكم العذاب ما هو، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلِّغين منذرين، لا معذِّبين مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي العذاب . ﴿عَارِضًا﴾ سحاباً عرض في أفق السماء.

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجهاً نحو أوديتهم. ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب. ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ريح مشتملة على عذاب مؤلم، أي هي ريح، أو بدل من ﴿مَا﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من النفوس والأموال. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ بإرادته ومشيئته، فأهلكت رجالهم ونساءهم وصغارهم وأموالهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جزيناهم نجزي الكافرين. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي لقد جعلنا لهم مُكْنة وقدرة في الذي جعلناه لكم يا أهل مكة من القوة والمال. ﴿سَمْعًا﴾ أسماعاً. ﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾ قلوباً. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ شيئاً من الإغناء، وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾: زائدة للتأكيد. ﴿إِذْ كَانُوا۟﴾ ﴿إِذْ﴾: معمولة لأغنى، وفيها معنى التعليل. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حججه وبراهينه البيِّنة. ﴿وَحَاقَ﴾ نزل. ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلكنا من جواركم من أهل القرى كثمود وعاد وقوم لوط. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ بيَّناها لهم. ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ هلا نصرهم بدفع العذاب عنهم؟ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره. ﴿قُرْبَانًا﴾ مصدر أو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى، من طاعته ﴿ءَالِهَةً﴾ معه وهم الأصنام. ﴿ضَلُّوا۟﴾ غابوا. ﴿عَنْهُمْ﴾ عند نزول العذاب. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم الأصنام آلهة. ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي كذبهم، وقرئ: (أَفَكَهُمْ) أي صَرَفهم. ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد والنبوة التي أعرض عنها أهل مكة، بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها، ذكر الله تعالى قصة قوم عاد للعظة والتذكر والعبرة، فقد أهلكهم الله تعالى بسبب شؤم كفرهم، مع أنهم

كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهاً من مشركي مكة، ليعتبروا بذلك، ويتركوا الاغترار بالدنيا. ويقبلوا على طلب الدين، فإن ضرب الأمثال الواقعية يستدعي عمق التأمل، وتغيير المواقف، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب قومه.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك أخا عاد: وهو هود عليه السلام الذي كان أخاهم في النسب، لا في الدين، بعثه الله إلى عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأحقاف في حضرموت، جمع حقف: وهو الهضبة من الرمل العظيم، وهو الأصح، أو وادٍ يدعى بَرَهُوت، وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبل هود وبعده أنذروا نحو إنذاره بألا يعبدوا غير الله ولا يشركوا معه إلهاً آخر، فإني أخشى عليكم عذاب يوم عظيم الأهوال.

ونظير الآية قوله عز وجل: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٣-١٤] .

فأجابه قومه قائلين:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي قال قومه له: هل جئتنا لتصرفنا وتصدنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت صادقاً في قولك ووعدك لنا به على الشرك.

وهذا دليل واضح على أنهم استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، وإنكاراً لحصوله، كقوله سبحانه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

بِهَا﴾ [الشورى: ١٨/٤٢] . وفيه دلالة على أن الوعد قد يستعمل في موضع الوعيد.

فرد عليهم هود عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي قال هود: لا علم لي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب، وإنما العلم بوقت مجيئه عند الله تعالى، لا عندي؛ لأنه هو الذي قدَّره، لا أنا، ولم يخبرني متى سيأتي به، وإنما شأني أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، والتحذير من العذاب، لا أن آتي به، فليس ذلك في مقدوري، ولكني أراكم قوماً لا تعقلون ولا تفهمون حيث بقيتم مصرّين على الكفر، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم علي ما ليس من شأن الرسل ووظائفهم.

ثم ذكر الله تعالى مقدمات العذاب، فقال:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي حينما رأوا العذاب أو السحاب مستقبلهم ومتجهاً نحو أوديتهم، قالوا: هذا سحاب ممطر، ففرحوا به واستبشروا، وقد حبس عنهم المطر واحتاجوا إليه، فكان مطر عذاب، كما قال تعالى واصفاً جواب هود، أو أنه من قول الله لهم:

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بل هذا هو العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنه ريح نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، تحمل بين جوانبها العذاب المهلك المؤلم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد يقال له (المعتِّب).

وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى غير مذكور، بيَّنه قوله ﴿عَارِضًا﴾ كما قال تعالى:

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/٤٥] ولم يذكر الأرض، لكونها معلومة. فكذا هنا الضمير عائد إلى السحاب، كأنه قيل: فلما رأوا السحاب عارضاً، وهذا أولى، أو أن الضمير عائد إلى ما في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضاً.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن عائشة، قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواته[1]، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحاً، عُرِف ذلك في وجهه، قلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قال: يا عائشة، وما يُؤَمِّنُني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا» .

ثم وصف الله تعالى تلك الريح، فقال:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي تخرب وتهلك تلك الريح كل شيء مرَّت به من نفوس (عاد) وأموالها مما شأنه الخراب، بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٤٢] أي كالشيء البالي. ولهذا ذكر تعالى أنهم قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية، وأصبحوا لا يرى من أموالهم وأنفسهم شيء، لكن ترى آثار مساكنهم.

وهذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا، فكما جازينا عاداً بكفرهم بالله بذلك العذاب، نجازي كل مجرم كافر. والمقصود منه تخويف كفار مكة.

أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها

(١) لهواته: جمع لهاة وهي أقصى سقف الفم.

وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء تغيَّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته، فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾» والاختيال: أن يخال في السماء المطر.

وأخرج مسلم أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور» والصبا: ريح الشمال، والدبور: ريح الجنوب.

وبعد تخويف كفار مكة وتهديدهم ووعيدهم، وصف الله تعالى قوة عاد قائلاً:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ولقد مكنا قوم عاد والأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وقوة الأبدان وطول العمر بمقدار لم نجعل لكم مثله ولا قريباً منه، فقد كانوا أشد منكم قوة يا أهل مكة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأعز جانباً وأمنع سلطاناً وتسلطاً، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٢].

وإنهم أعرضوا عن قبول الحجة والهداية، بالرغم مما أعطاهم الله من الحواس التي بها تدرك الأدلة، فما نفعهم ما أعطاهم الله من مفاتيح المعرفة والتذكر، ولم يتوصلوا بها إلى التوحيد وصحة الوعد والوعيد، ولم يستعملوا قُدُرات السمع والبصر والفؤاد في الخير وما خلقت له من شُكْر المنعم.

ثم ذكر الله تعالى علة عدم انتفاعهم بحواسهم قائلاً:

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات

الله، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، حيث قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾

فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا.

ثم أكد تعالى ضرورة العظة بأمثال عاد أيضاً من الأمم السالفة المكذبة بالرسل، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي وأهلكنا أيضاً يا أهل مكة ما حولكم من البلاد، من القرى المكذبة بالرسل، مثل قرى ثمود وقرى قوم لوط ومَدْين مما جاور بلاد الحجاز، وأهل سبأ باليمن، وكانت في طريقهم يمرون بها في رحلاتهم صيفاً وشتاء، وبينا الآيات وأوضحناها، وأظهرنا الحجج ونوَّعناها، لكي يرجعوا عن كفرهم، فلم يرجعوا.

ثم أبان الله تعالى مدى الكرب والشدة بفقد الأعوان والنصراء لدفع عذاب الله، فقال:

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقرّبوا بها إلى الله لتشفع لهم، ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم، بل غابوا وذهبوا عنهم، ولم يحضروا لنصرتهم وعند الحاجة إليهم، وذلك الضلال والضياع سببه اتخاذهم إياها آلهة، وزعمهم الكاذب أنها تقربهم إلى الله، وتشفع، وافتراؤهم وكذبهم بقولهم: إنها آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

وفي هذا توبيخ لأهل مكة، وتنبيه إلى أن أصنامهم لا تنفعهم شيئاً، فلو نفعت لأغنت من كان قبلهم من الأمم الضالة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إن قصص القرآن للعبرة والعظة، ومن أكثر القصص تأثيراً قصة قوم عاد بالأحقاف بحضرموت غند اليمن، لذا أمر الله نبيه أن يذكر لمشركي مكة قصة عاد ليعتبروا بها، وليتذكر في نفسه قصة هود عليه السلام، فيقتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه له.

٢ً - لقد توالت الإنذارات على عاد من نبيهم هود عليه السلام، ومن الرسل الذين كانوا قبله، وجاؤوا بعده، وتتركز في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي نبذ الشرك وعبادة الأصنام، فإن الشرك سبب لعذاب عظيم الأهوال.

٣ً - قاوم قوم عاد دعوة هود هذه، وقالوا له: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فأتنا بالعذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقاً في أنك نبي.

٤ً - النبي مجرد مبلِّغ رسالة ربه، فلا يعلم الغيب، لذا قال هود لهم: إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله، لا عندي، وما شأني إلا أن أبلغكم ما أرسلت به عن ربكم إليكم، وأراكم قوماً تجهلون في سؤالكم استعجال العذاب.

٥ً - فوجئ قوم عاد بأمارات العذاب حينما رأوا سحاباً معترضاً في السماء والأفق، فظنوا أنه سحاب ممطر إياهم، مغيث لهم، ولكنه كان مشتملاً على أداة العذاب، ألا وهي الريح المدمرة، فإن الريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هود عليه السلام من ديارهم، فكانت الريح تحمل الفسطاط، فترفعها في الجو حتى يرى كأنها جرادة، ثم تضرب بها الصخور.

٦ً - إن أعاصير الريح بالسرعة الهائلة دمرت كل شيء مرت عليه من رجال (عاد) وأموالها، بإذن ربها، فلم يبق إلا آثار مساكنهم، ومثل هذه العقوبة يعاقب بها المشركون والكفار في كل زمان ومكان. وما أكثر ما يسمى بالحوادث الطبيعية في هذا العصر من البراكين والزلازل والأعاصير المدمرة.

٧ً - إن وسائل التعذيب الربانية يضعف ويصغر أمامها كل الناس سواء أكانوا عتاة طغاة أشداء أم دون ذلك، ولقد أنذر الله بهذا العقاب أهل مكة وخوَّفهم، وأبان لهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وآثاراً حضارية وعمرانية في الأرض.

٨ً - لم يعذب الله قوماً بعذاب الاستئصال إلا بعد أن طغوا وبغوا واستكبروا في الأرض بغير الحق، وعطلوا طاقات المعرفة والهدى، ووسائل التفكير والنظر والتأمل، وإذ عطلوها لم تنفعهم شيئاً من عذاب الله؛ لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله، ويكفرون بها، فأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب الإلهي الذي أنذروا به.

٩ً - ضرب الله مثلين واضحين لكفار مكة في هذه الآيات، المثل الأول- قوم عاد، والمثل الثاني- ما حولهم من أهل القرى، كديار ثمود وقرى لوط وبلاد مدين، مما كان يجاور بلاد الحجاز على طريق الشام، وكانت أخبارهم متواترة معروفة عندهم، وكذا أهل سبأ باليمن، وكانوا يمرون على ديارهم في رحلاتهم بالصيف والشتاء.

١٠ً - إن عدل الله مطلق، فإنه تعالى لم يهلك أولئك الأقوام إلا بعد أن أقام لهم الحجج والدلالات، وأنواع البينات والعظات ليرجعوا عن كفرهم، فلم يفعلوا، وأصروا على الكفر والعناد.

١١ً- لقد بات مؤكداً لمن كان عنده أدنى نظر وتأمل أن الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها لم تنفع عابديها بمنع العذاب عنهم في الدنيا، فكذلك لن

تنفعهم بالشفاعة لهم في الآخرة، حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠/١٨] فإن تلك الآلهة ضلت وغابت عنهم وقت الشدة والمحنة، وهي إفكهم وكذبهم في قولهم: إنها تقربهم إلى الله زلفى، وافتراؤهم بأنها آلهة، أو أن عدم نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم وقت الحاجة محصول إفكهم وافترائهم، أو عاقبة شركهم وثمرة كذبهم على الله عز وجل.

إيمان الجن بالقرآن

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ الجملة حالية.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ﴾ واذكر حين ﴿صَرَفْنَآ﴾ أمَلْنا ووجهنا نحوك ﴿نَفَرًا﴾ جماعة ما دون العشرة، جمع أنفار ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جن نَصيبين أو جن نِينَوى، وكانوا سبعة أو

تسعة، وكان ﷺ - فيما رواه الشيخان- ببطن نخلة- على نحو ليلة من مكة عند منصرفه من الطائف- يصلي بأصحابه الفجر ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ورد الفعل جمعاً مراعاة للمعنى ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قال بعضهم لبعض: أنصتوا أي اسكتوا واستمعوا بإصغاء (قَضَى) فرغ وانتهى من قراءته، وقرئ: ﴿قُضِىَ﴾ بالبناء للمجهول، والضمير للرسول ﷺ أي فرغ من قراءته، ﴿وَلَّوْاْ﴾ رجعوا ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوفين قومهم العذاب إن لم يؤمنوا، وكانوا يهودا ثم أسلموا.

﴿سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ هو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه السلام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما تقدمه كالتوارة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد وهو الإسلام ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريقة سليمة من الشرائع.

﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ الذي يدعو إلى الإيمان بالله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفر بعض ذنوبكم وهو ما يكون خالص حق الله تعالى، فإن حقوق الناس ومظالم العباد لا تغفر بالإيمان، وإنما تسقط برضا أصحابها ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾أي يحمكم من عذاب مؤلم معدّ للكفار. قال البيضاوي: واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم، والأظهر أنهم في توابع التكليف كبني آدم.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله بالهرب منه ولا يفوته ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾ لمن لا يجيب ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ دون الله ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ أنصار يدفعون عنه العذاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لم يجيبوا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيِّن ظاهر.

سبب نزول الآية (٢٩):

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾: أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: إن الجن هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلة، فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا،

وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن في الإنس من آمن، وفيهم من كفر، أردفه هنا ببيان أن الجن أيضاً فيهم من آمن وفيهم من كفر، وأن مؤمنهم معرَّض للثواب، وكافرهم معرَّض للعقاب، وأن الرسول ﷺ مرسل إلى الإنس والجن معاً.

والملائكة والجن عالمان غيبيان غير مرئيين، يجب أن يؤمن المسلم بهما، كما يجب أن يؤمن بأن النبي ﷺ تلقى الوحي من طريق الملائكة، وأنه بلَّغ رسالته إلى الجن فبشَّرهم وأنذرهم، أما كيفية التلقي والتبليغ فغير معروفة لدينا إلا بطريق الأخبار الدينية السمعية النقلية، ولا مجال للعقل في ذلك.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك حين وجهنا إليك يا محمداً نفراً من الجن، وبعثناهم إليك، لهداية قومهم، فلما حضروا القرآن عند تلاوته، أمروا بعضهم بعضاً بالإنصات والإصغاء لكي يسمعوا سماع تدبر وتأمل وإمعان، وكان ذلك ببطن نخلة على بعد ليلة من مكة على طريق الطائف، وكانوا من أشراف جِنّ نصيبين أو من نينوى بالموصل، بعد عودة النبي ﷺ من الطائف حينما خرج يدعوهم إلى الإسلام.

فلما فُرغ من تلاوة القرآن في صلاة الفجر، رجعوا قاصدين إلى قومهم، مخوفين إياهم من مخالفة القرآن، ومحذرين لهم من عذاب الله.

والآية دالة على أنه ﷺ كان مرسلاً إلى الجن والإنس ودلت روايات السنة على أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة في الليلة الأولى، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج.

من تلك الروايات الدالة على أنه ﷺ لم يشعر بحضورهم: ما ذكر سابقاً عن ابن مسعود في سبب النزول، ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة، فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً، وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبثَّ جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض.

وأما ما رواه البخاري ومسلم عن مسروق قال: « سألت ابن مسعود، من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن قال: آذنته بهم الشجرة » فهو مؤيد لما سبق، فإنه ﷺ لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أي أعلمته باجتماعهم.

وهناك روايات كثيرة دالة على لقاء النبي ﷺ بالجن وتبليغهم رسالته وتلاوة القرآن عليهم[١]، منها ما أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟! استُطير؟! ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما كان في

(١) راجع تفسير ابن كثير: ٤/ ١٦٤-١٦٩

وجه الصبح - أو قال: في السحر- إذا نحن به يجيء من قِبَل حِراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا له الذي كانوا فيه، فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم، فقرأت عليهم القرآن» فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم.

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن واقفاً بالحجون».

وسورة الجن قاطعة الدلالة على استماع الجن القرآن ومطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [١-٢].

وقال الله تعالى هنا:

﴿قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ قالت الجن: يا قومنا الجن: إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى، مصدقاً لما قبله من الكتب المنزلة على الرسل، يرشد إلى الدين الحق، وإلى طريق الله القويم في العقائد والعبادات والأعمال والأخبار.

ولم يذكروا عيسى عليه السلام إما لأنه كما قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلموا، وإما لأن عيسى أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ ورقائق أدبية إنسانية، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوارة، فالعمدة في التشريع لليهود والنصارى على السواء هو التوارة، فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة بدء نزول الوحي

عليه ونزول جبريل عليه السلام أول مرة، فقال: « هذا الناموس[١] الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[٢] إذ يخرجك قومك ».

والخلاصة: إنهم خصوا التوارة؛ لأنها مصدر الشرائع والأحكام في الماضي، ولأنها متفق عليها عند أهل الكتاب.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أي يا قومنا الجن، أجيبوا رسول الله خاتم النبيين أو القرآن إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي من حقوق الله، أما حقوق العباد فلا تسقط إلا بتنازل أصحابها عنها، وكذلك يحميكم ويقيكم وينقذكم من عذاب موجع مؤلم هو عذاب النار، ويدخل المؤمن منكم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٦-٤٧].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين: الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم سورة الرحمن التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم.

ولا فرق في الثواب والعقاب والأوامر والنواهي واستحقاق الجنة والنار بين الإنس والجن؛ لأن التكليف واحد، ولأن عموم آيات خطاب الفريقين يشمل كلاً منهما، فلا يصح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما يجارون فقط من عذاب النار يوم القيامة. ومما يدل على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧].

(١) ناموس الرجل: أمين السر، أو صاحب السر الذي يُطلعه على باطن أمره ويخصّه بما يستره عن غيره، وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام النَّاموس.

(٢) أي شاباً جَلْداً قوياً.

ثم حذروا قومهم من المخالفة، فقالوا:

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي ومن لا يجب رسول الله ﷺ إلى التوحيد وطاعة الله، فلا يفوت الله ولا يسبقه، ولا يفلت منه، ولا يقدر على الهرب منه؛ لأنه في أرض الله، وليس له من غير الله أنصار ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله، أولئك الذين لا يجيبون داعي الله في خطأ ظاهر واضح.

هذا تهديد ووعيد، وبذلك جمعوا على وفق نهج القرآن بين الترغيب والترهيب، ولهذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن المقصود من الآيات توبيخ مشركي قريش على عدم إيمانهم؛ فإن الجن سمعوا القرآن، فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، فما بالكم أيها المشركون وأمثالكم تعرضون وتصرون على الكفر؟!

٢ - وهناك قصد آخر وهو تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته، حتى أنه ذهب إلى الطائف لدعوة ثقيف وأهلها إلى الإسلام، فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم، فرموه بالحجارة وأدموه، فاتجه داعياً إلى الله في خشوع وتضرع واستنصار قائلاً- كما روى محمد بن إسحاق في سيرته-: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى عدو بعيد يتَجَّهمُني[١]، أم إلى صديق قريب ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي.

(١) أي يلقاني بالغلظة والشدة والوجه الكريه.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبُك، أو يحل بي سَخَطُك، ولك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ».

٣ - وفي عودته ﷺ من الطائف حينما كان يصلي الفجر أو قيام الليل في موضع يسمى «بطن نَخْلة» من ضواحي مكة، جاءه وفد من الجن سبعة أو تسعة من جن نَصِيبين أو من نِينَوى بالموصل، فاستمعوا إلى تلاوته القرآن، وهو لا يشعر بهم، فكانت هذه الآيات تطييباً لخاطره، وشد عزيمته وتقوية روحه.

٤ - كان أدب الجن عظيماً حين سماعهم القرآن، فينبغي التأسي بهم، فإنهم لما حضروا القرآن واستماعه أو حضروا النبي ﷺ، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن، فلما فرغ النبي ﷺ من تلاوة القرآن، انصرفوا قاصدين من وراءهم من قومهم من الجِنّ، منذرين لهم مخالفة القرآن، ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا.

٥ - دلت هذه القصة على أن النبي ﷺ مرسل مبعوث إلى الإنس والجن معاً، وعلى أنهم آمنوا به، وأنه بعد علمه بهم، أرسلهم في الليلة الثانية إلى قومهم، بدليل قولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ ولولا ذلك لما أنذروا قومهم، فتكون ليلة الجن ليلتين.

٦ - لقد وصفوا القرآن بوصفين:

الأول- كونه مصدقاً لما بين يديه، أي مصدقاً لكتب الأنبياء المشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد والأمر بمحاسن الأخلاق.

الثاني- قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى دين الحق، ودين الله القويم.

وهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجنّ والإنس، قال مقاتل: ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.

ويؤكد عموم دعوته ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: « أُعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلّت ليَ الغنائم، ولم تَحلَّ لأحد قبلي، وجُعلتْ لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلَّى حيث كان، ونُصِرْت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة ». قال مجاهد: الأحمر والأسود: الجن والإنسن.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «وبعثت إلى الخَلْق كافة، وخُتم بي النبيون» .

٧ً - أمر الجن قومهم بإجابة النبي ﷺ في كل ما أمر به، ومنه الأمر بالإيمان، فإن آمنتم بالداعي، وهو محمد ﷺ يغفر لكم بعض ذنوبكم، وينقذكم من عذاب مؤلم موجع. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجعوا إلى النبي ﷺ، فوافقوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، وأمرهم ونهاهم.

ويلاحظ أنهم حين عمموا الأمر بإجابة الداعي خصصوه بقولهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ لأن الإيمان أشرف أقسام التكاليف. وخصصوا المغفرة ببعض الذنوب؛ لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كالمظالم.

٨ً - دلت هذه الآي على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب، وقال الحسن البصري: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، وكذا قال أبو حنيفة؛ ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم. وقد أجبت عن هذا في تفسير الآيات، لذا ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك إلى أن الجن كما يعاقبون في الإساءة، يجازَوْن في الإحسان مثل الإنس. قال القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء، والعلم عند الله. وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ

دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٢] يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال في أول الآية: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠] إلى أن قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾[1]. وقال النيسابوري: « والصحيح أنهم في حكم بني آدم، يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون »[2].

٩ - إن من لا يجيب رسول الله ﷺ ليس بمعجز لله في الأرض فلا يفوته ولا يسبقه ولا يهرب منه، وليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عذاب الله، وهو من الضالين المخطئين في ضلال واضح.

إثبات البعث والأمر بالصبر

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الإعراب:

﴿بِقَٰدِرٍ﴾: دخلت الباء لدخول حرف النفي في أول الكلام، فهو في قوة: أليس الله بقادر، كما دخلت في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٥] وقادر: خبر ﴿أَنَّ﴾

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢١٧ وما بعدها.

(٢) غرائب القرآن: ٢٦/ ١٧.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب بتقدير فعل، أي واذكر يوم يعرض.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ﴾ فيه محذوف تقديره: فإنهم لم يلبثوا يوم يرون ما يوعدون إلا ساعة من نهار، فيوم: منصوب بـ ﴿يَلْبَثُوا﴾. و﴿بَلَاغٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا بلاغ، فحذف المبتدأ للعلم به، ويجوز فيه النصب لوجهين:

أحدهما - على أنه مصدر.

والثاني- على الوصف لساعة.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا، أي يعلم منكرو البعث ﴿يَعْيَ﴾ يعجز عنه ويضعف ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادر على إحياء الموتى، والفرق بين بلى ونعم أن ﴿بَلَىٰ﴾ جواب للنفي بإبطاله وتقرير نقيضه، أي فهي لإثبات النقيض، ونعم لتقرير ما قبلها. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بأن يعذبوا في النار ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أي يقال لهم: أليس هذا التعذيب أو العذاب؟.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى قومك ﴿أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أصحاب الثبات والحزم والجد والصبر، فإنك من جملتهم، و﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ للبيان، فكلهم ذوو عزم، وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، فإنهم أصحاب الشرائع الكبرى الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها، ومعاداة الطاعنين فيها ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لقومك نزول العذاب بهم، فإنه نازل بهم في وقته لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة، لطوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ لم يقيموا في الدنيا في ظنهم إلا مقدار ساعة، لشدة ما يرون من

أهوال ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا القرآن أو السورة أو الذي وعظتهم به تبليغ من الله إليكم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ أي لا يهلك عند رؤية العذاب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الكافرون الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة.

المناسبة:

بعد إثبات وجود الإله القادر الحكيم المختار في أول السورة، وإبطال قول عبدة الأصنام، وإثبات النبوة، ومناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة ورد شبهاتهم، وتوبيخهم على عدم إيمانهم مع أن الجن آمنوا بالقرآن، بعد هذا أثبت الله تعالى مسألة المعاد؛ لأن المشركين كانوا ينكرونها، فتكون أغراض السورة المكية قد تحققت، وهي إثبات التوحيد والنبوة والبعث، ثم ذكر بعض أحوال الكفار في الآخرة.

ثم سلّى الله نبيه ﷺ بأمره بالصبر في دعوته، كصبر الأنبياء أولي العزم قبله، لتبليغ ما أمروا بأدائه، وعدم استعجال العذاب لهم، وذلك تعليم لنا ودرس وعظة بليغة.

التفسير والبيان:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي أولم يتفكر ويعلم هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لإعادة الحياة في الأجسام مرة أخرى، أن الذي خلق الكون من السماوات والأرض في ابتداء الأمر، ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف عن خلقهن، بل قال لها: كوني فكانت، بقادر على أن يحيي الموتى من قبورهم مرة أخرى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧/٤٠].

وبما أن الجواب معروف بداهة، أجاب الله تعالى عن ذلك بقوله: بلى أي بل هو قادر على ذلك كله، إنه سبحانه قادر على أي شيء أراد خلقه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد إثبات البعث ذكر تعالى بعض أحوال الكفار يوم القيامة، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم يعذب الكافرون بالله في النار، ويقال لهم توبيخاً وتأنيباً: أليس هذا العذاب الذي تعذبونه حقاً وعدلاً وواقعاً لا شك فيه؟ فيقولون معترفين حيث لا ينفعهم الاعتراف: بلى والله ربنا إنه لحق، أي إنه لا يسعهم إلا الاعتراف.

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي قال الله على سبيل الإهانة والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار بسبب كفركم به في الدنيا وإنكاركم له.

وبعد تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجواب عن شبهات المشركين، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب قومه قائلاً:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك كصبر أولي الثبات والجد والعزيمة من الرسل وأنت من جملتهم، وهم أصحاب الشرائع: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولا تستعجل يا محمد العذاب لهم، أي للكفار، فإنه واقع بهم لا محالة. ومفعول الاستعجال محذوف، وهو العذاب.

روى ابن أبي حاتم والديلمي عن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائماً، ثم طواه- أي ظل في يومه لا يأكل ولا يشرب- ثم ظل صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً، ثم قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد، يا عائشة، إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض

مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا، جَهْدي، ولا قوة إلا بالله».

ونظير ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ٧٣/ ١١] وقوله سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؟ أي كأن الكافرين حين يشاهدون ما أوعدهم الله به من العذاب، لم يمكثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام، لما يشاهدونه من الأهوال العظام، كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٣] وقال عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦].

وهذا القرآن الذي وعظهم به الله تعالى والنبي: تبليغ كافٍ يقطع حجة الكافرين، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٦]. والبلاغ: بمعنى التبليغ.

ولا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة، والواقعون في معاصي الله، فلا يهلك على الله إلا هالك مشرك، وهذا من عدل الله تعالى ألا يعذب إلا من يستحق العذاب. وهذه الآية أقوى آية في الرجاء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - دلت الآية الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ على كونه تعالى قادراً على البعث؛ لأنه خلق السماوات والأرض، ولا شك أن خلقها أعظم من إعادة الشخص حياً بعد أن صار ميتاً، والقادر على الأقوى الأكمل، لا بد من أن يكون قادراً على الأقل والأضعف.

ثم إن الله تعالى قادر على كل شيء، وتعلق الروح بالجسد أمر ممكن؛ إذ لو لم يكن ممكناً لما وقع أولاً، والله تعالى قادر على كل الممكنات، فوجب كونه قادراً على تلك الإعادة.

٢ - ذكر الله تعالى الكفار حين تعذيبهم بالنار، حيث يقال لهم توبيخاً وتهكماً على استهزائهم بوعد الله ووعيده: أليس هذا العذاب حقاً؟ فذوقوا العذاب بكفركم.

٣ - أمر الله نبيه والمؤمنين بالصبر في تبليغ الدعوة ومشاق الحياة، كصبر أصحاب الشرائع الكبرى: وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام. وسبب هذا الأمر: أن الكفار كانوا يؤذون النبي ﷺ ويضايقونه ويوغرون صدره الشريف، فتكون كلمة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض.

وفي قول آخر: إن كل الرسل أولو عزم، ولم يبعث الله رسولاً إلا إذا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال وعقل، فتكون كلمة ﴿مِنَ﴾للتبيين لا للتبعيض.

وفي قول: كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن مَتَّى، لأن النبي ﷺ نُهي أن يكون مثله، لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مغاضباً لقومه.

وهل الأمر بالصبر منسوخ؟ قال بعض المفسرين: الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: مُحْكَمةٌ، قال القرطبي: والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكية. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم أُحُد؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه، كما صبر أولو العزم من الرسل، تسهيلاً عليه وتثبيتاً له.

والراجح لدي أنها غير منسوخة؛ لأن فضيلة الصبر ذات قيمة أدبية رفيعة، ومبدأ أخلاقي ضروري وسامٍ في كل وقت، ومثل هذا لا يصلح للنسخ، والصبر لا يمنع الجهاد ورد العدوان وقتال الأعداء من المشركين وغيرهم، فهو أمر مطلوب في السلم والحرب.

٤ً - أمر الله نبيه والمؤمنين أيضاً من بعده بعدم الاستعجال في الدعاء على الكفار، فلكل شيء أوان بعلم الله وحكمته، والعذاب منهم قريب، وأنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر. والسنة في الدعاء طلب الوقاية من السوء والأذى، أخرج الطبراني عن أنس أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم إني أسألك مُوجِبَاتِ رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بِرّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرَّجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين» .

٥ً - إن أجل الدنيا قصير، والآخرة خالدة دائمة، ويحسب الكفار حين يرون أهوال عذاب الآخرة أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مقدار ساعة من ساعات النهار.

٦ً - في القرآن والسنة البلاغ والكفاية في إنذار الناس من العذاب وتحذيرهم من العقاب بسبب الكفر والعصيان.

٧ً - من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من فسق بأن خرج من طاعة الله تعالى، ولم يعمل بأمره ونهيه.

قال ابن عباس: إذا عَسُر على المرأة ولدها، تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تغسل وتسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا العظيم: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٤٦] .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ صدق الله العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد

مدنية، وهي ثمان وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة محمد؛ لبيان تنزيل القرآن فيها على محمد ﷺ: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [٢]. ولم يذكر محمد باسمه في القرآن إلا أربع مرات، في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [١٤٤] وفي سورة الأحزاب: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [٤٠] وهنا في هذه السورة، وفي سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [٢٩]. وأما في غير هذه المواضع الأربعة فيذكر بصفة الرسول أو النبي.

وسميت أيضاً سورة القتال، لبيان أحكام قتال الكفار فيها في أثناء المعارك وبعد انتهائها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [٤].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة يرتبط أولها ارتباطاً قوياً بآخر سورة الأحقاف: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ حتى إنه لو أسقطت البسملة بينهما، لكان الكلام متصلاً مباشرة بما قبله اتصالاً لا تنافر فيه، كالآية الواحدة.

ما اشتملت عليه السورة:

يمكن أن يوصف موضوع هذه السورة بأنه الجهاد في سبيل الله، وبما أن السورة مدنية، فهي معنية بأحكام التشريع، لاسيما أحكام القتال والأسرى والغنائم ووصف الكافرين والمؤمنين وجزاء الفريقين في الدنيا والآخرة، وأحوال المنافقين والمرتدين ووعدهم ووعيدهم.

بدأت السورة مباشرة وبما يلفت النظر بالحديث عن الكفار أعداء الله والرسول، وإظهار غضب الله عليهم، وأردفت ذلك بوصف المؤمنين وبيان رضا الله عليهم، إظهار الفرق الواضح بين الفريقين: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾

ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين قتالاً عنيفاً لا هوادة فيه؛ لأنهم كفروا واتبعوا الباطل، وبشّرت المؤمنين بالنصر إن نصروا دين الله وصبروا في مواجهة الأعداء، وأبانت خذلان الكافرين لكراهيتهم ما أنزل الله، وفي هذا تعريف بجزاء المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

ثم عنيت بضرب الأمثال لكفار مكة وأمثالهم بالطغاة السابقين وكيفية تدميرهم بسبب طغيانهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾

ووصفت بعدئذ ألوان نعيم الجنة المعدة للمتقين للترغيب والإقبال على الإيمان والطاعة.

وانتقل البيان إلى وصف المنافقين والمرتدين ووعدهم وتهديدهم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ إلى آخر السورة. وذكرت في ثنايا ذلك أن الكافرين الصادّين عن سبيل الله والمعادين للرسول لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم، ولن يغفر الله لهم، وذكّرت بوجوب طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

وختمت السورة بما يناسب موضوعها الأصلي وهو الجهاد في سبيل الله، فدعت المؤمنين إلى تحقيق العزة والكرامة، وتجنب الضعف والوهن والمسالمة المهينة، وحذَّرت من صلح الأعداء حال القوة، ووصفت حال الدنيا باللهو واللعب، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، فإن الدنيا فانية زائلة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ...﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

فضل السورة:

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يقرؤها في صلاة المغرب.

بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾

الإعراب:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ مبتدأ وخبر، وكذلك: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ البال: الحال والشأن: لا يثنى ولا يجمع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾ مبتدأ وخبر أيضاً.

البلاغة:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بينهما مقابلة. وبين ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿آمَنُوا﴾ طباق.

﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ذكر خاص بعد عام تعظيماً للمنزل عليه، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونه، وأنه الأصل فيه، ولذلك أكده بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة وأهل الكتاب وأمثالهم، أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منعوا الناس من الدخول في الإسلام، وهذا عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها بالكفر، فلا ثواب لها في الآخرة، ويجزون بها في الدنيا فضلاً من الله تعالى، وذلك كصلة الأرحام، وفك الأُسارى، وحفظ الجوار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ من المهاجرين والأنصار وأهل الكتاب وغيرهم ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا بالقرآن المنزل على النبي ﷺ، وتخصيصه بعد العموم تعظيم له واعتناء بشأنه، وقرئ: نَزَّل بالبناء للمعلوم، وأُنزل بالبناء للمعلوم والمجهول، ونزل بالتخفيف ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه من الله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح، والسيئات: الذنوب ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد. والبال: لا يثنى ولا يجمع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من الإضلال والتكفير والإصلاح ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ أي بسبب اتباع الكفار الباطل من الأمر والشيطان. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي بسبب اتباع المؤمنين الحق وهو القرآن ومحمد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان وضرب المثل ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ أي يبين أحوال الفريقين، فالكافر يحبط عمله، والمؤمن يغفر زَلَّله، والأول مثل لخيبته، والثاني مثل لفوزه.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قال: هم أهل مكة نزلت فيهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ قال: هم الأنصار.

قال ابن عباس في رواية أخرى: نزلت في المُطْعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة، وأُبَيّ وأُمَيّة ابنا خَلَف، ومنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَري بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حِزَام، والحارث بن عامر بن نَوْفل.

التفسير والبيان:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ أي الذين جحدوا توحيد الله وآياته، وعبدوا غيره، وصدوا غيرهم عن دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وهم كفار قريش، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء في الآخرة.

فكل ما يسمونه مكارم الأخلاق، كصلة الرحم، وفك الأسارى، وقِرى الأضياف، وعِمارة المسجد الحرام بالسِّقاية والخدمة للحجاج، وإجارة المستجير، لا يقبل مع الكفر والصدّ.

ونظير الآية: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣].

وبعد بيان حال الكفار وجزائهم، بيَّن حال المؤمنين وجزاءهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ أي والذين صدقوا بالله، وأطاعوه، واتبعوا

أمره ونهيه، وانقادوا لشرع الله ظاهراً وباطناً، وعملوا بما يرضيه من صالح الأعمال، وصدقوا بالقرآن الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ، فآمنوا أنه حق وآمنوا بأنه كلام الله، والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه أنه من الله، محا عنهم ذنوبهم التي عملوها في الماضي، وغفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا والآخرة، فعصمهم عن المعاصي، وأرشدهم إلى أعمال الخير في الدنيا، وورثهم نعيم الجنة في الآخرة، وهذا يشمل المهاجرين والأنصار وغيرهم من المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة.

ثم بيّن الله تعالى سبب إضلال الكافرين وإصلاح وإسعاد المؤمنين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي إن ذلك الجزاء المتقدم للفريقين بسبب اتباع الكافرين الباطل، من الشرك بالله، والعمل بمعاصيه واختياره على الحق، وبسبب اتباع المؤمنين الحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي مثل ذلك البيان الرائع، يبين الله للناس أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة، ويظهر مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن جزاء أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله، وهو الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، هو إبطال ثمرة

أعمالهم في كفرهم، بما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق، فلم يبق لهم عمل، ولم يوجد، وأدى ذلك بالتالي إلى أنه لم يمتنع الإهلاك عنهم، ولا صرفهم عن التوفيق لسبل السعادة.

والمراد بالإضلال: إبطال العمل وأثره بحيث لا يجده ولا يجد من يثيبه عليها.

٢ً - إن المغفرة هي جزاء الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة باتباع الفرائض، واجتناب النواهي، والتصديق بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وبما جاء به، دون أن يخالفوه في شيء. والقرآن: هو الحق الثابت الراسخ من ربهم، الذي نسخ به ما قبله، والمغفرة أو التكفير: الستر والتجاوز عما مضى من ذنوبهم وسيئاتهم قبل الإيمان، وإصلاح البال: إصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم، والمراد إصلاح ما تعلق بدنياهم. وتكفير السيئات من الكريم: سترها بما هو خير منها، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] .

وهذا متفق مع منهج القرآن، كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٧] .

٣ً - دل قوله تعالى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ على أن الإيمان بالقرآن المنزل من عند الله شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وهذا في مقابلة قوله تعالى في حق الكافر: ﴿وَصَدُّواْ﴾ أي صدوا عن اتباع محمد ﷺ، وهو حث على اتباعه.

٤ً - إن القرآن الكريم هو الحق النازل من الرب عز وجل، وفي الآية دليل على أن دين محمد ﷺ لا يَرِد عليه النسخ أبداً.

٥ً - الفرق بين جزاءي الفريقين: أن إضلال الكفار وإبطال أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وهو اتباع إله غير الله، واتباع الشيطان والشرك، وأن تكفير سيئات المؤمنين وإسعادهم وإصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم بسبب اتباع الحق وهو التوحيد والإيمان.

أي إن ذلك الإضلال والهدى المتقدم بسبب اتباع الباطل من الكافرين، وابتاع الحق من المؤمنين، فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق.

٦ً - إن مثل هذا البيان الذي بُيِّن، يبين الله للناس أمر الحسنات وأمر السيئات وأحوال الفريقين. فقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان وضرب المثل، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وضرب المثل في الآية: هو أن الله جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أحكام القتال والأسرى والقتلى
في سبيل الله ونصرة الإسلام

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾: قرئ:

١- (والذين قُتلوا) وهي قراءة أبي عمرو، وحفص.

٢- (والذين قاتلوا) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ منصوب على أنه مصدر، تقديره: فاضربوا ضرب الرقاب، فحذف الفعل.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾: منصوبان على المصدر.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف، تقديره، الأمر ذلك.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ منصوب على المصدر، تقديره: تعسهم تعساً أو تعسوا تعساً، ويقال أيضاً: أتعسهم إتعاساً. والجملة خبر المبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عطف على تعسوا تعساً.

البلاغة:

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بينهما طباق.

﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ استعارة تبعية، شبه ترك القتال بوضع آلته، واشتق من الوضع ﴿تَضَعَ﴾ بمعنى تنتهي وتترك.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ مجاز مرسل، أطلق الجزء وهو الأقدام وأراد الكل، أي يثبتكم، وعبر بها لأنها أداة الثبات، وهو مثل ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠].

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ سجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿لَقِيتُمُ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي فاضربوا الرقاب

ضرباً، أي اقتلوهم، وعبر بضرب الرقاب مجازاً عن القتل؛ لأن الغالب في القتل أن يكون بضرب الرقبة، ولتصوير القتل بأشنع صورة للإرهاب ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم، والوَثاق كالرباط: ما يوثق به الأسير من الحبل أو القيد وغيره، وشده: إحكام ربطه حتى لا يفلت ويهرب.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فإما تمنون عليهم مناً، أو يفدون فداء، والمن: إطلاق سراح الأسير من غير مقابل أو فدية، والفداء أو المفاداة: إطلاق الأسير في مقابلة مال أو غيره كمبادلة الأسرى ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ مجاز عن انتهاء الحرب، أي حتى تنقضي الحرب أو تنتهي، ولم يبق إلا مسلم أو مسالم، والأوزار: الأثقال من السلاح والكُراع (الخيول) وغيرها من أدوات القتال الثقيلة والمعدات الحربية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك مما ذكر ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لا نتقم منهم بغير قتال كالخسف والغرق والرجفة ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن أمركم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين، بأن يجاهدوهم، فيستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين، بأن يعجل عذابهم ليرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي استشهدوا، وقرئ: قاتلوا، أي جاهدوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يحبطها ويضيعها ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سيهدي من بقي حياً إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم، أو سيهديهم في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة. ويلاحظ أن الهداية وإصلاح البال لمن لم يقتل، وأدرجوا في قوله: ﴿قُتِلُوا﴾ بطريق التغليب ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ بيَّنها لهم وأعلمها بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خُلق.

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ تنصروا دين الله ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ

﴿أَقۡدَامَكُمۡ﴾ يثبتكم في أثناء القتال والمجاهدة مع الكفار ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ هلاكاً لهم وخيبة من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التعس وإضلال الأعمال ﴿بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من القرآن المشتمل على التكاليف ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطلها.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد: ورسول الله ﷺ في الشِّعْب، وقد نشِبت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذ: اعْلُ هُبَل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فقال المشركون: إن لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم».

المناسبة:

بعد قسمة الناس إلى فريقين: فريق الكافرين الذين يتبعون الباطل وهم حزب الشيطان، وفريق المؤمنين الذين يتبعون الحق وهم حزب الرحمن، ذكر الله تعالى حكم القتال عند التحزب، وأرشد المؤمنين إلى قواعد الحرب مع المشركين أثناء المعركة وبعد انتهائها.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي فإذا واجهتم الكفار في القتال، فاحصدوهم حصداً بالسيوف، واضربوا الرقاب ضرباً. وهذا أمر بجهاد الكفار، وهم من لم يكن لهم عهد مع المسلمين، من المشركين وأهل الكتاب، عند وجود مسوغات القتال وتوافر العدوان، وهو قتال لا شفقة فيه ولا

هوادة، وإنما يجب إعمال السلاح فيهم، حسبما تقتضي طبيعة الحرب، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٣] .

هذا هو الحكم الأول في أثناء المعركة، أما بعد انتهاء المعركة فقال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ أي حتى إذا أكثرتم فيهم القتل، وغلبتموهم، وأصبحوا بلا قوة كالرجل المثخن بالجراح، فضعفوا واستكانوا وصاروا أسرى في أيديكم، وانتهت الحرب بإثخانهم وقهرهم، فَأْسُروهم وأَحْكِمُوا القيد عليهم لئلا يفلتوا ويهربوا.

وبعد الأسر أنتم مخيرون بين أمرين: إما المنّ عليهم بإطلاق سراحهم بلا مقابل أو بغير عوض، وإما الفداء بمبادلتهم بالأسرى المسلمين أو بدفع الفداء وهو المال الذي يفدي به الأسير نفسه من الأسر.

وذلك حتى لا يكون حرب مع الكفار ولا قتل، بأن يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة، أي إن غاية هذه الأوامر إنهاء الحرب والقتال. وهذا في الحقيقة حث على السلم المستتب، ليعيش الناس في سلام وأمان، ويتم تبادل الأفكار، وتنتشر دعوة الإسلام بالحكمة والإقناع، والحجة والبرهان، والموعظة الحسنة، فليس انتشار الإسلام بالسيف كما يتصور بعض الأعداء، وإنما كان انتشاره بالقناعة الذاتية، وبالاستحسان الحر الطليق دون إجبار ولا إكراه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] .

وصريح الآية يوجب القتل فقط قبل الإثخان، والتخيير بعد الأسر بين المن والفداء. وجاءت السنة مبينة جواز القتل بعد الأسر للمصلحة، كما جاء

فيها إباحة الاسترقاق جرياً على العادة السائدة في الماضي ومعاملة بالمثل. والظاهر أن الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله تعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة في شرع القتال، فقال:

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ذلك هو الحكم في قتال الكفار، والله قادر على الانتصار من أعدائه بالانتقام منهم، وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب كالخسف والرجفة والغرق، دون قتال منكم أيها المؤمنون، ولكن الله أمركم بحربهم ليختبر بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه، ويجزل ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديكم، أو يحملهم الخوف على الإيمان بالله تعالى قبل نزول العذاب بهم، ومشاهدة قتل أمثالهم، فالحكمة من القتال: هي امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢].

ثم ذكر الله تعالى ثواب الشهداء المجاهدين في سبيله قائلاً:

أ - ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي إن المقتولين في سبيل الله لا يضيع الله سبحانه أجرهم، ولن يجعل أعمالهم ضائعة كما تضيع أعمال الكفار.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب الكندي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يُغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلّى حُلَّة الإيمان، ويزوَّج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصّع بالدر والياقوت، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ للشهيد كل شيء إلاَّ الدَّيْن».

٢ - ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾ أي سيوفقهم الله تعالى للعمل بما يحبه ويرضاه، ويرشدهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم وأمرهم وشأنهم في الآخرة، أي تحفظ أعمالهم وتخلد لهم، ويدخلهم روضات الجنات يحبرون فيها، وقد عرَّفهم بها، وأعلمهم وبيَّنها لهم من غير استدلال، حتى إن أهلها يهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم من غير مرشد ولا دليل.

جاء في الحديث الصحيح عند البخاري: «والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

وقال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، والتكرار بين ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)﴾ لأن الأول سبب النعيم، والثاني نفس النعيم.

والناس في الجنة درجات بحسب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٢].

ثم بشرهم الله بالنصر بشرط نصرة دينه وحثهم على تحقيق الشرط، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ أي يا أهل الإيمان بالله والقرآن والإسلام إن تنصروا دين الله ينصركم على أعدائكم، ويثبِّت أقدامكم عند القتال في مواطن الحرب، حتى تتحقق الغلبة والعزة والتفوق لكم، وتكون كلمة الله هي العليا.

وتأكيداً لذلك وتقوية لقلوبهم ذكر الله تعالى جزاء الكافرين بعد بيان جزاء المجاهدين، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ أي وللكافرين بالله وبرسالة محمد ﷺ الخيبة والخزي والشقاء، وقد أبطل الله أعمالهم وأحبطها، فلا ثواب لهم ولا خير يرتجى منها في الآخرة. وقوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ مقابل تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ثم ذكر الله تعالى سبب الخيبة وإبطال الأعمال، وسبب بقائهم على الكفر والضلال قائلاً:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ أي ذلك التعس، وإضلال الأعمال بسبب كراهيتهم ما أنزل الله في قرآنه على نبيّه المصطفى ﷺ من التكاليف، فهم لا يريدونه ولا يحبونه، فأبطل الله ثواب أعمالهم بذلك السبب. والمراد بالأعمال: أعمال الخير حال الكفر؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أ - إباحة القتل الشديد في أثناء القتال؛ لأن ذلك من طبيعة الحرب، تحقيقاً للنصر والغلبة، ودحراً للعدو وإنزال الهزيمة الساحقة بجيشه. وقد خصص بعض المفسرين جواز ضرب الرقاب والإثخان (الإكثار من القتل في الحرب) بالمشركين أهل الأوثان، أو بمن لا عهد لهم ولا ذمة. والصحيح أن الآية عامة، والتخصيص لادليل عليه، لعموم الآية: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾

وهذه الآية متفقة مع آية الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٦٧] غير أن آية الأنفال لم يذكر فيها ما يكون بعد الإثخان، والآية التي هنا فيها بيان تقرير مصير الأسرى وتخيير الإمام فيهم بين أحد أمرين: المنّ أو الفداء.

أما قتل الأسير لضرورة أو مصلحة حربية معينة في حالات خاصة وكذا استرقاقه، فمأخوذ من السّنة النّبوية، فيصير الإمام مخيّراً في الأسرى بين أربعة أمور: القتل، والاسترقاق، والمنّ، والفداء.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النّبي ﷺ خَيْلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حَنِيفة، يقال له ثُمامة بن أُثال، فربطوه في سارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنْعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت، حتى كان الغد، فقال له ﷺ: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك، قال: أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ؛ والله ما كان من دين أبغض إليّ من دِينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمتُ مع محمد ﷺ».

وهذا دليل من السّنة على جواز المنّ على الأسير.

وهناك دليل آخر من السّنة على جواز الفداء، قال عمران بن حصين: أَسَرَ أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من عَقِيل فأوثقوه، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين، من أصحاب النّبي ﷺ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف.

وأما دليل جواز قتل الأسير: فقال أبو بكر الجصاص: اتفق فقهاء

الأمصار على جواز قتل الأسير، لا نعلم بينهم خلافاً فيه، وقد تواترت الأخبار عن النّبي ﷺ في قتله الأسير، منها قتله عُقبة بن أبي مُعَيط، والنّضر ابن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل- أي النّبي- يوم أُحد أبا عَزّة الشاعر بعدما أسر، وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل، وسبي الذُّرِّيّة، ومنَّ على الزبير ابن باطا من بينهم.

وفتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وشرط على ابن أبي الْحُقَيق ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خَطَل، ومِقْيَس بن صُبَابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وآخرين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، ومنَّ على أهل مكة ولم يغنم أموالهم(١).

وأما دليل جواز استرقاق الأسرى الذي كان معاملة بالمثل مع صنيع الأمم الأخرى بعد الحرب: فهو أن الرسول ﷺ استرق بعض العرب كهوازن وبني المصطلق وقبائل من العرب(٢)، وسبى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بني ناجية من قريش، وفتحت الصحابة بلاد فارس والروم، فسبوا من استدلوا عليه.

وأما الاستدلال بالآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ على جواز قتل الأسير فغير سديد؛ لأن الآية واضحة في القتل قبل الأسر، وأما بعد الإثخان وهو الإضعاف، فإن المحارب يقع في الأسر، وحكم ذلك مختلف عما قبل الأسر. وقد فهم بعضهم من الآية جواز الاسترقاق، وذلك من الأمر بشدّ الوثاق، ويبقى بعده حالان، هما: المنّ والفداء.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٩١

(٢) نيل الأوطار: ٨/ ٢ وما بعدها.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ذلك يوم بدر، والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فجعل الله النّبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم[1]. أي يفعل الإمام ما يراه مصلحة حربية.

٢ً - هل الآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ محكمة أو منسوخة؟ قال أبو حنيفة عملاً بقول السُّدِّي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٥] فلا يفادى الأسير بالمال، ولا يباع السبي لأهل الحرب، فيرجعون حرباً علينا، ولا يفادون بأسرى المسلمين، ولا يمنّ على الأسرى، حتى لا يعودوا حرباً على المسلمين. وقال أبو يوسف ومحمد: لا بأس أن يفادى أسرى المؤمنين بأسرى المشركين، وهو قول الثوري والأوزاعي.

وأجاز الجمهور المنّ والفداء بأسرى المسلمين وبالمال للآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فقد أجازت الآية الفداء مطلقاً من غير تقييد، وفادى النّبي ﷺ أسرى بدر بالمال، وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين قال: أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النّبي ﷺ وأسر أصحاب النّبي رجلاً من بني عامر بن صَعْصَعة، فَمُرَّ به على النّبي ﷺ، فقال الأسير: علامَ أُحبس؟ فقال: بجريرة حلفائك، فقال: إني مسلم، فقال النّبي ﷺ: «لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح» ثم مضى رسول الله ﷺ فناداه أيضاً، فأقبل فقال: إني جائع فأطعمني، فقال النّبي: نعم هذه حاجتك، ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما. وروي أن النّبي ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين.

---

(١) الجصاص: ٣/ ٣٩٠

قال ابن العربي والقرطبي: والتحقيق الصحيح أن الآية محكمة في الأمر بالقتال[١]. وهذا مذهب جمهور العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. ولا يلجأ إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر التوفيق والجمع بين الأدلة المتعارضة، وهنا يمكن التوفيق بحمل آيات القتال على حالة الحرب ونقض العهد ومقتضيات المعركة، فلا بدّ حينئذٍ من القتل لإعلاء كلمة الله تعالى وإظهار عزّة الإسلام وإعلاء هيبة المسلمين، فإن تحقق المطلوب تخيّر المسلمون بعد انتهاء الحرب واستقرار السلم بين المنّ والفداء، أما القتل بعد الأسر فهو ضرورة ولا تكون إلا لمصلحة حربية واضحة يراها الإمام.

قال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧] . فإذا أُسِر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما يراه من قتل أو غيره[٢]. وهذا مذهب الجمهور: المالكية والشافعية والحنابلة.

والخلاصة: لم يأخذ الفقهاء بمقتضى الحصر المفهوم من الآية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وقالوا إن حال المقاتلين بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمنّ والفداء؛ لأن المذكور في الآية إرشاد؛ لأن الظاهر في المثخن الإزمان أي الإنهاء أو الإضعاف، والقتل مذكور في قوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾

٣ً - الجهاد طريق للامتحان والاختبار، ليعرف الصادق الصابر، والمضحي المجاهد في سبيل الله، وإن كان منزّهاً عن الاستعانة بأحد، وقادراً على البطش بالأعداء وإهلاكهم بوسائل مختلفة غير القتال، أو تسليط الملائكة

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٨٩، تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٢٨

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٢٨

أو أضعف خلقه، فالله يمتحن المؤمنين بالكافرين، هل يجاهدون في سبيله حقّ الجهاد أم لا؟ ويبتلي الكافرين بالمؤمنين، هل يذعنون للحقّ أم لا؟ إلزاماً للحجة. ومعنى الابتلاء من الله سبحانه كما تقدم مراراً أنه مجاز، أي يعاملهم معاملة المختبر أو ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثقلين.

٤ - القتلى في سبيل الله أو الشهداء لا تضيع أعمالهم، ويهديهم ربّهم إلى إدراك السعادة في الدنيا والآخرة وإلى الثواب ويثبتهم على الهداية، ويرشدهم إلى طريق الجنة من غير بحث ولا حيرة ولا توقف بعد خروجهم من قبورهم، ويصلح حالهم وشأنهم ومعاشهم في مستقبل الأمر في العقبى والمعاد أو في الدنيا، ويدخلهم الجنة التي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وطيَّبها لهم بأنواع الملاذّ.

٥ - النصر مشروط بنصرة دين الله تعالى وتطبيق شرعه والتزام أوامره واجتناب نواهيه، لذا كرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة قائلاً: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويثبِّت قلوبكم بالأمن والنصر والمعونة في موطن الحرب.

٦ - إن جزاء الكافرين عسير ومظلم وشاق، فالخيبة والخزي والهزيمة لهم في الدنيا، وإبطال أعمالهم في الآخرة، بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من الكتب والشرائع، ولأن أعمالهم كانت في طاعة الشيطان، فيحبط الله ما لهم من أعمال الخيرات، كعمارة المسجد الحرام وغيره، وقِرَى الضيف، وأصناف القُرَب، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن.

وبه يتبيّن الفرق بين موتى الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وبين موتى المسلمين وقتلاهم حيث قال تعالى في حقهم: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

النظر في آثار الأمم السابقة
والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤)﴾

القراءات:

﴿وَكَأَيِّن﴾ :

وقرأ ابن كثير (وكائن).

الإعراب:

﴿فَيَنظُرُوا﴾ إما مجزوم بالعطف بالفاء على ﴿يَسِيرُوا﴾ أو في موضع نصب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير (أن) .

﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾ : أي أخرجك أهلها، ولهذا قال: أهلكناهم، فحذف الأصل، وأقيم ضمير القرية مقامهم، فصار ضمير القرية في موضع رفع بـ (أخرج) كما كان ضمير الأهل كذلك، ثم استتر ضمير القرية في (أخرج) وظهرت علامة التأنيث، لأن القرية مؤنثة، وهذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، مثل ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢١] أي أصحاب الأمر.

البلاغة:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ مجاز مرسل أي أخرج أهلها، والإخراج باعتبار التسبب. وكذا قوله ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأريد الحالّ.

المفردات اللغوية:

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلك أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وهو أبلغ من قوله: دمرهم الله، فهذا يدلّ على الإهلاك مطلقاً، والأول: إهلاك ما يختص به الإنسان من نفسه وماله وولده وغيره. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة؛ لأن التدمير يدلّ عليها. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب ولاية الله. ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولي وناصر المؤمنين، أي ناصر المؤمنين على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لا ناصر لهم يدفع العذاب عنهم. ويأتي المولى بمعنى المالك كما في قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ١٠/٣٠] أي إلى مالك أمورهم والمتصرف في شؤونهم.

﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم، ولا يلتفتون إلى العاقبة أو الآخرة. ﴿مَثْوًى﴾ منزل ومقام ومصير. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية. ﴿مِّن قَرْيَتِكَ﴾ أي مكة أي من أهل مكة، حذف المضاف وأجريت أحكامه على المضاف إليه، وقوله ﴿مِّن قَرْيَتِكَ﴾ روعي فيه لفظ قرية. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواع العذاب، روعي فيه معنى ﴿قَرْيَةٍ﴾ الأولى. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ من إهلاكنا.

﴿بَيِّنَةٍ﴾ حجة وبرهان، وتشمل القرآن والحجج العقلية. ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ في عبادة الأوثان، فلا شبهة دليل لهم في ذلك، فضلاً عن وجود حجة لديهم. والجواب عن قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ و ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ هو لا مماثلة بين المؤمنين وكفار مكة.

سبب النزول:

نزول الآية: (١١):

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى﴾: قال قتادة: نزلت يوم أُحد والنَّبي ﷺ في الشِّعْب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» وقد تقدّم ذلك.

نزول الآية (١٣):

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾: أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار، نظر إلى مكة، فقال: أنتِ أحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك، لم أخرج منك، فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ الآية. وذكره الثعلبي أيضاً عن قتادة وابن عباس، وهو حديث صحيح.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى مصير الكافرين والمؤمنين، ونعى على الأولين، وأثنى على الآخرين تنبيهاً على وجوب الإيمان، حضّ على النظر في آثار الأمم المتقدّمة، والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين، للعبرة والعظة، وإدراك أن الله ناصر المؤمنين وخاذل الكافرين، ومنعم على أهل الإيمان والصلاح بالجنة، بسبب تبيّنهم الحق، ومعاقب الكفار بالنار، بسبب اتباعهم أهواءهم في عبادة الأوثان.

التفسير والبيان:

﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ أي أفلم يمشِ هؤلاء المشركون بالله تعالى المكذبون

لرسوله ﷺ في الأرض أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا، فيروا كيف كان مصير الأمم السالفة، وما آل إليه أمر الكافرين من قبلهم، فإن آثار العذاب في ديارهم بسبب تكذيبهم وكفرهم باقية، لقد هدَّم الله عليهم ديارهم، وأهلكهم واستأصلهم، فلم يبق من الأهل والولد والمال شيئاً يذكر، ونجّى الله تعالى المؤمنين من بين أظهرهم.

ولهؤلاء الكافرين المكذبين ولجميع الأمم الكافرة أمثال عاقبة من قبلهم من الكفرة. وقد عوقب كفار قريش في الدنيا بالهزيمة المنكرة في بدر وفتح مكة، ولهم عقاب أشدّ في نار جهنم في الآخرة.

وسبب العقاب ما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ أي ذلك التدمير والاستئصال للكافرين، ونجاة المؤمنين بسبب أن الله ناصر عباده الذين آمنوا بالله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، وأن الكافرين الجاحدين بالله تعالى والمكذبين رسوله ﷺ لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب، فوقعت العقوبة بهم.

ولما بيَّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، بيَّن حالهم في الآخرة، فقال:

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي إن الله ينعم يوم القيامة على عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا به وعملوا صالح الأعمال، فقاموا بالفرائض واجتنبوا المعاصي، بدخول الجنات (البساتين) التي تجري الأنهار من تحت قصورها، تكريماً لهم.

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي والذين جحدوا بوجود الله وتوحيده وكذبوا رسوله ينتفعون بمتاع الدنيا، ويأكلون منها كأكل الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لاهمَّ لهم إلا بطونهم

وفروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عند أحمد والشيخين والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر: «المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

ونار جهنم يوم جزائهم مسكن ومنزل لهم يستقرون فيه.

والخلاصة: إن الله يدخل المؤمن الجنة، والكافر النار في عالم الآخرة.

ثم هدّد الله تعالى مشركي مكة وأوعدهم بقوله:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ أي وكثير من أهل المدن والأمم السالفة ذات القوة والنفوذ كانوا أشدّ بأساً وقوةً من أهل مكة الذين أخرجوك منها، فأهلكناهم، ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً يدفع عنهم العذاب، فبالأولى من هو أضعف منهم، وهم قريش.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيِّد وخاتم الأنبياء. فإذا أهلك الله عزّ وجلّ عتاة الأمم الذين كذبوا الرّسل، فسيفعل الأمر نفسه بأمثالهم، وإن امتنع إيقاع عذاب الاستئصال في الدنيا بسبب الرسول ﷺ نبي الرحمة، فإن العذاب لهم كائن لا محالة في الآخرة.

ثم أبان الله تعالى سبب التفرقة في جزاء الفريقين، فقال على طريق الإنكار:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ أي أفمن كان على بصيرة ويقين من أمر دينه وبما جبل عليه من الفطرة السليمة بتوحيد الله، كمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، واقتراف المعاصي، واتبعوا أهواءهم في عبادتها، وانهمكوا في أنواع الضلالات، بلا شبهة توجب الشّك، فضلاً عن حجة صحيحة، والمعنى لا يستوي الفريقان.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٣/١٩] ، وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/٢٠] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - هدّد الحق تعالى بجال الأقدمين، ودعا كفار قريش والناس قاطبة إلى النظر بقلوبهم في مصير الكافرين المكذبين، كيف أهلكهم واستأصلهم، وأعلن صراحة أن للكافرين في كل عصر وجيل أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير، أو أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة، إن لم يؤمنوا.

٢ً - ذلك الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، وأما الكافرين الذين اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضرّ، وتركوا الله تعالى، فلا ناصر لهم ولا معين يمنع عنهم العذاب.

٣ً - إن جزاء الفريقين مختلف، فالله تعالى يدخل المؤمنين الذين عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما الكافرون فإنهم يتمتعون في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في المستقبل، ونار جهنم في الآخرة منزلهم ومقامهم ومسكنهم الذي لا يفارقونه.

قال الرازي: كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأن الأنهار يتبعها الأشجار، والأشجار تتبعها الثمار، والماء سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرّر بها[١].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٥١

والمؤمن وإن شارك الكافر في التّمتع بالدنيا، فلم يذكر ذلك في حقه؛ لأن له الجنة العظيمة، فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه في حقّه، والكافر ليس له إلا الدنيا.

٤ - خصّ الله تعالى أهل مكة بتهديد ووعيد آخر، فلما لم ينتفعوا بالمثل العام بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر لهم مثلاً آخر، وهو أن كثيراً من الأقوام الغابرة كانوا أشدّ قوة منهم، فأهلكهم الله تعالى، ولا ناصر لهم.

٥ - لا يستوي عقلاً في الدنيا وواقعاً وعدلاً في الآخرة أهل الإيمان الذين هم على بصيرة وثبات ويقين وهم محمد ﷺ وأمته، وعُبَّاد الأصنام كأبي جهل وسائر الكفار الذين حسَّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم، واتبعوا ما اشتهوا، فالفريق الأول ناجون والثاني هالكون.

صفة نعيم الجنة وعذاب النار

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

القراءات:

﴿آسِنٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (أسن).

الإعراب:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ أو ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ وكأن قائلاً قال: وما مثلها؟ فقيل: فيها أنهار، ويجوز أن يكون ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ في

موضع الحال، أي مستقرة فيها أنهار، كما يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي فيها أنهار.

﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿لَّذَّةٍ﴾: تأنيث (لذّ) وهو اللذيذ، أو وصف بمصدر، مثل رجل عدل وقرئ بالحركات الثلاث، فالجر على صفة الخمر، والرفع على صفة الأنهار، والنصب على العلة أي التمييز، أي لأجل لذّة الشاربين.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف أي لهم مغفرة، أو عطف على لفظ المحذوف في قوله ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي لهم أصناف.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ﴾ خبر مبتدأ مقدر، أي أمن هو في هذا النعيم؟

البلاغة:

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ إطناب بتكرار لفظ ﴿أَنْهَٰرٌ﴾ تشويقاً لنعيم الجنة.

المفردات اللغوية:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن، وهو على حذف حرف الاستفهام، لانطوائه تحت حكم كلام مصدَّر بحرف الإنكار وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ والتقدير: أَمَثَلُ الجنة وأصحابها كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ أو كمثل من هو خالد؟ فهو كلام في صورة الإثبات، ومعنى النفي والإنكار. وفائدة التعرية عن حروف الاستفهام زيادة تصوير مكابرة من يسوِّي بين الفريقين. أو فيما قصصنا عليك صفة الجنة العجيبة.

﴿ءَاسِنٍ﴾ متغيّر الطعم والرائحة لطول مكثه، وفعله: أَسَن الماء بالفتح يأسِن ويأسُن كضرَب ونصَر، أو أسِن بالكسر مثل عَلِم، وقرئ بالمدّ والقصر

كضارب وحذِر، أي ماء الجنة غير متغيّر الطعم والريح، بخلاف ماء الدنيا، يتغيّر بعارض. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بخلاف لبن الدنيا، لخروجه من الضرع. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، و﴿لَّذَّةٍ﴾: تأنيث لذّ، أي لذيذ. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ منقّى خالٍ من الشمع والقذى وفضلات النحل وغيرها، بخلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بطون النحل يخالطه الشمع وغيره، والتوصيف بهذه الأوصاف يقتضي غزارتها واستمرارها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي لهم فيها أصناف من الثمار. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي لهم مغفرة، أي فالله راضٍ عنهم، مع إحسانه إليهم بما ذكر، بخلاف الإنسان قد يكون مع إحسانه ساخطاً. ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ ماءً حاراً شديد الغليان، مكان أشربة أهل الجنة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي مصارينهم من فرط الحرارة، جمع مِعَىً.

المناسبة:

بعد بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين في الاهتداء والضلال، بيّن الله تعالى الفرق بينهما في الجزاء والمرجع والمآل، فذكر ما للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة، وما للكافرين من الخلود في النار وشرب الماء شديد الحرارة الذي يقطّع الأمعاء. والكلام متصل أيضاً بما قال عزّ وجلّ قبل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ فهناك بيان الجزاء، وهنا وصف تلك الجنات المعدة للمتقين.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين: جزاء مادي وجزاء معنوي، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعوم، والمغفرة

والرضوان، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار، والخلود في النار. ولما قدّم في الذكر في الآية السابقة المتبصر صاحب البيّنة على من اتّبع هواه، قدّم في هذه الآية حال الأول في المآل على حال الآخر.

ومعنى الآية: إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين الذين اتّقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة:

- فيها أنهار جارية من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث، بل إنه ماء عذب فرات متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب، من شربه لا يظمأ أبداً. وقد ابتدأ بالماء؛ لأنه أعم نفعاً للناس من بقية المشروبات. روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ».

- وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة، ورد في حديث مرفوع: « لم يخرج من ضروع الماشية » وثنّى باللبن؛ لأنه ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل ومطعوم شهي.

- وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم، طيبة الشرب، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مُرَّة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٤٧] ، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/١٩] ، أي ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل، ولا يصيب شاربها صداع، ولا يذهب عقله، وإنما هي لذيذة للشاربين: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٤٦] . وورد في حديث مرفوع: «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» . وذكرت في المرتبة الثالثة؛ لأنها ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا يتكرهها الشاربون، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم.

- وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر، ثبت في حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل» . وذكر في المرتبة الرابعة؛ لأنه ليس ضرورياً وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، ولا شكّ أن الحلو أطيب الطعوم، والعسل أرقاها، وفيه فوائد كثيرة للجسد: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ١٦/٦٩] ، ففيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب والمطعوم، وفيه الخير في الآخرة.

وإنما ذكر الله تعالى هذه الأجناس الأربعة من الأنهار؛ لأنها جمعت بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل).

أخرج الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن معاوية بن حَيْدَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنّة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقَّقُ الأنهار منها بعد» .

ثم ذكر الله تعالى المأكول الممتع وهو الثمار والفواكه اليانعة، فللمتقين في الجنّة مختلف أنواع الثمار وأصناف الفاكهة ذات الألوان البديعة، والروائح الذكية، والطعوم الشهية، كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٥٥] ، وقوله سبحانه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٥٢] . ولما كان الأكل في الجنة للذة لا للحاجة ذكر الثمار ولم يذكر اللحم والخبز.

وبعد بيان الجزاء المادي من المشروب والمأكول ذكر تعالى الجزاء المعنوي وهو ظفر أهل الجنة مع ذلك كله بمغفرة الله ورضوانه وتجاوزه عن سيئاتهم وذنوبهم كرماً وحلماً وفضلاً ورحمة، والمغفرة تكون قبل دخول الجنة، فقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ كأنه قال تعالى: لهم الثمرات فيها، ولهم المغفرة قبل دخولها.

ثم قارن الله تعالى ما وعد به المتقين من النعيم بما أوعد به الكافرين من الجحيم، فأبان: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة وبيَّنا ما هم فيه من نعيم وخلود، كمن هو خالد في النار؟ لا شكّ أنه لا يستوي من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، وليس أهل الجنة التي فيها الثمار والأنهار كأهل النار التي فيها الحميم في العذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١٢].

فالخلود صفة مشتركة بين أهل الجنة وأهل النار، ولكن شتَّان ما بين النوعين، الأولون خالدون في النعيم المقيم، والآخرون خالدون في العذاب الأليم.

وأما شراب أهل النار: فهو أن يسقوا من ماء حار شديد الغليان لا يستطاع، ولكنهم يضطرون إلى شربه، فيُقطِّع الأمعاء والأحشاء، ويذيب ما في البطون لفرط حرارته، فهل شرابهم كشراب أهل الجنة المار الذكر والموصوف بما سبق؟

فقه الحياة أو الأحكام:

قارن الله تعالى بين نوعين من جزاء المؤمنين المتقين، والكافرين الظالمين، وهي مقارنة تستوجب التأمل، وتبيّن مدى الفرق الشاسع بين المرغب فيه والمرهب منه.

فمشروب المتقين من أنهار أربعة: الماء واللبن والخمر اللذيذة غير المسكرة والعسل، ومأكولهم مختلف أصناف الثمار، وأما شراب أهل النار فهو الماء الشديد الحرارة أو الغليان الذي يقطِّع الأمعاء، إذا دنا منهم شوى وجوههم، وسقطت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم وأخرجها من أدبارهم. وليس هو ماء حميماً فحسب؛ لأن مجرد الحرارة لا يقطع، بل هو ماء حميم مخصوص يقطع.

ولأهل الجنة مع ذلك كله المغفرة من ربّهم لذنوبهم، ورضوان الله عليهم، ولأهل النار السخط والغضب الإلهي، والهزء والسخرية، والتوبيخ والتقريع.

والكل في خلود دائم، أهل الجنة خالدون ماكثون فيها على الدوام يرفلون بالنعيم الدائم، وأهل النار خالدون مقيمون فيها أبداً، يتلظون بحَرِّ السعير الملتهب المستمر.

قال ابن كيسان: مثل هذه الجنة فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزّقُّوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم، أي أمثل هؤلاء كهؤلاء؟! وقال الفراء: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار؟!

جعلنا الله من أهل الجنان، وأعاذنا من حرّ النيران.

أوصاف المنافقين والمؤمنين

- ١ -

حال المنافقين والمهتدين عند استماع آيات العقيدة

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

الإعراب:

﴿ءَانِفًا ۚ﴾ ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً، أو حال من ضمير: ﴿قَالَ﴾

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾: خبره، والمعنى: فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة. وتاء ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ للساعة. وذهب أبو الحسن الأخفش إلى أن ذكراهم يرتفع بالظرف وهو ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾: بدل اشتمال من ﴿السَّاعَةَ﴾، أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم الساعة فجأة.

البلاغة:

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف، له جرس وإيقاع قوي على السامع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْهُم﴾ أي من الكفار فئة المنافقين. ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ في خطبة الجمعة وغيرها، وهم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس الرسول ويسمعون كلامه، فإذا خرجوا ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة كابن مسعود وابن عباس، استهزاء وسخرية. ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي ما الذي قال في هذه الساعة؟ استهزاءً واستعلاماً، فقوله: آنفاً، أي الساعة التي قبل الوقت الذي أنت فيه، وقرئ بالمدّ والقصر، مأخوذ من أنْف الشيء: وهو ما تقدم منه، فهو اسم فاعل لائتنف. أو هو مأخوذ من استأنف الشيء: إذا ابتدأه، أي ماذا قال في أول وقت يقرب منا. ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها بالكفر. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في النّفاق.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ وهم المؤمنون. ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ زادهم الله بالتوفيق والإلهام. ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ بيّن لهم ما يتّقون به ربّهم، وألهمهم ما يتقون به النّار. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي ما ينتظرون وهم أهل مكة غير مجيء القيامة؟ ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم فجأة. ﴿أَشْرَاطُهَا﴾

علاماتها، منها بعثة النَّبي ﷺ، وانشقاق القمر، وظهور الدخان. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ فكيف لهم. ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة. ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ تذكرهم، أي لا ينفعهم حينئذٍ تذكرهم.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين، فدم واثبت يا محمد على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، وتكميل النفس بإصلاح أحوالها، وبما ينفع في القيامة، واطلب المغفرة لأجل ذنبك، وهذا الأمر مع عصمته ﷺ عن الذنوب للتعليم واستنان أمته به، وقد فعل ذلك، فقال فيما رواه الطبراني عن أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مئة مرة» أو أن أقل الذنب: ترك الأولى.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي واستغفر أيضاً لأهل الإيمان بالدعاء لهم وتحريضهم على موجبات المغفرة. وفي إعادة الجار وهو اللام، وحذف المضاف وهو (ذنوب) إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم. ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ تصرفكم وتقلبكم لأشغالكم في الدنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ إما سكونكم ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل، وإما مأواكم في الجنة أو النار، أي هو عالم بجميع أحوالكم في الدنيا والآخرة، لا يخفى عليه شيء منها، فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ﴾: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النَّبي ﷺ، فيستمع المؤمنون منهم ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفاً؟ فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وروى مقاتل: أن النَّبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود، استهزاء: ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس: وقد سُئلت فيمن سُئل.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، ذكر الله تعالى حال المنافقين، وأنهم من الكفار، وأنهم جهلة لا يفهمون كلام النَّبي ﷺ عند الاستماع إليه، وإنما يستمعون ولا ينتفعون، لتهاونهم واستهزائهم، على عكس حال المؤمن المهتدي، فإنه يستمع ويفهم، ويعمل بما يعلم. ثم هدد تعالى أولئك المنافقين وأمرهم بأن يتّعظوا ويعتبروا ويتذكروا قبل مجيء الساعة. ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه من صحة الاعتقاد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات.

التفسير والبيان:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ومن هؤلاء الكفار الخالدين في النار: منافقون يستمعون كلام النَّبي ﷺ وتلاوته في خطبه ومجالسه، فلا يفهمون منه شيئاً لعدم وعيهم وإدراكهم وإيمانهم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة الواعين لما سمعوا، وسألوهم على طريقة الاستهزاء والاستخفاف والسخرية: ماذا قال النَّبي في الساعة القريبة من هذه؟ والمعنى: أنّا لم نلتفت إلى قوله، ولم نكترث بما يتكلم به، ولم نفهم ما يقول، ولم ندرِ ما نفع ذلك.

فوصفهم الله تعالى وصفاً يدلّ على حقيقتهم، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي أولئك المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم، فلم يؤمنوا ولم يهتدوا إلى الحق، ولا

اتجهت قلوبهم إلى شيء من الخير، واتبعوا شهواتهم وأهواء نفوسهم في الكفر والعناد، أي إنهم تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة، واتبعوا ضدّه، فليس لديهم فهم صحيح ولا قصد حسن.

ثم قابلهم الله تعالى بالمؤمنين المهتدين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي والذين قصدوا الهداية إلى طريق الخير، وفقهم الله تعالى، وشرح صدورهم، فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به، وثبّتهم على الهدى، وزادهم هدى بالتوفيق، وألهمهم رشدهم وأعانهم على التقوى، بالتوفيق للعمل الذي يرضاه.

ثم هددهم الله تعالى بمجيء القيامة، فقال:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أي فهل ينتظر المنافقون والكافرون إلا مجيء القيامة التي تأتيهم فجأة وهم غافلون عنها، وقد حدثت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة النَّبي ﷺ، ورد في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالوسطى والسبابة» .

ومن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة (القيامة) حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٣] أي لا ينفعهم تذكرهم وإيمانهم حينئذٍ.

والمراد بالآية أن أدلة الإيمان بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ وبالبعث كثيرة ساطعة بالبرهان في القرآن والفطرة والنفس والعقل وعالم الشهادة والحسّ، فإذا لم يؤمنوا في وقت قريب قبل مجيء الموت والقيامة، فلا ينفعهم إيمان حينئذٍ بعد انتهاء العمر وزوال الدنيا التي هي دار العمل والتكليف.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالثبات على ما هو عليه والاستغفار، فقال:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾[1] أي إذا علمت أيها النَّبي حال الفريقين: المؤمن والكافر، من السعادة والشقاوة ومجيء علامات القيامة وأشراطها فاثبت واستمر على ما أنت عليه من التوحيد ومراقبة النفس، واعلم أنه لا إله غير الله ولا ربَّ سواه، وأن البعث حقّ آتٍ لا ريب فيه، واستغفر مما قد يصدر منك مما هو خلاف الأولى، واستغفر أيضاً لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، والله يعلم أعمالكم وتصرفكم في أشغالكم نهاراً، ومستقركم ليلاً، وقيل: أو مأواكم في الدار الآخرة، قال ابن كثير: والأول أولى وأظهر، وفي هذا ترغيب بالعمل وترهيب من المخالفة.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠] ، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ١١/ ٦] .

وكان من دعاء النَّبي ﷺ عملاً بالأمر الإلهي بالاستغفار والدعاء: ما ورد في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هَزْلي وجِدّي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي» .

وفي الحديث الصحيح أيضاً أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت» .

---

(١) الفاء في هذه الآية وما تقدمها لعطف جملة على جملة بينهما اتصال.

وثبت في الصحيح كذلك أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربّكم، فإني أستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .

وروى أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما هلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون» .

وفي الأثر المروي: « قال إبليس: وعزّتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» .

وعن سفيان بن عُيينة أنه سئل عن فضل العلم، فتلا هذه الآية: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ وذلك أنه أمر بالعمل بعد العلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - المنافقون كعبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول، ورفاعة بن التابوت، وزيد بن الصليب، والحارث بن عمرو، ومالك بن دُخْشُم قوم انتهازيون نفعيون، كانوا يحضرون الخطبة النّبوية يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه، وهم أيضاً قوم جهلة لإقفار قلوبهم من الإيمان، وخلو عقولهم من الوعي والإدراك، فكانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر.

٢ً - لذا وصفهم الله تعالى بأنهم ممن طبع الله على قلوبهم بكفرهم فلم يؤمنوا واتبعوا أهواءهم في الكفر، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ٤/ ١٥٥] .

٣ً - من منهج القرآن: الموازنة والمقارنة بين الأضداد ليتبيّن الفرق، فكثيراً ما يقابل بين المؤمنين والكافرين كما في الآيات المتقدمة، أو بين المؤمنين والفجار، وهنا قابل بين المؤمنين المهتدين والمنافقين، فالمنافقون طبع اللهَ على قلوبهم بكفرهم واتبعوا أهواءهم في الكفر، والمؤمنون زادهم الله هدى، فعلموا ما سمعوا وعملوا بما علموا، وآتاهم تقواهم، أي ألهمهم التقوى، ووفقهم للعمل الذي فرض عليهم.

٤ً - إذا كانت البراهين على وجود الله وتصديق نبيّه والإيمان بالبعث قد اتّضحت، والكافرون والمنافقون لم يؤمنوا، فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة التي ستأتيهم فجأة، وظهرت علاماتها وأماراتها، ومنها بعثة النّبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان، وكثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام.

ولكن حين مجيء الساعة لا ينفعهم التذكر والإيمان؛ إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان.

٥ً - لا يفيد المؤمن إلا الثبات على توحيد الله، والاعتقاد بأن لا إله إلا الله لها الفوقية والتقدم على كل شيء، والاشتغال بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، وهذا دليل التآخي والمحبة والرغبة في الخير والسعادة لأهل الإيمان جميعاً، ودليل على وجوب استغفار الإنسان لجميع المسلمين.

وقد أمر النبي ﷺ بالدوام والاستمرار على عقيدة التوحيد والإخلاص، وبالاستغفار لذنبه ولذنوب المؤمنين والمؤمنات؛ لأنه القدوة المثلى والأسوة الحسنة للأمة، ولتعليم أمته انتهاج منهجه واقتفاء سيرته. وذنوب الأنبياء: تركهم ما هو الأولى بمنزلتهم العالية عند الله تعالى. وتقديم الأمر بالتوحيد على الاستغفار دليل على تقديم العلم على العمل، وعلى أن أول الواجبات العلم والنظر قبل القول والإقرار، وفي الآية ما يدلّ على التواضع وهضم النفس؛ لأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بالاستغفار لذنبه وذنوب من على دينه.

٦ - لا يخفى على الله تعالى شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، بل وجميع خلقه، فهو سبحانه عالم بجميع ذلك جملةً وتفصيلاً، فيعلم متقلبهم وتصرفهم في النهار، ومستقرهم بالليل، ومثواهم في الدنيا والآخرة. وعلى هذا يكون حمل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ على العموم لكل ما ذكر أولى وأحرى كما اختار القرطبي رحمه الله تعالى.

والعلم بأن الله رقيب على كل شيء يستدعي الطاعة والعمل الصالح، ويوجب الرهبة من العصيان والمخالفة، وهو معنى التقوى التي يوفق الله إليها عباده المؤمنين.

- ٢ -

حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العملية

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿عَسَيۡتُمۡ﴾:

وقرأ نافع (عَسِيتم).

الإعراب:

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ مبتدأ وخبر، أي فويل لهم. ﴿فَأَوۡلَىٰ﴾: اسم للتهديد والوعيد، كأنه قال: الوعيد لهم، وهو ممنوع من الصرف؛ لأنه على وزن أفعل معرفة.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: جملة شرطية، وقعت اعتراضاً بين اسم (عسى) وخبرها، وتقديره: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

البلاغة:

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ مجاز عقلي، لأنه نسب العزم إلى الأمر، وهو لأهله، مثل: (نهاره صائم).

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أبلغ في التوبيخ وآكد في التقريع. وفيه ما يسمى في البلاغة في غير القرآن بتجاهل العارف أي سلوك طريقة الاستخبار.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ للحث أو الحض على حصول ما بعدها، والمراد: يقول المؤمنون: هلا نزلت سورة في أمر الجهاد ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة واضحة لا شبهة ولا احتمال فيها لمعنى آخر. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي الأمر به. ﴿مَرَضٌ﴾ ضعف في الدين وشك ونفاق. ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر المغمى عليه خوفاً من الموت، أو المحتضر الذي لا يحرك بصره، والمراد أن المنافقين يخافون من القتال ويكرهونه. ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ أي فالويل والهلاك لهم، مأخوذ من الوَلْي أي القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو يؤول إليه أمرهم. قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٤].

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف كلام جديد، أي الطاعة والقول المعروف خير لهم، أي أحسن وأمثل، قال الرازي: لا يقال: طاعة نكرة لا تصلح

للابتداء، لأنا نقول: هي موصوفة، يدل عليه قوله: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فإنه موصوف، فكأنه تعالى قال: طاعة مخلصة وقول معروف خير[1]. وقيل: ذلك حكاية قولهم، لقراءة أبي: (يقولون طاعة وقول معروف).

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ جدّ أصحاب الأمر، بأن فرض القتال .﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد والإيمان والطاعة .﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي لكان الصدق خيراً لهم، وجملة ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ جواب ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ ولا يضر اقترانه بالفاء، وجواب (لو) : لكان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ بكسر السين وفتحها، أي لعلكم، أو فهل يتوقع منكم إلا الإفساد إن أعرضتم عن الإيمان والقتال. وكلمة (عسى) تدل على توقع حصول ما بعدها. وبما أن التوقع من الله غير متصور؛ لأن الله عز وعلا عالم بما كان وبما يكون، فتفيد هنا التحقق، أي لعلكم إن أعرضتم وتوليتم عن دين الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالإغارة والنهب والسلب وقطع الأرحام، ومقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات. أو إن توليتم أمور الناس وتأمَّرتم عليهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المفسدون.﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم الله من رحمته لإفسادهم وقطعهم الأرحام.﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق.﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ جعلها كالعمياء عن طريق الهدى، فلا يهتدون سبيله.

المناسبة:

بعد بيان حال الكافر والمنافق والمهتدي عند استماع آيات العقيدة أو الآيات العلمية من التوحيد والحشر والبعث وغيرها من أصول الاعتقاد في

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٦٢ وما بعدها.

الإسلام، بيَّن تعالى حالهم عند نزول الآيات العملية، كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها، فأوضح أن المؤمن كان ينتظر نزولها، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: هلا أُمرنا بشيء من العبادة، ليتقرب إلى ربه ويحظى برضاه، وأن المنافق كان إذا نزل شيء من التكاليف البدنية أو المالية شقّ عليه، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويحب العمل.

لذا كافأ الله المؤمنين بالرضا والمحبة والجنة، وجوزي المنافقون باللعنة والطرد من الرحمة والخير.

التفسير والبيان:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ أي يتمنى المؤمنون المخلصون شرعية الجهاد، فيسألون ربهم عز وجل قائلين: هلا أنزلت سورة يأمرنا فيها ربنا بقتال الكفار، حرصاً على ثواب الجهاد، ونيل درجات المجاهدين، فإذا أنزلت سورة بيِّنة واضحة في الأمر به، وذكر فيها أن الجهاد فرض على المسلمين، فرحوا بها، وشق على المنافقين ورأيت الذين في قلوبهم شك ومرض ونفاق وهم المنافقون، ينظرون إليك نظر المحتضر الذي شَخَص بصره عند الموت، جبناً عن القتال، وخوفاً من لقاء الكفار، فالويل والموت والهلاك أولى لهم أي قاربهم ما يهلكهم، واللام في (لهم) مزيدة، أو فالأولى والأجدر بهم أن يسمعوا ويطيعوا في الحالة الراهنة، أو العقاب أحق وأولى بهم.

وهذا على المعنى الأول تهديد لهم ووعيد بقرب هلاكهم، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ تصوير رائع لحالة الجبن والفزع والخوف في نفوسهم من لقاء الأعداء. وفي الآية افتضاح أمر المنافقين عند

الأمر بالقتال، أما قبل القتال فكانوا يترددون إلى الفئتين: فئة المؤمنين وفئة الكافرين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٤/ ٧٧] .

وبعد هذا التهديد والوعيد، قال الله تعالى مشجعاً لهم:

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ﴾ أي طاعة مخلصة لله وقول معروف أحسن وأمثل وخير لهم من غيرهما.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فإذا جدَّ الحال وفرض القتال، فلو صدقوا في ذلك القول وفي القتال، وأطاعوا الله تعالى، وأخلصوا له النية، لكان إظهار الإيمان والطاعة خيراً لهم من المعصية والمخالفة.

ثم وبّخهم الله تعالى، وردَّ على شبهتهم في أن القتال إفساد وأن العرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا، فقال:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أي فلعلكم إن توليتم عن الطاعة والجهاد، وأعرضتم عن القتال وتنفيذ أحكامه، أو فهل يتوقع منكم إن توليتم أمر الأمة أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتسفكوا الدماء، وتفسدوا في الأرض بالبغي والظلم والنهب والسلب والمعاصي، وتقطعوا أرحامكم بالقتل والعقوق ووأد البنات وسائر مفاسد الجاهلية. قال قتادة وغيره: معنى الآية: فلعلكم أو يخاف عليكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض ولسفك الدماء.

قال أبو حيان: والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال، وهو الذي سبقت الآيات فيه، أي إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال، هل ينتظر منكم إلا أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم، ويدل على ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فالآيات كلها في المنافقين. وهذا التوقع الذي في (عسى) ليس منسوباً إليه تعالى؛ لأنه عالم بما كان وما يكون، وإنما هو بالنسبة لمن عَرَف المنافقين كأنه يقول لهم: لنا علم، من حيث ضياعهم، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا[1]

وهذا حث لهم على التدبر وترك العصبية والجدال، فالله يعلم أنهم إن وَلُوا أمور الناس، أو أعرضوا عن هذا الدين، لم يصدر عنهم إلا القتل والنهب وسائر أنواع المفاسد، كعادة أهل الجاهلية.

لذا حكم الله عليهم باللعنة، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ أي أولئك الظالمون وسفاكو الدماء بغير حق هم الذين أبعدهم الله من رحمته وطردهم عنها، فأصمهم في الدنيا عن استماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحق والنظر في أدلة الكون الدالة على عدالة نظام الله تعالى وشرعه في عباده من تحريم الدماء والأموال بغيرحق. وإنما لم يقل: (أصم آذانهم) لأن السمع لا يتفاوت بوجود الأذن وعدمها، ولذلك يسمع مقطوع الأذن، أما الرؤية فتتعلق بالبصر نفسه، فذكر الأبصار، ولم يذكر الأذن.

وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، وأمر بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب.

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٨٢

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وخلق الله تعالى الخَلْق، فلما فرغ منه، قامت الرحم، فأخذت بحَقْوي[١] الرحمن عز وجل، فقال: مَهْ، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضَيْن أن أصِل من وصَلَك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - المؤمنون المخلصون مشتاقون للوحي، حريصون على الجهاد وثوابه، والمنافقون هدامون لكيان الأمة، جبناء في القتال خوفاً وهلعاً، ميَّالون في السر إلى الكفار، نافرون من التكاليف الشرعية، وخصوصاً فرض الجهاد.

٢ - هدد الله المنافقين وأوعدهم وحذرهم بقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الويل والهلاك لهم، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو أحق وأجدر بهم طاعة الله تعالى وقول معروف.

ثم رغبهم في إصلاح أمرهم، ودعاهم إلى الطاعة، وأبان لهم أن الطاعة المخلصة والقول المعروف أمثل لهم وأحسن وخير من المخالفة والعصيان ودعاية السوء.

٣ - أكد تعالى دعوتهم إلى الطاعة وتحذيرهم من المخالفة، فأبان أنه إن جد الأمر وفرض القتال كرهوه[٢]، أو فإذا عزم أصحاب الأمر، فلو صدقوا الله في الإيمان والجهاد، لكان خيراً لهم من المعصية والمخالفة.

---

(١) الحَقْو: الإزار أو الخَصْر، والمراد هنا مجاز عن شدة التعلق واللجوء إلى الله والاستعانة.

(٢) فيكون جواب «إذا» محذوفاً.

٤ً - إن سلوك المنافقين إن تولوا أمر الأمة أو إن أعرضوا عن كتاب الله تعالى ودينه واتباع رسوله ﷺ أمر معروف، وهو العودة إلى مفاسد الجاهلية من الإفساد في الأرض بسفك الدماء الحرام، والبغي والظلم، والنهب والسلب، وتقطيع الأرحام.

٥ً - لا يستحق أولئك المنافقون إن استمروا على نفاقهم إلا الطرد والإبعاد من رحمة الله، وإلقاء الصمم في الآذان عن سماع الحق، والعمى في الأبصار والقلوب عن إدراك الخير، فكل من سار على نهجهم، حقَّت عليه اللعنة، وسلبه الله الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق، وإن سمعه، فكأنه كالبهيمة التي لا تعقل.

- ٣ -

حال المنافقين بعد ردتهم وعند قبض أرواحهم والتذكير بحكمة الجهاد

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿وَأَمْلَىٰ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وأُمليَ).

﴿إِسْرَارَهُمْ﴾:

وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

وقرأ الباقون (أسرارهم).

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟﴾ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ إما قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وإما مقدر تقديره: معذبون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾: في موضع رفع، خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم، فحذف المبتدأ للعلم به. وجملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. وفاء ﴿فَكَيْفَ﴾: فاء التفريع لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

البلاغة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهام توبيخي.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ استعارة تصريحية، شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فهي لا تنفتح لوعظ واعظ.

﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

المفردات اللغوية:

﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتفهمونه ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقتحموا المعاصي ويقعوا في الموبقات ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل على قلوب لهم مغاليقها التي لا تفتح، فلا يفهمونه. وتنكير﴿قُلُوبٍ﴾ لأن المراد: قلوب بعض منهم، وإضافة الأقفال لها للدلالة على أقفال مناسبة لها، مختصة بها، وليست من جنس الأقفال المعهودة، والأقفال جمع قفل. وهو استفهام توبيخي، و﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى (بل) والهمزة للتقرير.

﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زيَّن لهم خطاياهم وسهل لهم ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ مدَّ لهم في الآمال والأماني الباطلة ووعدهم بطول الأجل، والضمير للشيطان، أي المملي والمضل هو الشيطان، بإرادته تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال المنافقون للمشركين أو لليهود، أو قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعدما تبين لهم نعته للمنافقين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم، كالقعود عن الجهاد والمعاونة على عداوة النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إنهم قالوا ذلك سراً، فأظهره الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، والإسرار: مصدر وهو السر، وقرئ بفتح الهمزة: أسرارهم جمع سر.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي فكيف حالهم، أو فكيف يعملون ويحتالون حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ تصوير لتوفيهم، أي يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وفي هذا تخويف وتهديد، إذ يتعرضون عند التوفي إلى أهوال وفظائع تشبه ما يجبنون عن القتال له ويخافون منه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفي الموصوف بالحالة المذكورة ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول ﷺ وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ كرهوا العمل بما يرضيه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطلها.

﴿أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أن لن يبرز الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين أحقادهم، والأضغان: جمع ضِغْن أي حقد شديد ﴿لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ أي عَرَّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم، واللام لام الجواب، وكررت في المعطوف الآتي: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ أي بعلامتهم، والفاء هنا فاء التفريع ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتعرفنهم ﴿لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ أسلوبه ومعناه، أو إمالته عن وجهه الصريح إلى التعريض والتورية، فإذا تكلموا عندك عرّضوا بما يعيب أمر المسلمين ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم: إذ الأعمال بالنيات.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ لنختبرنكم بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة أي نعاملكم معاملة المختبر بالجهاد ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ علم ظهور وانكشاف، أما العلم الحقيقي فهو متوفر بالنسبة لله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ في الجهاد وغيره من المشاق ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ نظهر حسن أعمالكم وقبحها، وطاعتكم وعصيانكم في الجهاد وغيره، أو أخباركم عن الإيمان وموالاة المؤمنين صدقاً وكذباً.

المناسبة:

بعد بيان حال إعراض المنافقين عن الخير واستماع القرآن، أمرهم تعالى بتدبر القرآن، ونهاهم عن الإعراض عنه كيلا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، ثم أخبر أنهم رجعوا وارتدوا إلى الكفر بعدما تبين لهم حقيقة الإسلام بالدلائل الواضحة، أو نعت محمد ﷺ في التوارة بالمعجزات الباهرة، وأوضح سبب ردتهم وهو قولهم ليهود بني قريظة والنضير: سنطيعكم في بعض الأمور والأحوال.

ثم ذكر تعالى ما يلاقونه من أهوال عند قبض أرواحهم بسبب اتباع أهوائهم وإسخاط ربهم، وأردفه ببيان قدرة الله على كشف أحوالهم وافتضاح أمرهم، وأعلن صراحة لهم أن الدنيا دار اختبار بالأوامر والنواهي كالجهاد وغيره، ليعلم المجاهد الصادق في إيمانه، والصابر على مشاق التكاليف وليختبر أعمالهم الحسنة والسيئة وأخبارهم التي يشيعونها، فيجازيهم بما عملوا.

التفسير والبيان:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي أفلا يتفهم هؤلاء المنافقون وغيرهم القرآن ويتصفحونه، فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة؟ بل أَعَلى قلوبهم أقفال؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون شيئاً من معانيه، ولا تتفتح قلوبهم للحق، وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار.

والآية توبيخ لهم، وأمر بتدبر القرآن وتفهمه، ونهي عن الإعراض عنه. وقد وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير وغير ذلك من الأمور الحسنة، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام، وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام، فهم كما حكى القرآن بين أمرين: إما ألّا يتدبروا القرآن؛ لأن الله أبعدهم عن الخير، وإما أن يتدبروا لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم؛ لكونها مقفلة.

ثم أبان الله تعالى منشأ ذلك مشيراً إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوارة بنعت محمد ﷺ وبعثته وارتدوا، أو مشيراً إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر،

من بعد ما ظهر لهم الهدى بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة، زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهّل لهم الوقوع فيها، وحسَّن لهم الكفر، وخدعهم وغرهم بالأماني والآمال، ووعدهم بطول العمر ومدّ الأجل.

وهذا الكلام: قيل: إنه في أهل الكتاب، قال قتادة: نزلت في قوم من اليهود، وكانوا عرفوا أمر الرسول ﷺ من التوارة، وتبين لهم بهذا الوجه، فلما باشروا أمره، حسدوه، فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى.

وقيل: إنه في المنافقين، قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم ماتت قلوبهم.

والظاهر- كما ذكر أبو حيان- أن الآية تتناول كل من دخل في لفظها.

ثم بيّن الله تعالى بعض مظاهر ضلالهم، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي ذلك الارتداد والكفر بعد الإيمان بسبب أن هؤلاء المنافقين وغيرهم من اليهود الذين ارتدوا على أدبارهم قالوا للذين أبغضوا ما نزَّل الله في قرآنه، وهم المشركون أو اليهود: يهود بني قريظة والنضير من يهود المدينة: سنطيعكم في بعض الأمور، كعداوة النبي ﷺ، ومخالفة ما جاء به، والقعود عن الجهاد معه، أي إنهم مالؤوهم وتآمروا معهم سراً أو في الباطن، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون.

لذا كشفهم الله وأبان أنه يعلم ما يسرون وما يخفون وما يعلنون، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٤/ ٨١]

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١١].

ثم ذكر الله تعالى سوء حالهم وما يتعرضون له من أهوال حين توفيهم، فقال:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾؟ أي فكيف حالهم وكيف يعملون ويصنعون إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، واستخرجتها بالعنف والقهر وضرب وجوههم وظهورهم، وذلك بكيفية يكرهونها وحال يخافونها في الدنيا، ويجبنون عن القتال من أجلها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٠] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ - أي بالضرب- ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٣] . ومعنى الكلام التخويف والتهديد؛ أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر.

وسبب هذه الأهوال ما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ أي ذلك التوفي على الصفة المذكورة بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وتآمرهم مع أعداء الله على معاداة ومحاربة النبي ﷺ وأصحابه، وكراهيتهم ما يرضي الله من الإيمان الحق والتوحيد والطاعة، فأبطل الله أعمالهم الخيرية بهذا السبب، ومنها ما قد عملوا من الخير قبل الردة، كالصدقة وعون البائس الفقير وإغاثة الملهوف؛ لأنهم فعلوه أثناء الشرك والكفر وأمر الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣] .

ثم وبخ الله تعالى المنافقين وهددهم على قصر نظرهم وعداوتهم للمؤمنين، فقال:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي أيعتقد هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق وحقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ويبرز أحقادهم وعداواتهم؟! لا تظنوا هذا، فالله عالم الغيب والشهادة، يعلم السر وأخفى، فيوضح أمرهم ويجليه ويفضح شأنهم كما فعل في سورة براءة التي تسمى الفاضحة.

ثم أكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ أي ولو نشاء يا محمد لأعلمناك أشخاصهم، وعرّفناك أعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، فعرفتهم بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها، ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة.

ووالله لتعرفنهم يا محمد في فحوى الكلام ومقصده ومغزاه، وهو تعريضهم بأمرك وأمر المسلمين، ومخاطبتهم النبي ﷺ بألفاظ ظاهرها الحسن، وباطنها القبح. قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وعن أنس أنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، ولقد كنا في بعض الغزوات، وفيها تسعة منهم يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا، وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق.

والله لا تخفى عليه خافية، ويعلم جميع أعمالهم، فيجازيهم عليها من خير أو شر. وهذا وعد ووعيد، وبشارة وإنذار.

ثم أعلن الله تعالى منهج الحياة الدنيوية بالنسبة للتكاليف الشرعية، فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ أي ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ونعاملنكم معاملة المختبر، ومنها الجهاد في سبيل الله، حتى نعلم علم ظهور وانكشاف، فالله يعلم الحقائق كلها قبل وجودها، وإنما التكليف يظهر المجاهدين بحق في سبيل الله، الذين امتثلوا الأمر بالجهاد، ويظهر الذين صبروا على دينه ومشاق ما كَلَّف به، ويظهر أخبار الناس ويكشفها امتحاناً لهم، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى ولم يمتثل. ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا: إلا لنعلم، أي لنرى. وقال علي رضي الله عنه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾: حتى نرى.

وقال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضَيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك إذا بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - يجب على المسلمين وغير المسلمين تدبر القرآن وتفهمه للتعرف على أحكامه ومراميه وغاياته، وليعلم ما أعد الله للذين تولوا عن الإسلام، فإن لم يفعلوا أقفل الله عز وجل قلوبهم بأقفال الكفر والعناد، فهم لا يعقلون.

وهذا رد على مذهب القدرية والإمامية الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه.

٢ً - إن كل من ظهرت له الدلائل على صحة عقيدة الإسلام وشريعته وسمعها، ولم يؤمن بها، فهو ممن زين له الشيطان سوء عمله وخطاياه، سواء كان من أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثته، وارتدوا، أو من غير أهل الكتاب.

٣ً - لقد تآمر المنافقون واليهود على النبي ﷺ والمؤمنين، في الباطن والسر،

وعادَوْهم، وتواطؤوا مع المشركين الذين كرهوا ما نزّل الله في كتابه على توهين قوة المسلمين، ولكن الله تعالى مطّلع على سرهم، وكاشف أمرهم، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك.

٤ً - يتعرض الكفار والمنافقون لأهوال شديدة عند الوفاة، فتنتزع الملائكة أرواحهم بعنف وشدة، وتضرب وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد.

٥ً- إن سبب تلك الأهوال في الدنيا هو اتباعهم ما أسخط الله بإضمار الكفر إن كانوا منافقين، أو بكتمان ما في التوارة من نعت محمد ﷺ، وكراهيتهم ما يرضي الله وهو الإيمان، مما يؤدي إلى إحباط أعمالهم التي عملوها من صدقة وصلة رحم وغير ذلك.

٦ً - يخطئ المنافقون الظن إن توهموا ستر الحال وألا يخرج أو يبرز الله ما يضمرونه من مكروه وحسد، وحقد وعداوة لنبي الله تعالى والمؤمنين.

٧ً - إن في قدرة الله تعالى أن يعرّف نبيه بأعيان المنافقين، وقد عرَّفه إياهم بأوصافهم لا بأسمائهم في سورة براءة، ويمكن معرفتهم بسهولة فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، فإن فحوى الكلام ومعناه ينبئ عن حقيقة الحال، والله يعلم أعمال عباده، فلا يخفى عليه شيء منها. ومن أمثلة تعريفهم في سورة براءة قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٩/ ٨٣] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٤] .

وثبت في السنة تعيين جماعة من المنافقين، روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: «خطَبَنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن فيكم منافقين، فمن سميتُ فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا

فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال: إن فيكم منافقين، فاتقوا الله، قال: فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سَمَّى مقنَّع قد كان يعرفه، فقال مالَكَ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، قال: بُعْداً لكَ سائر الدهر» .

٨ً - إن ميدان الحياة ميدان اختبار وتجربة لينكشف الناس بعضهم لبعض، فيتعبدهم الله بالشرائع، وإن علم سبحانه سلفاً عواقب الأمور، من أجل رؤية المجاهدين في سبيل الله والصابرين على مشاق التكاليف، وتمييزهم عن غيرهم، واختبار أخبارهم وإظهارها للملأ، فبالجهاد يعلم الصادق في إيمانه أو قوله: آمنت، من الكاذب الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلسَّلۡمِ﴾ :

وقرأ حمزة (السِّلم).

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ : خبر﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَن

﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن اسم ﴿إِنَّ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فشابه الشرط؛ لأنه مبهم، ولم يؤثر دخول ﴿إِنَّ﴾ بخلاف مالو دخلت (ليت ولعل وكأن) فإنه لا يجوز فيه دخول الفاء في الخبر مع ليت ولعل وكأن، لأن ﴿إِنَّ﴾ للتأكيد، وتأكيد الشيء لا يغير معناه، بخلاف (ليت ولعل وكأن) فإنها غيرت معنى الابتداء؛ لإدخال معنى التمني والترجي والتشبيه.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ حذف منه واو لام الفعل.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طريق الحق، قيل: إنهم المشركون كفار قريش وهم المطعمون يوم بدر، والراجح أنهم أهل الكتاب يهود بني قريظة وبني النضير؛ لأن الله ذكر المشركين في أول السورة، ثم ذكر المنافقين ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ خالفوه، بأن صاروا في شق وجانب، وهو في شق وجانب آخر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو معنى سبيل الله أي طريق الحق، وهذا يؤيد أن الآية في أهل الكتاب، تبين لهم في كتبهم صدق محمد ﷺ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم وصدهم عن سبيل الله، وهو تهديد معناه: هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ﷺ، والواقع أنه مع الله تعالى، فإن محمداً رسول الله ﷺ ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا ضروا الرسل، والله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي يبطل أعمالهم الخيرية من صدقة وصلة رحم ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً، فيكون المعنى: يبطل حسنات أعمالهم بكفرهم ومشاقتهم ومعاداتهم الرسول ﷺ.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لا تبطلوا ثواب أعمالكم بما أبطل به هؤلاء، كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها، قال البيضاوي: وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طريق الحق والهدى ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن

يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ هذا عام في كل من مات على كفره، وإن صح نزوله في أصحاب القليب (البئر غير المطوية) يوم بدر.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ لا تضعفوا ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها، أي إلى الصلح خوراً وتذللاً مع الكفار إذا لقيتموهم، وقرئ: ولا تدَّعوا: من ادّعى بمعنى دعا ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون القاهرون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر، أي ناصركم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ لن يضيع ثواب أعمالكم ولن ينقصها، يقال: وَتَره حقَّه، أي نقصه، ومنه قوله ﷺ فيما أخرجه النسائي عن نوفل بن معاوية: « من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهلَه وماله » أي ذهب بهما، وأصبح فرداً.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٢):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هم المطعمون يوم بدر.

نزول الآية (٣٣):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خطاب للمؤمنين بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى والرسول ﷺ في سنته. أخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع « لا إله إلا الله » ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

نزول الآية (٣٤):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

(٣٤)﴾ نزلت في أصحاب القليب أي قليب بدر، حيث ألقي قتلى المشركين في بئر.

المناسبة:

بعد بيان حال المشركين في أول السورة، ثم حال المنافقين، ذكر الله تعالى حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قُرَيْظة والنَّضير، كفروا وصدوا عن سبيل الله، فهددهم الله؛ لأنهم تركوا الحق بعد معرفته. ثم ذكر قصة بعض الصحابة وهم بنو سعد الذين أسلموا، وامتنوا بإسلامهم على النبي ﷺ، فنهاهم الله عن ذلك. ثم أبان تعالى حكم من ماتوا كفاراً، وهو أنه لن يغفر الله لهم، وأنه خاذلهم في الدنيا والآخرة، فلا داعي لإظهار الضعف والتذلل أمامهم، والمؤمنون في قوة وغلبة وتفوق.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ (٣٢)﴾ أي إن الذين جحدوا توحيد الله، وصدوا الناس عن دينه وطريق الحق بأن منعوهم عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ، وخالفوا الرسول ﷺ وعادوه من بعد أن ظهر لهم الحق، وعرفوا أن محمداً رسول ﷺ من عند الله بالمعجزات الواضحة والأدلة القاطعة، لن يضروا الله شيئاً بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر؛ لأن العباد لن يبلغوا ضرّ ربهم فيضرونه، فهو مُنزَّه عن ضرر الغير مهما كان، وإنما يضرون أنفسهم ويخسرونها يوم المعاد، وسيبطل الله ثواب أعمالهم؛ لكفرهم.

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، فقال له:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله أطيعوا الله تعالى وأطيعوا رسوله ﷺ، بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، ولا تبطلوا حسناتكم بالردة أو بالمعاصي الكبائر، وبالرياء والسمعة، والمن والأذى، أما الإبطال بالردة فدليله الآية التي بعدها: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

وأما الإبطال بالكبائر فقد ذكر في سبب النزول عن أبي العالية قال: كان أصحاب النبي ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت الآية، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم.

وقال قتادة رحمه الله: رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تبطلوها بالرياء والسمعة، أو بالشك والنفاق.

وروى محمد بن نصر المروزي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات، والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها.

ثم أبان الله تعالى أن أعمال المكلف إذا بطلت، فإن فضل الله باق، يغفر له إن شاء، ما لم يمت على الكفر، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي إن الذين جحدوا توحيد الله، ومنعوا الناس عن دين الله تعالى واتباع رسوله ﷺ، وماتوا وهم مصرون على الكفر، فلا مغفرة لهم، بل إنهم

معاقبون في النار. قال مقاتل: نزلت في رجل سأل النبي ﷺ عن والده، وقال: إنه كان محسناً في كفره. وعن الكلبي: نزلت في رؤساء أهل بدر.

ونظير الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] . ولا تسامح أكثر من هذا، فإن الله غفور رحيم لمن مات وهو مؤمن، ولا مغفرة ولا رحمة بالموت على الكفر.

ثم بيَّن سبحانه ألا حرمة للكافر في الدنيا والآخرة، وأمر بقتال الكفار، فقال:

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ أي فلا تضعفوا عن القتال أيها المؤمنون، ولا تَدْعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة ابتداء منكم، وإظهاراً للعجز والضعف، فإن ذلك لايكون إلا عند الضعف، ولا مانع من قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، أما في حال كونكم أنتم الأعلون: الغالبون القاهرون المستولون على أعدائكم، فلا تبدؤوهم بطلب الصلح، والله معكم بالنصر والمعونة عليهم، ولن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم. وقوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء.

فأما إذا كان الكفار في حال قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح وإنهاء الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن شؤم الكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ ومحاولة صد الناس عن الإسلام

وشرعه ومعاداة الرسول بعد العلم أنه نبي بالحجج والآيات مرده إلى الكفار أنفسهم، وسيبطل الله في الآخرة ثواب ما عملوه، والله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر أو فسق فاسق.

٢ - المؤمنون مأمورون على الدوام بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، منهيون عن إبطال حسناتهم بالمعاصي الكبائر، أو بالرياء والسمعة، أو بالمن والأذى، أو بترك طاعة الرسول ﷺ.

وفي هذا إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

٣ - يدل ظاهر نهي المؤمنين عن إبطال أعمالهم على أن من شرع بنافلة، ثم أراد تركها ليس له ذلك، وللعلماء آراء في الموضوع.

فذهب الشافعي إلى أنه يجوز ترك ما شرع فيه من أعمال التطوع؛ لأن المتطوع أمير نفسه، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩/٩١] والمراد بالآية إبطال ثواب العمل المفروض، فإن الله نهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلاً فلا؛ لأنه ليس واجباً عليه. فإن قيل: اللفظ عام، فالجواب أن العام يجوز تخصيصه؛ لأن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييراً.

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه لا يجوز ترك ما بدئ به من تطوع، كصلاة نافلة وصوم تطوع؛ لأن المتطوع أمير نفسه قبل أن يشرع، أما إذا شرع فقد ألزم نفسه، وعقد عزمه على الفعل، فوجب عليه أن يؤدي ما التزم، وأن يوفي بما عقد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ٥/١] .

٤ - إن الوفاة على الكفر توجب الخلود في النار، وباب التوبة والمغفرة مفتوح طوال الحياة، فمن مات مصراً على جحوده توحيد الله عوقب بجهنم.

٥ - لاتجوز الدعوة إلى السلم والمصالحة أو المهادنة تذللاً وإظهاراً

للضعف، ما دام المسلمون أقوياء، وإن حدثت الغلبة من الأعداء في الظاهر في بعض الأحوال، فإن الله ناصر المؤمنين، ولن ينتقصهم شيئاً من أعمالهم.

فإذا عجز المسلمون لضعفهم عن مقاومة الأعداء، جازت مهادنة الكفار عند الضرورة.

وكذلك إذا رأى الإمام مصلحة في المهادنة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل النبي ﷺ في صلح الحديبية مع المشركين مدة عشر سنين.

أما إن طلب المشركون الصلح بحسن نية من غير خداع، فلا بأس بإجابتهم لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١] .

وعلى هذا تكون كل من الآيتين: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ محكمة غير منسوخ إحداهما بالأخرى كما قال بعضهم، فهما نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فالأولى في حال قوة المسلمين، والثانية حال طلب الأعداء الصلح.

تأكيد الحث على الجهاد بالتزهيد في الدنيا

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

الإعراب:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ ﴿يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾: فعل يتعدى إلى مفعولين، فالأول (كمو) والثاني: (ها) و﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ مجزوم بالعطف على

﴿يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾، و ﴿تَبْخَلُوا﴾ مجزوم: لأنه جواب الشرط، و﴿وَيُخْرِجْ﴾ مجزوم بالعطف على ﴿تَبْخَلُوا﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (ها): للتنبيه، و(أنتم): مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ : موصول بمعنى الذين: خبر، وصلته: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون، ثم استأنف وصفهم، فقال: تدعون لتنفقوا.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ يجوز العطف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم بالجزم كما هنا، وبالرفع مثل: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١١] .

البلاغة:

﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ و﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثبات لها، واللعب: كل مالا منفعة فيه في المستقبل، ولا يشغل عن مهامّ الأمور، فإن شغل عنها فهو اللهو، ومنه آلات الملاهي: لأنها تشغل عن غيرها ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ يعطكم ثواب الإيمان والتقوى﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لا يطلب جميع أموالكم، بل يقتصر على الزكاة المفروضة التي هي جزء يسير، كربع العشر، والعشر.

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يبالغ في الطلب، من الإحفاء والإلحاف: بلوغ الغاية في كل شيء، يقال: ألحف بالمسألة وأحفى وألح بمعنى واحد، ﴿وَيُخْرِجْ﴾ البخل﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أحقادكم أي عداوتكم لدين الإسلام ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

أي أنتم يا مخاطبون، هؤلاء الموصوفون .﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما فرض عليكم من الزكاة ونفقة الجهاد وغيرها ﴿يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يقال: بخل عليه وعنه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن نفقتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى الله ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تعرضوا عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُقِمْ مقامكم قوماً آخرين أو يجعل بدلكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ في التولي عن طاعته وعن الإيمان، بل مطيعين له تعالى.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بالجهاد، ونهى عن الضعف والخور في مواصلة الكفاح وطلب الموادعة والمصالحة مع الأعداء، حث على الجهاد بالنفس والمال والإنفاق في سبيل الله، بتحقير الدنيا في أعين المؤمنين، والترغيب في الإيمان والتقوى، لتعود فائدتها عليهم، وهدد تعالى في ختام السورة بأنه إن أعرضتم عن الإيمان والجهاد والتقوى، يجعل بدلاً عنكم قوماً آخرين هم أفضل منكم لإقامة دينه، ونصرة دعوته.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي احرصوا أيها المؤمنون على جهاد الأعداء، واسترخصوا الحياة الدنيوية واطلبوا الآخرة، فإنما حاصل الدنيا لعب ولهو، أي باطل وغرور، لا ثبات له ولا اعتداد به إلا ما كان منها لله عز وجل، بسلوك سبيله وطلب رضاه وعبادته وطاعته. وفي هذا تحقير لأمر الدنيا وتهوين لشأنها. واللعب: كل مالا ضرورة فيه في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشغل عن غيره، فإن شغل عن غيره فهو لهو، ومنه آلات الملاهي؛ لأنها مشغلة عن غيرها.

وقد جاء ذمّ الدنيا والحرص عليها والتمسك بزينتها وإهمال الآخرة في

آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠] .

ثم أعاد الله تعالى الوعد بالثواب وتأكيده والترغيب في الآخرة قائلاً:

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أي إن تؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان، وتتقوا ربّكم حق التقوى بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، يؤتكم ثواب أعمالكم وطاعاتكم في الآخرة، ولا يأمركم بإخراج جميع أموالكم في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها، والمعنى: أن الله غني عنكم، لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم صدقات الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم بيَّن الله تعالى سبب الحرص على الدنيا، فقال:

﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾ أي إن يطلب ربكم أموالكم كلها، فيجهدكم ويلح في الطلب عليكم، تشحوا وتبخلوا، وتمتنعوا من الامتثال، ويظهر عندئذ أحقادكم.

قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وهذا كما ذكر ابن كثير حق وصدق، فإن المال محبوب إلى النفس، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

ثم أبان تعالى ما سلف وأكده بقوله:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون المخاطبون مدعوون للإنفاق في سبيل الله، أي في الجهاد والزكاة وفي طريق الخير.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي فبعضكم يبخل باليسير من المال ولا يجيب لدعوة الإنفاق، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال؟ ومن يبخل في الإنفاق، فإنما يمنع نفسه الأجر والثواب ببخله، ويعود وبال ذلك عليه، فإنه بالبخل يتغلب العدو عليكم، فيذهب عزكم وأموالكم، وربما أنفسكم.

والله هو صاحب الغنى المطلق المنزه عن الحاجة إلى أموالكم، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، لذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي أنتم أيها العباد الفقراء بالذات إلى الله، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، فهو سبحانه لا يأمر بالإنفاق لحاجته، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب.

ثم أبان الله تعالى سنته في الاستبدال بقوم قوماً آخرين أفضل منهم إن أعرضوا عن حمل الأمانة، فقال محذراً ومذكراً ومهدداً:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أي إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى وعن طاعة الله واتباع شرعه، يستبدل قوماً آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم، أي يكونون سامعين مطيعين لله ولأوامره، وليسوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى، وفي البخل بالإنفاق في سبيل الله.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير وعبد الرزاق والبيهقي والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا، استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس» لكن تكلم به بعض الأئمة رحمهم الله، كما قال ابن كثير، وقال الترمذي: حديث غريب في إسناده مقال.

وعن الكلبي والحسن وعكرمة: شرط في الاستبدال توليهم، لكنهم لم يتولوا، فلم يستبدل قوماً، وهم العرب أهل اليمن أو العجم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - الدنيا دار لعب ولهو ومشاغل وشهوات، فالسعيد من استخدمها للآخرة، ولم ينس نصيبه منها بقدر الحاجة، فمن آمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، واتقى ربه بفعل الفرائض وترك النواهي، ظفر بالثواب العظيم في الآخرة دار الخلد.

٢ - المال محبوب الإنسان طبعاً، لذا لم يأمر الله لطفاً منه ورحمة بإنفاق جميعه في سبيله، كالزكاة والجهاد ووجوه الخير، بل أمر بإخراج البعض من الربح الذي هو من فضل الله وعطائه، لا من رأس المال، ليرجع ثوابه إلى المنفق نفسه، فكانت النسبة تتراوح بين ربع العشر ونصف العشر والعشر فقط، لذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إنما يسألكم أمواله؛ أي الأرباح التي ييسرها لكم؛ لأنه المالك لها، وهو المنعم بإعطائها. وقال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يلح عليكم ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي يخرج البخل أحقادكم.

٣ - أكد تعالى لطفه بعباده في التكاليف المالية، فذكر أنه طلب منهم اليسير من أموالهم، فبخلوا، فكيف لو طلب منهم الكل؟!.

٤ - من بخل بتقديم شيء من ماله في سبيل الله كالجهاد وطرق الخير، فإنما يبخل على نفسه، فيمنعها الأجر والثواب.

٥ - الله هو الغني عن عباده وعن كل ما سواه، فليس بمحتاج إلى أموالهم، ولكن العباد أنفسهم هم الفقراء إلى الله عز وجل، لتحصيل الثواب

والفضل الإلهي، فلا يقولوا: إنا أيضاً أغنياء عن القتال وعن معونة الفقراء، فالواقع أنه لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه لولا القتال لقتلوا، بغزو الكفار واجتياح بلاد المسلمين، والمحتاج إن لم تدفع حاجته، قَصَدَ الغنيَّ وأخذ ماله، ولاسيما أن الشارع أباح للمضطر ذلك. وأما في الآخرة فالأمر ظاهر حيث يكون كل إنسان فقيراً إلى فضل الله ورحمته، وفي حال الحساب، وهو موقوف مسؤول في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

٦ً - أنذر الله تعالى عباده وحذرهم من إهمال حمل المسؤولية والقيام بأعباء التكاليف، فهم إن أعرضوا عن الإيمان والجهاد والتقوى، استبدل قوماً غيرهم يكونون أطوع لله منهم، ثم يكونون أفضل وأمثل وأحسن منهم، وتلك هي سنة الله في خلقه، وليسوا أمثال المستبدل بهم في البخل بالإنفاق في سبيل الله، كما قال الطبري. والأولى العموم، أي لا يكونوا أمثالكم في الوصف، ولا في الجنس، كما ذكر الرازي. وقال الزمخشري: أي يخلق قوماً على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ٣٥/١٦] .

وقد اختلف المفسرون في تعيين أولئك القوم الجدد، فقيل: هم الملائكة، أو الأنصار، أو التابعون، أو أهل اليمن، أو كندة والنخع، أو العجم، أو فارس والروم، والأولى تفويض ذلك إلى علم الله تعالى.

والخطاب لقريش أو لأهل المدينة، والأولى جعل الخطاب متجدداً بتجدد الأجيال والأمم، سواء من كان عند نزول الوحي أم بعد ذلك.

حكي عن أبي موسى الأشعري: أنه لما نزلت هذه الآية، فرح بها رسول الله ﷺ، وقال: «هي أحب إلي من الدنيا» .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الفتح لافتتاحها ببشرى الفتح المبين: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾. أخرج أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عبد الله بن مُغَفّل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح -أي فتح مكة- في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجَّع فيها، قال معاوية بن قُرَّة: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا، لحكيت قراءته.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه:

١ - إن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال، وقد ورد في الحديث: أنها نزلت مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين، بعد إبهامه في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [٩]. وجاء في سورة محمد تعليم المؤمنين كيفية القتال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [٤] ثم ذكر هنا بيان الثمرة اليانعة لتلك الكيفية وهو النصر والفتح.

٢ - في كلتا السورتين (محمد والفتح) بيان أوصاف المؤمنين والمشركين والمنافقين.

٣- في سورة محمد أُمِرَ النبي بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات [الآية:١٩] وافتتحت هذه السورة بذكر حصول المغفرة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كسابقتها مدنية، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن صلح الحديبية، بعد الانصراف من الحديبية. والسور المدنية كما هو معروف تحدثت عن المنافقين الذين ظهروا في المدينة، وعنيت بشؤون التشريع في الجهاد والعبادات والمعاملات.

بدأت السورة الكريمة ببشارة النبي ﷺ بالفتح الأعظم وانتشار الإسلام بعد فتح مكة الذي كان صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة بداية طيبة له.

ثم أخبرت بوعد الله المنجز لا محالة للمؤمنين ووعيده للكافرين والمنافقين، وأبانت مهام النبي ﷺ من الشهادة على أمته وعلى الخلق يوم القيامة والتبشير والإنذار، من أجل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ونصرته.

وأردفت ذلك بأمرين متميزين: أولهما- الإشادة بأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية، وبيان أن بيعتهم في الحقيقة لله، وتسجيل رضوان الله تعالى عليهم، ووعدهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾

والثاني- ذم المنافقين من عرب أسْلَم وجُهينة ومُزَينة وغِفار الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكانوا من أعراب المدينة.

وأبانت إعفاء أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) من فريضة الجهاد، واكتفت منهم بطاعة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فذلك مؤذن بدخول الجنة.

وذكَّرت بفضل الله تعالى على المؤمنين في إبرام الصلح والكف عن القتال بينهم وبين أهل مكة كفار قريش الذين كفروا وصدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، وتأثرهم بحمية الجاهلية من الأنفة والكبر والعصبية، ورفضهم كتابة البسملة في مقدمة الصلح، وكتابة (محمد رسول الله) ، وتثبيت المؤمنين على كلمة التقوى وهي طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وقبول شروط الصلح، بالرغم من إجحاف بنوده في الظاهر بحقوق المسلمين.

وتحدثت بعدئذ عن البشرى بتحقق رؤيا النبي ﷺ التي رآها في المدينة المنورة أنهم يدخلون المسجد الحرام (مكة) آمنين مطمئنين، وتم ذلك بالفعل في العام المقبل حيث دخل المؤمنون مكة معتمرين: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾.

وختمت السورة بأمور ثلاثة: هي إرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ووصف النبي والمؤمنين بالرحمة فيما بينهم والشدة على الكفار الأعداء، ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم.

فضلها:

نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بعد عودته من الحديبية، روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ » .

وفي رواية: «لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» وفي رواية مسلم عن أنس: «أحب إلي من الدنيا جميعها» .

أضواء من السيرة على سبب نزول السورة (صلح الحديبية وبيعة الرضوان) .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام وهو في المدينة المنورة أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك، ففرحوا فرحاً عظيماً.

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة معتمراً (زائراً البيت الحرام) لايريد حرباً، ومعه ألف وخمس مئة (١٥٠٠) من المهاجرين والأنصار ومسلمي الأعراب، وساق معه الهَدْي[١]، وأحرم بالعمرة من (ذي الحليفة) وخرج معه من نسائه أم سَلَمة رضي الله عنها.

ولم يكن مع رسول الله ﷺ وصحبه غير سلاح المسافر: السيوف في القُرُب، فبعث عيناً له من خزاعة، يخبره عن قريش، فلما أصبح قريباً من «عُسفان» - موضع بين مكة والمدينة - على مرحلتين من مكة، أتاه عينه بشر ابن سفيان الكعبي قائلاً: يا رسول الله- هذه قريش علمت بمسيرك، فخرجوا ومعهم العُوذ المطافيل (النوق ذات اللبن والأولاد) أي عازمين قاصدين طول الإقامة، وقد نزلوا بذي طوى، يحلفون بالله، لا تدخلهاعليهم أبداً، وقد جمعوا لك الأحابيش (جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة) وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت.

فأرسل رسول الله ﷺ حينئذ عثمان بن عفان إلى قريش يبلّغهم قصد رسول الله ﷺ، وأنه لا يريد إلا العمرة، فبلغ رسولَ الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا المسلمين إلى البيعة، واجتمعوا تحت الشجرة - شجرة الرضوان- فبايعوه على القتال وألا يفروا، وتسمى بيعة الشجرة أو بيعة الرضوان، قال سلمة بن

---

(١) يسن للقادم إلى مكة أن يهدي إلى الحرم شيئاً من الأنعام(الإبل والبقر والغنم) ويسمى ذلك هدياً.

الأكوع رضي الله عنه: «بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة» . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الصلح والموادعة، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذي بلغه من أمر عثمان كذب.

وقد أنزل الله في هذه البيعة قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨/٤٨] . وكان هذا الصلح هو الفتح، وبعد رجوعه إلى المدينة فتح الله عليه خيبر، فقسمها على أهل الحديبية لم يشركهم أحد غيرهم، وكانوا ألفاً وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس. وهذا قول سعيد بن المسيب، والمشهور أنهم كانوا أربع عشرة مئة.

ولما علمت قريش بهذا أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا الكاتب علي بن أبي طالب، وبدأ الاتفاق على بنود المعاهدة، بعد أن رفض سهيل كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وكتب «باسمك اللهم» ورفض أيضاً وصف محمد بالرسالة، فكتب: «محمد بن عبد الله» .

وتم الصلح على أن يكف الفريقان عن الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس، دون قتال ولا اعتداء، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن جاء قريشاً من أصحاب محمد ﷺ لم يردوه عليه، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فسارعت خزاعة، فدخلت في عقد محمد ﷺ وحالفته، وتواثبت بنو بكر، فدخلوا في عهد قريش وعقدهم.

وعلى المسلمين الرجوع عن مكة هذا العام، وإذا كان العام القادم خرجت قريش من مكة، ودخلها المسلمون ثلاثة أيام، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب.

وقد اعترض بعض كبار المسلمين مثل عمر بن الخطاب على الصلح، لعدم تكافؤ شروطه، وإجحافه بالمسلمين، ولكنه كان في الحقيقة نصراً كبيراً؛ لأن قريشاً اعترفوا بمكانة المسلمين، وتمت الهدنة التي استراح فيها المسلمون عن الحروب والمعارك التي شغلتهم وأضعفتهم، وتمكن المسلمون من القيام بدعوة الإسلام في ظل الأمن والسلام، ودخل في الإسلام كثير من العرب.

فكان ذلك فتحاً مبيناً، أو تمهيداً لفتح مكة، قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه..» فقد كان عدد المسلمين وقت الصلح ألفاً وخمس مئة أو أربع مئة، ثم صاروا عام فتح مكة بعد الصلح بسنتين عشرة آلاف، منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وقال ابن مسعود وجابر والبراء رضي الله عنهم: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وبعد أن نحر النبي ﷺ هَدْيه حيث أحصر ورجع، وبعد انصرافه نزل عليه ليلاً وهو في الطريق بين مكة والمدينة هذه السورة.

روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: لما أقبلنا من الحديبية عَرَّسنا[1] فنمنا، فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت، فاستيقظنا، ورسول الله ﷺ نائم، فقلنا: أيقظوه، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: « افعلوا ما كنتم تفعلون، وكذلك يفعل من نام أو نسي » أي قضاء الصلاة، قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها، فركبها، فبينا نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سُرِّي عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾.

---

(١) التعريس: نزول القوم من آخر الليل للنوم والاستراحة ثم الارتحال.

فضائل صلح الحديبية على النبي ﷺ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطًا﴾:

وقرأ قنبل (سراطاً).

الإعراب:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ لام (يغفر) متعلقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ وهي لام (كي) وهي حرف جر، وإنما حسن دخولها على الفعل؛ لأن (أن) مقدرة بعدها، ولهذا كان الفعل بعدها منصوباً، وأن مع الفعل في تقدير الاسم، فلم تدخل في الحقيقة إلا على اسم.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ تقديره: إلى صراط مستقيم، فلما حذف حرف الجر، اتصل الفعل بقوله: ﴿صِرَٰطًا﴾ فنصبه.

البلاغة:

﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح في أصل اللغة: إزالة الأغلاق، والفتح في باب الجهاد: هو الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً، بحرب أو بغيره؛ لأن البلد قبل ذلك

منغلق ما لم يُظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح: والمراد: قضينا لك بفتح مكة وغيرها في المستقبل عنوة بجهادك، فتحاً بيناً ظاهراً، أو هو وعد بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي للدلالة على تحققه وصيرورته في حكم الواقع.

والمراد بالفتح هنا في رأي الجمهور: هو صلح الحديبية (والحديبية بئر سمي المكان بها) وسمي هذا الصلح فتحاً؛ لأنه كان سبباً لفتح مكة من قبيل المجاز المرسل بإطلاق السبب على المسبب. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف، ففتحوها.

وقال جماعة: المراد فتح مكة، وعد الله به قبل حدوثه بطريق البشارة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، قال الزمخشري[1]: هو فتح مكة، وقد نزلت السورة مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، عدةً له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبر ما لا يخفى، ا هـ.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ يجوز أن يكون الفتح فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً أو علة للغفران والثواب، وكذلك فتح الحديبية وإن لم يكن فيه قتال شديد، لكن وقع فيه ترام بين القوم بسهام وحجارة أو كونه سبباً لفتح مكة، يكون لما تضمنه من مجاهدة سبباً للمغفرة.

فإن لم يجعل الفتح علة للمغفرة، فيكون ذكر اللام - كما قال الزمخشري- لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة، وهي المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ١٣٥

الصراط المستقيم، والنصر العزيز، أي لتحصيل مجموع هذه الأمور كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة أو الحديبية ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين، وغايات العاجل والآجل.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك مما يصح أن يعاتب عليه، وبما أن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر والصغائر، فالمراد بالذنب هنا: فعل ما هو خلاف الأولى والأفضل بالنسبة لمقام الأنبياء، فهو من قبيل: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. أو أن المراد ما هو ذنب في نظره العالي، وإن لم يكن في الواقع كذلك. وفي هذا ترغيب للأمة في الجهاد.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ أي ويتم بالفتح المذكور إنعامه عليك، بإعلاء الدين، واجتماع المُلْك مع النبوة وفتح البلاد ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي يثبتك بالفتح على الطريق القويم، وهو دين الإسلام وتبليغه وإقامة شعائره ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ أي وينصرك الله بالفتح نصراً فيه عز ومنعة: وهو الذي لا ذُلّ بعده، أو يعز به المنصور وهو الذي لا يناله كل أحد، فوصف الشخص بالنصر العزيز للمبالغة.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾: أخرج الحاكم وغيره عن المِسْوَر بن مَخْرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

نزول الآية (٢):

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ﴾: أخرج أحمد والشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعَه من الحديبية، فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»،

ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾. وقال ابن عباس: إن اليهود شمتوا بالنبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به، فاشتد ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ الآية.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ أي إنا فتحنا لك أيها الرسول فتحاً ظاهراً لا شك فيه، وهو صلح الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان، أو فتح مكة، وعده الله به قبل حصوله، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، كما بينت في تفسير المفردات.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي لكي يجتمع لك مع المغفرة: تمام النعمة في الفتح، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، فيتحقق لك عز الدارين وسعادة الدنيا والآخرة. والمغفرة تشمل جميع ما فرط منك قبل الرسالة وبعدها من الهفوات التي تعد خلاف الأولى بالنظر إلى مقامك العالي، وذاك بالنظر لمن سواك لا يسمى ذنباً، فهو من قبيل ما يسمى: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين. وفي هذا تشريف عظيم للنبي ﷺ، وهو من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره.

أخرج الجماعة (أحمد والأئمة الستة إلا أبا داود) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» .

وأخرج أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ

إذا صلى، قام حتى تتفطّر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً».

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ، وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ أي ولكي يتمم إنعامه عليك بإعلاء شأن الدين وانتشار الإسلام وفتوح البلاد شرقاً وغرباً ورفع شأنك في الدنيا والآخرة؛ وليرشدك إلى الطريق القويم بما يشرعه لك من الشرع العظيم، ويثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه؛ ولينصرك الله على أعدائك نصراً غالباً منيعاً، لا يتبعه ذل، أو هو عزيز المنال فريد المثال.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - بشّر الله نبيه والمؤمنين بفتح عظيم مبين واضح، وهو في رأي الجمهور كما تقدم صلح الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان واختلاط الناس مع بعضهم بعضاً، وتكلُّم المؤمن مع الكافر. قال موسى بن عُقبة: قال رجل عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدّونا عن البيت، فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا». وتساءل الزمخشري بقوله: كيف يكون فتحاً، وقد أحصروا، فنحروا، وحلقوا بالحديبية؟ ثم أجاب: كان ذلك قبل الهدنة، فلما طلبوها، وتمت، كانت فتحاً مبيناً.

وقال الشعبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ قال: هو صلح الحديبية، لقد أصاب فيها ما لم يُصب في غزوة؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأُطعِموا نخل خيبر، وبلغ الهدي مَحِلَّه،

وظهرت الروم على فارس؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقد سبق كلام الزهري.

والخلاصة: تحقق في هذا الصلح أمور ثلاثة: هي معرفة قوة العدو ومدى كفايته في السلم والسياسة والصلح، وتمييز المؤمنين من المنافقين، واختلاط المسلمين بالمشركين الذي أدى إلى الدخول في الإسلام.

وقيل: إنه فتح مكة، وهو مناسب لآخر السورة التي قبلها، حيث حث تعالى على الجهاد بالنفس وبالمال والإنفاق في سبيل الله، ونهى عن طلب الصلح، فقال: لا تسألوا الصلح من عندكم، بل اصبروا، فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه، كما كان يوم الحديبية.

٢ - كانت ثمار الفتح الأعظم أربعة أمور هي:

الأول- البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة جميع ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعد بمثابة خلاف الأولى والأفضل بالنظر لمقامه الشريف.

الثاني- إتمام النعمة عليه بالجمع بين النبوة والملك، وبين سعادة الدنيا والآخرة.

الثالث- الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم بتبليغ الرسالة والثبات على الحق.

الرابع- النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذل بعده.

ويمكن القول بالتعبير الحديث: تحقق بهذا الفتح مفهوم سيادة الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية، واستقلالها، وظهور النبي ﷺ بصفة كونه حاكماً وإماماً في السياسة والحكم إلى جانب كونه نبياً، كما تحقق له عز الدنيا والآخرة، وثباته على دين الحق ونشره في أرجاء الدنيا.

وعقد صلح الحديبية، كما أنه أثبت صفة الحاكم السياسي للنبي ﷺ على الأمة الإسلامية وعاصمتها المدينة، أدى إلى اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية في المدينة المنورة، والإقرار بسيادتها واستقلالها.

آثار صلح الحديبية
في المؤمنين والمنافقين والمشركين

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (دائرة السُّوء).

الإعراب:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لابد من تقدير فعل قبله، فإن من قال ابتداء: لتكرمني، لا يصح ما لم يقل قبله: جئتك أو نحوه، والتقدير هنا إما: إنا فتحنا ليدخل، كما في قوله: ليغفر لك الله، وإما: أنزل السكينة ليدخل، أو أمر بالجهاد، ونحو ذلك.

﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا﴾ ﴿عِندَ﴾ حال من الفوز.

البلاغة:

﴿وَيُكَفِّرَ﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ بينهما طباق.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿أَنزَلَ﴾ خلق وأوجد ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة مأخوذ من السكون ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أوجد السكينة في القلوب في مواضع القلق والاضطراب ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقيناً مع يقينهم، أو ليزدادوا إيماناً بالشرائع، ومنها الدين، مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها، فيسلط بعضها على بعض تارة، ويسالم فيما بينها تارة أخرى، كما تقتضي حكمته، وجنود السماوات والأرض: الأسباب السماوية والأرضية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بالمصالح، حكيماً فيما يقدّر ويدبر، والمعنى: أنه ما يزال متصفاً بذلك.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يغطيها ولا يظهرها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي التكفير للسيئات وإدخال الجنات ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي إن دخول الجنات فوز عظيم عند الله ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين وضمها، وهو المساءة، وظن السوء: أي ظن الأمر السوء، وهو ألا ينصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دائرة ما يظنونه وينتظرونه بالمؤمنين، فلا يتخطاهم، وهو العذاب والهزيمة والشر. والدائرة في الأصل: الخط الدائري المحيط بالمركز، ثم استعملت في الحادثة المحيطة بالإنسان، كإحاطة الدائرة بالمركز، وكثر استعمالها في السوء والمكروه ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾ سخط ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم وطردهم من رحمته طرداً نزلوا به إلى أعماق جهنم ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ مرجعاً. ﴿عَزِيزًا﴾ قوياً في ملكه يَغْلِب ولا يُغْلَب ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه. والمراد: أنه لم يزل متصفاً بالعزة والحكمة.

سبب النـزول:

نزول الآية (٥):

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: سبق بيانه في الآيات السابقة.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى بفضله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله، أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر، وهو تثبيت أقدام المؤمنين واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك، وأردفه ببيان سنته في تسليط بعض جنوده على بعض، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان، وإيعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد، والغضب عليهم وطردهم من رحمته.

التفسير والبيان:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي إن الله عز وجل هو الذي خلق وأوجد السكون والطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ، وانقادوا لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، واستعدوا للقتال بإخلاص دون فرار، لئلا تضطرب نفوسهم في وقت المحنة، وليزيدهم الله يقيناً جديداً على يقينهم الحاصل من قبل. وهذا يسمى حديثاً رفع الروح المعنوية للجيش.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بالآية على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب. ويصح تأويل زيادة الإيمان بأنه الإيمان بالشرائع بعد إيمانهم بالله، قال ابن عباس: إن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة ثم الزكاة ثم الجهاد ثم الحج.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إن الله تعالى يدبر أمر جنوده في هذا العالم كيف يشاء، من الملائكة والإنس والجن والشياطين، والقوى الكونية في السماء والأرض كالزلازل والبراكين والأعاصير والبحار والأنهار ونحوها، فالله قادر على إرسال مَلَك واحد، يبيد الجبال والبلاد، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد والقتال لحكمة بالغة ومصلحة عالية، لذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي كان الله ولا يزال عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في صنعه وتقديره وتدبيره. وهذا منسجم مع موقف أبي بكر الذي عرف برسوخ الإيمان، أما عمر بن الخطاب فتساءل عن عدم التكافؤ الظاهري في شروط الصلح، وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ ولكن إيمانه لم يتزعزع، بل إن ذلك يدل على مزيد الإيمان والغيرة على مصالح المسلمين في تقديره، ثم أنزل الله الطمأنينة على قلبه وقلوب أمثاله، وشرحها لما رآه النبي ﷺ، وصدقت الأيام رأيه.

ثم ذكر الله تعالى ما وعد به أهل الإيمان، فقال:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ أي يبتلي الله بجنوده من شاء ليدخل المؤمنين ويعذِّب غير المؤمنين، أو أنزل السكينة أو إنا فتحنا ليترتب عليه دخول المؤمنين والمؤمنات جنات (بساتين) تجري الأنهار من تحت قصورها، وهم ماكثون فيها أبداً، ويستر عنهم خطاياهم وذنوبهم ولا يظهرها ولا يعذِّبهم بها، بل يعفو ويصفح ويستر ويرحم وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيّئاتهم عند الله وفي حكمه فوزاً عظيماً كبيراً ونجاة من كل غمّ، وظفراً بكل مطلوب، وذلك كقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥] . وذكر تكفير السيئات بعد

الإدخال في الجنة، مع أنه يكون قبله؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، ولأن الأصل الإدخال، والتكفير تابع.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» . وقد نصّ الله تعالى على المؤمنات هنا مع أن أغلب الآيات يكون فيها خطاب الرجال شاملاً للنساء؛ لئلا يتوهم أحد أن النساء لا يدخلن الجنات؛ لأن المرأة لاجهاد عليها. وهكذا في كل موضع يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به، مع كون المؤمنات يشتركن معهم، ذكرهنّ الله صريحاً[1].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي وليعذِّب أهل النفاق وأهل الشرك بالهمّ والغمّ بسبب ما يشاهدونه من انتشار الإسلام وانتصار المسلمين وقهر المخالفين، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر في الدنيا، وبعذاب جهنم في الآخرة، لظنهم السيئ بالله وحكمه وهو أن النّبي ﷺ وأصحابه يُغْلَبون ويبادون، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى وهي: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٢] . وإنما قدم المنافقين على المشركين؛ لأن ضررهم أشد، وخطرهم أعظم.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي إن ما يظنونه بالمؤمنين دائر عليهم لا خروج لهم منه، واقع بهم من قتل وأسر ونحوهما، وسخط الله عليهم، وأعدَّ لهم جهنم يصلونها، وساءت مرجعاً ومنزلاً يصيرون إليه، وبذلك جمع بين جزائهم وحالهم في الدنيا وفي العقبى.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٨٢

ثم قال تعالى مؤكداً لقدرته على الانتقام من أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ أي لله في السماوات والأرض جنود لا حصر لها من الملائكة والإنس والجنّ والشياطين وغيرها من كل ما فيه قوة ومقدرة على قهر أعدائه، وكان الله وما يزال قوياً لا يُغْلَب، ولا يردّ بأسه، حكيماً في صنعه وتدبيره لخلقه.

وفائدة إعادة هذه الآية بيان أن لله جنود الرحمة وجنود العذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ثم ذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب بالكافرين، وعبَّر أولاً بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليتناسب مع إنزال الرحمة، ثم عبَّر بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ للإشارة إلى شدة العذاب، وذكر العزّة يتناسب مع العقاب والتهديد، وذكر العلم يتلاءم مع التدبير التام لأمر الخلق وتوزيع الرحمة، وأن إنزال السكينة وزيادة الإيمان وترتيب الفتح على ذلك، كله ثابت في علم الله، منسجم مع الحكمة. وذكر جنود السماوات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة؛ لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة، فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة، ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذكر الجنود بعد تعذيب الكفار، وإعداد جهنم للدلالة على كون الغضب على الكفار والإبعاد والطرد من الرحمة أولاً، فيدخلون جهنم، ثم يسلِّط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله تعالى.

روي أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَيّ: أيظنّ محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارس والروم؟ فبيّن الله عزّ وجلّ أن جنود السماوات والأرض أكثر من فارس والروم.

فقه الحياة أو الأحكام:

كان من فضائل صلح الحديبية وآثاره أربعة أشياء في حقّ كل من النّبي ﷺ والمؤمنين والكفار.

أما فضائله الأربعة في حقّ النّبي ﷺ فهي كما تقدّم: مغفرة الذنوب، واجتماع المُلْك والنّبوة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والعزّة والمنعة.

وأما أفضاله الإلهية الأربعة في حقّ المؤمنين أصحاب النّبي ﷺ فهي الطمأنينة والسكينة، وزيادة الإيمان، ودخول الجنان، وتكفير السيّئات.

وأما آثاره الأربعة في حقّ أهل النفاق وأهل الشرك، فهي العذاب الأليم، وغضب الله، واللعنة أو الطرد من الرحمة، ودخول جهنم.

ودلّ قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في الموضعين تخويف وتهديد، فلو أراد تعالى إهلاك المنافقين والمشركين، لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمًّى.

وظائف النّبي ﷺ وفائدة بعثته ومعنى بيعته في الحديبية

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه).

﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (عليهِ الله).

﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (فسنؤتيه).

الإعراب:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ هذه المنصوبات الثلاثة منصوبة على الحال من كاف ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وهو العامل فيها، كما عمل في صاحب الحال.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف كلام جديد، وهو مؤكد قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ على طريق التخييل والتمثيل، ولا جارحة هناك.

البلاغة:

بين قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ و﴿وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿نَّكَثَ﴾ و﴿أَوْفَىٰ﴾ طباق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ استعارة تصريحية تبعية، شبّه المعاهدة على الجهاد بالأنفس بدفع السلع مقابل الأموال، واستعير اسم المشبَّه به للمشبَّه، واشتقّ من البيع يبايعون، بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، فوجه الشّبه اشتمال كل على المبادلة.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استعارة مكنية، شبه اطّلاع الله على مبايعتهم بملِك

وضع يده على أيدي رعيته، وطوى ذكر المشبَّه، ورمز بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، أي إن الله شُبِّه بالمبايَع، وذكر اليد قرينة، وإسنادها له تخييل، وفي ذكر اليد مع أيدي الناس مشاكلة.

المفردات اللغوية:

﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك في القيامة بتبليغ الرسالة، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣] . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب والجنة لمن أطاعك . ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومنذراً مخوفاً بالعقاب والنار لمن عصَاك . ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ الخطاب للنّبي ﷺ والأمة، وقرئ بالياء (ليؤمنوا) أي الناس وكذا الفعلان بعده . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تنصروه وتؤيِّدوه وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله . ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه من التوقير: وهو الاحترام والتعظيم، والضمير فيهما لله تعالى- وهو الأولى- أو لرسوله ﷺ . ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تنزهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد، من التسبيح، أو تصلوا له من السّبحة: وهي صلاة التطوع. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوةً وعشياً، أي أول النهار وآخره، أو دائماً.

﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان يوم الحديبية، بايعوه على الموت في نصرته والدفاع عنه، أو على ألا يفرّوا من قريش، وأصل المبايعة أو البيع: مبادلة المال بالمال، ثم أطلق هنا على المعاهدة على الثبات في محاربة الكفار في مقابل ضمان الجنة لهم. وكانت المبايعة تحت شجرة بالحديبية (وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة حوالي مرحلة، وهي في حدود الحرم) . ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأن الله هو المقصود بالبيعة، مثل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠] أي إن المقصود من بيعة الرسول ﷺ وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره، والمراد بآية ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: أي صفقتهم إنما يمضيها ويمنح الثمن فيها الله عزّ وجلَّ، وأن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ مؤكد معنى البيعة، والمراد أنه تعالى مطلّع على

مبايعتهم، فيجازيهم عليها، ونصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه. واستعمال اليد هنا بمعنى الغلبة والنصرة ونعمة الهداية، فهو مجاز، والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. ويعتقد السلف بوجود يد لله تعالى، لا كالأيدي؛ لأنه ليس كمثله شيء، وهذا أسلم، وإن كان المجاز أولى عقلاً وأحكم رأياً، ونفوّض الأمر لله مع الإيمان بما ورد في القرآن والسُّنّة الصحيحة.

﴿نَّكَثَ﴾ نقض العهد، وضدّه: أوفى بالعهد ووفّى به: إذا أتّمه .﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يرجع وبال وضرر نقضه عليه .﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ﴾ وفّى في مبايعته، وقرأ الجمهور بكسر الهاء، وقراءة حفص بضم الهاء؛ لأنها هاء (هو) وهي مضمومة، فاسستصحب ذلك، كما في (له، وضربه) .﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة.

قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفرّ، فما نكث أحد منّا البيعة إلا جَدّ بن قَيْس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط ناقته، ولم يثر مع القوم.

المناسبة:

بعد بيان فضائل الفتح - صلح الحديبية - على النّبي ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين، أعقبه ببيان خصائصهما، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث (وفي الأحزاب: الخمس) ومدحه وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة، فذكر بيعة الرضوان بين النّبي ﷺ والمؤمنين، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى، وأوضح جزاء ناقض العهد، ومن أوفى بالعهد.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي إننا أرسلناك يا محمد

رسولاً شاهداً تشهد على الخلق وعلى أمتك بتبليغ الرسالة، ومبشِّراً بالجنة المؤمنين المطيعين، ومنذراً مخوّفاً بالنار الكافرين العصاة.

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ أي إنا أرسلناك لتؤمنوا بالله ورسوله- والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته - وتقووا وتؤيدوا الله بنصرة دينه ورسوله، وتعظِّموه، وتنزّهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد والصاحبة والتَّشبيه بالمخلوقات، على الدوام، أو في الغداة والعشي، أي أول النهار وآخره، والمراد صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر، كما قال ابن عباس. والمراد بتعزير الله، تعزير دينه ورسوله ﷺ.

قال الزمخشري: والضمائر- في الأفعال الثلاثة غير الأول - لله عزّ وجلّ، ومن فرّق الضمائر فقد أبعد.

وبعد بيان أنه مرسل، قال الله عزّوجلّ تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ليبيِّن أن من بايعه فقد بايع الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن الذين يبايعونك أيها النَّبي بيعة الرضوان بالحديبية تحت الشجرة على قتال قريش، إنما يبايعون الله، أي يطيعونه ويعاهدونه على امتثال أوامره؛ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، ولأن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة الله تعالى في الحقيقة.

ثم أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه على السواء، وإن الله هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، وهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١١] . وإن نعمة الله عليهم بالهداية فوق إجابة البيعة، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٧] . والخلاصة: إن قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ استئناف مؤكد للكلام السابق من أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله تعالى.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي يتفرّع عن البيعة مع الله أنه من نقض العهد مع النّبي ﷺ، فإنما وبال ذلك وضرره على الناقض نفسه، لا يجاوزه إلى غيره.

ومن وفّى بالعهد وثبت عليه، ونفّذ ما عاهد عليه الرّسول ﷺ في البيعة، فسيؤتيه الله ثواباً جزيلاً، ويدخله الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٨] .

وهذه البيعة كما تقدّم هي بيعة الرّضوان التي كانت تحت شجرة سَمُرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ على الأصح ألفاً وأربع مئة، وقيل: ثلاث مئة أو خمس مئة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - إن مهام النّبي ﷺ المذكورة هنا هي ثلاث:

أ- الشهادة على الخَلْق وعلى أمته بالبلاغ، فهو يشهد على الناس بأن رسلهم وأنبياءهم بلغوهم رسالة الله بما أخبره الله به في القرآن، ويشهد على أمته بتبليغهم الرسالة الإلهية، وقد أعلن ذلك في حجة الوداع: «اللهم قد بلّغت، اللهم فاشهد» .

ب- وتبشير من أطاعه بالجنة.

جـ- وإنذار من عصاه بالنار.

والمذكور في سورة الأحزاب خمس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [٤٥-٤٦] وهذا لأن المقام في الأحزاب مقام ذكر الرسول ﷺ؛ لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله، ففصل في مهامه، واقتصر في سورة الفتح على الثلاث المتقدمة، ثم ذكر بعدئذ ما يدل على كونه داعياً وكونه سراجاً في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾.

٢ً - إن الغاية من إرسال النبي ﷺ هو الوصول إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، ونصرة دين الله ورسوله، وتعظيم الله وإجلاله، وتسبيحه بالقول وتنزيهه من كل قبيح على الدوام، أو في أول النهار وآخره، أو فعل الصلاة التي فيها التسبيح.

٣ً - إن الذين بايعوا النبي ﷺ بالحديبية على قتال قريش ومناصرته فقد بايعوا الله تعالى، فبيعتهم للنبي ﷺ إنما هي بيعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠] .

والله تعالى مطّلع على بيعتهم ومجازيهم خيراً. فيده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة، ونعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة، وقوة الله ونُصرته فوق قوّتهم ونصرتهم.

ومذهب السلف رضوان الله عليهم: الإيمان الظاهري بما يسمى يداً لله، مع تنزيه المولى عن مشابهة الحوادث وصفات الأجسام وإثبات الجوارح (الأعضاء) له، ويقولون: إن معرفة حقيقة اليد هنا فرع عن معرفة حقيقة الذات، ولن يستطيع المخلوق ذلك، فالأولى التفويض في معرفة الحقيقة لله

تعالى، مع الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن والسُّنّة الثابتة. ومذهب الخلف: تأويل اليد بالقدرة أو القوة أو النصرة أو النعمة، على طريق الاستعارة بالكناية، كما تقدّم في البلاغة.

٤ - إن الناكث ناقض العهد بعد البيعة يرجع ضرر النكث والنقض عليه؛ لأنه حرم نفسَه الثواب وألزمها العقاب.

٥ - وإن من أوفى بعهده الذي عاهد الله تعالى عليه في البيعة، سيمنحه الله تعالى في الآخرة ثواباً جزيلاً، ويدخله الجنة.

أحوال المتخلفين عن الحديبية

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿ضَرًّا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ضُرّاً).

﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (كَلِم الله).

﴿يُدْخِلْهُ﴾، ﴿يُعَذِّبْهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (ندخله، نعذبه).

الإعراب:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، أي ظننتم أنهم لا يرجعون.

﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ﴾: حال مقدرة، و﴿يُسْلِمُونَ﴾: إما معطوف على ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ﴾ أو مستأنف، تقديره: أو هم يسلمون. وقرئ: أو يسلموا: بتقدير (أن) و (أو) بمعنى (إلا) وقيل بمعنى (حتى).

البلاغة:

بين الضر والنفع في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ طباق.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إطناب بتكرار نفي الحرج والإثم عن أصحاب الأعذار للتأكيد.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلفون، جمع مخلَّف: وهو المتروك في المكان خلف

الخارجين عنه، والمراد بهم هنا قبائل حول المدينة من الأعراب هم أسْلَم وجُهَيْنة ومُزَيْنة وغِفار وأشجع والدِّيل، استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة، فتخلفوا، واعتذروا بالشغل في أموالهم وأهليهم، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدّوهم. ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قبائل من الأعراب سكان البوادي حول المدينة. ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج معك؛ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالنا، وقرئ بالتشديد (شغَّلتنا) للتكثير، وهذا كذب منهم. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله من التخلف أو ترك الخروج معك، وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون، ومصانعة من غير توبة ولا ندم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ هذا تكذيب من الله تعالى لهم في الاعتذار والاستغفار، فهم يطلبون الاستغفار وغيره في الظاهر، وهم كاذبون في اعتذارهم. ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد يمنعكم من مشيئته وقضائه، والملك: إمساك الشيء بقوة وضبط. ﴿ضَرًّا﴾ بفتح الضاد وضمها، والضر: الضرر اللاحق بالأهل والمال والنفس، كقتل وهزيمة وهزال وسوء حال وضياع. ﴿نَفْعًا﴾ النفع: ما يفيد من حفظ النفس والمال والأهل. ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي كان ولم يزل متصفاً بذلك، فهو يعلم تخلفكم وقصدكم فيه، و﴿بَلْ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم. و﴿يَنقَلِبَ﴾ يرجع، والأهلون: العشائر وذوو القرابة، جمع أهل، وقد يجمع على أهلات، مثل أرضات على أن أصله أهلة. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظن السيئ، وهو الظن المذكور. ﴿بُورًا﴾ جمع بائر، أي هلكى أو هالكين عند الله بهذا الظن وفساد العقيدة وسوء النية. ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم

يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، فهو كافر مستوجب للسعير بكفره، والسعير: نار ملتهبة شديدة، وتنكيرها للتهويل، أو لأنها نار مخصوصة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذ لا وجوب عليه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك، والغفران والرحمة من ذاته، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «سبقت رحمتي غضبي».

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون. ﴿مَغَانِمَ﴾ هي مغانم خيبر، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة، من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم هاجم خيبر بمن شهد الحديبية بسبب اعتداءات اليهود المتكررة، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة، ثم خصها بأهل الحديبية. ﴿ذَرُونَا﴾ اتركونا. ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ لنأخذ منها. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يريدون أن يغيروا كلام الله، وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر، فهم يريدون الشركة في المغانم دون أن ينصروا دين الله تعالى.

﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفي في معنى النهي. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي مثل ذلك قال الله من قبل استعدادهم للخروج إلى خيبر، وقبل عودنا. ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي تحسدوننا أن نصيب معكم شيئاً من الغنائم. ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فهمهم لأمور الدنيا دون الدين. ومعنى الإضراب الأول. ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ رد منهم أن يكون حكم الله ألا يتبعوهم، وإثبات الحسد، والثاني: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ رد من الله تعالى لذلك، وإثبات لجهلهم بأمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الوصف مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب

بأس شديد أي قوة في القتال، وهم بنو حنيفة أصحاب اليمامة، أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، أو فارس والروم. ولا دليل على التعيين. ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أو الإسلام، لا غير.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ في قتالهم ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ عن الحديبية. ﴿أَلِيمٗا﴾ مؤلماً، لعظم جرمكم.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ أي إثم وذنب في ترك الجهاد، ويلاحظ أنه تعالى لما أوعد على التخلف، نفى الحرج عن أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) استثناء لهم من الوعيد. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ فصّل الوعد وأجمل في الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ هذا تعميم بعد تفصيل الوعد، إذ الترهيب هنا أنفع من الترغيب.

سبب نزول الآية (١٧):

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ الآية، قال أهل الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾.

المناسبة:

بعد بيان حال المنافقين، بيّن الله تعالى حال المتخلفين، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لظنهم أنه يهزم، وقد ذكر تعالى أحوالاً ثلاثاً لهم: هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار لترك الجهاد.

التفسير والبيان:

الاعتذار عن التخلف: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أخبر تعالى رسوله ﷺ أثناء عودته من الحديبية بما يعتذر به المخلفون الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا السير مع رسول الله ﷺ حين خرج إلى مكة معتمراً عام الحديبية، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة وهم أسلم وجُهَيْنة ومُزَيْنة وغِفار وأشْجَع والدِّيل، وإنما قال: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لأن الله خلَّفهم عن صحبة نبيه ﷺ. والمخلَّف: المتروك. والآية من إعجاز القرآن؛ إخباره عن الغيب، وقد وقع الأمر مطابقاً لخبر القرآن.

ولقد اعتذروا بشغلهم بالأموال والأهل، وسألوا أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ، ليغفر الله لهم ما وقع منهم من التخلف عنه بسبب الانشغال، لا بسبب العصيان ومخالفة الأمر. وذلك في الحقيقة قول منهم، لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، لذا رد الله عليهم وكذَّبهم بقوله:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنهم ليسوا صادقين في الاعتذار، فهم يتصنعون ذلك بظواهر ألسنتهم، أما في أعماق قلوبهم فهم يعتقدون أن محمداً ﷺ وصحبه سينهزمون، ويخافون من مقاتلة قريش وثقيف وكِنانة والقبائل المجاورة لمكة، وهم الأحابيش، بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي قل أيها النبي لهم: فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير أو شر؟ أي لايقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، سواء بإنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل، أو بتحقيق النفع لكم من نصر وغنيمة.

بل في الحقيقة، إن تخلفكم ليس لما زعمتم، فإن الله خبير بجميع ما تعملونه من الأعمال، وقد علم أن تخلفكم لم يكن للانشغال بالمال والأهل، بل للشك والنفاق والخذلان وسوء الاعتقاد والخوف من قريش وأعوانهم وما خطر لكم من الظنون الفاسدة، الناشئة عن عدم الثقة بالله تعالى، ثم افتضح شأنهم، فقال تعالى:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، وقد اعتقدتم أن العدو يقتل ويستأصل المؤمنين نهائياً، فلا يرجع أحد منهم إلى أهله إلى الأبد، وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم، فقبلتموه، وظننتم أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وكنتم قوماً هالكين عند الله تعالى، وصرتم بما فعلتم لا تصلحون لشيء من الخير، تستحقون شديد العقاب.

ثم أخبر الله تعالى عن عقاب الكفار، فقال:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي من لم يصدِّق بالله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير والنار الشديدة الالتهاب جزاء الكفر.

ثم أبان تعالى مدى قدرته الشاملة لكل شيء، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ أي لله سلطة التصرف المطلق في أهل السماوات والأرض، يتصرف فيهم كيف يشاء، لا رادّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه.

يغفر لمن يشاء أن يغفر له ذنوبه، ويعذب بالنار من يريد أن يعذبه على كفره ومعصيته، والله ما يزال غفوراً لذنوب عباده التائبين، رحيماً يرحم جميع خلقه، ويخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده.

وفي هذا حث عام على الإصلاح، وترغيب لهؤلاء المتخلفين وأمثالهم من المقصرين بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وفي الآية أيضاً بيان واضح أنه تعالى يغفر للمبايعيين بمشيئته، ويعذب الآخرين بمشيئته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل، وأتم وأكمل، وأن عظيم الملك يكون أجره في غاية السعة، وعذابه وعقوبته في غاية النكال والألم.

طلب المشاركة في وقعة خيبر:

ثم أوضح الله تعالى كذب المتخلفين في ادعائهم الانشغال بالمال والأهل، بدليل طلبهم السير مع النبي ﷺ إلى خيبر، لما توقعوا من مغانم يأخذونها، فقال:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي سيقول هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذا انطلقتم أيها المسلمون إلى مغانم خيبر لتأخذوها وتحوزوها: اتركونا نتبعكم في السير، ونشهد معكم غزو خيبر؛ لأنهم علموا أن الله وعد المسلمين فتح خيبر وتخصيص من شهد الحديبية بغنائمها.

والخلاصة: أنه لو كان اعتذارهم بالانشغال صحيحاً، لما طلبوا السير مع النبي ﷺ إلى خيبر.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يريدون تبديل وعود الله لأهل الحديبية بتخصيصهم بمغانم خيبر، فقد أمر الله رسوله ألا يسير معه إلى خيبر أحد من غير أهل الحديبية، ووعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا

يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً.

ثم صدر قرار المنع صراحة، فقال تعالى:

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول صراحة: لن تسيروا معنا في خيبر، وهكذا أخبرنا الله تعالى من قبل رجوعنا من الحديبية ووصولنا إلى المدينة: أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة، ليس لغيرهم فيها نصيب. والخلاصة: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٨٣][1].

ثم أخبر الله تعالى عن ردهم على ذلك بقوله:

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي فسيقول المخلفون عند سماع هذا القول: بل إنكم تحسدوننا في المشاركة في الغنيمة، والحسد لاغيره هو الذي يمنعكم من الإذن لنا في الخروج معكم.

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا أمر حسد منكم على أخذهم شيئاً من الغنيمة، بل لأنهم لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، والمراد: لا يفهمون شيئاً من أمور الدين وهو جعل القتال لله تعالى، وإصلاح النية له، وصدق الإيمان به، وإن كانوا يعلمون ويفهمون أمور الدنيا.

---

(١) وهذا لمجرد إيراد التشابه في الحكم، وإن كانت هذه الآية في ﴿بَرَاءَةٌ﴾ نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية.

وهذا دليل على أن محاولتهم نقض حكم الله تعالى، واتهام المؤمنين بالحسد صادر عن جهل وقلة تدبر ووعي، وإنهم قوم ماديون لا يعرفون إلا الدنيا.

وقد دعوتهم إلى القتال باستثناء أصحاب الأعذار إن كانوا صادقين في طلب المشاركة مع المؤمنين.

ثم أبان الله تعالى أن ميدان القتال متسع ما يزال مفتوحاً إن أرادوا إثبات إخلاصهم مع النبي ﷺ والذين آمنوا، فقال:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المخلفين من الأعراب إن أرادوا الانتماء إلى الصف الإسلامي بحق وصدق: ستندبون إلى قتال قوم أولي شدة وصلابة ونجدة، تخيرونهم بين أحد أمرين: إما المقاتلة أو الإسلام لاثالث لهما، وهذا حكم الكفار الذين لا عهد بينهم وبين المسلمين بعقد الجزية ونحوها، ويشمل مشركي العرب والمرتدين وغير العرب.

أما المفسرون فذكروا أربعة أقوال في تعيين أولئك القوم وهي:

أ - هوازن وغطفان يوم حنين، وكان قتالهم بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

ب - ثقيف.

جـ- بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة، وكان قتالهم بعد ذلك أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وأكثر المفسرين على أن القوم هم بنو حنيفة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر؛ لأنه تعالى قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ومشركو العرب والمرتدون هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية عند أبي حنيفة، وأما الشافعي فعنده لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب.

د- أهل فارس والروم وأهل الأوثان.

قال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين.

ثم وعدهم الله تعالى بالثواب إن أطاعوا، وأوعدهم بالعذاب إن عصوا، فقال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي فإن تستجيبوا، وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا ما عليكم، يعطكم الله ثواباً حسناً، وهو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وإن تعرضوا كما أعرضتم من قبل زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، يعذبكم عذاباً شديداً مؤلماً بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة، لعظم جرمكم.

ثم استثنى الله تعالى أصحاب الأعذار من فرضية الجهاد ومن الوعيد على التخلف، فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار وهي العمى والعرج المستمر والمرض المزمن، أو الطارئ أياماً حتى يبرأ إثم وذنب في التخلف عن الجهاد؛ لعدم استطاعتهم. وقدم الأعمى على الأعرج؛ لأن عذره دائم مستمر.

قال مقاتل: هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية، وقد عَذَرهم.

ثم رغّب سبحانه وتعالى في الجهاد وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يطع الله تعالى ورسوله ﷺ بإخلاص، فيجاهد مع المؤمنين لإعلاء كلمة الله تعالى والدفاع عن دينه، يدخله الله في الآخرة جنات تجري

من تحت قصورها الأنهار تتدفق عذوبة وتتلألأ بياضاً، ومن يعرض عن الطاعة، ويعص الله تعالى ورسوله ﷺ، فيتخلف عن القتال، يعذبه الله عذاباً شديد الألم، في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

وبالرغم من أن طاعة كل واحد من الله والرسول طاعة الآخر، فإنه جمع بينهما بياناً لطاعة الله غير المرئي وغير المسموع كلامه، فقال: طاعته عز وجل في طاعة رسوله ﷺ، وكلامه سبحانه يسمع من رسوله ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات الإخبار عن أحوال ثلاثة للمتخلفين:

الحالة الأولى- اعتذارهم بالأموال والأهل: وهذا يدل على الأمور التالية:

١ً - إن اعتذار جماعة من الأعراب كانوا حول المدينة كان بعذر سطحي واهٍ هو الانشغال بالأموال والأهل، أي ليس لهم من يقوم بهم، بعد أن استنفرهم النبي ﷺ ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمْرَة وساق معه الهَدْي (شاة ونحوها) ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقلوا عنه واعتلوا بالشغل، فنزلت الآية في شأنهم، وسموا بالمخلَّفين أي المتروكين.

وأحسوا بضعف موقفهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج.

وهذا إن قبل مع الناس فلا يقبل مع الله تعالى المطلع على حقائق الأمور، لذا دل هذا الموقف على قصور النظر، فضلاً عن سوء الاعتقاد والجهل.

٢ً - لقد فضحهم الله تعالى أيضاً، وكذبهم بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا هو النفاق المحض، فهم قوم منافقون، ينطبق عليهم العذاب المذكور في الآية السابقة: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [٦].

٣ً - وردَّ الله تعالى عليهم أيضاً حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضُّر، ويعجل لهم النفع، والضُّر: اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال. والنفع: ضد الضر.

ومضمون الرد بإيجاز: لن يستطيع أحد دفع ما أراده الله في عباده من خير أو شر.

٤ً - وزيَّف الله تعالى مُدَّعاهم، وافتضح شأنهم، وأبان سوء ظنهم حين قالوا: إن محمداً وأصحابه أَكَلَة رأس[1] لا يرجعون، وزعموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون ويستأصلون، ولن يعودوا إلى أهليهم أبداً؛ لأنهم قالوا: أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة، فكيف يكون حالهم إذا دخل المسلمون بلادهم، وأحاطوا بهم؟!

وزيَّن الشيطان النفاق في قلوبهم، وظنوا ظناً سيئاً أن الله تعالى لا ينصر رسوله ﷺ، وبذلك جمعوا بين النفاق وسوء الظن وسوء التقدير.

لكل هذا أخبر الله تعالى عن حكمه فيهم وهو أنهم قوم بور، أي هلكى فاسدون لا يصلحون لشيء من الخير.

٥ً - ثم أوعدهم الله تعالى بعذاب السعير، وأبان أنهم كفروا بالنفاق.

٦ً - وأخبر تعالى عن قدرته الفائقة بتصرفه في أهل السماوات والأرض، وأنه غني عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف بالجهاد وغيرهم ليثيب من آمن، ويعاقب من كفر وعصى.

الحالة الثانية- طلب المسير إلى خيبر: وهذا يشير إلى ما يأتي:

أً - إنهم قوم أغبياء جهلة كذبة: فكيف اعتذروا سابقاً بالانشغال بالأموال والأهل، والآن يطلبون المشاركة في السير إلى خيبر؟!

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد.

٢ً - إنهم قوم ماديون: يفرون من مواطن الخوف والخطر واحتمال القتال ويحرصون على أخذ غنائم الحرب حينما يحسون بضعف الأعداء وهم يهود خيبر.

٣ً - إنهم قوم كفرة: يريدون أن يغيروا كلام الله وحكمه، وقدره ووعده الذي وعد لأهل الحديبية؛ لأن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر، عِوَضاً عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح.

٤ً - إنهم جماعة يستحقون النبذ والعزل المدني: لذا حكم الله تعالى بمنعهم من الخروج مع المسلمين إلى خيبر.

٥ً - إنهم مرضى القلوب لانطوائها على الحقد والحسد، ومن حقد على الآخرين أو حسدهم ظن أن الآخرين مثله، لذا حاولوا اتهام المسلمين زوراً وبهتاناً بأنهم يحسدونهم على أخذ شيء من الغنائم. وربما فهموا ذلك من قول رسول الله ﷺ: «إن خرجتم لم أمنعكم، إلا أنه لاسهم لكم» فقالوا: هذا حسد، فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٦ً - إنهم قوم لا يفهمون: فلا يعلمون من الدين شيئاً أو قليلاً بسبب ترك القتال، وإن كانوا يعلمون أمور الدنيا.

الحالة الثالثة- حقل التجربة بالمعارك القادمة: وهذا يدل على ما يأتي:

١ً - أخبر تعالى زيادةً في تكذيبهم وافتضاح أمرهم أن ميدان القتال مفتوح، فإن كانوا مسلمين صادقين فليجربوا أنفسهم في ملاقاة أقوام ذوي بأس شديد، ومراس ونجدة.

٢ً - فتح الله تعالى باب الأمل أمامهم، وأفادهم بأنهم إن أطاعوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهدوا بحق يعطهم الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في

الآخرة، وإن أعرضوا في المستقبل عن الجهاد كما أعرضوا في الماضي عام الحديبية، يعذبهم بعذاب مؤلم موجع وهو عذاب النار.

وقد استدل بعض المفسرين بآية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

واستدلوا بآية ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على حكم من لا تؤخذ منهم الجزية، وهم مشركو العرب والمرتدون، فالخيار مقيد فيهم بأمرين: إما المقاتلة وإما الإسلام، لا ثالث لهما.

واستدل الفقهاء بآية ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ على إعفاء أصحاب الأعذار من فريضة الجهاد، وهم الأعمى والأعرج عرجاً دائماً، والمريض المزمن أو المريض مرضاً مؤقتاً يمنع من الخروج من المنزل إلى أن يبرأ. واقتصر النص القرآني على الأصناف الثلاثة؛ لأن العذر إما بسبب اختلال القوة أو إخلال في عضو، فيقاس عليهما ما في معناهما، كالفقر الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه. وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي أو عجز حكمي.

فمن الأول: الصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال، والعرج البيّن، وفقد البصر، وعدم وجدان السلاح وآلات القتال.

ومن الثاني: الرق والدَّيْن الحالّ بلا إذن رب الدين، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين.

ودل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ على الحث على الجهاد والترهيب من ترك القتال، فإن من أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهد في سبيل الله،

أدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن أعرض عن المشاركة في الجهاد، عذَّبه عذاباً شديد الألم، لعظم جُرْمه، وإساءته للمجتمع الإسلامي.

فإن الجهاد سبيل لدحر العدوان، وطرد المعتدين، والتخلص من أذاهم، وهو طريق العزة والكرامة، وصون الاستقلال، وحماية حرمات البلاد والأوطان، والحفاظ على كيان الأمة، ولولاه لذابت الأمم، وزالت الأديان والقيم، وانصهرت الجماعات، ولحق الذل والهوان والاستعباد بالشعوب إلى الأبد، أو إلى أن تصحو وتستيقظ من رقادها وسباتها، وتنفض الذل عن هاماتها.

لذا جعله الله فريضة على المؤمنين، وإن كان مكروهاً على النفس، ليعلم الصادق في إيمانه، الصابر على تحمل مشاق التكاليف، واختبار أعمال الناس حسنات أو سيئات، فيجازيهم بها.

وهو ذروة سنام الإسلام، وسبيل إلى جنان الخلد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهم في درجة الأنبياء والصدّيقين، وحسن أُولئك رفيقاً.

جزاء أهل بيعة الرضوان

﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

البلاغة:

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ التعبير بصيغة المضارع المفيد للحال عن الماضي لاستحضار صورة المبايعة.

المفردات اللغوية:

﴿رَضِيَ﴾ الرضى: ما يقابل السخط ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أهل الحديبية، ورضى الله عنهم لمبايعتهم رسول الله ﷺ، وكان عددهم على الأصح ألفاً وأربع مئة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ يبايعون الرسول ﷺ على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفرّون منهم، ولا يخشون الموت ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هي سَمُرة (وهي شجرة الطلح أو السنط) ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ كافأهم على عملهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وإخلاص البيعة ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ جازاهم على بيعة الرضوان بفتح خيبر، بعد انصرافهم من الحديبية.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ أي وأثابهم أيضاً مغانم خيبر يأخذونها، وكانت خيبر ذات بساتين نخيل ومزارع، قسمها رسول الله ﷺ بين أهل الحديبية المقاتلة، فأعطى الفارس سهمين، والراجل سهماً ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي كان الله وما يزال غالباً قوياً، مراعياً مقتضى الحكمة في تدبير خلقه.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال:

«بينا نحن قائلون[1]، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ، يا أيها الناس، البيعةَ البيعةَ، نزل روح القُدُس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سَمُرة، فبايعناه، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية».

فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لك لابن

(١) نائمون نوم القيلولة.

عفان، يطوف بالبيت ونحن هنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة، ما طاف حتى أطوف».

وروي أنه لما نزل الحديبية بعث خِراش بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهمُّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه، فحبسوه، فأرجف بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا ألفاً وثلاث مئة أو أربع مئة أو خمس مئة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرّوا منهم، وكان جالساً تحت سمرة أو سدرة.

وأخرج الشيخان عن يزيد بن عُبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: « على أي شيء بايعتم رسول الله؟ قال: على الموت ».

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة- التي كانت تحتها بيعة الرضوان بالحديبية - والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفِرَّ».

ووفّق العلماء بين الروايتين، فجماعة كانت مع سَلَمة، وجماعة مع معقل، وأرى أن الغاية من الحديثين واحدة هي الثبات في مواجهة قريش، لذا قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جَدّ بن قَيْس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط ناقته، ولم يثر مع القوم. ويلاحظ أن جابر جمع بين الروايتين.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر أن النبي ﷺ قال: «لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية، عاد إلى بيان حال الذين

بايعوا تحت الشجرة، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خيبر، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة، لصدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة: لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين الخلّص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضى الله تعالى عنهم، ولذا سميت بيعة الرضوان.

التفسير والبيان:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي تالله لقد رضي الله عن المؤمنين المخلصين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، بالحديبية، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وروي أنه بايعهم على الموت، وكان عددهم في الأصح ألفاً وأربع مئة. وسميت بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾.

روى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلّون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب، فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!!

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن نافع قال: بلغ عمر أن أناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها، فأمر بها، فقطعت.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فعلم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق، والإخلاص والوفاء، والسمع والطاعة،

فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم، وجازاهم فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية، ثم أتبعه بفتح مكة وفتح سائر البلاد والأقاليم.

وفاء ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب، والفعل متعلق بقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ وبما أن العلم بما في القلوب قبل الرضى. فيكون المراد كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلَّمت زيداً، فقام إلي، أو إذ دخلت عليه فأكرمني، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً في المعنى، والآية كذلك إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم. وفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للتعقيب الواقعي، فإنه تعالى رضي عنهم، فأنزل السكينة عليهم.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ أي: وأثابهم أيضاً مغانم كثيرة، وهي غنائم خيبر، وكان توزيع الغنائم تعويضاً لهم عما تأملوه من غنائم أهل مكة، ومخصصاً بأهل بيعة الرضوان.

وكان الله وما يزال غالباً كامل القدرة، مدبراً أمور خلقه على وفق الحكمة والسداد، وقد حقق لأهل بيعة الرضوان العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزاءين: مادي ومعنوي، أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم، بسبب ما علمه في نفوسهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر أو فتح مكة، وغنائم خيبر وأموالها، فقسمها عليهم، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، أو غنائم فارس والروم.

مغانم وفتوحات ونعم كثيرة أخرى للمؤمنين

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطًا﴾:

وقرأ قنبل (سراطاً).

﴿تَعْمَلُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يعملون).

الإعراب:

﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي المعجلة، وهو عطف على مقدر، أي لتشكروه.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾: في موضع نصب بالعطف على ﴿مَغَانِمَ﴾ وتقديره: وعدكم ملك مغانم كثيرة وملك أخرى؛ لأن المفعول الثاني وهو: ﴿مَغَانِمَ﴾ لايكون إلا منصوباً؛ لأن الأعيان لا يقع الوعد عليها، إنما يقع على تملكها وحيازتها. ويصح أن تكون مبتدأ، و﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟

﴿عَلَيْهَا﴾: صفة لها، وجاز الابتداء بها لكونها موصوفة، و﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: خبر المبتدأ.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، أي سن الله ذلك سنة.

البلاغة:

﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ كناية عن الهزيمة؛ لأن المنهزم يدير ظهره للعدو عند الهرب.

المفردات اللغوية:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما وُعد به المؤمنون إلى يوم القيامة إثر الفتوحات ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي قريش بالصلح، وأيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، وأيدي اليهود عن المدينة إذ همُّوا بعيالكم، بعد خروج الرسول ﷺ منها إلى الحديبية، بأن قذف في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي الغنائم المعجلة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أمارة للمؤمنين في نصرهم يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعدهم فتح خيبر والمغانم وغير ذلك، وحراسة الله لهم في غيبتهم ومشهدهم، وحفظ كيان المؤمنين الآتين بعدهم ما داموا على الاستقامة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يوفقكم ويرشدكم إلى الثقة بفضل الله والتوكل عليه في كل الأمور.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي ومغانم أخرى هي مغانم فارس والروم ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ الآن، لما تتطلب من الإعداد الأقوى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ علم أنها ستكون لكم، وقد أعدها لكم وغنمكموها وأظهركم عليها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك؛ لأن قدرته ذاتيه لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالحديبية ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ هربوا وانهزموا ﴿ثُمَّ

﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ حارساً حامياً يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ معيناً ينصرهم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ حكم الله وقانونه القديم فيمن مضى من الأمم غلبة أنبيائه، ونصر المؤمنين، وهزيمة الكافرين، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١] أي سنَّ الله ذلك سنة ثابتة دائمة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أيدي كفار مكة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة بالحديبية ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم وجعلكم متغلبين عليهم، فإن ثمانين منهم طافوا بعسكركم ليصيبوا منكم، فأُخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي ولم يزل مطلعاً على جميع الأمور.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٤):

﴿وهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ : أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم[1]، يريدون غِرّة[2] رسول الله ﷺ، فأُخذوا، فأعتقهم، فأنزل الله: ﴿وهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وأخرج مسلم ونحوه من حديث سلمة بن الأكوع، وكذا أحمد والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن مُغفل المزني، وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس.

---

(١) التنعيم: موضع في الحل بين مكة وسَرِف.

(٢) الغِرَّة: الغفلة: أي يريدون أن يصادفوا منه ﷺ ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم.

وحديث أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنهما هو: قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وكان علي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم.

وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة، فأمسك سهيل ابن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله.

فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى.

أولها- أنّ ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها، والله كان عالماً بها.

وثانيها- وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.

وثالثها- الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وتلك سنّة الله القديمة.

ورابعها- امتنان الله على عباده المؤمنين بكفّ أيدي المشركين عنهم في الحديبية.

التفسير والبيان:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ أي وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة من المشركين والكفار على ممرّ الدهر إلى يوم القيامة، ولكن عجّل لكم غنائم خيبر، وكفَّ أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، وأيدي اليهود أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطّفان عن قتالكم، وقذف في قلوبهم الرعب، فلم ينلكم سوء مما أضمره أعداؤكم لكم من المحاربة والقتال.

كل ذلك لتشكروه، ولتكون تلك النعم علامة للمؤمنين يعلمون بها صدق رسول الله ﷺ في جميع ما يَعِدهم به، وأن الله حافظهم وناصِرهم على سائر الأعداء، مع قلة العدد، وليزيدكم بتلك الآية أو العلامة هدى، أو يثبّتكم على الهداية إلى طريق الحقّ، والانقياد لأمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

- ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ أي وعدكم الله غنائم أخرى وفتوحات أخرى غير صلح الحديبية وفتح خيبر، لم تكونوا تقدرون عليها في حالتكم الراهنة، قد أحاط الله بها علماً أنها ستصير أو ستكون لكم، وتفتحونها وتأخذونها، مثل غنائم هوازن في غزوة حنين، وفتوحات فارس والروم، وكان الله وما يزال على كل شيء قديراً مقتدراً، لا يعجزه شيء.

- ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾﴾ أي لو بادركم بالقتال كفار قريش بالحديبية، لنصر الله تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فارّاً هارباً، ثم لا يجدون حارساً وحامياً يحرسهم ويواليهم على قتالكم، ولا ناصراً معيناً ينصرهم عليكم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي تلك سنّة الله القديمة وعادته في خلقه بنصر جيش الإيمان على جيش الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، وغلبة أوليائه على أعدائه، بالرغم من عدم تكافؤ القوى، مثل نصر الله يوم بدر أولياءه على أعدائه من المشركين، وتلك السّنة مستمرة ثابتة، لا تغيير لها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي والله سبحانه وتعالى هو الذي كفَّ أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين، لما جاؤوا يصدّون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت الحرام عام الحديبية، في داخل مكة وحدودها، فإن ثمانين رجلاً من أهل مكة- كما تقدّم في سبب النزول- هبطوا على النبي ﷺ من قبل جبل التنعيم، متسلحين، يريدون غِرَّة النَّبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركوهم. وهذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين بكفّ المشركين عنهم، وكفّ المسلمين عن الكفار.

وكان الله وما يزال بصيراً بأعمال عباده المؤمنين والمشركين، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وعلى هذا، ليس المراد من قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فتح مكة، فالصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، وأن مكة فتحت عنوة، وإنما المراد: ما بعد الأسر لم يحدث قتل.

فقة الحياة أو الإحكام:

أرشدت الآيات البيِّنات إلى ما يأتي:

١ - وعد الله تعالى المؤمنين الصادقين مغانم الأعداء إلى يوم القيامة، ومغانم خيبر المعجلة جزء منها.

٢ - إتماماً للمنّة والفضل الإلهي، منع الله تعالى عباده المؤمنين وحماهم من

أذى وحرب أهل مكة، وكفَّهم عنهم بالصلح، كما كفَّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النَّبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر، وأيدي اليهود وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتال المسلمين في خيبر. وكان قد جاء عُيينةُ بن حِصْن وعوف ابن مالك النَّضْري ومن كان معهما لينصروا أهل خيبر، والمسلمون محاصرون لهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب، وكفَّهم عن المسلمين، وزاد الله هؤلاء هدى، وثبَّتهم على الهداية.

٣ً - وعد الله عباده المؤمنين مغانم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة، منها غنائم هوازن، وغنائم فارس والروم، وذلك قبل حدوثها، ولم يكونوا يرجونها، حتى أخبرهم الله بها، وهو إخبار بالمغيبات دالّ على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته.

٤ً - ومن أفضاله تعالى على المؤمنين أنه كفّ عنهم شرّ أعدائهم، فإنه سواء قاتلت غطفان وأسد والذين أرادوا نُصْرة أهل خيبر، أم لم يقاتلوا، لا ينصرون، والغلبة واقعة للمسلمين، وذلك أمر إلهي محكوم به مختوم، ولن يجد الكفار موالياً ينفعهم باللطف، ولا ناصراً يدفع بالعنف، وليس للذين كفروا شيء من ذلك، وطريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه، وهي سنّة ثابتة مستمرة لا تقبل التغير.

٥ً - وتأكيداً لنصر المؤمنين وطّد الله تعالى دعائم الصلح والسلم قبل اللقاء وبعده، ومنع حدوث القتال بين المسلمين والكفار، حتى ولو قاتل الكفار، فإنهم سينهزمون ويولّون الدّبر، وحتى بعد ظفر المسلمين بهم، فإنه تعالى كفَّ أيدي المؤمنين عنهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى، وتمكنتم منهم لم يقع القتل، فإنه متى ظفر الإنسان بعدوه، يبعد انكفافه عنه، مع أن الله كفّ اليدين.

وكفّ أيدي المؤمنين عن الكفار: هو إطلاقهم من الأسر، وسلامتهم من القتل.

ذمّ المشركين وحكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾: قرئ:

١- (قلوبِهِمِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (قلوبهُمُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (قلوبهِمُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: منصوب بالعطف على الكاف والميم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، و﴿أَن يَبْلُغَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: عن أن يبلغ محله، أو بدل اشتمال.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ﴾ ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ مرفوع، ﴿وَنِسَآءٌ﴾: معطوف عليهم، وخبر المبتدأ محذوف، ولا يجوز إظهار خبر المبتدأ إذا وقع بعد ﴿وَلَوْلَا﴾ لطول الكلام بجوابها.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ في موضع رفع؛ لأنه صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾، ﴿وَنِسَآءٌ﴾.

و﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تقتلوهم، وفي موضع ﴿أَن﴾ وجهان: الرفع على البدل بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ أي ولولا وطؤكم رجالاً مؤمنين لم تعلموهم، أو النصب على البدل بدل اشتمال من الهاء والميم في (تعلموهم)، أي ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا وطأهم.

وجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واللام في ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ولا تتعلق بـ﴿كَفَّ﴾ هذه لأنها صلة ﴿ٱلَّذِى﴾، ووقع فصل طويل في الكلام بين ﴿كَفَّ﴾ واللام، ولا يجوز الفصل بينهما.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿إِذْ﴾: متعلق بـ ﴿لَعَذَّبْنَا﴾.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ منعوكم عن الوصول إليه .﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ أي وصدّوا الهدي: وهو ما يهدى إلى مكة، أو ما يقدّم قرباناً لله تعالى إلى الحرم ويذبح فيه، حين زيارة البيت الحرام في الحج أو العمرة، وهو سنّة. ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوساً عن الوصول للحرم .﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أن يصل مكانه الذي ينحر فيه عادة، وهو منى أو الحرم المكي. وليس المراد مكانه الذي يحل فيه نحره، وإنما المراد مكانه المعهود، وهو منى، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أحصر، قال البيضاوي: فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هدى المحصر، هو الحرم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ موجودون بمكة مع الكفار .﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين .﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ مأخوذ

من الوطء: الدوس، والمراد به هنا الإهلاك، جاء في الحديث: « اللهم اشدد وطأتك على مضر » أي أن تبيدوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح. ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ من جهتهم .﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ مكروه ومشقّة، وإثم بالتقصير في البحث عنهم، والمكروه كوجوب الدِّية والكفارة بقتلهم، والتأسف عليهم، وتعيير الكفار بذلك. مأخوذ من عرَّه: إذا عراه ودهاه ما يكرهه .﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم، متعلق بـ ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ غير عالمين بهم. وضمائر الغيبة للصنفين بتغليب الذكور. وجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف، لدلالة الكلام عليه، تقديره: لأذن لكم في الفتح أو لما كفَّ أيديكم عنهم. والمعنى: لولا كراهة أن تبيدوا أناساً مؤمنين بين الكفار، جاهلين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم أو إبادتهم مكروه، لما كفَّ أيديكم عنهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ علة لكف أيدي أهل مكة، صوناً للمؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في توفيقه لزيادة الخير، أو الإسلام .﴿مَن يَشَآءُ﴾ من المؤمنين أو المشركين .﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ تميَّزوا عن الكفار أو تفرَّقوا عنهم .﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لعذَّبنا الكافرين من أهل مكة حينئذٍ بالقتل والسَّبي .﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً شديد الألم.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي اذكر حين ذاك، أو ظرف ﴿لَعَذَّبْنَا﴾، أو ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة من الشيء .﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحق، وهي صدّهم النّبي وأصحابه عن المسجد الحرام، فهي حمية في غير موضعها، لا يؤيدها دليل ولا برهان .﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل عليهم الثبات والوقار، وصالحوا أهل مكة على أن يعودوا من قابل، ولم يلحقهم من الحمية ما لحق الكفار، حتى يقاتلوهم. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أي المؤمنين .﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمة الشهادة: « لا إله إلا الله، محمد رسول الله »، وقيل: هي بسم الله الرحمن الرحيم، أي اختارها لهم، أو ألزمهم الثبات والوفاء بالعهد، وإضافة الكلمة إلى التقوى؛ لأنها

سبب التقوى وأساسها. ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أولى بالكلمة من الكفار. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ المستأهلين لها، وهو عطف تفسيري لكلمة ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ولم يزل متّصفاً بذلك، فيعلم من هو أهل كل شيء، وييسره له.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٥):

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ﴾: أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع[١] قال: قاتلت النّبي ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنّا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾. وفي رواية ابن أبي حاتم: «كنا ثلاثة رجال، وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية» :

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كف عنهم أيدي الكافرين من قريش، وكف أيدي المؤمنين عن الكافرين، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية، أبان تعالى أسباب هذا الكفّ المتبادل، وأوضح حكمة المصالحة بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ حفاظاً عليهم، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

وقد بيّنت سابقاً كيف تمّ الصلح الذي جاء في بعض رواياته: أنه لما همَّ

(١) قال ابن كثير: والصواب أبو جعفر حبيب بن سبع.

رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش، بعثوا سهيل بن عمرو، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى، ومِكْرِز بن حفص، ليسألوه أن يرجع في عامه، على أن تُخْلي قريش مكة في العام القابل ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، على النحو المذكور آنفاً.

التفسير والبيان:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي إن مشركي العرب من قريش وحلفائهم هم الكفار الجاحدون توحيد الله دون غيرهم، وهم منعوكم أيها المسلمون من الطواف بالبيت الحرام، وأنتم أحقُّ به وأنتم أهله، وصدُّوا الهدي (ما يهدى إلى الحرم من الأنعام) محبوساً في مكانه عن بلوغ مَحِلِّه بغياً وعناداً، وكان الهدي سبعين بَدَنة (ناقة) ومَحِلُّه: مَنْحَرُه الذي يذبح فيه عادة، وهو حيث يَحِلُّ نحره من الحرم، وهو منى أو الحرم المكي، فرخَّص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه وهو الحديبية مكان الإحصار (المنع من دخول مكة) مَحِلّاً للنحر، وكانوا خارج الحرم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ولولا وجود المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، الذين يكتمون إيمانهم ويخفونه خيفة على أنفسهم من قومهم، لأذِنّا لكم بالفتح، ولما كففنا أيديكم عنهم، ولكنَّا سلَّطانكم عليهم، فقتلتموهم واستأصلتموهم، ولكن يقع بينهم فريسة القتل أقوام من المؤمنين والمؤمنات لم تعرفوهم ولم تعلموا أنهم مؤمنون حالة القتل، فتطؤوهم بالقتل، فتصيبكم من جهتهم مشقة وتأسف، وإثم وكفَّارة على القتل الخطأ، لوقوع القتل جهلاً بغير علم منكم بهم، وحينئذ يقول المشركون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكن كف أيديكم عنهم وحال

بينكم وبين قتالهم ليخلص المؤمنين من أسرهم، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا، وانفصل بعضهم عن بعض بما يسمى اليوم بفك الارتباط، لعذبنا الذين كفروا عذاباً مؤلماً وهو القتل، بأن نسلطكم عليهم، فتقتلوهم قتلاً ذريعاً. والخلاصة: لو تزيل المؤمنون من الكفار لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

ثم بيَّن الله تعالى ظرف العذاب أو وقته، فقال:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية التي لا تذعن للحق ولا تعرف منطقاً ولا تعتمد دليلاً مقنعاً، وهي قولهم: واللات والعزى لا يدخلونها علينا، وإباؤهم كتابة البسملة ووصف محمد ﷺ بأنه رسول الله في مقدمة صلح الحديبية.

فأنزل الله الطمأنينة والثبات والصبر على رسوله وعلى المؤمنين، حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية، وثبّتهم على الرضا والتسليم، وألزمهم كلمة الشهادة أو التوحيد وهي «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أو ألزمهم تعظيم الحرم، وترك القتال فيه، ولم يستفزهم صنيع الكفرة، لينتهكوا حرمة الحرم.

وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة وأجدر بها وأهلاً لها من دون الكفار؛ إذ هم أهل الخير والصلاح والعقيدة الصحيحة، على نقيض الكفار ذوي العقيدة الفاسدة.

وكان الله وما يزال عليماً بمن يستحق الخير، ممن يستحق الشر.

روى النسائي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية﴾، ولو حميتم كما حموا، لفسد المسجد الحرام) فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فأغلظ له، فقال- أي أبي-: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ، فيعلمني مما علَّمه الله تعالى، فقال عمر رضي الله عنه: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعَلِّم مما علَّمك الله تعالى ورسوله ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - ذمَّ الله تعالى قريشاً إذ كفروا بتوحيد الله، ومنعوا المؤمنين دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم النبي ﷺ مع أصحابه بعمرة، ومنعوا الهَدْي وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه، ولم يكن هذا من اعتقادهم، ولكنه حملتهم الأَنَفة، ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً؛ فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه، وآنس رسول الله ﷺ ببيانه ووعده.

٢ً -إن حرمة المؤمن عند الله عظيمة، فقد كان صلح الحديبية من أجل ثلاثة رجال وسبع أو تسع نسوة حتى لا يقتلوا في زحمة المعركة لو حدث قتال، فيعاب المسلمون، ويقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم، وتلزمهم كفارة القتل الخطأ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرمنها، ولم يُعْلَم بإيمانه الكفارة دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٤/ ٩٢] .

٣ً - دل قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على تفضيل الصحابة، واتصافهم بصفات كريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدّي، حتى لو أنهم

أصابوا من ذلك أحداً، لكان من غير قصد.وهذا مشابه لوصف النملة جُند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٢٧/١٨].

٤ً - لم يأذن الله للمسلمين في قتال المشركين عام الحديبية ليُسلم بعد الصلح الموفَّق للإسلام من أهل مكة، وقد أسلم الكثير منهم، وحسن إسلامهم، ودخلوا في رحمة الله؛ أي جنته.

٥ً - لو تميز المؤمنون عن الكفار لعذَّب الكفار بالسيف، ولكن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار.

٦ً - آية ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ دليل على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار، إلا لمصلحة ضرورية قطعية كلية، كما في قتل التُّرْس، أي المسلمين المترس بهم من قبل العدو، فيتخذهم دريئة تحمي نفوسهم، وحيلة تمكنهم من التقدم.

ومعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية. أنها قاطعة مفيدة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً.

والمصلحة بهذه القيود لا خلاف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً، إما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين، وإما بأيدي المسلمين، فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون.

ولا خلاف بين العلماء أنه لايجوز تعمد المسلمين المترس بهم بالقتل، وهل تجب الدية والكفارة؟ اختلف العلماء:

فقال الحنفية: لا دية ولا كفارة.

وقال الشافعية والثوري: تجب الدية والكفارة[١].

٧ً - لم يكن منع أهل مكة المشركين من دخول المؤمنين المسجد الحرام لسبب معقول، وإنما بدوافع الأنفة أو الحمية الجاهلية التي لا يؤيدها دليل ولا برهان، دفعتهم عصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها.

كذلك حملتهم تلك العصبية لوثنية الجاهلية على الامتناع من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» و «محمد رسول الله» في مقدمة الصلح.

٨ً - أما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم الطمأنينة والوقار، وثبّتهم على الرضى والصبر والتسليم، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل في قلوب أولئك من الحمية والغضب، وألزمهم كلمة «لا إله إلا الله» لأنهم كانوا أحق بها من كفار مكة؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه.

تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرُّءْيَا﴾ :

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٤/ ٣٩٥

وقرأ السوسي (الرُّويا).

الإعراب:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ﴾ ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ بحذف مضاف أي تأويل الرؤيا؛ لأن الرؤيا مخايل تُرى في النوم، فلا تحتمل صدقاً ولا كذباً، وإنما يحتمل الصدق والكذب تأويلها. وبالحق: إما صفة مصدر محذوف أي مصدقاً ملتبساً بالحق، أو قسم باسم الله أو بنقيض الباطل. و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أصله: لتدخلون، إلا أنه لما دخلت نون التوكيد حذفت النون التي هي نون الإعراب، لتوالي الأمثال، والفعل معرب عند الجمهور، ويرى ابن الأنباري أن النون محذوفة للبناء.

و ﴿ءَامِنِينَ﴾ ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ كلها منصوبات على الحال من الضمير المحذوف في ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ وكذلك قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ جملة في موضع الحال، وتقديره: غير خائفين.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ تقديره: كفاكم الله شهيداً، فحذف مفعولي ﴿وَكَفَىٰ﴾، و﴿وَكَفَىٰ﴾ يتعدى إلى مفعولين، قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٧] . و﴿شَهِيدًا﴾ منصوب على التمييز، أو الحال.

البلاغة:

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ صدّقه في رؤياه ولم يكذبه، فحذف الجار وهو (في) ووصل الفعل، كقوله تعالى: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يرى الزمخشري أنه متعلق بـ ﴿صَدَقَ﴾، أي

صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ حالاً منها، أي صدقه الرؤيا ملتبساً بالحق، على معنى أنها لم تكن أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ قسماً إما بالحق الذي هو نقيض الباطل، أو بالحق الذي هو من أسماء الله تعالى.

﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ جواب القسم على أن ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ قسم، وعلى الرأي الأول والثاني هو جواب قسم محذوف ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق للوعد (أو للعدة) بالمشيئة، تعليماً للعباد ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ محلقاً بعضكم جميع شعورهم، ومقصراً آخرون بعض شعورهم ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ أبداً ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير ذلك ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ جعل من دون دخول المسجد، أو من دون فتح مكة ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، ثم تحققت الرؤيا في العام القابل.

﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ ملتبساً بالهدى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ دين الإسلام ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ ليعليه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً، وإظهار فساد ما كان باطلاً، وفيه تأكيد الوعد بالفتح ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على أن ما وعده كائن، أو على نبوته بإظهار المعجزات.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ﴾ : أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أُري النبي ﷺ، وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين

محلقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله، فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ الآية.

وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشاً بالحُديبِيَة، ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله ﷺ: إنه يدخل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه ﷺ حق.

وقصة الرؤيا: أنه ﷺ رأى في المنام - وهو في المدينة[١] - أن مَلَكاً قال له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ فأخبر أصحابه بالرؤيا، ففرحوا وجزموا بأنهم داخلون في عامهم، فلما صُدُّوا عن البيت، واستقر الأمر على الصلح، قال بعض الضعفة المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت.

وقالوا أيضاً: أليس كان يَعِدُنا النبي ﷺ أن نأتي البيت، فنطوف به؟ فقال لهم أهل البصيرة: هل أخبركم أنكم تأتونه العام؟ فقالوا: لا، قال: فإنكم تأتونه وتطوفون بالبيت، فأنزل الله تصديقه.

وجاء في السيرة: أن عمر بن الخطاب قال: أتيت النبي ﷺ فقلتُ: ألستَ نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري، قلتُ: أولستَ كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر: أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلم نُعطي الدنية في ديننا؟.

(١) الظاهر أن مكان الرؤيا في المدينة أصح من القول بأنها في الحديبية.

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستَمْسِكْ بغَرْزِه[١]، فو الله إنه لعلى الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنه آتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به[٢].

التفسير والبيان:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ أي تالله لقد صدّق الله تعالى تأويل رؤياه التي رآها تصديقاً مقترناً بالحق، أنكم ستدخلون المسجد الحرام بمشيئة الله في العام القابل، وليس في هذا العام عام الحديبية، حالة كونكم آمنين من العدو، ومحلقاً بعضكم جميع شعره، ومقصراً بعضكم الآخر، وأنكم غير خائفين.

وهذا تأكيد للأمن، فإنه تعالى أثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لايخافون من أحد. وكان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة إلى المدينة، أقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبّى، وسار أصحابه يُلبّون. ثم دخل مكة بالسيوف مغمدة في قُرُبها، كما شارط أهل مكة في صلح الحديبية.

---

(١) أي سر على نهجه.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤-٢٠٠

ثم رتب الله تعالى على التصديق وسوء ظن القوم قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾[1] من الحكمة والمصلحة في تأخير الفتح إلى العام القابل، فجعل من دون ذلك الفتح فتحاً آخر قريب الحصول، وهو فتح خيبر.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لتعليم العباد وإرشادهم إلى تعليق كل أمر بمشيئة الله.

ثم أكَّد تعالى صدق الرؤيا بتصديق الرسول ﷺ في كل شيء بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ أي إن الله عز وجل هو الذي أرسل رسوله محمداً بالعلم النافع والعمل الصالح، وبما يرشد إلى طريق الهداية الصحيح، ودين الإسلام، ليعليه على كل الأديان، بنسخ سائر الديانات السابقة، وإظهار فساد العقائد الزائفة، وكفى بالله شهيداً على هذا الوعد من إظهار دينه على جميع الأديان، وعلى أن محمداً ﷺ رسوله، وهو ناصره. وفي هذا رد على سهيل ابن عمرو الذي أبى أن يكتب في مقدمة صلح الحديبية: «محمد رسول الله» وتسلية لرسول الله ﷺ، وتأكيد لصدق رؤياه ﷺ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

إن رؤيا الأنبياء حق لا شك فيه، ولكن توقيت حدوث مقتضى الرؤيا بعلم الله، لا بعلم البشر، ولم يكن في إخبار النبي ﷺ أنه وصحبه سيدخلون المسجد الحرام في زمن محدد معين، ففهم الصحابة أن ذلك سيكون عام الحديبية، ولكن لله الحكمة البالغة، يفعل الأشياء حسبما يرى من المصلحة والخير

---

(١) الفاء لعطف ﴿فَعَلِمَ﴾ على ﴿صَدَقَ﴾ وبما أن العلم متقدم على الرؤيا، فإن المراد بالتعقيب والترتيب علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب.

والحكمة، وصدّق الرؤيا في العام القابل، وجعل في الفترة ما بين العامين فتح خيبر.

وكان دخولهم آمنين من العدو، غير خائفين أثناء استقرارهم في مكة لأداء العمرة.

والتحليق والتقصير جميعاً للرجال، وكلاهما جائز، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: رحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال ﷺ: رحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

والله تعالى تأكيداً لتصديق رؤيا رسوله ﷺ، أبان أنه صدَّق الرسول ﷺ في كل شيء، فأرسله رسول الهدى، ورسول الدين الحق: دين الإسلام، ليعليه على كل الأديان، وكفى بالله شاهد عدل وحق لنبيه ﷺ على صحة نبوته بالمعجزات، وعلى أنه رسول من عند الله، وعلى إظهار دينه على جميع الأديان.

أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان (شَطَأه).

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ :

وقرأ ابن ذكوان (فأزَرَه).

﴿سُوقِهِۦ﴾ :

وقرأ قنبل (سؤقه، سؤوقه).

الإعراب:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾: خبر المبتدأ، أو عطف بيان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ مبتدأ أيضاً وخبر، و﴿رُحَمَآءُ﴾ خبر ثان، وما بعده أخبار عن الذين مع النبي ﷺ، ويجوز أن يكون ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ وصف محمد، و﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على ﴿مُّحَمَّدٌ﴾. و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبر عن الجميع، و﴿رُحَمَآءُ﴾ خبر ثان عنهم، والنبي داخل في جميع ما أخبر به عنهم.

و ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ منصوبان على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لأنه من رؤية البصر، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ جملة فعلية إما في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر، أو في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ وتقديره: تراهم ركعاً سجداً مبتغين فضلاً.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ مبتدأ، وخبره: إما ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أو ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

و ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ إما معطوف على (مثل) الأول ويكون ﴿كَزَرْعٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم كزرع، أو هما مبتدأ وخبر كالجملة السابقة، فيكون لهم على هذا الوجه مثلان وُصِفوا بهما، أحدهما: في التوراة والآخر: في الإنجيل، وعلى الوجه الأول لهم مثلان كلاهما في التوراة والإنجيل.

البلاغة:

﴿أَشِدَّآءُ﴾ و﴿رُحَمَآءُ﴾ بينهما طباق.

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه فيه منتزع من متعدد.

ويلاحظ مراعاة الفواصل في كل آيات السورة على وتيرة واحدة من قوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ ﴿مُّسۡتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًۢا﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أصحابه المؤمنون ﴿أَشِدَّآءُ﴾ غلاظ قساة جمع شديد ﴿رُحَمَآءُ﴾ متعاطفون متوادّون في قلوبهم رحمة. كالوالد مع الولد، جمع رحيم، والمعنى: أنهم يغلظون في القتال على أعدائهم، ويتراحمون فيما بينهم، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] .

﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ تبصرهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ﴾ يطلبون الثواب والرضى ﴿سِيمَاهُمۡ﴾ علامتهم، والمراد: السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، أو هي نور وبياض يعرفون به بالآخرة أنهم سجدوا في الدنيا ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ كائنة منه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف المذكور ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ صفتهم العجيبة الجارية مجرى الأمثال في الغرابة ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾ فراخه أو فروعه التي تنبت حول الأصل ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أعانه وقوّاه، من المؤازرة: المعاونة ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فغلظ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ قوي واشتد واستقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أصوله وقضبانه، جمع ساق ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ لحسنه جمع زارع، مثّل الصحابة رضي الله عنهم بذلك، لأنهم بدؤوا في قلة وضعف، فكثروا وقووا، فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ متعلق بمحذوف، دل عليه ما قبله، أي شبهوا

بذلك، فهو علة لتشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ لما سمع الكفار بهذا غاظهم ذلك، وقوله ﴿مِنْهُم﴾ لبيان الجنس أي الصحابة، لا للتبعيض؛ لأنهم كلهم بالصفة المذكورة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ الجنة. والمغفرة والأجر هما أيضاً لمن بعدهم من المؤمنين والمؤمنات.

المناسبة:

بعد بيان كون النبي ﷺ مرسلاً بالهدى ودين الحق، بيّن حال الرسول والمرسل إليهم، فأكد الشهادة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب والرضى من الله، والتميز بالنور والضياء في الدنيا والآخرة، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة.

التفسير والبيان:

- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي إن محمداً رسول من عند الله حقاً بلا شك ولا ريب.

- ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن صحابته يمتازون بالشدة والغلظة والصلابة على من جحد بالله وعاداهم، وبالرقة والرحمة على بعضهم بعضاً، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] . وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٣] .

وكما جاء في الحديث الصحيح عند أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ

الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى» وفي حديث الشيخين والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضُه بعضاً».

وقال الحسن البصري: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، فكيف بأبدانهم؟ وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه،. والمصافحة جائزة بالإتفاق. وأما المعانقة والتقبيل فقد كرههما أبو حنيفة رضي الله عنه، وإن كان التقبيل على اليد، ومن حق المؤمنين: أن يراعوا هذه السنة أبداً، فيتشدّدوا على مخالفيهم، ويرحموا أهل دينهم.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي تشاهدهم يكثرون الصلاة بإخلاص، فتبصرهم غالباً راكعين ساجدين، يلتمسون ويطلبون الثواب والرضا، ويحتسبون عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة، ورضا الله تعالى عنهم، والرضا أكبر من الجنة: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢].

- ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامتهم المميزة لهم وجود النور والبهاء والوقار في الوجه والسمت الحسن والخشوع، قال السُّدِّي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل، حَسُن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلَتات لسانه.

والمراد أن أثر العبادة والصلاح والإخلاص مع الله تعالى يظهر على وجه المؤمن، لذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء، ليس لها باب ولا كَوَّة، لخرج عمله للناس، كائناً ما كان ».

وروى أحمد أيضاً وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الهدي الصالح، والسَّمْت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة».

- ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي ذلك الوصف المذكور للصحابة هو وصفهم الذي وصفوا به في التوراة ووصفوا به في الإنجيل، وهم كانوا ضعافاً قليلي العدد، فازدادوا وكثروا وتقووا، مثل الزرع الذي أخرج فروخه وفروعه على جوانبه، فاشتد وقوي وأعانه وشدّه، أي إن الزرع قوّى الشطء؛ لأنه تغذى منه واحتمى به، وتحول من الدقة إلى الغلظ، واستقام على أعواده، يعجب هذا الزرع الزرّاع لقوّته وحسن منظره، كما هو معروف.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للصحابة، كانوا في الابتداء قلّة، ثم زادوا وكثروا وتقووا، كالزرع تكون فراخه في الابتداء ضعيفة، ثم تتقوى تدريجياً حتى يغلظ ساقه.

وقد كثّر الله الصحابة وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين.

وهكذا يكون إيمان المسلم إذا دخل في الإسلام ضعيفاً، ثم يتقوى بصحبته وملازمته لأهل العلم والإيمان حتى يستوي ويكون مثلهم، وربما أقوى منهم.

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي وعد الله تعالى الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، وعملوا صالح الأعمال أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم وثوابهم، ويدخلهم الجنة، ووعد الله حق وصدق وكائن لا محالة، ولن يخلف الله وعده.

وهذا يشمل الصحابة وكل من اقتفى أثرهم، وسار على منهجهم من أفواج الإيمان وجند الإسلام، وتلاحق الأجيال. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أثبتت الآية صفتي النبوة والرسالة لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. ووصفت أصحابه بثماني صفات هي:

١ً - ٢ً: الشدة والصلابة والعنف على الأعداء الكفار، والرحمة والرأفة والرفق والبر بالمؤمنين، فهم أسود غضاب عبوسون في وجه الكفار الذين يعادونهم، ضحوكون بشوشون في وجوه إخوتهم المؤمنين.

٣ً-٤ً: يمتازون بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، مع وصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، واحتساب جزيل الثواب وهو الجنة عند الله تعالى المشتملة على فضل الله وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، فهم يطلبون بعملهم المخلص الجنة ورضا الله تعالى.

٥ً - علامتهم المميزة لهم النور والضياء في الدنيا والآخرة، والسمت الحسن، والخشوع والتواضع لله تعالى.

٦ً - تلك الأوصاف وصفوا بها في كل من التوراة والإنجيل والقران.

٧ - كثرة الخير والبركة والنماء فيهم، فإنهم كانوا قلة ضعافاً، ثم صاروا كثرة أشداء أقوياء، كمثل الزرع الذي ينبت من حوله الفراخ، ثم تَقْوى وتشتدّ وتكبُر. ولقد فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

٨ - وعدهم الله تعالى جميعاً وأمثالهم المتبعين لهم بإحسان وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة بمغفرة الذنوب والثواب الذي لا ينقطع وهو الجنة. وقد وردت آيات أخرى وأحاديث كثيرة في فضل الصحابة، والنهي عن التعرض لهم بالإساءة، والصحابة كلهم عدول، وهم أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. وفيما سبق ذكرت بعض الأحاديث، ومن قرأ الآية السابقة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [١٨] والآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣] وآيات سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [٨-٩] من قرأ ذلك عرف مدى ثناء الله عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح. وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي عن ابن مسعود: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم».

وقد استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ على تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم، فهو كافر لهذه الآية، قال ابن كثير: ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك. والظاهر أنهم فسّاق.

قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والاقتتال الذي حدث بينهم: «تلك دماء قد طهّر الله منها أيدينا، فلا نلوّث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات

مدنية، وهي ثماني عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿الْحُجُرَاتِ﴾ لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أجلاف العرب الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات وهي حجرات (بيوت) نسائه المؤمنات الطاهرات رضي الله عنهن، وكانت تسعاً، لكل واحدة منهن حجرة، منعاً من إيذاء النبي ﷺ وتوفيراً لحرمة بيوت أزواجه.

وتسمى أيضاً سورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى آداب المجتمع الإسلامي وكيفية تنظيمه، وأشادت بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ونودي فيها بوصف الإيمان خمس مرات، وأصول تلك الآداب خمسة وهي:

طاعة الله والرسول ﷺ، وتعظيم شأن الرسول ﷺ، والتثبت من الأخبار المنقولة، وتحريم السخرية بالناس، وتحريم التجسس والغيبة وسوء الظن.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الفتح من نواح ثلاث، هي:

أ - في السورة المتقدمة حكم قتال الكفار، وفي هذه حكم قتال البغاة (أهل الثورة الداخلية).

٢ً - ختمت السابقة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وافتتحت هذه بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تذكيراً لهم بحرمتهم عند الله عندما وصفهم بكونهم أشداء رحماء، مما يقتضي محافظتهم على هذه الدرجة بطاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

٣ً - في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول الله ﷺ، خصوصاً في مطلع كل منهما، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول ﷺ من صلح الحديبية، وألا يتركوا شيئاً من احترامه قولاً وفعلاً.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسابقتها أحكام شرعية لكونهما مدنيتين، وهي أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي على أساس متين من التربية القوية، والأخلاق الرصينة، حتى إنها سميت (سورة الأخلاق) فهي في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وآدابها نوعان: خاص وعام.

أما الآداب الخاصة: فهي ماله علاقة بين النبي ﷺ وأمته. وقد ابتدأت السورة بها، فأوجبت طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وحذرت من المخالفة. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ ثم أمرت بخفض الصوت أثناء خطاب النبي ﷺ إجلالاً له وهيبة منه وتعظيماً لقدره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ ثم طالبت المؤمنين بخطاب الرسول ﷺ بصفة النبوة والرسالة، لا باسمه وكنيته تعظيماً واحتراماً له، وجعلت خفض الصوت عند رسول الله ﷺ من التقوى، وذمَّت من يناديه من وراء حُجُرات نسائه كعُيينة بن حِصْن وأشباهه، وذكرت السورة في آخرها ذمّ الامتنان على الله تعالى ورسوله ﷺ بالإيمان: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾.

ثم تحدثت عن الآداب الاجتماعيه العامة: وهي المتصلة بعلاقات الناس بعضهم مع بعض، مما فيه تقرير فضيلة وذم رذيلة، لإقامة دعائم المجتمع الفاضل.

فأمرت المؤمنين بالتثبُّت من الأخبار وعدم الإصغاء للإشاعات التي يروِّجها الفسّاق ويتناقلونها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ وأشادت بمقتضى الإيمان، وكرّهت الكفر والفسوق والعصيان.

ثم أبانت طريق فض المنازعات الداخلية بين فئتين متقاتلتين من المؤمنين وهو الإصلاح، وقتال الفئة الباغية (البغاة) حتى تعود لصف الجماعة والوحدة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وأعلنت قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها، وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، سواء بين الرجال أو النساء، أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس (تتبع العورات) والغيبة والنميمة.

ثم أعلنت مبدأ الإخاء الإنساني، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان والعناصر، فلا عداوة ولا طبقية ولا عنصرية، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

وختمت السورة بالكلام عن الأعراب، فميَّزت بين الإيمان والإسلام، وذكرت غرر صفات المؤمنين وشروط المؤمن الكامل (الإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله) وعابت المنَّ على الرسول ﷺ بالإسلام، ووضعت ضابط احترام القيم الدينية والأخلاقية، وهو رقابة الله جل جلاله لعباده، وعلمه بغيب السماوات والأرض وأهلهما، وبصره بجميع أعمال الخَلْق.

طاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتأدب في خطاب النبي ﷺ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِىِّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

الإعراب:

﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ الكاف: في موضع نصب؛ لأنها صفة مصدر محذوف، تقديره: جهراً كجهر بعضكم. و﴿أَن تَحْبَطَ﴾: في موضع نصب: بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: لأن تحبط، ويجوز أن يكون في موضع جر، بإعمال حرف الجر مع الحذف.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: إما خبر ﴿إِنَّ﴾، أو مبتدأ وخبره ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والجملة منهما خبر ﴿إِنَّ﴾ ويجوز أن يكون ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ صفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ويكون ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: إما مرفوع بالظرف، أو مبتدأ والظرف خبر مقدم عليه، وهذا أوجه.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، و﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: خبره، والجملة منهما خبر ﴿إِنَّ﴾

البلاغة:

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ استعارة تمثيلية، شبّه حال الذين يبدون آراءهم أمام النبي ﷺ بحال من تقدم للسير أمام ملك أو حاكم عظيم، وكان عليه أدباً أن يسير خلفه.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل، لوجود أداة التشبيه.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تقدِّموا أمراً أو حكماً أو رأياً دونهما، أو لاتتقدموا، مأخوذ من مقدِّمة الجيش: من تقدم منهم، والمراد: لا تقولوا بخلاف القرآن والسنة، والمراد بـ ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أمامهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه واحذروا مخالفة أمره ونهيه في التقديم أو مخالفة الحكم وغيرهما ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتموه، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي إذا ناجيتموه، فلا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، أو لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً إجلالاً له، وخاطبوه بـ (ياأيها النبي) أو (يا رسول الله) . وتكرير النداء بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لمزيد الاستبصار وضبط النفس، وزيادة الاهتمام به والتعظيم له ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لئلا[1] أو كراهة وخشية أن تحبط، أي يبطل ثواب أعمالكم؛

(١) قال الزجاج: التقدير: لأن تحبط، فاللام المقدّرة لام الصيرورة.

لأن في رفع الصوت والجهراستخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحْبِط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفضونها ويُلينونها ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة مخالفة النهي ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ اختبرها، والمراد: طهرها ونقّاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي مرَّنها على التقوى، وأعدها لها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب عظيم لغضهم الصوت وسائر طاعاتهم، وتنكير ﴿وَأَجْرٌ﴾ للتعظيم.

﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ﴾ أي من خلف وخارج غرف نسائه ﷺ، جمع حُجْرة: وهي قطعة من الأرض تحجّر بحائط ونحوه مثل الغرفات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة أمام منصب النبي ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب، التاركين تعظيم الرسول ﷺ.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ : أخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن أبي مُليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أُمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أُمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، وقال عمر: ما أردتُ

خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ أي إن الآيات نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في تأمير القعقاع بن معبد أو الأقرع بن حابس.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري: أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ: ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت. وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة: أن أناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

نزول الآية (٢):

﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾: أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية.

وروي أن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس كان في أذنه وَقْر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلّم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ، فيتأذّى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزول الآية (٣):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾: أخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمرّ به عاصم بن عدي بن العجلان، فقال: ما يبكيك؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ، وأنا صيِّت رفيع

الصوت، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا به، فقال: أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ قال: رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ الآية. والقصة مروية أيضاً في الصحيحين عن أنس بن مالك.

وقال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ تألّى أبو بكر ألا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السِّرَار[1]، فأنزل الله تعالى في أبي بكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾

نزول الآية (٤):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾: أخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرْقَم قال: جاء ناس من العرب إلى حُجَر النبي ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شَيْن، فقال النبي ﷺ: ذاك هو الله، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ الآية. وهو خبر مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء وغيره عند الترمذي، بدون نزول الآية، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال « ذلكم الله ».

وقال محمد بن إسحاق وغيره: نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على

---

(١) السرار: المسارّة، أي كصاحب السرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، والكاف صفة لمصدر محذوف.

النبي ﷺ، فدخلوا المسجد، فنادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين، فآذى ذلك من صياحهم النبي ﷺ، فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. وكان فيهم الأقرع ابن حابس، وعُيينَة بن حصن، والزِّبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم.

التفسير والبيان:

هذه باقة من الآداب الخاصة في معاملة النبي ﷺ من قبل المؤمنين على أساس من التوقير والاحترام والتعظيم:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ أي يا أيها المؤمنون إيماناً صحيحاً، لا تتقدموا ولا تتعجلوا بقول أو حكم أو قضاء في أمرٍ ما أو فعل قبل قضاء الله تعالى ورسوله ﷺ لكم فيه، فربما تقضون بغير حق، واتقوا الله في كل أموركم، وراقبوه في عدم تخطي مالم يأذن به الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم ونياتكم، لايخفى عليه شيء منكم.

وهذا نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وذكْر الرسول؛ لأنه مبلِّغ عن الله تعالى شرعه ودينه. قال ابن عباس في الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله تعالى ورسوله ﷺ من شرائع دينكم.

والآية شاملة أيضاً ترتيب مصادر الاجتهاد، أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بِمَ تحكُم؟ قال: بكتاب الله تعالى، قال فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسول الله لما يرضي رسول الله» .

وهذا يعني أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه لكان تقديماً بين يدي الله ورسوله. والخلاصة: هذا أدب شامل القول والفعل والاجتهاد.

ثم ذكر الله تعالى أدباً في القول فقال:

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله إذا تكلمتم مع الرسول ﷺ فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته؛ لأن رفع الصوت يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، وخفض الصوت وعدم رفعه من التعظيم والتوقير، وهذا أدب ثان أدَّب الله تعالى به المؤمنين، وهو أدب محمود مع كل الناس أيضاً.

٣- ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي إذا كلمتموه فخاطبوه بالسكينة والوقار، خلافاً لما تعتادونه من الجهر بالقول الدائر بينكم، ولا تقولوا: يا محمد ويا أحمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيراً له، وتقديراً لمهمته ورسالته التي يبلغكم بها في سكون وهدوء وعدم انزعاج وتبرم نفسي. وهذا أدب ثالث.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي نهاكم الله عن الجهر غير المعتاد وعن رفع الصوت خشية أن يذهب ثواب أعمالكم، أو أن يؤدي الاستخفاف به إلى الكفر، من حيث لا تشعرون بذلك، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مالك وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن بلال بن الحارث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يُلْقي لها بالاً، يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلْقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

وبعد أن حذر من خطر المخالفة، رغّب الله تعالى في خفض الصوت وحث عليه قائلاً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في أثناء كلام رسول الله ﷺ وفي مجالسه، أخلص الله قلوبهم للتقوى، ومحّصها، وجعلها أهلاً ومحلاً، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه، ويسقط خبيثه، فكذلك هؤلاء المتأدبون عند رسول الله ﷺ، طهر الله قلوبهم من كل قبيح، ولهم مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم على تأدبهم بخفض الصوت وسائر الطاعات. ونحو الآية: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٤٨/٩] .

روى الإمام أحمد عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله ﷺ من خلف أو قدام الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، فقال تعالى مرشداً لهم إلى ما هو الخير والأفضل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي إن الذين ينادونك من بعيد، من وراء حجرات (بيوت) نسائك، وهم جفاة بني تميم أكثرهم جهال لا يعقلون الأصول والآداب والأشياء، ولا يدركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ إما أن يراد به الكل؛ لأن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام، أو يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ أي وليتهم لو صبروا حتى تخرج إليهم كالمعتاد، لكان لهم في ذلك الخير

والمصلحة في الدنيا والآخرة، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام والإجلال، والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب. وهذا حث على التوبة والإنابة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما.

٢ً - تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، إذ كان في العرب جَفاءٌ وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس.

٣ً - قال القرطبي وابن العربي: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به. وربما احتج نفاة القياس بهذه الآية، وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالته، فليس في فعله تقديم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشريعة، فليس فيه تقديم بين يديه[١].

٤ً - الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية، ومنها التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ المنهي عنه، والله يراقب الناس، فهو سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم.

٥ً - يجب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ والامتناع من الجهر بالأصوات أعلى من صوته، وإلا لم يتحقق من المؤمنين الاحترام الواجب

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٣٠٢ وما بعدها، أحكام القرآن: ٤/ ١٧٠١ وما بعدها.

للنبي ﷺ. وليس المراد النهي عن الجهر مطلقاً بحيث يلزم الهمس، وإنما النهي عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب عنها.

٦ً - ويجب أيضاً على المؤمنين ألا يخاطبوا النبي ﷺ بقولهم: يا محمد، ويا أحمد، ولكن: يا نبي الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له.

والهدف من هذين الواجبين تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته.

٧ً - قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحُرْمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لَفْظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كلّ حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يُعْرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبَّه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٤] وكلام النبي ﷺ من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه[1].

٨ً - إن النهي المذكور عن رفع الصوت هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ويوقّر الكبراء. أما الصوت المرفوع الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة، فلا شك أنه كفر. وأما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو ونحو ذلك، فليس منهياً عنه؛ لأنه لمصلحة، ففي الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنَين: «اصرخ بالناس» وكان العباس أجهر الناس صوتاً؛ يروى أن غارة أتتهم يوماً، فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٧٠٣.

٩ً - إن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة المعتادة يؤدي إلى إحباط الأعمال وإبطال الثواب. وليس قوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم؛ فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم. ويكون قوله ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المآثم يجر الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء به.

١٠ً - إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له، أولئك الذين اختص الله قلوبهم للتقوى، وطهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى، ولهم مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم وهو الجنة.

١١ً- إن أعراب بني تميم الذين وفدوا على النبي ﷺ، فدخلوا مسجد المدينة، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وذمَّنا شين، هم قوم جهلة ذوو طباع جافة قاسية، وكانوا سبعين رجلاً، وكان المنادي منهم الأقرع بن حابس، في رواية الترمذي عن البراء بن عازب، وكان النبي ﷺ نام للقائلة، جاؤوا شفعاء في أسارى بني عنبر، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف ولوصبروا لأعتق جميعهم بغير فداء.

وقال مقاتل: كانوا تسعة عشر: منهم قيس بن عاصم، والزِّبْرِقان بن بَدْر، والأقرع بن حابس، وسُويد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقَعْقَاع بن مَعْبد، ووكيع بن وكيع، وعُيَيْنة بن حِصْن، وهو الأحمق المطاع.

١٢ً - لو انتظروا خروجه ﷺ، لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه؛ فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

١٣ً - قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ حث على التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

الآداب العامة

- ١ -

وجوب التثبت من الأخبار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

القراءات:

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (فَتَثَبَّتُوا).

الإعراب:

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾: في تقديره وجهان: إما كراهية أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا. و﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: حال من فاعل تبينوا، أي جاهلين.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أن وما بعدها سادّ مسدّ مفعولي ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إما مفعول لأجله، أو مصدر مؤكد لما قبله.

البلاغة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ التفات عن الخطاب للغيبة بعد قوله: ﴿حَبَّبَ

﴿إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾. بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ ما يسمى بالمقابلة.

المفردات اللغوية

﴿فَاسِقٌ﴾ خارج عن حدود الدين أو الشرع، مأخوذ من قولهم: فسق الرطب: إذا خرج من قشره، والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه ﴿بِنَبَإٍ﴾ خبر ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي اطلبوا بيان الحقيقة ومعرفة الصدق من الكذب، وقرئ: (فتثبتوا) من الثبات ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا﴾ أي خشية ذلك أو كراهة إصابتكم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ تصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من الخطأ بالقوم ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي فلا تقولوا الباطل، فإن الله يخبره بالحال ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي تخبرون به على خلاف الواقع ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم في العنت وهو الجهد والهلاك والإثم ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ استدراك ببيان عذرهم، وهو أنهم من فرط حبهم للإيمان وكراهتهم الكفر، حملهم على ذلك لما سمعوا قول الفاسق ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ حسَّنه ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ تغطية نعم الله بجحودها ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الحد ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ المخالفة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ البعض المتبينون ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الثابتون على دينهم، وهذه جملة معترضة، والخطاب لرسول الله ﷺ، مأخوذ من الرشاد: وهو إصابة الحق واتباع طريق الاستقامة.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ تعليل لقوله: ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ في إنعامه عليهم بالتوفيق.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾: ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد ابن عُقْبة. أخرج ابن جرير وأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن أبي الدنيا وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس: أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني الْمُصْطَلِق مُصَدِّقاً[١]، وكان بينهما إحنة[٢]، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع فقال: إن القوم همّوا بقتلي، ومنعوا صدقاتهم، فهمَّ النبي ﷺ بغزوهم، فبينما هم في ذلك إذ قَدِم وفدهم، وقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاتهمهم النبي ﷺ وقال: «لتنتهُنَّ أو لأبعثَنَّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي، يقاتل مقاتلتكم، ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كَتِف علي رضي الله عنه، فقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ﷺ.

وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد، فوجدهم منادين بالصلاة، متهجدين، فسلموا إليه الصدقات، فرجع.

ولا خلاف في أن الشخص الذي جاء بالنبأ هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط. والآية وإن وردت لسبب خاص فهي عامة لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق، قال الحسن البصري: فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة، إنها لمرسلة إلى يوم القيامة، ما نسخها شيء.

وأكد الرازي ذلك بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيئ بعيد؛ لأنه توهَّم وظنَّ فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر

---

(١) المصدِّق: الذي يأخذ صدقات (زكوات) الغنم.

(٢) الإحنة: الحقد، جمع إحن.

المواضع: المراد به من خرج عن ربقة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٦] وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٠][1].

لكن أكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله ﷺ، فصار فاسقاً بكذبه، والظاهر أنه سمي فاسقاً تنفيراً وزجراً عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت، فهو متأول ومجتهد، وليس فاسقاً على الحقيقة.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بأمرين: وهما طاعة الله تعالى والرسول ﷺ، وخفض الصوت عند الرسول ﷺ؛ لبيان وجوب احترامه، أردفه بأمر ثالث وهو وجوب التثبت من الأخبار، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال، منعاً من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم. وهذا أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ على وحدة الأمة، واستئصال أسباب المنازعات فيما بينها.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، إن أتاكم فاجر لا يبالي بالكذب بخبر فيه إضرار بأحد، فتبينوا الحقيقة، وتثبتوا من الأمر، ولا تتعجلوا بالحكم حتى تتبصروا في الأمر والخبر لتتضح الحقيقة وتظهر، خشية أن تصيبوا قوماً بالأذى، وتلحقوا بهم ضرراً لا يستحقونه، وأنتم جاهلون حالهم، فتصيروا على ما حكمتم عليهم بالخطأ نادمين على ذلك، مغتمين له، متمنين عدم وقوعه.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ١١٩.

وفي تنكير ﴿فَاسِقٌ﴾ و﴿بِنَبَإٍ﴾ دلالة على العموم في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأي نبأ، فتوقفوا وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه(١).

والآية دالة على أن خبر الواحد العدل حجة، وشهادة الفاسق لا تقبل.

ثم ذكّرهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم ليعظموه ويسألوه، فقال:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي اعلموا أن معكم رسول الله، فعظموه ووقروه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، ولا تقولا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا بالحكم على الناس من غير تبين حقيقة الخبر، ولو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار، وتشيرون عليه من الآراء غير الصائبة، لأدى ذلك إلى الوقوع في العنت، وهو التعب والإثم والهلاك، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل اتضاح الأمور، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر والتأمل فيه.

وإنما قال: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ بلفظ الاستقبال دون: أطاعكم، للدلالة على استمراره في التثبت والتحقق مما ينقل إليه من الأخبار، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي في كثير مما عنَّ لهم من الآراء والأهواء، فلو أرادوا منه الاستمرار في طاعته لهم، لوقعوا في الإثم والهلاك.

وفي قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ مراعاة لجانب المؤمنين حيث لم ينسب جميع آرائهم إلى الخطأ، وفيه أيضاً تعليم حسن وتأديب جميل في باب التخاطب، وإشارة إلى تصويب رأي بعضهم، ولهذا استدرك مشيراً إلى رأي بعضهم في ضرورة التريث إلى أن يتبين أمر بني المصطلق، فقال:

(١) الكشاف: ٣/ ١٤٩

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي ولكن الله حبَّب أي قرَّب الإيمان إلى بعضكم، وإلا لم يحسن الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ فلم يقع في ورطة التسرع في الأخبار، وعدم التثبت فيها، وكانوا أبرياء من اتهام الآخرين؛ لأن الله جعل الإيمان أحب الأشياء إليكم، وحسَّنه بتوفيقه وتثبيته في أعمال قلوبكم، وجعل كلاً من الكفر(حجود الخالق وتكذيب الرسل) والفسوق (الخروج عن حدود الدين) والعصيان (المخالفة وعدم الطاعة) مكروهاً عندكم.

وهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين استقاموا على طريق الحق، ومقتضى الشرع، وأدب الدين، فلم ينزلقوا في اتهام غيرهم دون تثبت.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ أي إن الله حبَّب إليكم الإيمان، وكرَّه إليكم الأمور الثلاثة المتقدمة تفضلاً منه عليكم، وإنعاماً من لدنه، والله عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبلة، حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ً - وجوب التثبت من الأخبار المنقولة والروايات المروية، أخذاً بالحيطة والحذر، ومنعاً من إيذاء الآخرين بخطأ فادح، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادماً على العجلة وترك التأمل والتأني. لذا كان نبي الله ﷺ يقول: «التأني من الله، والعَجَلة من الشيطان»[1].

٢ً - في هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ دليل على قبول خبر الواحد إذا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك وهو ضعيف.

كان عَدْلاً؛ لأنه إنما أمر المسلم في الآية بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه، بطل قوله في الأخبار إجماعاً؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة يبطلها، فالفسق علة التبين، فإن لم يوجد لم يكن علة، واستثنى الإجماع والدعاوى والإنكار والإقرار لغيره بحق على نفسه وإثبات حق مقصود على الغير أي أمور المعاملات، كأن يقال: أرسل فلان إليك كذا أو هذا مالي، ولو كان المخبر كافراً. أما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره: لا يكون الكافر ولياً في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون ولياً؛ لأنه يلي مالَها، فيلي تزويجها، وإذا وَلِي المال فالنكاح أولى، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أن غَيْرته موفّرة، وبها يحمي الحريم. ويرى الحنفية قبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض. والخلاصة: إن مراد الآية في الشهادات وإلزام الحقوق وإثبات أحكام الدين في غير الاعتقاد.

٣ - استدل بعضهم بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة، وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة، كما قال الألوسي. ومذهب الحنفية: أن الفاسق لا تقبل شهادته وإن كان أهلاً لها، ولو قضى بها القاضي كان عاصياً، وينفذ قضاؤه[١].

٤ - استدل الحنفية بالآية على قبول خبر الواحد المجهول الحال؛ لأن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت والتبين، فيقتصر فيه على محل وروده، ويبقى ما وراءه على الأصل، وهو القبول.

٥ - في الآية أيضاً دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم (أي اليقين) بدليل وجوب التثبت فيه؛ إذ لو كان يوجب العلم بحال، لما احتيج فيه إلى التثبت[٢].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٢٩٨

(٢) المرجع السابق: ص٣٩٩.

٦ً - قال ابن العربي: ومن العَجَب أن يجوِّز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق. ومن لا يؤتمن على حبَّة مال، كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين؟! ومن صلى خلف الفاسق تجب عليه الإعادة سراً في نفسه، ولكن لا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الأئمة[1]

٧ً - إذا كان الفاسق والياً ينفذ من أحكامه ما وافق الحق، ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال.

٨ً - لا خلاف في قبول قول الفاسق إذا كان رسولاً عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله أو إذن يعلمه، وهذا جائز للضرورة الداعية إليه. لكن لا يقبل قوله فيما إذا تعلق بقول الفاسق حق للغير.

٩ً - استدل بعضهم بالآية على أن من الصحابة من ليس بعدل؛ لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة، فإنها نزلت فيه، ولا يمكن إخراج سبب النزول من اللفظ العام، وهو صحابي بالاتفاق. وقال أكثر العلماء: الصحابة كلهم عدول.

١٠ً- الفاسق نوعان: فاسق غير متأول، وهذا لا خلاف في أنه لا يقبل خبره. وفاسق متأول كالجبرية والقدرية، ويقال له: المبتدع بدعة واضحة، وفي هذا خلاف، فمن الأصوليين كالشافعي: من ردّ شهادته وروايته معاً، ومنهم من قبلهما وهم جمهور الفقهاء والمحدثين؛ لأن رد شهادته لتهمة الكذب، والفسق اعتقاد لا يمنع الصدق، وأما الرواية فمن احترز عن الكذب على غير الرسول ﷺ، فهو على الرسول ﷺ أشد تحرزاً.

١١ً - إن قضى الفاسق بما يغلب على الظن، كالقضاء بالشاهدين العدلين، لم يكن ذلك عملاً بجهالة، وإنما العمل بجهالة: قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقوله.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١٧٠٣/٤ وما بعدها.

١٢- إن وجود الرسول ﷺ في أصحابه ركن تثبت وأناة وتأنٍ، فيمنع التسرع في إصدار الأحكام، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عُقْبة إليه، لكان خطأ، ووقع في العنت (الإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ويكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ألا تكذبوا، فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ أنباءكم، فتفتضحون.

١٣- ذكر الله الإيمان وقابله بأمور ثلاثة كرهها إليهم وهي الكفر والفسوق والعصيان، والإيمان اسم لثلاثة أشياء: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح(الأعضاء). والكفر: هو الإنكار وهو يقابل الإذعان بالجنان، والفسوق يقابل الإقرار باللسان، والعصيان يقابل العمل البدني، فهو ترك العمل بالطاعات والأحكام الشرعية ويشمل جميع المعاصي وهذا يعني أن المؤمن المتثبت لايكذب.

١٤- استدلت الأشاعرة بقوله ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ على مسألة خلق الأفعال، أي إن الله تعالى خلق أفعال العباد وذواتهم وصفاتهم وألسنتهم وألوانهم، لاشريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩٦].

وهذا رد على القَدَرية[١] والإمامية والمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه. ويؤولون آية ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ﴾ على اللطف والتوفيق.

(١) الجبرية والقدرية: فرقتان شاذتان في العقيدة خرجا عما عليه جمهور العلماء، تقول الأولى: إن الله تعالى مجبر للعبد على فعله، وليس لإرادة الإنسان واختياره دخل حقيقي فيها. وتقول الثانية: إن العبد خالق لأفعاله، دون أن يكون لله عليه سلطان فيها (الشافي شرح أصول الكافي للشيخ عبد الله المظفر: ٢/ ٢٣٦، والكافي تأليف العلامة محمد بن يعقوب الكليني الرازي).

١٥ً - إن الذين وفقهم الله، فحبَّب إليهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر، أي قبّحه عندهم هم الراشدون، والله فعل ذلك بهم فضلاً منه ونعمة من لدنه، والفضل: ما في خزائن الله من الخير، وهو مستغن عنه، والنعمة: ما يصل من الفضل إلى العبد، وهو ما يحتاج إليه.

وفي تسميتهم بالراشدين إشارة إلى أنهم أقاموا على اتباع أمر الرسول ﷺ، والتزموا إرشاده، وعرفوا مقامه ومكانه بينهم، فاستحقوا الرشد، وكانوا راشدين، وفيه تعريض بالفريق الآخر حيث ابتعدوا عما يوصلهم إلى الرشد.

١٦ً - إن الله تعالى عليم بكل شيء، يعلم من يتحرى الخير ومن لا يتحراه، ومن يريد الرسول ﷺ على ما لا تقتضي به الحكمة ومن لا يريده، وهو فوق هذا يعلم الأشياء، ويُعْلم الرسول ﷺ بها، ويأمره بما تقضي به الحكمة، فيجب الوقوف عند أمره، واجتناب الاقتراح عليه.

١٧ً - كان النبي ﷺ في دعائه يدعو دائماً بمضمون الآية [٧] أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال: لما كان يوم أُحُد، وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال ﷺ:

اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا.

اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، واجعل عليهم رِجْزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق ».

- ٢ -

وسائل فض المنازعات الداخلية
حكم البغاة

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾: مرفوع بفعل مقدر، تقديره: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، ولا يجوز أن يحذف الفعل مع كلمات الشرط العاملة إلا مع (إن) لأنها الأصل في حروف الشرط، ويثبت للأصل ما لا يثبت للفرع.

والقياس: اقتتلتا، كما قرأ ابن أبي عيلة: أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير، على تأويل الرهطين أو النفرين، وإنما قال: اقتتلوا في قراءة حفص حملاً على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، فكل طائفة جماعة، والطائفة أقل من الفِرْقة.

البلاغة:

﴿ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بينهما طباق.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، وأصله المؤمنون كالإخوة في التراحم.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتحضيض.

المفردات اللغوية:

﴿طَآئِفَتَانِ﴾ تثنية طائفة: الجماعة من الناس ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ جمع الفعل؛ لأن الطائفتين في معنى القوم أو الناس، أو لأن أقل الجمع اثنان .﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بالنصح والدعوة إلى حكم الله، وامنعوهما عن القتال بالنصيحة أو بالتهديد والتعذيب ﴿بَغَتۡ﴾ تعدت وتجاوزت الحد وجارت، من البغي: الظلم ﴿تَفِيٓءَ﴾ ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الحق ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أزيلوا آثار النزاع بضمان المتلفات بالإنصاف ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ اعدلوا في كل الأمور من الإقساط: إزالة القَسْط وهو الجور، والقاسط: الجائر، كما في آية: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: ٧٢/ ١٥] يقال: أقسط: عدل، وقسط: أخذ حق غيره، والمقسط: العادل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ العادلين، أي يحمد فعلهم بحسن الجزاء.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ في الدين والعقيدة والإيمان الموجب للحياة الأبدية، فالأخوة في الدين أقوى وأدوم من أخوة النسب والصداقة، وهو تعليل للأمر بالإصلاح، لذا كرر الإشارة إلى الإخاء مرتباً عليه الأمر بالإصلاح، فقال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ إذا تنازعا، وخص الاثنين

بالذكر؛ لأنهما أقل من يقع بينهم الشقاق، وقرئ: إخوتكم وإخوانكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ على تقواكم.

سبب النـزول:

نزول الآية (٩):

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾: أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ، فانطلَقَ إليه على حمار، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبِخَةٌ، فبال الحمار فقال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نَتْنُ حِمَارك، فقال عبد الله ابن رَوَاحة: والله، إن بول حماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فوقع بينهم حرب بالجريد والأيدي والنِّعال، فأنزل الله فيهم»: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾.

وقيل: كان النبي ﷺ متوجهاً لزيارة سعد بن عبادة في مرضه، فمر على عبد الله ابن أبي بن سلول، فقال ما قال، فرد عليه عبد الله بن رواحة، فتعصب لكلٍّ أصحابه، فتقاتلوا، فنزلت، فقرأها ﷺ، فاصطلحوا، وكان ابن رواحة خزرجياً، وابن أُبَيّ أوسياً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها، وجعلها في عُلِّية له، لا يدخل عليها أحد من أهلها، فبعثت المرأة إلى أهلها، فجاء قومها، وأنزلوها لينطلقوا بها، واستعان الرجل بقومه، فجاؤوا ليحولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا وكان بينهم معركة، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ، فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله تعالى.

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: كانت تكون الخصومة بين الحيين، فيُدعون إلى الحكم، فيأبوا أن يجيبوا، فأنزل الله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾.

وأخرج ابن جرير أيضاً عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار، كانت بينهما مدارأة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذنه عَنْوة، لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعا ليحاكمه إلى النبي ﷺ، فأبي، فلم يزل الأمر، حتى تدافعوا، وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيوف.

والخلاصة: يمكن أن تتعدد أسباب النزول، والوقائع المذكورة متشابهة.

المناسبة:

بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من نبأ الفاسق، أبان هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع، وربما الاقتتال، فطلب تعالى الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم، فإن بغت إحدى الفئتين على الأخرى، فتقاتل الباغية الظالمة. ثم علل الأمر بالصلح بوجود رباط الأخوة بين الفريقين ثم أمر الوسطاء والأطراف المتنازعة بتقوى الله وطاعة أمره.

التفسير والبيان:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ أي إذا تقاتل فريقان من المسلمين، فيجب على ولاة الأمور الإصلاح بالنصح والدعوة إلى حكم الله والإرشاد وإزالة الشبه وأسباب الخلاف.

والتعبير بإنْ للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين، وأنه إن وقع، فإنما هو نادر قليل. والخطاب في الآية لولاة الأمور، والأمر فيها للوجوب.

وقد استدل البخاري وغيره بهذا على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من الإيمان، خلافاً للمعتزلة والخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر وهو في النار.

وثبت في صحيح البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبرِ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيّد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» . فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي فإن اعتدت وتجاوزت الحد إحدى الفئتين على الأخرى، ولم تذعن لحكم الله وللنصيحة، فعلى المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى حكم الله وما أمر به من عدم البغي. والقتال يكون بالسلاح وبغيره، يفعل الوسيط ما يحقق المصلحة، وهي الفيئة، فإن تحقق المطلوب بما دون السلاح كان مسرفاً في الزيادة وإن تعين السلاح وسيلة فعل حتى الفيئة.

﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي رجعت الفئة الباغية عن بغيها، بعد القتال، ورضيت بأمر الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى، حتى لا يتجدد القتال بينهما مرة أخرى.

واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما، إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء. وهذا أمر بالعدل في كل الأمور.

أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

إن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ، بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا»(١)

وأخرج مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور، على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلُّوا» .

ثم أمر الله تعالى بالإصلاح في غير حال القتال ولو في أدنى اختلاف، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي تتميماً للإرشاد ذكر تعالى أن المؤمنين إخوة في الدين، يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، فيجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين، وزيادة في أمر العناية بالإصلاح بين الأخوين أمر الله بالتقوى، والمعنى: فأصلحوا بينهما، وليكن رائدكم في هذا الإصلاح وفي كل أموركم تقوى الله وخشيته والخوف منه، بأن تلتزموا الحق والعدل، ولا تحيفوا ولا تميلوا لأحد الأخوين، فإنهم إخوانكم، والإسلام سوّى بين الجميع، فلا تفاضل بينهم ولا فوارق، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى وهي التزام الأوامر واجتناب النواهي.

ويلاحظ انه قال: اتقوا الله عند تخاصم رجلين، ولم يقل ذلك عند إصلاح الطائفتين، لأنه في حالة تخاصم الرجلين يخشى اتساع الخصومة، وأما في حال تخاصم الطائفتين فإن أثر الفتنة أو المفسدة عام شامل الكل.

وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر تفيد أنه لا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين المؤمن والكافر؛ لأن الإسلام هو الرباط الجامع بين أتباعه، وتفيد أيضاً أن أمر الإصلاح ووجوبه إنما هو عند وجود الأخوة في الإسلام، لا بين الكفار، فإن كان الكافر ذمياً أو مستأمناً وجبت إعانته وحمايته ورفع الظلم عنه، كما تجب إعانة المسلم ونصرته مطلقاً إن كان خصمه حربياً.

---

(١) إسناده جيد قوي، ورجاله على شرط الصحيح.

وجاءت أحاديث كثيرة تؤيد أخوة الدين، جاء في الصحيح: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه» وفي الصحيح أيضاً: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وفي الصحيح كذلك: «مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كَمَثلِ الجسدِ الواحدِ، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالحُمَى والسهر» «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُه بعضاً، وشبَّك بين أصابعه ﷺ». وأخرج أحمد عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الأديان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ - يجب على ولاة الأمور وحكام الدول الإسلامية الإصلاح بين فئتين متقاتلتين مسلمتين، بالدعوة إلى كتاب الله لهما أو عليهما، وبالنصح والإرشاد والجمع والتوفيق بين وجهات النظر.

٢ - فإن تعدّت إحدى الفئتين ولم تستجب إلى حكم الله وكتابه، وتطاولت وأفسدت في الأرض، فيجب قتالها باستعمال الأخف فالأخف حتى الفيئة إلى أمر الله، أي الرجوع إلى كتابه، فإن رجعت وجب حمل الفئتين على الإنصاف والعدل، فإن الله يحب العادلين المحقين، ويجازيهم أحسن الجزاء.

والفئة الباغية في اصطلاح الفقهاء: فرقة خالفت الإمام بتأويل سائغ في الظاهر، باطل بطلاناً مطلقاً بحسب الظن لا القطع. أما المرتد فتأويله باطل قطعاً، فليس باغياً، وكذا الخوارج في الاعتقاد دون قتال المسلمين وهم صنف من المبتدعة يكفّرون من أتى بمعصية كبيرة، ويسبّون بعض الأئمة، ليسوا بغاة، وكذلك مانع حق الشرع لله أو للعباد ليس باغياً؛ لأنه لا تأويل له.

ولابد أن يكون للبغاة شوكة وعَدد وعُدد يحتاج الإمام في دفعهم إلى كلفة ببذل مال أو إعداد رجال، فإن كانوا أفراداً يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغي.

وأكثر العلماء على أن البغاة ليسوا بفسقة ولا كفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾. وقال علي رضي الله عنه: إخواننا بغوا علينا، ولكنهم يخطئون فيما يفعلون، ويذهبون إليه من التأويل، مثل الخوارج الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه، ومثل معاوية وأتباعه كانوا بغاة للحديث المشهور أن عماراً تقتله الفئة الباغية، ومثل مانعي الزكاة في عهد أبي بكر.

٣ً - في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن المؤمن بارتكاب المعصية الكبيرة كالقتل وعقوق الوالدين وأكل الربا وأكل مال اليتيم لايخرج عن كونه مؤمناً؛ لأن الباغي جعل من إحدى الطائفتين، وسماهما تعالى مؤمنين.

٤ً - إن قتال الفئة الباغية لدفع الصائل. وفصل العلماء الحكم في البغاة فقالوا: إن اقتتلت فئتان على البغي منهما جميعاً، أصلح بينهما، فإن لم يصطلحا وأقامتا على البغي، قوتلتا.

وإن كانت إحداهما باغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن ترضى بالصلح، فإن تم الصلح بينهما وبين المبغي عليها، وجب عقده بالقسط والعدل. فإن أثيرت شبهة أزيلت بالحجة النيّرة والبرهان القاطع الدال على الحق. وفي الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم مالم يقاتلوا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ﴾[1].

٥ً - في الآية دليل واضح على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٣١٧، أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٤٠١

الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى إبطال قول من منع من قتال المؤمنين، محتجاً بحديث أخرجه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن مسعود: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر ». ونص الآية صريح في الرد على هذا.

٦ً - قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «تقتل عمَّاراً الفئة الباغية»[1] أي عماربن ياسر.

٧ً - لا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

٨ً - الأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذا الأمر؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، ومحمد بن مسلمة وغيرهم، وصوّب ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه عملهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

٩ً - قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ يدل على أن من العدل في صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال؛ فإنه تَلَفٌ على تأويل، وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستمرار في البغي.

١٠ً - ما يبدأ به البغاة: إذا خرجت على الإمام العدل فئة خارجة باغية ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، وهو الحق الذي دعا الله إليه قبل القتال، فإن أبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٧٠٥.

مُدْبرهم، ولا يُذَفَّف[١] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم[٢] ولا أموالهم. وإذا قتل العادلُ الباغيَ أو الباغي العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا، ولا يرث قاتل عمداً على حال. وأما الذين لهم تأويل بلا شوكة فيلزمهم ضمان ما أتلفوا من نفس ومال كقطاع الطرق إذا قاتلوا.

١١ً- ما استهلكه البغاة: إن ما استهلك أثناء تجمع البغاة والخوارج للقتال والتفرق عند انتهاء الحرب من دم أو مال، لا ضمان فيه بالإجماع.

١٢ً - أموال البغاة وأسراهم وجرحاهم: اختلف الفقهاء في أموال البغاة التي أخذت منهم أثناء قتالهم، فقال محمد بن الحسن: لا تكون أموالهم غنيمة، وإنما يستعان بسلاحهم وكُرَاعهم (خيولهم) على حربهم، فإذا انتهت الحرب رد المال إليهم.

وروي عن أبي يوسف أن ما وجد في أيدي أهل البغي من كُراع وسلاح، فهو فيءٌ يقسم ويخمس، وإذا تابوا لم يؤخذوا بدم ولا مال استهلكوه.

وقال مالك والأوزاعي والشافعي: ما استهلكه الخوارج من دم أو مال، ثم تابوا لم يؤخذوا به، وما كان قائماً بعينه ردّ إليهم.

وقال أبو حنيفة: يضمنون.

وأما أسراهم وجرحاهم فلا يقتلون.

والقول الأصح: ما فعله الصحابة في حروبهم، لم يتبعوا مُدْبراً، ولا ذفَّفوا على جريح، ولا قتلوا أسيراً، ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً، وهم القدوة في ذلك، قال ابن عمر قال النبي ﷺ: «يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن

(١) تذفيف الجريح: الإجهاز عليه.

(٢) الذراري: النساء والأطفال.

بَغَى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيئها» وأخرج الحاكم مثل ذلك عن ابن مسعود، وروي مثله عن ابن عباس.

أما ما كان قائماً رد بعينه.

١٣ً - أقضية البغاة وأحكامهم: لو تغلب البغاة على بلد، فأخذوا الصدقات، وأقاموا الحدود، وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنَّ عليهم الصدقات ولاالحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة.

وأما أقضيتهم في الخصومات؛ فقال أبو يوسف ومحمد: لا ينبغي لقاضي الجماعة أن يجيز كتاب قاضي أهل البغي ولا شهادته ولا حكمه، إلا أن يوافق رأيه، فيستأنف القضاء فيه[1].

١٤ً - لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوا وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد أمرنا بالكف عما شَجَر بينهم، وألا نذكرهم إلا بخير؛ لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سَبِّهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم. وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٤]. وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال: « تلك دماء قد طَهَّر الله منها يدي، فلا أُخضِّب بها لساني » أي تحرزاً من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه. وقال ابن فورَك: إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات، كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٤٠٣

١٥ً- إنما المؤمنون إخوة في الدين والحُرْمَة، لا في النسب، ذكر القرطبي: أخوّة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب(١). جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا(٢)، وكونوا عباد الله إخواناً».

وقد سبق إيراد أحاديث كثيرة في تآخي المسلمين، فالمسلمون إخوة، وكأن الإسلام أب لهم، ينتمون إليه كما ينتمي الإخوة إلى أبيهم:

أبي الإسـلامُ لا أب لي سـواه إذا افتخروا بقَيْس أو تميم

١٦ً - في آية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ والتي قبلها دليل كما تقدم على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين، مع كونهم باغين، قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وهو القدوة- عن قتال أهل البغي من أهل الجَمَل وصِفِّين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرُّوا، فقيل: أمنافقون؟ قال: لا؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

وفي هذه الآية دليل على جواز إطلاق الإخوة بين المؤمنين من جهة الدين. وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ دليل على أن من رجا صلاح ما بين متعاديين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما(٣).

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٣٢٢

(٢) التحسس: الاستماع لحديث القوم، والتجسس: تتبع العورات والمعايب، والتناجش: أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها.

(٣) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٤٠٤

- ٣ -

آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

القراءات:

﴿بِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (بيس).

﴿مَيْتًا﴾ :

وقرأ نافع (مَيِّتاً).

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ :

وقرأ البزي (لِتَّعارفوا).

الإعراب:

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ ﴿الْفُسُوقُ﴾ : بدل من ﴿الِاسْمُ﴾ ؛ لإفادته أنه فسق.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أصله: تتجسسوا، فحذف منه إحدى التاءين.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أصله لتتعارفوا، حذف منه إحدى التاءين.

البلاغة:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تشبيه تمثيلي، مثّل المغتاب بمن يأكل لحم الإنسان الميت، وفيه تقبيح التشبيه بأقبح الصور.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَسْخَرْ﴾ لا يهزأ ولا يحتقر ولا يعيب، والسُّخرية والسِخْرى: الازدراء والاحتقار، ويقال: سخر به وسخر منه. وقد تكون السخرية: بمحاكاة القول أو الفعل أو الإشارة. ﴿قَوْمٌ﴾ هم الرجال دون النساء، فالقوم مختص بالرجال؛ لأنهم قوّامون على النساء. ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولا تعيبوا فتعابوا، واللمز: الطعن والتنبيه إلى المعايب بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا تتداعوا بالمكروه من الألقاب، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً، ومنه: يا فاسق، ويا كافر. ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي ساء الاسم والصيت، وهو المذكور من السخرية واللمز والتنابز، بأن يُذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمراد تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين، مأخوذ من قولهم: طار اسمه في الآفاق أي ذكره وشهرته. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من ذلك المنهي عنه. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهم لا غيرهم ظلمة، بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿اجْتَنِبُوا﴾ تباعدوا وكونوا بمنأى عنه أو على جانب منه. ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ﴿الظَّنِّ﴾ حد وسط بين العلم (اليقين) والشك أو الوهم، وهو ما يطرأ للنفس

بسبب شبهة أو أمارة قوية أو ضعيفة. وإبهام الكثير ليحتاط في كل ظن ويتأمل من أي نوع، فبعض الظن واجب الاتباع كالاجتهاد في الأحكام العملية وحسن الظن بالله، وبعضه حرام كالظن في الإلهيات والنبوات، أو عند مصادمة الدليل القاطع، وظن السوء بالمؤمنين، وبعضه مباح كالظن في الأمور المعاشية.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي ذنب مؤثم موجب العقوبة عليه، وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين، وهو تعليل مستأنف للأمر بالاجتناب. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ التجسس: البحث عن العورات والمعايب وكشف ما ستره الناس .﴿وَلَا يَغْتَب﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، وإن كان العيب فيه .﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ أي لا يحسن به، وهو تمثيل لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفحش وجه، مع مبالغات الاستفهام المقرِّر، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعل المأكول أخاً وميتاً، وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي فاغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته، وقد عرض عليكم أكل لحوم البشر فكرهتموه، فاكرهوا الغيبة التي هي مثل الأكل المذكور .﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عقاب الله في الاغتياب، بأن تتوبوا منه .﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ قابل توبة التائبين بكثرة، رحيم بهم، فيجعل صاحب التوبة كمن لم يذنب.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام، أو من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب ما دام أصلهم واحداً ﴿شُعُوبًا﴾ جمع شَعْب: وهم الجماعة من الناس التي لها وطن خاص، أو من أصل واحد كربيعة ومضر، وهو يجمع القبائل وأعم منها .﴿وَقَبَآئِلَ﴾ جمع قبيلة: وهي ما دون الشعب. وطبقات النسل عند العرب سبع: الشعب، ثم القبيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة، مثاله: خزيمة:

شعب، وكنانة: قبيلة، وقريش: عِمارة، وقصي: بطن، وعبد مناف: فخذ، وهاشم: فصيلة، والعباس: عشيرة.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل، فلا تتفاخروا بعلو النسب، وإنما الفخر بالتقوى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ بالتقوى تكمل النفوس وتتفاضل الأشخاص، والتقوى: التزام المأمورات واجتناب المنهيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بكم وبكل شيء، خبير ببواطنكم وأسراركم كجهركم.

سبب النـزول:

نزول الآية (١١):

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ﴾: قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في بيان سبب نزول الآية الأولى من هذه السورة، استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمَّار وخَبَّاب وابن فُهَيْرة وبِلال وصُهْيَب وسلمان وسالم مَوْلى أبي حذيفة وغيرهم؛ لِمَا رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير. وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة. وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس عيَّره رجل بأم كانت له في الجاهلية، فنكس الرجل استحياء، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: نزلت في عِكرمة بن أبي جَهْل حين قدِم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت.

والخلاصة: لا مانع من تعدد وقائع النزول، فقد يكون كل ما ذكر سبباً لنزول الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

نزول الآية (١١) أيضاً:

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ : قال ابن عباس: إن صفيّة بنت حُيَيّ بن أخْطب أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يارسول الله، إن النساء يُعَيِّرنني، ويقلُنَ لي: يا يهودية بنت يهوديّين! فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلتِ: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد» فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: نزلت في نساء النبي ﷺ عيّرن أم سلمة بالقصَر.

نزول الآية (١١) كذلك:

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ : أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قال الترمذي: حسن.

وأخرج الحاكم وغيره من حديث أبي جبيرة أيضاً قال: كان الألقاب في الجاهلية، فدعا النبي ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يا رسول الله، إنه يكرهه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. ولفظ أحمد عنه قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قدم النبي ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت[١].

نزول الآية (١٢):

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت.

(١) ورواه أيضاً البخاري في الأدب وأهل السنن.

نزول الآية (١٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مُلَيْكة قال: لما كان يوم الفتح، رَقِيَ بلال على ظهر الكعبة، فأذَّن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذِّن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم: إن يَسْخَطِ الله هذا يغيّره أو إن يرد الله شيئاً يغيره، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية، فدعاهم النبي ﷺ وزجرهم على التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء.

وقال ابن عساكر في مبهماته: وجدت بخط ابن بشكوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أبي هند، أمر رسول الله ﷺ بني بَيَاضة أن يزوجوه امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله: نزوج بناتِنا موالينا؟ فنزلت الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى وأرشد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع النبي ﷺ، ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق، بيَّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة، من الامتناع عن السخرية، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وإساءة الظن وتتبع عورات الناس ومعايبهم، والغيبة والنميمة، ووجوب المساواة بين الناس، واعتقاد أن معيار التفاضل والتميز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق.

ويلاحظ سمو الترتيب الإلهي في سرد الآداب العامة في الموضوعات المذكورة، حيث رتَّب الله تعالى وقوع النزاع والاقتتال بين الطوائف والأفراد على أنباء الفاسقين، ثم نهى عن الأخلاق المرذولة التي ينشأ عنها النزاع، ثم أعلن وحدة الإنسانية في الأصل والمنشأ، كل ذلك من أجل الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، وجعلها مثالاً يحتذى في التعامل مع الأمم والشعوب الأخرى، لنشر الإسلام ولإعلاء كلمة الله في كل مكان.

التفسير والبيان:

هذه أخلاق الإسلام وآدابه العالية أدَّب الله تعالى بها عباده المؤمنين وهي:

أ - النهي عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم وازدراؤهم والاستهزاء بهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله لا يهزأ رجال من آخرين، فربما كان المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم، أو قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقِر له، فهذا حرام قطعاً، ذكر فيه علة التحريم أو النهي، كما قال بعضهم:

لا تُهِنِ الفقير علّك أن تركع يوماً، والدهر قد رفعه

فقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ تعليل للنهي:

وقال ﷺ - فيما رواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين[١] تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبرّه». ورواه أحمد ومسلم بلفظ: «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو قسم على الله لأبرّه».

وبالرغم من أن النساء يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال، فقد أفردهن بالنهي هنا دفعاً لتوهم عدم شمول النهي لهن، وأكد معنى النهي للنساء أيضاً، وذلك بالأسلوب نفسه، فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء، بصيغة الجمع؛ لأن أغلب السخرية تكون في مجامع النساء، فقال: ولا يسخر نساء من نساء، فلعل المسخور منهن يكنَّ خيراً من الساخرات.

ولا يقتصر النهي على جماعة الرجال والنساء، وإنما يشمل الأفراد؛ لأن علة النهي عامة، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة.

---

(١) الطِّمْر: الثوب الخَلَق البالي.

أخرج مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالتميز إنما يكون بإخلاص الضمير، ونقاء القلب، وإخلاص الأعمال لله عز وجل، لا بالمظاهر والثروات، ولا بالألوان والصور، ولا بالأعراق والأجناس.

٢ - **النهي عن الهمز واللمز**، أي التعييب بقول أو إشارة خفية:

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي لا تلمزوا الناس، ولا يطعن بعضكم على بعض، ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة. وقد جعل الله لمز بعض المؤمنين لمزاً للنفس؛ لأنهم كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن أخاه، فكأنما عاب نفسه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٤/ ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضاً. أخرج أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله».

والهماز اللماز مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١٠٤/ ١] . والهمز يكون بالفعل، واللمز يكون بالقول، وقد عاب الله من اتصف بذلك في قوله: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ [القلم: ٦٨/ ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً بهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال[١].

والفرق بين السخرية واللمز: أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً، على وجه مضحك بحضرته، واللمز: التنبيه على معايبه، سواء أكان على شيء مضحك أم غيره، وسواء أكان بحضرته أم لا، وعلى هذا يكون اللمز أعم من السخرية، ويكون من عطف العام على الخاص؛ لإفادة الشمول.

---

(١) انظر الفروق للقرافي: الفرق بين قاعدة الغيبة وقاعدة النميمة والهمز واللمز: ٤/ ٢٠٩

٣ - **التنابز بالألقاب** أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يلقّب بعضكم بعضاً لقب سوء يغيظه، كأن يقول المسلم لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي أو يا نصراني، أو يقول لأي إنسان: يا كلب، يا حمار، يا خنزير، ويعزر المرء القائل ذلك بعقوبة تعزيرية. وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه، أم لكل من ينتسب إليه. والتنابز يقتضي المشاركة بين الاثنين، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب ما، فالنبز يفضي في الحال إلى التنابز، بعكس اللمز يكون غالباً من جانب، ويحتاج للبحث عن عيب ما يرد به.

ويستثنى من ذلك: أن يشتهر بلقب لا يسوءُه، فيجوز إطلاقه عليه، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث. أما الألقاب المحمودة فلا تحرم ولا تكره كما قيل لأبي بكر: عَتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب[1]، ولخالد: سيف الله، ولعمرو بن العاص: داهية الإسلام.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي ساء الوصف أن يسمى الرجل فاسقاً أو كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، أو أن يذكر بالفسوق بعد الدخول في الإيمان. والفسوق: هو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يفعلون بعدما دخلوا في الإسلام وعقلوه. والمراد: ذم اجتماع صفة الفسوق بسبب التنابز بالألقاب مع الإيمان، وذلك تغليظ وتنفير شديد، حيث جعل التنابز فسقاً، وهو تعليل للنهي السابق.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن لم يتب عما نهى الله عنه من الأمور الثلاثة (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب) فهو من الظالمين، بل

---

(١) لما عليه من التراب عندما أيقظه ﷺ من نومه تحت نخيل في أرض بني مدلج.

هم لا غيرهم الظالمون أنفسهم، بسبب العصيان بعد الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

وسبب وصف العصاة بالظلم: أن الإصرار على المنهي كفر؛ إذ جَعَل المنهي كالمأمور، فوضع الشيء في غير موضعه.

٤- النهي عن سوء الظن وتحريمه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله ورسوله، ابتعدوا عن كثير من الظن، فيشمل بعض الظن وهو أن يظن بأهل الخيرسوءاً، وهذا هو الظن القبيح، وهو متعلق بمن ظاهره الصلاح والخير والأمانة.

أما أهل السوء والفسوق المجاهرون بالفجور، كمن يسكر علانية أو يصاحب الفاجرات، فيجوز ظن السوء به لتجنبه والتحذير من سلوكه، دون تكلم عليه، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم.

ثم علل الله تعالى النهي بأن بعض الظن وهو ظن السوء بأهل الخير، أو ظن الشر بالمؤمن ذنب مؤثم أي موقع في الإثم، لنهي الله عنه، كما قال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٢] أي هلكى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في تحريم سوء الظن بالمؤمن، منها ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: « ما أطيَبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خيراً ». قال ابن عباس في الآية: نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن إلا خيراً.

ومنها ما رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» .

وفي رواية أخرى لمسلم والترمذي: «لا تَقَاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» والتدابر: الهجر والقطيعة.

٥ً- تحريم التجسس:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، وتستكشفوا ما ستروه، وتستطلعوا أسرارهم، فالتجسس: البحث عما هو مكتوم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم. أما التحسس: فهو البحث عن الأخبار، والاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم.

أخرج أبو داود وغيره عن أبي بَرْزة الأسلمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تَتَّبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين، فضحه الله في قعر بيته» .

وأخرج الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَة[1] والحسد وسوء الظن، فقال رجل:

(١) الطيرة: ما يتشاءم به من الفأل الرديء، والأدق أن يقال: التطير: هو الظن السيئ الكائن في القلب، والطيرة: هو الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره، وكلاهما حرام؛ لأنه «كان ﷺ يحب الفأل الحسن، ويكره الطيرة» ولأنها من باب سوء الظن بالله تعالى. والفأل: هو ما يظن عنده الخير، عكس الطيرة والتطير، والفأل الحسن: كالكلمة الحسنة والتسمية بالاسم الحسن، والفأل الحرام: كأخذ الفأل من المصحف وضرب الرمل والقرعة والضرب بالشعير، وجميع هذا النوع حرام؛ لأنه من باب الاستقسام بالأزلام. والأزلام: أعواد كانت في الجاهلية: مكتوب على أحدهما: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، وعلى الآخر: غفل،=

وما يُذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: إذا حسدتَ فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيَّرت فامض ».

وأخرج أبو داود أيضاً عن أبي أمامة وآخرين من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة من الناس أفسدهم» .

قال أبو قِلابة: حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه.

٦ - **تحريم الغيبة**، وهي ذكرك أخاك بما يكره:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً في غيبته بما يكره، سواء أكان الذكر صراحة أم إشارة أم نحو ذلك، لما فيه من الأذى بالمغتاب. وهو يتناول كل ما يكره، سواء في دينه أو دنياه، في خُلُقه أو خَلْقه، في ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو لباسه ونحو ذلك.

وقد فسر النبي ﷺ الغيبة فيما رواه أبو داود والترمذي وابن جرير عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذِكْرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد

= فيخرج أحدها، فإن وجد عليه: افعل، أقدم على حاجته، أو لا تفعل، أعرض عنها واعتقد أنها ذميمة، أو خرج المكتوب عليه: غفل، أعاد الضرب، فهو طلب قسمة الغيب بتلك الأعواد، ويسمى استقساماً، أي طلب القسم الجيد من الرديء (انظر الفروق للقرافي، الفرق بين قاعدة التطير وقاعدة الطيرة وما يحرم منهما وما لا يحرم، والفرق بين قاعدة الطيرة وقاعدة الفأل الحلال والفأل الحرام: ٤/٢٣٨، ٢٤٠).

اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتّه» أي فإن كان الوصف موجوداً فيه فهو الغيبة، وإن كان مفترىً والمغتاب خال من ذلك، فذلك هو البهتان.

وروى أبو داود أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا -أي قصيرة- فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» قال معاوية بن قُرَّة: لو مرَّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت: هذا أقطع كان غيبة.

ثم شبَّه الله تعالى الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت للتنفير، وهو أيحب أحدكم أن يتناول لحم أخيه بعد موته؟ فكما كرهتم هذا، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً، فإنه تعالى مثّل الغيبة بأكل جثة الإنسان الميت، وهذا من التنفير؛ فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، فضلاً عن كونه محرَّماً شرعاً، وفي الآية أنواع من المبالغات: منها الاستفهام للتقرير ومحبة المكروه، وإسناد الفعل إلى ﴿أَحَدُكُمْ﴾ للإشعار بأن لا أحد يحب ذلك، وتقييد المكروه بأكل لحم الإنسان، وتقييد الإنسان بالأخ، وجعل الأخ أو اللحم ميتاً، فيه مزيد تنفير للطبع.

وهذا دليل على تحريم الغيبة وعلى قبحها شرعاً، لذا كانت الغيبة مُحرَّمة بالإجماع وعلى المغتاب التوبة إلى الله والاستحلال ممن اغتابه، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر فيما رواه البخاري عن عائشة: « ائذنوا له، بئس أخو العشيرة ». وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيّس رضي الله عنها، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: « أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له»[1].

(١) سبل السلام: ١٢٩/٣ ط البابي الحلبي.

وتحريم الغيبة مرتبط بحماية الكرامة الإنسانية، ثبت في الأحاديث الصحيحة من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع فيما رواه الشيخان عن أبي بكرة: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعِرْضه ودمه، حَسْبُ امرئ من الشر أن يحقِر أخاه المسلم».

وروى أبو داود أيضاً عن أبي بُرْدة البلوي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، واكرهوا الغيبة وتباعدوا عنها، إن الله تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه واعتمد عليه.

قال جمهور العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، وأن يعزم على ألا يعود، ويندم على ما فعل، وأن يتحلل من الذي اغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك، ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذن أن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد وأبو داود عن معاذ بن أنس الجُهَني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه، بعث الله تعالى إليه مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه، حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».

٧- المساواة بين الناس في الأصل والمنشأ، والتفاضل بالتقوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ كان النداء السابق لأهل الإيمان لتأديبهم بالأخلاق الفاضلة، ونادى هنا بصفة الناس الذي هو اسم الجنس الإنساني، ليناسب بيان المطلوب، ويؤكد ما نهى عنه سابقاً، وليعمم الخطاب للناس جميعاً منعاً من السخرية واللمز وغير ذلك على الإطلاق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية.

والمعنى: أيها البشر، إنا خلقناكم جميعاً من أصل واحد، من نفس واحدة، من آدم وحواء، فأنتم متساوون، لأن نسبكم واحد، ويجمعكم أب واحد وأم واحدة، فلا موضع للتفاخر بالأنساب، فالكل سواء، ولا يصح أن يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضاً، وأنتم إخوة في النسب.

وقد جعلناكم شعوباً (أمة كبيرة تجمع قبائل) وقبائل دونها لتتعارفوا لا لتتناكروا وتتحالفوا، والمقصود أن الله سبحانه خلقكم لأجل التعارف، لا للتفاخر بالأنساب.

وإن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن اتصف بها كان هو الأكرم والأشرف والأفضل، فدعوا التفاخر، إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير ببواطنكم وأحوالكم وأموركم.

والآية دليل للمالكية الذين لم يشترطوا الكفاءة في الزواج، سوى الدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

وقد وردت أحاديث صحاح كثيرة، منها ما رواه أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونُن أهون على الله تعالى من الجُعْلان» .

وروى ابن أبي حاتم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مُناخاً في المسجد، حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرّ تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هيِّن على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ ثم قال ﷺ: أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»[1].

وروى الطبري في آداب النفوس قال: «خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق، وهو على بعير، فقال:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلّغ الشاهد الغائب».

وقد تقدم ذكر حديث مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وعند الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم».

---

(١) فيه راوٍ ضعيف، وهو عبد الله بن جعفر، والد علي بن المديني.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - حرَّم الله تعالى بدلالة النهي في الآية الأولى ثلاثة أشياء: هي السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، ومن فعل ما نهى الله عنه منها فذلك فسوق، وهو لا يجوز، وهو من الظالمين أنفسهم بتعريضها بسبب ظلمه غيره إلى العذاب والعقاب إن لم يتب، والعلة واضحة وهي احتمال أن يكون المسخور منه والملموز والملقّب خيراً ممن عابه.

واستثنى من التنابز بالألقاب المكروهة من غلب عليه اللقب في الاستعمال والشهرة، فلم يعد يعرف إلا بها، كالأعرج والأحدب والأعمش.

أما الألقاب الحسنة كالصدّيق لأبي بكر، والفاروق لعمر، وذي النورين لعثمان، وتلقيب خزيمة بذي الشهادتين، وأبي هريرة بذي الشمالين، والخرباق بن عمرو بذي اليدين، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، فذلك جائز مقبول مألوف بين العرب والعجم. لهذا كانت التسمية بالأسماء الحسنة مطلوبة. ذكر الزمخشري: روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على المؤمن أن يسمِّيه بأحب أسمائه إليه» وكانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: «أشيعوا الكُنَى فإنها منبِّهة» وقد لقّب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها- من العرب والعجم- تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

٢ - كذلك حرَّم الله سبحانه بدلالة النهي أيضاً في الآية الثانية ثلاثة أشياء: هي سوء الظن بأهل الخير والصلاح والإيمان، والتجسس، والغيبة.

والظن أنواع[١]:

الأول - ظن واجب أو مأمور به: كحسن الظن بالله تعالى وبالمؤمنين، كما جاء في الحديث القدسي فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة: «أنا عند ظن عبد بي» وقال النبي ﷺ: فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» وقال أيضاً فيما رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة: «حسن الظن من حسن العبادة» ومثل قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات غير المقدرة شرعاً.

الثاني- ظن محظور أو حرام، كسوء الظن بالله، وبأهل الصلاح، وبالمسلمين مستوري الحال، ظاهري العدلة، قال النبي ﷺ: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يُظنَّ به ظنَّ السوء » ذكره القرطبي والألوسي، وقال أيضاً عن عائشة مرفوعاً: « من أساء بأخيه الظن فقد أساء الظن بربه، إن الله تعالى يقول: اجتنبوا كثيراً من الظن؟» .

روى أبو داود عن صفية قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً. فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته وقمت، فانقلبت فقام معي ليقلبني[٢]،وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسْلكما، إنها صفية بنت حُيَيّ» قالا: سبحان الله، يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيت أن يَقْذِف في قلوبكما شيئاً أو سوءاً»[٣].

(١) انظر وقارن وراجع عمدة القاري شرح البخاري للعيني: ١٣٧/٢٢، الطباعة المنيرية، ١٨/ ١٧٩ ط البابي الحلبي.

(٢) أي فانصرفت فقام معي ليصرفني.

(٣) أحكام القرآن للجصاص: ٤٠٦/٣

أما من يجاهر بالخبائث أو يتعاطى الريب، فلا يحرم إساءة الظن به، فليس الناس أحرص منه على نفسه، وقد أمر الله أن يتجنب الإنسان مواضع الريبة ومواقف التهم.

الثالث- ظن مندوب إليه: كإحسان الظن بالأخ المسلم، وإساءة الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق، قال ﷺ: «من الحزم سوء الظن» وقال أيضاً فيما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي عن أنس، وهو ضعيف: «احترسوا من الناس بسوء الظن» . فإذا كان الظن لاتقاء الشر ولا يتعدى إلى الغير، فهو من هذا النوع، محمود غير مذموم، وعليه يحمل هذان الحديثان، وما جاء في الحكم: «حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة» .

وحرمة سوء الظن بالناس: إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير.

الرابع- ظن مباح: كالظن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية العملية بالاجتهاد، والعمل بغالب الظن في الشك في الصلاة، كم صلى ثلاثاً أو أربعاً.

وأما التجسس فهو من الكبائر وهو البحث عن الأمور المكتومة أو السرية، ومنه الجاسوس، وكذلك التحسس وهو الاستماع لحديث القوم وهم له كارهون حرام أيضاً، لكنه قد يستعمل في البحث عن الخير، كما قال تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧] .

والغيبة أيضاً حرام، وهي من الكبائر بالإجماع كما ذكر القرطبي، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل، مع استحلال المغتاب في رأي جماعة، ودون استحلاله في رأي آخرين كما تقدم.

والفرق بين الغيبة والإفك والبهتان: أن الغيبة أن تقول في أخيك ما هو

فيه، والإفك: أن تقول فيه ما بلغك عنه، والبهتان: أن تقول فيه ما ليس فيه. والله تعالى نفّر من الغيبة أشد تنفير، مشبهاً الاغتياب بأكل لحم الإنسان ميتاً.

وقد ذكر العلماء أشياء ليس لها حكم الغيبة، فالغيبة لا تحرم إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا به وهي ستة أمور[1]:

الأول- التظلم: فلمن ظلم تقديم شكوى للحاكم لإزالة ظلمه، لحديث أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» وحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «مَطْل الغني ظلم» أو «لَيُّ الواجد يُحلّ عِرْضه وعقوبته» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن الشريد.

الثاني- الاستعانة على تغيير المنكر: بأن يذكره لمن يظن قدرته على تغييره، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ٤/١٤٨].

الثالث- الاستفتاء: كأن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فما طريق الوصول إلى حقي؟ لقول هند للنبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن عائشة: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبي ﷺ: نعم فخذي».

الرابع- التحذير من الفسّاق: فلا غيبة لفاسق فاجر كمدمن خمر وارتياد أماكن الفجور، للحديث الذي رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي عن بهز بن حكيم: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» وفي رواية للبيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «من ألقى جلباب الحياء، فلا غيبة له، واتقوا الله فيما نهاكم، وتوبوا فيما وُجد منكم»[2].

---

(١) انظر الإحياء للغزالي: ٣/ ١٣٢

(٢) أما حديث (لا غيبة لفاسق) فلم يصح.

الخامس- التحذير من شر عام: كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية، ونصح الخاطب والشريك ونحو ذلك.

السادس- التعريف بلقب مشهور إذا لم تمكن المعرفة بغيره، كالأعور والأعمش والأعرج. وصنف القرافي ما استثناه العلماء من الغيبة المحرمة وهي ست صور كما يلي: النصيحة، والتجريح والتعديل في الشهود، والمعلن بالفسوق، وأرباب البدع والتصانيف المضلة، ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيبها، والعلم السابق بالمغتاب به بين المغتاب والمغتاب عنده، والدعوى عند ولاة الأمور[١].

٣ً - ذكرت الآية الثالثة أشياء: المساواة، وتعارف المجتمع الإنساني، وحصر التفاضل بالتقوى والعمل الصالح.

أما المساواة: فالناس سواسية كأسنان المشط في الأصل والمنشأ الإنساني، فهم من أب وأم واحدة، وفي الحقوق والواجبات التشريعية، وهذه أصول الديمقراطية الحقة.

وقد أبان الله أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، ولو شاء لخلقه من غيرهما كخلقه لآدم، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء.

وأما التعارف: فإن الله خلق الخلق أنساباً وأصهاراً، وقبائل وشعوباً من أجل التعارف والتواصل والتعاون، لا للتناكر والتقاطع، والمعاداة واللمز والسخرية والغيبة المؤدية إلى التنازع والعداوة، ولا للتفاخر بالأنساب والأعراق والأصول، فكل ذلك اعتبارات وهمية مصطنعة تتعارض مع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني.

---

(١) الفروق: الفرق بين الغيبة المحرمة والغيبة التي لا تحرم: ٤/ ٢٠٥-٢٠٨

وأما التقوى: فهي ميزان التفاضل بين الناس، فالأكرم عند الله، الأرفع منزلة لديه تعالى في الدنيا والآخرة هو الأتقى الأصلح لنفسه وللجماعة، فإن حدث تفاخر فليكن بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات.

أخرج الترمذي عن سَمُرَة عن النبي ﷺ قال: «الحَسَبُ المال، والكرم التقوى» وفي حديث آخر: «من أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله». وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نَسَباً، وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم وأتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي، وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون؟!».

وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتي الناس بالأعمال، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، تقولون: يامحمد، فأقول: هكذا وهكذا» وأعرض في كل عِطْفيه.

٤ - احتج مالك بآية ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ على عدم اشتراط النسب في الكفاءة في الزواج إلا الدين، فيجوز زواج الموالي بالعربية، وقد تزوج سالم مولى امرأة من الأنصار هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف، وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش، فالكفاءة إنما تراعى في الدِّين فقط. قال ﷺ في الحديث الذي رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): « تُنْكَح المرأة لمالها وحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدِّين، تَرِبَتْ يداك ».

وقال الجمهور: يراعى الحسب والمال، عملاً بالأعراف، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار.

أصول الإيمان الصحيح

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿لَا يَلِتْكُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (لا يألِتْكم).

﴿تَعْمَلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير (يعملون).

الإعراب:

﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾: ﴿يَلِتْكُم﴾ من لات يليت، مثل باع يبيع، وقرئ: لا يألتكم، من ألت يألِت، والقراءتان بمعنى واحد، يقال: لات يليت، وألت يألِت: إذا نقصه.

﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ منصوب بنزع الخافض أي بإسلامكم، أو يضمن الفعل معنى الاعتداد.

البلاغة:

﴿ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ

المفردات اللغوية:

﴿الْأَعْرَابُ﴾ سكان البادية. ﴿ءَامَنَّا﴾ صدّقنا بما جئت به من الشرائع، وامتثلنا الأوامر، والإيمان: التصديق بالقلب مع الثقة والطمأنينة. ﴿أَسْلَمْنَا﴾ انقدنا ظاهراً، والإسلام: الاستسلام والانقياد الظاهري وإظهار الشهادتين وترك المحاربة. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ لم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن، لكنه يتوقع منكم. ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق، ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ لا ينقصكم. ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ من ثواب أعمالكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المؤمنين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقو الإيمان، بدليل ما بعده. ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكّوا في شيء من الإيمان. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله ورضوانه. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هم الذين صدقوا في إيمانهم، لا من قالوا: آمنا ولم تؤمن قلوبهم، ولم يوجد منهم غير الإسلام الظاهري.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتخبرونه بقولكم: آمنا؟. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ لايخفى عليه خافيه، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. ﴿يَمُنُّونَ﴾ يمتنون ويعدون إسلامهم عليك مِنّة ونعمة مسداة لك. ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي لاتمتنوا عليَّ بإسلامكم. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي بحسب زعمكم، علماً بأن الهداية لا تستلزم الاهتداء. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فلله المنة والفضل عليكم.

﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما .﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلانيتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟.

سبب النـزول:

نزول الآية (١٤):

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾: نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة، قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[(١)]

وقال السُّدِّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأسْلَم وغِفار والدِّيل وأشجع، قالوا: آمنّا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفِروا إلى المدينة تخلّفوا[(٢)].

المناسبة:

بعد أن حث الله تعالى على التقوى، قالت الأعراب: لنا النسب الشريف، فلنا الشرف، فذمّهم الله تعالى، وأبان ضعف إيمانهم، وحدد أصول الإيمان الصحيح: وهي التصديق بالله ورسوله، والإخلاص في القلب، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وطاعته وإعلاء دينه، وأخبر بأن الله يعلم ما في السرائر والعلانية، فيعلم ما هم عليه من ضعف الإيمان وقوته، وأفاد بأنه لا ينبغي لمؤمن أن يمتن على الرسول ﷺ بإيمانه، بل يمن عليه بتوفيقه للهداية على يد رسول ﷺ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٥

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٣٤٨

التفسير والبيان:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ أي قالت جماعة من سكان البادية وهم بنو أسد أول ما دخلوا الإسلام مدعين لأنفسهم مقام الإيمان: صدقنا بالله ورسوله وتمكن الإيمان في قلوبنا، فرد الله تعالى عليهم مبيناً لهم أنهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل، ولم يصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة وثقة تامة بالله عز وجل، وأمرهم بأن يقولوا: انقدنا لك يا رسول الله واستسلمنا، وسالمناك فلا نحاربك، وأعلمهم بأنه لن يتمكن الإيمان في قلوبهم بعدُ، بل كان مجرد قول باللسان، دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة، لذا جاء النفي بـ ﴿وَلَمَّا﴾ حرف الجزم الدال على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار. وقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ لايراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً.

وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، فهو تصديق القلب مع الطمأنينة والثقة بالله، والإسلام أعم، فهو مجرد نطق باللسان بالشهادتين وإظهار الانقياد والخضوع لما جاء به النبي ﷺ.

وهذا لا يمنع أن المؤمن والمسلم واحد عند بعض أهل السنة[1]، بدليل قوله تعالى عن لوط عليه السلام ومن آمن معه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٣٥-٣٦] .

ثم حرضهم الله تعالى على الإيمان الصادق بقوله:

---

(١) تفسير الرازي: ١٤١/٢٨

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وإن تطيعوا الله ورسوله إطاعة تامة، وتخلصوا العمل وتصدقوا تصديقاً صحيحاً، لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص، والله تعالى غفور ستار لمن تاب إليه وأناب وأخلص العمل، رحيم به فلا يعذبه بعد التوبة، وفيه حث على التوبة من الأعمال السالفة، وتسلية لقلوب من تأخر إيمانه، فالله تعالى يغفر لكم في كل وقت ما قد سلف، ويرحمكم بما أتيتم به. ونظير الآية: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٥٢/٢١].

ثم أبان الله تعالى صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي إنما المؤمنون إيماناً صحيحاً خالصاً وهم المؤمنون الكمّل هم الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ تصديقاً تاماً بالقلب، وإقراراً باللسان، ثم لم يشكُّوا ولم يتزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد، من أجل طاعة الله وابتغاء مرضاته، قاصدين بجهادهم إعلاء كلمة الله ودينه، أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون بالاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد المؤمنين، لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام، ولم يطمئن الإيمان في قلوبهم.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ والذي يأمنه الناس على أموالهم بأنفسهم؛ والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل».

ثم عرفهم الله تعالى بأنه عالم بحقيقة أمرهم قائلاً:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ قل لهم أيها الرسول: أتخبرون الله بما في ضمائركم من الدين ليعلم بذلك حيث قلتم: آمنا؟ والله عالم لا يخفى عليه شيء، يعلم كل ما في السماوات وما في الأرض من جمادات ونباتات وحيوانات وإنس وجن، فكيف يجهل حقيقة ما تدّعونه من الإيمان؟ والله لا تخفى عليه خافية من ذلك، يعلم بكل شيء، فاحذروا أن تدّعوا شيئاً خلاف ما في قلوبكم.

وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون لله، وأنتم أظهرتموه لنا، لا لله، فلا يقبل ذلك منكم.

ثم أوضح الله تعالى أن إسلامهم لم يكن لله، فقال:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدّون إسلامهم مِنّة ونعمة عليك أيها النبي، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. فرد الله تعالى عليهم قائلاً:

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل أيها الرسول: لا تعدوا أيها الأعراب إسلامكم مِنّة علي، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، فهو سبحانه الذي يمن عليكم، إذ أرشدكم إلى الإيمان وأراكم طريقه، ووفقكم لقبول الدين، إن كنتم صادقين فيما تدعونه، وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان.

وذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدْكم ضُلّالاً، فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل».

ثم أكد الله تعالى علمه بكل شيء، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي إن

الله عليم بما ظهر وما غاب في جميع أنحاء السماوات والأرض، ومن جملة ذلك: ما يسّره كل إنسان في نفسه، والله مطّلع على كل شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً. والآية تكرار وتأكيد الإخبار بعلم الله بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، ليترسخ ذلك في الأذهان، ويستقر في أعمال القلوب، ويتمثل دائماً في النفوس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - موضوع الآيات توبيخ من في إيمانه ضعف بعد الآيات السابقة التي فيها حث عموم الناس على تقوى الله تعالى.

فلا يكفي الإسلام الظاهري، وإنما لا بد من الإيمان والإذعان القلبي، ولا يكفي الإسلام اللغوي، وهو الخضوع والانقياد خوفاً من القتل، ودخولاً في زمرة أهل الإيمان والسلم.

٢ً - إنْ أخلص الناس الإيمان لله تعالى وفّر لهم ثواباً عظيماً لأعمالهم، ولم ينقصهم شيئاً من أجورهم.

٣ً - لا حرج على من تأخر إيمانه، فالله سبحانه غفار لذنوب عباده كلها بمشيئته، رحيم بهم فلا يعذبهم بعد التوبة.

٤ً - إن عناصر الإيمان الجوهرية في الآية: هي الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بأن محمداً رسول الله وخاتم الأنبياء والرسل، وعدم الارتياب في شيء، بل لا بد من عقيدة ثابتة ويقين كامل لا يتزعزع أبداً، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس محكّ الإيمان ودليله، والمؤمنون هم الذين صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة، وهم الذين صدقوا في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب.

ويجب أن يكون الجهاد من أجل نصرة دين الله والدعوة إلى سبيله، أو لاسترداد الحقوق المغتصبة والبلاد المحتلة، لذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقال تعالى في الدفاع عن البلاد: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٧].

٥ً - لا حاجة لإعلام الله تعالى بأن الإنسان مؤمن، فهو سبحانه يعلم بالدين الذي يكون الناس عليه، ويعلم كل شيء في الكون، والآية تجهيل لهم في قوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

٦ً - إن نفع الإيمان يعود للمؤمن نفسه، فلا يصح لأحد أن يمتن بإسلامه على أحد، بل المنة والفضل والنعمة لله عز وجل الذي وفق عباده للإيمان، وأرشدهم إليه ودلّهم عليه.

والصادقون هم الذين يعترفون بهداية الله لهم، والهداية هنا بمعنى الدلالة وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تعريض بأن الأعراب سبب النزول كاذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ وذلك تأديب لهم.

٧ً - ظاهر الآية يدل على أن أولئك الأعراب لم يكونوا مؤمنين إيماناً صحيحاً، بل كانوا مسلمين إسلاماً ظاهرياً، والإيمان أخص، والإسلام أعم، كما تقدم، ولم يكونوا منافقين، فلو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما فعل الله تعالى في سورة براءة.

٨ً - إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما في الضمائر والقلوب، فهو تعالى يعلم الإيمان الحقيقي من الإيمان الكاذب، ويعلم المقاصد والغايات، والمخاوف والأطماع، والبواعث التي تدفع إلى الدخول في الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية، وهي خمس وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿قٓ﴾ تسمية لها بما افتتحت به من أحرف الهجاء، كقوله تعالى: ﴿صٓ﴾، ﴿نٓ﴾، ﴿الٓمٓ ①﴾، ﴿حمٓ ①﴾، ﴿طسٓ﴾ قال الشعبي: ق: فاتحة السورة.

مناسبتها لما قبلها:

أخبر الله تعالى في آخر سورة الحجرات المتقدمة أن أولئك الأعراب الذين قالوا: آمنا، لم يكن إيمانهم حقاً، وذلك دليل على إنكار النبوة وإنكار البعث، فافتتح هذه السورة بوصف إنكار المشركين نبوة النبي ﷺ وإنكار البعث، ثم رد عليهم بالدليل القاطع.

ما اشتملت عليه السورة:

بما أن هذه السورة مكية بالإجماع، فموضوعها مثل موضوعات سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد، والبعث، والنبوة والرسالة، ولكنها عنيت بالأصل الثاني وهو البعث وإثباته والرد على منكريه.

لذا ابتدأت بالكلام عن إنكار مشركي العرب وقريش أمر البعث والنشور، وأمر النبوة ورسالة محمد ﷺ، وتعجبهم من إرسال رسول منذر منهم، ومن إعادة الحياة بعد الممات، فأقسم الله بالقرآن المجيد قائلاً: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾

ومن أجل الاستدلال على قدرة الله الباهرة على البعث وغيره، حثّت الآيات بعدئذ على التأمل في صفحة الكون، والنظر في السماء وبنائها وزينتها، وفي الأرض وجبالها وزروعها ونباتاتها وأمطارها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيات.

ثم أثارت دواعي التفكر وأقامت العبر والعظات في إهلاك الأمم السابقة المكذبة بالرسل، كقوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقوم تُبَّع، تحذيراً لكفار مكة أن يصيبهم مثلما أصاب غيرهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾ الآيات.

وانتقلت الآيات للحديث عن الإنسان ومسؤوليته وملازمة الملكين له لرصد أعماله وأقواله ومراقبة أحواله، وطيّ صحيفته بسكرة الموت، وتعرضه لأهوال الحشر وأهوال الحساب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ الآيات، وأعقبت كل ذلك بضرورة العبرة والتذكر بتلك الأحداث الكبرى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾

وختمت السورة الكريمة بمشاهد عظيمة، من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وسماع صيحة الحق للخروج من القبور، وتشقق الأرض عن الأموات سراعاً، وتخلل ذلك أمر الرسول وأتباعه بالصبر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار، وعدم المبالاة بإنكار المشركين البعث وتهديدهم عليه، والتذكير بالقرآن من وعيد الله وعقابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآيات.

فضل السورة:

تقرأ هذه السورة في الأحداث الكبرى والمجامع العامة، كالجُمَع والعيدين، لتذكير الناس ببدء الخلق، ومظاهر الحياة، وعقوبات الدنيا، والبعث والنشور، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وأدلة سنِّية قراءتها في تلك المناسبات أحاديث، منها حديث جابر بن سَمُرة في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾و كانت صلاته بعدُ تخفيفاً.

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان، قالت: ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر، إذا خطب الناس.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾

والسبب أن العيد يوم الزينة والفرح، فينبغي ألا ينسى الإنسان خروجه إلى ساحات الحساب، فلا يكون فرحاً فخوراً، ولا فاسقاً فاجراً، فيتذكر بالقرآن كما في بداية السورة: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ ونهايتها: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ويتأمل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

أوجه الشبه بين سورة ق وسورة ص:

لاحظ العلماء وجهي شبه بين سورتي ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ وهما[1]:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٤٥ بتصرف.

أولاً - تشترك السورتان في افتتاح أولها بحرف واحد من حروف الهجاء، والقسم بالقرآن، وقوله: ﴿بَلْ﴾ والتعجب. كما أن أول السورتين وآخرهما متناسبان، ففي أول ﴿صٓ﴾: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ وفي آخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وفي أول ﴿قٓ﴾: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وفي آخرها: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فافتتح بما اختتم به. أي إن السورتين تبدأان بحرف هجاء، وتبتدئان وتنتهيان بالتحدث عن القرآن.

ثانياً- عنيت سورة ﴿صٓ﴾ بتقرير الأصل الأول وهو التوحيد، وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وعنيت سورة ﴿قٓ﴾ بتقرير الأصل الثاني وهو الحشر، في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾

وبدئت وختمت كل سورة بما يناسبها، فكان افتتاح سورة ﴿صٓ﴾ في تقرير المبدأ، ثم قال تعالى في آخرها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ لحكاية بدء الخلق؛ لأنه دليل الوحدانية، وكان افتتاح سورة ﴿قٓ﴾ لبيان الحشر، ثم قال سبحانه في آخرها: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ فاتفق بدء كل سورة مع خاتمتها.

إنكار المشركين البعث والرّد عليهم

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾

القراءات:

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (والقران).

﴿مِتۡنَا﴾:

وهي قراءة نافع، وحفص، وحمزة، وخلف، والكسائي.

وقرأ الباقون (مُتْنا).

الإعراب:

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قسم، وجوابه: إما محذوف تقديره: (ليبعثن) أو جوابه ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾ أي لقد علمنا، فحذفت اللام كقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩١/٩] أو يكون ما قبل القسم قام مقام الجواب على رأي من

يرى أن معنى ﴿قٓ﴾: قضي الأمر، وهو الذي قام مقام الجواب، ودلّ ﴿قٓ﴾ عليه. والمعنى: أقسم بالقرآن أنك جئتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا بل عجبوا، وهو إضراب إبطالي.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ عامل (إذا) فعل مقدر دلّ عليه الكلام، تقديره: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً، ولا يعمل فيه ﴿مِتۡنَا﴾ لأنه محل مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف.

﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ معطوف على موضع ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ تقديره: وحبّ الزرع الحصيد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ حال.

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ منصوب إما مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر.

البلاغة:

﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إظهار في موضع مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ استفهام إنكاري لاستبعاد البعث.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ إضراب عن الكلام السابق لبيان ما هو أشنع من التعجب، وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ تشبيه مرسل مجمل، شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

المفردات اللغوية:

﴿قٓ﴾ حرف هجاء، يقرأ هكذا: قاف، بإسكان القاف. للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة ما يتلى بعده من الأحكام والأحداث. قال أبو حيان: ﴿قٓ﴾: حرف هجاء، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها، فاطَّرحت نقلها في كتابي هذا.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ذي المجد والشرف على سائر الكتب، ولكثرة ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، قال الراغب: المجد: السعة في الكرم. ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس يعجب، وهو أن ينذرهم ويخوفهم بالنار بعد بعث رسول من أنفسهم ومن جنسهم. ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي هذا الإنذار، وهو حكاية لتعجبهم، قال البيضاوي: وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً ﷺ للرسالة، وإضمار ذكرهم، ثم تسجيل الكفر عليهم بذلك.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ أي أنبعث أو نرجع إذا متنا. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك البعث بعث أو رجوع بعد الموت في غاية البعد عن التصديق والإمكان والعادة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ تأكل من أجسادهم بعد موتهم، وهو ردّ لاستبعادهم. ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ هو اللوح المحفوظ، والحافظ لجميع الأشياء المقدرة وتفاصيلها كلها، وهو تأكيد لعلمه بما يحدث.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالنبوة الثابتة بالمعجزات وبالقرآن. ﴿فَهُمْ﴾ في شأن القرآن والنّبي ﷺ ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب، وهو قولهم تارة: إنه شاعر وشعر، وتارة: إنه ساحر وسحر، وتارة: إنه كاهن وكهانة.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله

تعالى في خلق العالم. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ شقوق وفتوق تعيبها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها أي بحسب نظر الإنسان الجزئي إلى الموقع الجغرافي الذي يعيش فيه، لا بالنظرة الكلية الشاملة للأرض، فهي كروية، كما أثبت العلم القديم والحديث، وبخاصة بعد غزو الفضاء وإطلاق الصواريخ ورؤية روّاد الفضاء أنها كرة معلّقة في هذا الكون. ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت لحفظ الأرض من الاضطراب. ﴿زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن مبهج.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ تبصيراً منا وتذكيراً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ رجّاع إلى طاعة الله وتوّاب، متفكر في بدائع صنع الله تعالى. ﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ كثير الخير والبركة والمنافع. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وأثمار. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي حبّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبرّ والشعير وغيرهما. و ﴿الْحَصِيدِ﴾ المحصود.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً. ﴿طَلْعٌ﴾ ما ينمو ويصير بلحاً، ثم رطباً، ثم تمراً. ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود، متراكب بعضه فوق بعض. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ علة لـ ﴿فَأَنبَتْنَا﴾، أو مصدر فإن الإنبات رزق. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضاً جدباء لا نماء فيها، والميْت: يستوي فيه المذكر والمؤنث. ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي من القبور، والمعنى كما أحييت هذه البلدة بالماء، يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

التفسير والبيان:

﴿قٓ﴾ عرفنا أنها حرف هجاء، لتحدي العرب بأن يأتوا بمثل القرآن أو آية منه ما دام القرآن مكوناً من حروف لغتهم التي ينطقون بها ويكتبون بها، وهي أيضاً للتنبيه إلى أهمية ما يأتي بعدها، وأكثر ما جاء القسم بحرف واحد إذا أتى بعده وصف القرآن، كما أن أغلب القسم بالحروف ذكر بعده القرآن أو الكتاب أو التنزيل.

وذكر الرازي تصنيفاً دقيقاً للقسم من الله بالحروف الهجائية وغيرها، وهو بإيجاز ما يأتي[1]:

أ - وقع القسم من الله بأمر واحد، مثل ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ وبحرف واحد مثل: ﴿صٓ﴾، و﴿نٓ﴾.

ب - ووقع بأمرين، مثل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، وبحرفين مثل: ﴿طه ۝١﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١﴾.

جـ - ووقع بثلاثة أمور، مثل: ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ﴾ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ ﴿فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ﴾، وبثلاثة أحرف، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، ﴿الٓر﴾.

د- وبأربعة أمور، مثل: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ﴾ ﴿فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ﴾ ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ﴾ ﴿فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ﴾، وفي: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ وفي: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، وبأربعة أحرف، مثل: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أول الأعراف ﴿الٓمٓر﴾ أول الرعد.

هـ - وبخمسة أمور، مثل: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾، وفي: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ﴾، وفي: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ﴾، وفي: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾، وبخمسة أحرف، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾. ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول؛ منعاً من الاستثقال.

وفي القسم قد يذكر حرف القسم وهي الواو، مثل: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾، ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم، فلم يقل

(١) تفسير الرازي: ١٤٦/٢٨ وما بعدها.

و﴿قٓ﴾، و ﴿حمٓ ۝١﴾ لأن القسم لما كان بالحروف نفسها كان الحرف مقسماً به.

وأقسم الله بالأشياء كالتين والطور وأقسم بالحروف من غير تركيب. وأقسم بالحروف في أول ثمانٍ وعشرين سورة، ولم يوجد القسم بالحروف إلا في أوائل السور، وأقسم في أربع عشرة سورة عدا ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ بأشياء عددها عدد الحروف، في أوائل السور وفي أثنائها، ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾.

ووقع القسم بالحروف في نصفي القرآن، بل في كل سبع، وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير والسبع الأخير غير ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ القرآن مقسم به، والمقسم عليه محذوف، أي أقسم بالقرآن الكريم كثير الخير والبركة، أو الرفيع القدر والشرف، أنك يا محمد جئتهم منذراً بالبعث. دلّ على جواب القسم المذكور مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النّبوة، وإثبات المعاد، وهذا كثير في القرآن، مثل: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ أي عجب كفار قريش، لأن جاءهم منذر، هو واحد منهم أي من جنسهم، وهو محمد ﷺ، فلم يكتفوا بمجرد الشّك والرّد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، فقالوا: كون هذا الرسول المنذر بشراً مثلنا شيء يدعو إلى العجب، وهو كقوله جلّ جلاله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢/١٠] ، أي وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وتعجبوا أيضاً من البعث فقالوا كما حكى القرآن:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ أي أنبعث ونرجع أحياء إذا متنا وتفرقت أجزاؤنا في الأرض وبلينا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعدئذٍ إلى هذه البنية والتركيب؟ إن ذلك البعث والرجوع بعيد الوقوع عن العقول؛ لأنه غير ممكن في زعمهم، وغير مألوف عادة.

فردّ الله تعالى عليهم مبيّناً قدرته على البعث وغيره، فقال:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي علمنا علماً يقينيّاً ما تأكل الأرض من أجسادهم حال البلى، ولا يخفى علينا شيء من ذلك، فإنا ندري أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أي شيء صارت؟ وعندنا كتاب حافظ شامل لعددهم وأسمائهم وتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ الذي حفظه الله من التغيير ومن الشياطين. أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « كلُّ ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجْب الذنب ومنه خلق ومنه يركّب ».

والأصح في تقديري أن هذا تقريب لأذهاننا وتمثيل لإحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء والكائنات، وإحصائه كل الوقائع والأعمال، كمن عنده سجل حسابات لكل شاردة وواردة. ولا يمنع ذلك وجود اللوح المحفوظ الذي نؤمن به لوروده في آيات كثيرة أخرى. والآية إشارة إلى جواز البعث وقدرته تعالى عليه.

ثم أبان الله تعالى سبب كفرهم وعنادهم وما هو أشنع من تعجبهم من البعث، وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ أي إن كفار قريش في الحقيقة كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ الثابتة بالمعجزات، إنهم كذبوا (بالقرآن وبالنبوة) بمجرد تبليغهم به من قبل الرسول ﷺ، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، فهم في أمر دينهم في أمر مختلط مضطرب، يقولون مرة

عن القرآن والنّبي: ساحر وسحر، ومرة: شاعر وشعر، ومرة: كاهن وكهانة، فهم في قلق واضطراب ولَبْس، لا يدرون ماذا يفعلون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٨-٩].

ثم أقام الله تعالى الدليل على قدرته العظيمة على البعث وغيره، على حقيقة المبدأ والمعاد، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ أي أفلم ينظر هؤلاء الكفار بأم أعينهم، المكذبون بالبعث بعد الموت، المنكرون قدرتنا العظمى، إلى هذه السماء بصفتها العجيبة، فهي مرفوعة بغير أعمدة تعتمد عليها، ومزيَّنة بالكواكب المنيرة كالمصابيح، وليس فيها شقوق وفتوق وصدوع، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٦٧/٣-٤] أي يرجع كليلاً عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ مزيد توبيخ لهم، ونداء عليهم بغاية الغباوة.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ أي وكذلك، أو لم ينظروا إلى الأرض التي بسطناها ووسعناها، وألقينا فيها جبالاً ثوابت لئلا تميد بأهلها وتضطرب، وأنبتنا فيها من كل صنف ذي بهجة وحسن منظر، من جميع الزروع والثمار والأشجار والنباتات المختلفة الأنواع، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٤٩] .

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ أي فعلنا ذلك لتبصرة العباد وتذكيرهم، فيتبصر بكل ما ذكر ويتأمل العبد المنيب الراجع إلى ربّه وطاعته، ويفكر في بدائع المخلوقات.

ثم أوضح الله تعالى كيفية الإنبات، فقال:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ أي ولينظروا إلى قدرتنا كيف أنزلنا من السحاب ماء المطر الكثير المنافع، المنبت للبساتين الكثيرة الخضراء والأشجار المثمرة، وحبات الزرع الذي يحصد ويقتات كالقمح والشعير ونحوهما.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ أي وأنبتنا به أيضاً النخيل الطوال الشاهقات، التي لها طلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل) منضّد متراكم بعضه على بعض، والمراد كثرة الطلع وتراكمه الدال على كثرة التمر.

وفائدة إعادة هذا الدليل بعد المذكور في الآية السابقة: هو أن قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ استدلال بالنبات نفسه، أي الأشجار تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد، بأن يرجع إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ أي أنبتنا كل ما ذكر للرزق، أي إن إنبات النباتات والأشجار والنخيل، ليكون أرزاقاً وأقواتاً للعباد. وأحيينا بالماء بلدة مجدبة، لا ثمار فيها ولا زرع، وإن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة، فكما أن هذا مقدور لله، فذلك أيضاً مقدور له. وهذا تشبيه قريب الإدراك، ومن واقع الحياة الملحوظة المجاورة للإنسان، وهو أيضاً تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث في مقدور القدرة الإلهية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أ - القرآن كثير الخير والمنفعة عظيم المجد والقدر والرفعة، وقد أقسم الله به للدلالة على ما فيه من الخيرات.

٢ً - لقد تعجب الكفار من قريش من أمرين: إرسال رسول بشر يخوفهم من عذاب الله من جنسهم وهو محمد ﷺ، وإمكان حدوث البعث والمعاد والرجوع إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى.

٣ً - إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعالم بكل شيء، فهو سبحانه قادر على إحياء الموتى، عالم بما تؤول إليه الأجساد من ذرات متفتتة وعظام بالية، ولا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر، وقادر على جمعها وتأليفها وإحيائها مرة أخرة، كما خلق الناس جميعاً في مبدأ الأمر من التراب: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥/٢٠].

٤ً - إن سبب تكذيب الكفار بالبعث وبالمعاد وعنادهم: هو تكذيبهم بالحق الثابت الذي لا شكّ فيه، وهو القرآن الكريم المنزل من عند الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والنبوة الثابتة بالمعجزات، فصاروا في أمر دينهم في قلق واضطراب.

٥ً - الأدلة على قدرة الله تعالى العظيمة لإثبات البعث وإمكانه كثيرة، منها خلق الكون المشتمل على السماوات المبنية بغير أعمدة، المزينة بالكواكب المنيرة، الخالية من الشقوق والصدوع، والمتضمن الأرض البديعة الجميلة التي بسطها الله لتصلح للعيش الهنيء المريح، وثبتها بالجبال الراسخات الشامخات، وأنبت فيها النباتات والأشجار ذات الألوان المختلفة والأشكال العجيبة والروائح العطرة والثمار الطيبة اليانعة.

فعل الله ذلك تبصيراً وتنبيهاً للعباد على قدرته، وتذكيراً لكل عبد راجع إلى الله تعالى، مفكِّر في قدرته.

٦ً - ومن أدلة القدرة الفائقة لله تعالى إنزال المطر الكثير البركة والنفع من السحاب، الذي أنبت به البساتين، والحبوب المحصودة زروعها، المقتاتة على

مدار العام، والنخيل الطوال الشاهقات ذات الطلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل).

٧ً - وكما أحيا الله هذه الأرض الميتة، فكذلك يخرج الناس أحياء بعد موتهم. وهذا دليل الإبقاء للأشياء المخلوقة بعد ذكر دليل الإحياء، فأبان تعالى أولاً أنه يحيي الموتى، ثم بيَّن أنه يبقيهم.

والخلاصة: أن الآيات اشتملت على أدلة أربعة على جواز البعث وإمكانه، وهي علم الله تعالى الشامل بمصير الأجساد بعد موتها، وخلقه السماوات وتزيينها بالكواكب وتسويتها دون شقوق أو صدوع، وخلقه الأرض وما فيها من جبال وأنهار ونباتات وحيوانات، وإنزاله المطر من السحاب وإخراج النبات، وهذا دليل مما بين السماء والأرض.

ويلاحظ أنه تعالى ذكر في كل آية ثلاثة أمور متناسبة، ففي آية السماء ذكر البناء والتزيين وسدّ الفروج، وفي آية الأرض ذكر المدّ وإلقاء الرواسي والإنبات فيها، وكل واحد هنا في مقابلة واحد مما سبق، فالمدّ في مقابلة البناء؛ لأن المدّ وضع والبناء رفع، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزيِّنة لها، والإنبات في الأرض شقُّها. وفي آية المطر ذكر إنبات الجنات والحبّ والنخل، وهذه الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة: وهي ما له أصل ثابت يستمر مكثه في الأرض سنين وهو النخيل، وما ليس له أصل ثابت مما لا يطول مكثه في الأرض وهو الحبّ ويتجدد كل سنة، وما يجتمع فيه الأمران وهو البساتين، وهذه الأنواع تشمل مختلف الثمار والزروع[1].

(١) تفسير الرازي: ٢٨/١٥٦، ١٥٨

التذكير بحال المكذبين الأولين

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾

المفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أنث الفعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ لمعنى قوم ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ أصحاب بئر لم تُطْو أي لم تبن، كانوا مقيمين عليها بمواشيهم، يعبدون الأصنام، وهم قوم باليمامة، وقيل: أصحاب الأخدود، ونبيهم المزعوم: حنظلة بن صفوان أو غيره ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر، وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحِمْيَري ملك اليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذّبوه ﴿كُلٌّ﴾ من المذكورين، أي كل واحد أو قوم منهم، أو جميعهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ إفراد الضمير لإفراد لفظه ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ وجب نزول العذاب على الجميع، وحل عليهم وعيدي. وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم، أي فلا يضيق صدرك من كفر قريش بك.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أفعجزنا على الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟ لم نعي به، فلا نعيا بالإعادة، من العيّ عن الأمر: العجز عنه ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل هم في شك وحيرة من البعث، أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة. وتنكير كلمة ﴿خَلْقٍ﴾ لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

المناسبة:

بعد بيان تكذيب مشركي قريش والعرب للنبي ﷺ، ذكّرهم الله تعالى

وهددهم بما عاقب به أمثالهم من المكذبين قبلهم في الدنيا كقوم نوح وغيرهم، تسلية لرسول الله ﷺ. ثم ذكر تعالى دليلاً جديداً على البعث وهو خلق الأنفس في بداية أمر الخلق.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي إن الله سبحانه هدد كفار قريش بأن يعاقبهم بمثل ما عاقب به الأمم السابقة قبلهم، الذين كذبوا رسلهم، فعذبهم الله إما بالطوفان كقوم نوح عليه السلام، أو بالغرق في البحر كقوم فرعون، أو بريح صرصر عاتية كعاد قوم هود، أو بالريح الحاصب التي تأتي بالحصباء وخسف الأرض وهم قوم لوط، أو بالصيحة وهم ثمود وأهل مدين وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة قوم شعيب، أوبالخسف وهو قارون وأصحابه.

والسبب أن كلاً من هذه الأمم كذب رسوله الذي أرسله الله إليه، فوجب عليهم ما أوعدهم الله تعالى، وحقَّت عليهم كلمة العذاب على التكذيب، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم مثلما أصاب هؤلاء الأقوام، لاشتراكهم في العلة، وتكذيبهم رسولهم كما كذب أولئك رسلهم.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على إمكان البعث من الأنفس، فقال:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي أفعجزنا بالخلق المبتدأ الأول حين خلقناهم ولم يكونوا شيئاً، أو بابتداء الخلق، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادتهم مرة أخرى؟!

الحق أننا لم نعجز، والإعادة أسهل من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧] وقال جل

جلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٨-٧٩].

وجاء في الحديث القدسي الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وإنما هم في شك وحيرة واختلاط من خلق مبتدأ مستأنف، وهو بعث الأموات، فهم معترفون بأن الله هو مبدئ الخلق أولاً، فلا وجه لإنكارهم البعث. وهذا توبيخ للكفار وإقامة الحجة الواضحة عليهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا تهديد لكفار قريش وأمثالهم بأحوال الأمم السابقة، وقد تكرر ذلك في القرآن مراراً، لتأكيد العبرة والعظة، فإن من كذب رسول الله ﷺ استحق مثل عقاب الأمم الذين كذبوا رسلهم، فهو تذكير بأنباء من قبلهم من المكذبين، وتخويف بما أصابهم من العذاب الأليم في الدنيا.

وفيه أيضاً تسلية للنبي ﷺ حتى لا يضيق صدره بتكذيب قومه له، وكفرهم برسالته. وفي الآيات إشارة إلى أن الرسل جميعاً جاؤوا بالتوحيد وبإثبات البعث.

ثم وبّخ الله تعالى منكري البعث، وأجاب عن قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ بأنه هل عَجَز الله عن ابتداء الخلق حتى يعجز عن إعادته؟ وهذا دليل من الأنفس مضاف إلى الأدلة السابقة من الآفاق على صحة البعث وإمكانه عقلاً وعادة، فالذي لم يعجز عن الخلق الأول، كيف يعجز عن الإعادة؟!

والحقيقة أنهم في حيرة من البعث والحشر، منهم المصدِّق، ومنهم المكذِّب، وليس تكذيب المكذبين إلا كفراً وعناداً.

تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

الإعراب:

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ﴿وَنَعْلَمُ﴾: في محل حال، أي نحن نعلم. و﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿تُوَسْوِسُ﴾: صلته، و﴿بِهِۦ﴾: في موضع نصب متعلق بصلة الموصول، وهاء ﴿بِهِۦ﴾ تعود على ﴿مَا﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف، منصوب بـ اذكر مقدراً.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿قَعِيدٌ﴾: إما خبر عن الأول أو عن الثاني، فإن كان عن الأول فأخّر اتساعاً، وحذف من الثاني لدلالة الأول عليه، وإن كان عن الثاني، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. أو هو خبر عن الاثنين، ولا حذف في الكلام، في قول الفراء.

﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ ﴿سَآئِقٌ﴾: إما مبتدأ، وخبره ﴿مَّعَهَا﴾ والجملة في موضع جر؛ لأنها صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ أو مرفوع بالظرف.

البلاغة:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ استعارة تمثيلية، مثّل الله تعالى علمه بأحوال العبد بحبل الوريد القريب من القلب، للدلالة على القرب بطريق الاستعارة.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ حذف بالإيجاز، أصله عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. وبين ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ طباق.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ استعارة تصريحية، استعار لفظ السكرة لهول الموت وشدته.

﴿ٱلْوَرِيدِ﴾، ﴿قَعِيدٌ﴾، ﴿عَتِيدٌ﴾، ﴿تَحِيدُ﴾، ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾، ﴿وَشَهِيدٌ﴾، ﴿حَدِيدٌ﴾ توافق فواصل وسجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿تُوَسْوِسُ﴾ تحدث، من الوسوسة: الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي والمراد: ما يخطر بالبال أو حديث النفس ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ العرق في صفحة العنق، ولكل إنسان وريدان، والإضافة للبيان ﴿إِذْ﴾ أي اذكر حين ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يأخذ ويثبت الملكان الموكلان بالإنسان ما يعمله ﴿قَعِيدٌ﴾ مقاعد، كجليس بمعنى مجالس.

﴿رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب قوله وعمله ويكتبه ويحفظه ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ لكتابة الخير والشر، فملك اليمين يكتب الخير، وهو أمير على كاتب السيئات، وملك الشمال يكتب الشر ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ شدته التي تذهب بالعقل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بحقيقة الأمر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تهرب وتفزع وتميل عنه، والخطاب للإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد وتحققه للكفار بالعذاب ﴿وَجَآءَتْ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى المحشر ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقها إلى أمر الله، والآخر يشهد على النفس بعملها.

﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي ينزل بك ﴿غِطَآءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في ملذات الدنيا ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حادٌ نافذ تدرك به ما أنكرته في الدنيا.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة الساطعة على إمكان البعث في الآفاق والأنفس، شرع في تقرير خلق الإنسان الدال على شمول علم الله تعالى، وعظيم قدرته على بدئه وإعادته. ثم أخبر عن انكشاف الحقيقة بالموت، وإتيان ملكين بكل نفس يوم القيامة للسوق إلى المحشر والشهادة عليها، ورفع حجاب الغفلة عن كل إنسان، وإدراكه أحوال المعاد والحشر.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ أي تالله لقد أوجدنا الإنسان (وهو اسم جنس) ونعلم بجميع أموره، حتى ما يختلج في سره وقلبه وضميره من الخير والشر، ونحن أقرب إليه من حبل وريده، فكيف يخفى علينا شيء مما في قلبه، فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ معناه أن الله تعالى لا يحجب عنه شيء، وقال ابن كثير: يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

فهذا إخبار من الله تعالى بأنه خلق الإنسان، وأن علمه محيط بجميع أموره، حتى ما يجول في خاطره، وحتى حديث النفس، وأنه لا يخفى عليه شيء من أحواله. لكن لا عقاب على حديث النفس؛ لقوله ﷺ في الصحيح: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به»[1].

(١) أخرجه أصحاب الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) عن أبي هريرة، وأخرجه الطبراني عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

والآية لإقامة الحجج على الكفار في إنكارهم البعث.

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه بما في قلب ابن آدم وكّل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله، إلزاماً للحجة، فقال:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي ونحن أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يتلفظ به وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبتانه، عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، والقعيد: من يقعد معك. فملك اليمين يكتب الحسنات، وملك الشمال يكتب السيئات.

جاء في الحديث عن أبي أمامة: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يسبِّح أو يستغفر»[١].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي ما يتكلم ابن آدم من كلمة إلا ولها من يرقبها، وهو حاضر معدّ لذلك، يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٠-١٢] . الرقيب: المتبع للأمور، والحافظ لها، والعتيد: الحاضر الذي لا يغيبُ والمهيأ للحفظ والشهادة.

وظاهر الآية أن الملك يكتب كل شيء من الكلام، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب. يؤيد الأول الحديث الحسن الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما

---

(١) ذكره الزمخشري والقرطبي والبيضاوي، وروى ابن أبي حاتم عن الأحنف بن قيس مثل ذلك، فقال: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها.

بلغت، يكتب الله عزّ وجلّ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»[١] فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. قال الحسن البصري وقتادة: يكتبان جميع الكلام، فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات، ويمحو غير ذلك.

وقال الحسن البصري، وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك، فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مِتّ، طُويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ ثم يقول: عَدَل، والله، فيك من جعَلك حسيبَ نفسك.

وبعد بيان إنكارهم للبعث والرّد عليهم بإخبارهم عن قدرته وعلمه، أخبرهم الله تعالى عن ملاقاة صدق ذلك حين الموت وحين القيامة، وعن قرب القيامتين: الصغرى والكبرى، فقال عن الأولى:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ أي يا أيها الإنسان، جاءت شدة الموت وغمرته التي تغشي الإنسان، وتغلب على عقله ببيان اليقين الذي يتضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الأخبار بالبعث والوعد والوعيد، والذي كنت تمتري فيه، ذلك الموت أو ذلك الحق الذي كنت تميل عنة وتفرّ منه. والخطاب للإنسان على طريق

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد في الصحيح.

الالتفات في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إذا فسر بـ: ذلك الموت، والخطاب للفاجر إذا فسر بـ: ذلك الحق.

والباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتعدية، أي أحضرت السكرة حقيقة الأمر وجلية الحال، من تحقق وقوع الموت، أو من سعادة الميت أو ضدها، كما نطق بها الكتاب والسّنة.

جاء في الحديث الصحيح عن عائشة عن النَّبي ﷺ: أنه لما تغشاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «سبحان الله، إن للموت لسكرات» .

ثم قال الله تعالى مخبراً عن القيامة الكبرى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث، ذلك الوقت الذي يكون عظيم الأهوال هو يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار بالعذاب في الآخرة.

جاء في الحديث الثابت: أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أَنْعَمُ وصاحب القرن قد التقم القرن،وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟ قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل» .

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ أي وأتت كل نفس من نفوس البشر، بالبدن والروح، معها ملك يسوقها إلى المحشر، وملك يشهد عليها أو لها بالأعمال من خير أو شرّ.

ويقال للإنسان حينئذ:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي يقال للكافر أو لكل أحد من برّ وفاجر: لقد كنت في الدنيا غافلاً عن هذا

المصير وهذا اليوم، فرفعنا عنك الحجاب الذي كان لديك، والذي كان بينك وبين أمور الآخرة، فبصرك اليوم قوي نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في حياتك، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً مصيره، ومدركاً ما أنكره في الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن خلق الله تعالى الإنسان، وعلمه بكل ما يصدر منه حتى حديث النفس، دليل على قدرته تعالى على البعث، وإعادة الناس أحياء يوم القيامة.

٢ً - إن علم الله بالإنسان وغيره شامل، لا يخفى عليه شيء، ولا يحجب عنه شيء، وقد مثّل تعالى قربه من الإنسان بأنه أقرب إليه من حبل الوريد، وهو مجاز يراد به قرب علمه منه، وشمول معلومه عنه، وليس المراد قرب المسافة. قال القُشَيري في آية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، ورَوْح وأنس وسكون قلب لقوم.

٣ً - إن الله تعالى أعلم بأحوال الإنسان من غير وساطة ملك، فهو لا يحتاج إلى ملَك يخبر، ولكن توكيل ملكي اليمين والشمال بكل إنسان للإلزام بالحجة، وتوكيد الأمر عليه.

٤ً - يحصي الملكان كل شيء من أقوال الإنسان وأعماله، فما يتكلم بشيء إلا كُتب عليه، وما يفعل من شيء إلا دُوِّن عليه، قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه.

٥ً - ما دام الإنسان حياً يكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت ويدرك الحق: وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده، ويقال لمن جاءته سكرة الموت: ذلك ما كنت تفر منه وتهرب.

٦ - إذا نفخ في الصور النفخة الآخرة للبعث، فذلك اليوم الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه.

٧ - يصحب كل إنسان يوم القيامة ملكان: سائق يسوقه إلى المحشر، وشاهد يشهد له وعليه بأعماله. قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اسما جنس، فالسائق ملائكة موكلون بذلك، والشهيد: الحفظة وكل من يشهد.

٨ - يقال للإنسان البر والفاجر يوم القيامة: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من عواقب الأمور، فاليوم تتيقظ وتبصر ما لم تكن تبصره من الحقائق، وما لم تكن تصدِّق به في الدنيا، وتتغافل عن النظر فيه، كالإيمان بالله وحده لا شريك له، والتصديق برسوله، وبالبعث والحشر والحساب.

الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿نَقُولُ﴾:

وقرأ نافع (يقول).

الإعراب:

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿مَا﴾ التي هي نكرة

موصوفة بمعنى شيء. و﴿عَتِيدٌ﴾ : إما خبر ثان، أو صفة لـ ﴿مَا﴾ أو بدل من ﴿مَا﴾

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ ﴿أَلْقِيَا﴾ : الخطاب للسائق والشهيد، فهو خطاب لاثنين، أو الخطاب لملك واحد هو مالك خازن النار؛ لأن من عادة العرب مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين، أو تثنية ما يقال له: ألق ألق، أو أَلْقِيَنَ بنون التوكيد الخفيفة، لكنه ضعيف؛ لأن مثل هذا يكون في الوقف على الكلام لا في الوصل.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ : إما مرفوع على أنه مبتدأ ضُمِّن معنى الشرط، وخبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الذي، أو منصوب على أنه بدل من قوله تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أو منصوب بفعل مقدّر يفسره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ : ناصبه ظلّام.

البلاغة:

بين قوله ﴿عَتِيدٌ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ جناس ناقص لتغاير حرفي النون والتاء.

المفردات اللغوية:

﴿قَرِينُهُۥ﴾ الملَك الموكَّل به أو الشيطان الذي قيض له، والثاني أصح بدليل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا﴾ .﴿عَتِيدٌ﴾ مهيأ معدّ لجهنم، حاضر لدي ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق .﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمفروض كالزكاة، وقيل: المراد بالخير: الإسلام .﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متعد للحق .﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه وأخباره.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرار للتأكيد .﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشيطان المقيض له في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦] ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾

أضللته، كأن الكافر قال: هو أطغاني، فقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ بعيد عن الحق، أي فأعنته على ضلاله، فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي، مائلاً إلى الفجور، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٢] .

﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ لا تتجادلوا عندي في موقف الحساب، فلا ينفع الخصام والجدال هنا .﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ أخبرتكم في الدنيا وتقدمت إليكم في الكتب بالرسل بوعيدي بالعذاب في الآخرة، إذا لم تؤمنوا .﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ يغير .﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي فلا أعذب بغير جرْم، وظلام: ذو ظلم، لقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ٤٠/١٧] .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ زيادة، وهذا سؤال وجواب جيء بهما لتصوير ملء النار بالناس والجن، وهي من السعة بحيث يدخلها من يدخلها، ويبقى فيها فراغ بعدئذ.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٤-٢٦):

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ : قيل: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة، لما منع بني أخيه عن الخير وهو الإسلام.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الناس يوم القيامة وعند الموت، ذكر الله تعالى صورة حوار بين الكافر وقرينه الشيطان، في يوم القيامة، لمعرفة مدى جناية الإنسان على نفسه، وزجّها في نيران جهنم، وإصغائه لوساوس الشيطان وإغراءاته، وتأثره بها بسبب خلل رأيه، وضعف عقله، وميله إلى الفجور.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي قال المَلَك الموكل به بابن آدم: هذا ما عندي من كتاب عملك معدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته، واختار ابن جرير: أنه يعم السائق والشهيد.

وفسر الزمخشري القرين هنا بأنه هو الشيطان الذي قيض للإنسان في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦/٤٣] ويشهد له قوله تعالى بعدئذ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يقول الشيطان: هذا شيء لديّ وفي ملكتي عتيد لجهنم، والمعنى: أن ملَكاً يسوقه، وآخر يشهد عليه، وشيطاناً مقروناً به يقول: قد اعتدته لجهنم وهيّأته لها بإغوائي وإضلالي.

وقد رجحت الرأي الثاني؛ لأن الشيطان هو قرين كل فاجر، يقول لأهل المحشر، أو لسائر القرناء، قد هيَّأت قريني لجهنم.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ أي يقول الله تعالى للسائق والشهيد: اطرحا في جهنم كل من كفر بالله أو أشرك به شريكاً آخر، مكابر معاند للحق وأهله، كثير الكفر والتكذيب بالحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك.

وهو أيضاً كثير المنع للخير كالزكاة، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا يبذل خيراً لأحد من قريب أو فقير بصلة رحم أو صدقة، ويمنع أقاربه عن الدخول في الإسلام، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كما تقدم، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: من دخل منكم في الإسلام، لم أنفعه بخير ما عشت.

وهو متعدٍ على الناس بالفحش والأذى والبطش، متجاوز الحد في الإنفاق من ماله، ظالم لنفسه لا يقر بتوحيد الله؛ شاكٌّ في الحق وفي أمره وفي دين الله، ومشكك غيره.

لكل هذا أكد الله تعالى إلقاءه في جهنم فقال للملَكين، أو لمالك خازن النار جرياً على عادة الكلام في مخاطبة الواحد بخطاب الاثنين: فألقياه في النار ذات العذاب الشديد.

جاء في الحديث: «أن عنقاً من النار يبرز للخلائق، فينادي بصوت يسمع الخلائق: إني وُكِّلت بثلاثة: بكل جبّار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين، ثم تنطوي عليهم». وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج عُنُق من النار، يتكلم يقول: وُكِّلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم».

ثم ذكر الله تعالى صورة من الحوار بين الكافر والشيطان قرينه، فقال:

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾﴾ أي يقول الشيطان عن قرينه الذي وافى القيامة كافراً، متبرئاً منه: يا ربنا ما أضْلَلْته أو أوقعته في الطغيان، بل كان هو في نفسه ضالاً، مؤثراً الباطل، معانداً للحق بعيداً عنه، فدعوته فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، أي وكأن الكافر يريد الاعتذار قائلاً: يا ربّ إن قريني الشيطان أطغاني، فأجاب القرين الذي قيض له وهو الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾

وهذا اعتراف بالحقيقة، كما قال الشيطان في آية أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي قال الرب عز وجل لهما- للكافر وقرينه الشيطان: لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندي في موقف الحساب، فإني تقدمت إليكم في الدنيا بالإنذار والوعيد، وأعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبراهين، والمراد أن اعتذاركم الآن غير نافع لدي.

وأضاف الله تعالى برد آخر قائلاً:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ أي قضيت ما أنا قاضٍ، ولا يغير حكمي وقضائي، ولا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليكم بالعذاب بسبب كفركم، فلا تبديل له، ولا أعذب أحداً ظلماً بغير جُرْم اجترمه أو ذنب اقترفه أو أذنبه بعد قيام الحجة عليه.

ثم أكد الله تعالى حلول العذاب في جهنم قائلاً:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي اذكر يا محمد لقومك وأنذرهم حين يقول الله تعالى لجهنم: هل امتلأت بالأفواج من الجِنَّة والناس؟ فتنطق جهنم وتجيبه قائلة: هل بقي شيء من زيادة تزيدونني بها؟ والمراد أنها اكتفت وامتلأت بما ألقي فيها، أي لا أسع أكثر من ذلك فإني قد امتلأت[1]، ويحتمل أنها تطلب الزيادة بعد امتلائها غيظاً على العصاة، وتضييقاً للمكان عليهم.

قال أهل المعاني: سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل والتصوير الذي يقصد به تقرير وتصوير المعنى في النفس وتثبيته، وفيه معنيان كما تقدم:

(١) وعلى هذا يكون الاستفهام الأول للتقرير، فالله يقررها بأنها امتلأت، أي يجعلها تقر بذلك، والاستفهام الثاني بمعنى النفي، أي لا أسع غير ذلك، وهو جواب الاستفهام الأول.

أحدهما- أنها تمتلئ مع اتساعها، حتى لا يزاد عليها شيء، والثاني- أنها من السعة حيث يدخلها من يدخلها، وفيها موضع للمزيد[١].

وقد أورد ابن كثير عدة أحاديث تؤيد مدلول الآية بالمعنى الأول وهو استكثارها الداخلين، لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١/١١٩] منها: ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلْقَى في النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ» أي كفى كفى.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبّارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينُهم، فقُضيَ بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحد منكما ملؤها».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - يقدِّم الملَك الموكّل بالإنسان ما عنده من كتابة عمله المعَدّ المحفوظ. ويقدّم الشيطان قرناءه فيقول: هذا العاصي مُعَدّ عندي لجهنم، أعددته بالإغواء والإضلال.

٢ - إن من كبائر الأعمال الموجبة لعذاب جهنم: الكفر بالله والشرك به ومعاندة الحق ومكابرته، وإيثار الباطل وأهله، ومنع المال عن حقوقه، أو منع الناس عن الإسلام، وتجاوز الحد المعتدل في الإنفاق، والتكذيب بالحق، والشك في دين الله، وتشكيك الآخرين، وجعل شريك آخر معبود مع الله.

---

(١) الكشاف: ٣/١٦٣.

٣ً - يؤمر الملكان: السائق والشهيد بإلقاء الكافر العنيد المتصف بما ذكر في نار جهنم ذات العذاب الأليم الشديد، ويؤكد الله تعالى أمره بإلقاء الكفار.

٤ً - كل من الشيطان والفاجر الكافر يلقي التبعة في كفره على الآخر ويتبرأ الشيطان من الكافر ويكذبه يوم القيامة، وينسب الطغيان والكفر له، لا لنفسه، والحق أن كلا الفريقين في النار، وقد أعذر من أنذر، والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية الإنس والجن، فاختار كل منهما ما يحلو له.

٥ً - يستحيل الظلم على الله تعالى، فهو سبحانه لا يعذب أحداً بغير جرم، ولا يعذب من لا يستحق العذاب، ولا يغير قضاءه المبرم، وحكمه العادل الذي حكم به.

٦ً - يملأ الله تعالى جهنم بالكفار والمشركين والملحدين والماديين والعصاة حتى لا يبقى فيها موضع لزيادة، أو أنها تطلب الزيادة تغيظاً على الكفار، وتضييقاً للمكان عليهم.

حال المتقين

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿تُوعَدُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير (يوعدون).

﴿مُّنِيبٍ ، ٱدْخُلُوهَا﴾:

كَسَرَ التنوينَ وصلاً: أبو عمرو، وعاصم، وابن ذكوان، وحمزة. وضمه الباقون.

الإعراب:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ﴿مَّنْ﴾: إما بالجر على البدل من ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وإما بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تقدير، يقال لهم: ادخلوها.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾: بدل من قوله ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، بإعادة الجارّ.

المفردات اللغوية:

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قُرّبت لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي في مكان غير بعيد منهم، بل هو بمرأى منهم، فهي منصوبة على الظرف، ويجوز أن تكون ﴿غَيْرَ﴾ حالاً، وذكّرت كلمة ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنها صفة لشيء محذوف، أي شيئاً غير بعيد، أو لأن الجنة بمعنى البستان، أو على زنة المصدر كالزفير والصهيل، كما تقرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦/٧] .

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم: هذا ما توعدون، والإشارة إلى الثواب، أي هذا هو الثواب الذي وُعِدتم به على ألسنة الرسل، ويقرأ أيضاً بالياء: (يوعدون) . ﴿أَوَّابٍ﴾ كثير الرجوع إلى الله تعالى وطاعته . ﴿حَفِيظٍ﴾ كثير الحفظ أي حافظ لحدود الله وشرائعه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ من خاف عقاب الله، وهو غائب عن الأعين، فلم يره أحد . ﴿مُّنِيبٍ﴾ مقبل على طاعة الله . ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي يقال لهم: ادخلوها سالمين من كل خوف أو مسلّماً عليكم من الله وملائكته . ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي ذلك اليوم الذي حصل فيه الدخول يوم الخلود في الجنة؛ إذ لا

موت فيها، أي يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥﴾ أي زيادة، وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

المناسبة:

بعد بيان الحوار الذي يحصل يوم القيامة بين الكافر وقرينه من الشياطين، بيَّن الله تعالى حال المتقين، جرياً على عادة القرآن بالمقارنة بين الأضداد، وإيراد الشيء بعد نقيضه، فيحذر الإنسان ويخاف، ويطمع ويتأمل ويرجو رحمة الله تعالى، وبه تم الجمع بين الترهيب والترغيب وبين الخوف والرجاء أو الطمع.

التفسير والبيان:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ أي أدنيت وقرِّبت لأهل التقوى تقريباً غير بعيد، أو في مكان غير بعيد، بل هي بمرأى منهم، يشاهدونها في الموقف، وينظرون ما فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢﴾ أي تقول الملائكة لهم: هذا النعيم الذي ترونه من الجنة هو ما وعدتم به في كتب ربكم وعلى ألسنة الرسل الذين أرسلهم الله لكم، وهذا الثواب بعينه هو لكل رجّاع إلى الله تعالى وطاعته بالتوبة عن المعصية، والإقلاع عن الذنب، كثير الحفظ لحدود الله وشرائعه، ويحفظ العهد، فلا ينقضه ولا ينكثه ولا يهمل شيئاً منه.

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ أي ذلك المحافظ على الحدود، فلا يقربها: هو من خاف الله ولم يكن رآه، وخاف الله في سره حيث

لا يراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم في ظله يوم القيامة فيما أخرجه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة: « ورجل ذكر الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه » أي: بالدموع.

وهو أيضا من رجع إلى الله بقلب مخلص في طاعة الله، ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب سليم إليه، خاضع لديه.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ أي ويقال لهم: ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب، ومن زوال النعم، ومن كل المخاوف، أو مسلّماً عليكم من الله وملائكته، ذلك اليوم الذي تدخلون فيه هو يوم الخلود الدائم أبداً، الذي لا موت بعده، ولا تحوّل عنه.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾﴾ أي لهؤلاء المتقين الموصوفين بما ذكر كل ما يريدون في الجنة، وتشتهيه أنفسهم، وتلذ أعينهم، من أنواع الخير، وأصناف النعم بحسب رغبتهم، فمهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. ولدينا مزيد من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرت لهم في خيال، كقوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦] . جاء في صحيح مسلم عن صُهيب بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

فقه الحياة أو الأحكام

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن في وصف جهنم الملأى بالكفار والفجار والعصاة، وفي وصف الجنة المقربة المرئية للمتقين تثبيتاً للإيمان بالبعث وتقوية له، وتحذيراً وتخويفاً من عمل أهل النار، وترغيباً في اقتفاء آثار وأعمال المؤمنين الذي يدخلون الجنة، كما أن في تقريب الجنة للمتقين وإدنائها لهم غير بعيدة عنهم إشعاراً لهم بتيسير الوصول إليها.

٢ً - يؤكد الله تعالى الشعور بالنعمة والاطمئنان في الجنة للمتقين، فتقول الملائكة لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الرسل.

٣ً - أهل الجنة هم كل أوّاب رجاع إلى الله عن المعاصي، حافِظ لحدود الله وشرائعه، فيعمل بها ولا يتجاوزها ولا يتخطاها إلى غيرها، خائف من الله رب العزة، وإن لم يره، وَجِل منه في سره وعلانيته، يجيء إلى ربه يوم القيامة بقلب منيب أي مقبل على الطاعة، محبّ لها، مرتاح بفعلها، غير متضجّر بها.

٤ً - تقول الملائكة للمتقين أهل الجنة: ادخلوها بسلام من العذاب ومن زوال النعم، وبسلام من الله وملائكته عليكم.

٥ً - في الجنة للمتقين ما تشتهيه أنفسهم وتلَذّ أعينهم، ويجدون لدى ربهم مزيداً من النعم، مما لم يخطر على بالهم، زيادة على النعم: وهو النظر إلى وجه الله تعالى بلا حصر ولا كيف ولا تجسيد.

ذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة، كل يوم جمعة، في كثيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. وروى الإمام الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك قريباً من ذلك، وجاء فيه: «.. فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من الملائكة، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحفت تلك المنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكُثب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم علي ما تمنيتم، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة» .

تهديد منكري البعث
وإثباته لهم مرة أخرى وأوامر للرسول ﷺ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَدْبَارَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وحمزة (وإدبار).

﴿تَشَقَّقُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (تشَّقَّقُ).

﴿بِالْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (بالقران).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل من يوم في قوله: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ﴾

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: منصوب من وجهين.

أحدهما: أنه منصوب على البدل من ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ﴾ أي واستمع حديث يوم ينادي المنادي، فحذف المضاف، وهو مفعول به.

والثاني: أنه منصوب لتعلقه بقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ وتقديره: وإلينا يصيرون في يوم تشقق.

و ﴿سِرَاعًا﴾: حال من الهاء والميم في ﴿عَنْهُمْ﴾ وعوامله: إما ﴿تَشَقَّقُ﴾ أو فعل مقدر، أي فيخرجون سراعاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي كثيراً ما أهلكنا. ﴿قَبْلَهُم﴾ قبل قومك كفار قريش. ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ القرن: الأمة والجماعة والجيل من الناس، أي أهلكنا قبل كفار قريش أمماً وقروناً وجماعات كثيرة من الكفار. ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوة، كعاد وفرعون. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ بحثوا وفتشوا وساروا في الأرض يطلبون الرزق والمكسب. ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب لهم من الله أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي إن فيما ذكر في هذه السورة لتذكرة وعظة وعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ عقل يعي به ويتفكر في الحقائق. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى بسمعه للوعظ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر الذهن ليفهم المعاني. وفي تنكير كلمة ﴿قَلْبٌ﴾ وإبهامه إشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كأنه غير موجود.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة. ﴿لُّغُوبٍ﴾ تعب وإعياء، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فالله منزه عن صفات المخلوقين، لا يتعرض لتعب حتى يستريح منه، وإذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها النبي على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا إعياء، قادر على بعثهم والانتقام منهم، واصبر أيضاً على ما يقول اليهود وغيرهم من التشبيه للخالق والتكذيب لك، والكفر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه عن العجز وعن كل نقص، مصحوباً بالحمد والشكر. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي صلاة الفجر والعصر والظهر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي سبحه بعض الليل، وصل العشاءين. ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أعقاب الصلوات، جمع دُبُر، وقرئ بالكسر: ﴿وإدبار﴾ مصدر أدبر، أي صل النوافل المسنونة عقب الصلوات الفرائض المكتوبة، وسبح التسبيح المعروف في هذه الأوقات مع الحمد.

﴿وَاسْتَمِعْ﴾ أيها المخاطب لما أخبرك به من أحوال القيامة. وفي هذا تهويل وتعظيم للمخبر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ هو إسرافيل، فيقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي كما ذكر الزمخشري: من صخرة بيت المقدس[1]، وهي أقرب الأرض من السماء، وهي وسط الأرض، أو من أقرب الأماكن إلى الناس بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ يسمع الخلق كلهم. ﴿الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ صيحة البعث وهي النفخة الثانية من إسرافيل بالبعث والحشر للجزاء. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي ذلك يوم النداء والسماع هو يوم الخروج من القبور. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب للجزاء في الآخرة.

(١) هذا- كما قال قتادة- منقول عن كعب الأحبار. وفي تقديري كما ذكر الرازي أن المراد ظهور النداء لكل مخلوق، وليس المراد من المكان القريب المكان نفسه.

﴿تَشَقَّقُ﴾ تتشقق، وقرئ بتشديد الشين، أي تشَّقَّق. ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين، جمع سريع. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك بعث وجمع هيِّن علينا، وتقديم الظرف: ﴿عَلَيْنَا﴾ للاختصاص؛ لأن الإحياء بعد الإفناء، والجمع للعرض والحساب لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته، الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي كفار قريش، وهو تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط عليهم تقسرهم أو تجبرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت داعٍ. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي يخاف وعيدي، وهم المؤمنون، فإنه لا ينتفع بالقرآن غيرهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾ : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: أن اليهود أتت رسول الله ﷺ، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق أول ساعة الآجال حتى يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة عن كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة، وأمرَ إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة.

قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، فنزل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

وقال الحسن وقتادة: قالت اليهود: إن الله خلق الخلق في ستة أيام، واستراح يوم السابع، وهو يوم السبت، يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزول الآية (٤٥):

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو خوفتنا؟ فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

المناسبة:

بعد أن أنذر الله تعالى منكري البعث بالعذاب الأليم في الآخرة، عاد إلى التهديد والإنذار بعذاب الدنيا المهلك والدمار الشامل، وتوسط الإنذارين بيان حال المتقين في الجنان للجمع بين الترهيب والترغيب كما تقدم، ثم أبان تعالى أن الإهلاك عظة وتذكير وعبرة لكل ذي عقل واعٍ، مفكر بالربط بين الأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث من خلق السماوات والأرض مرة أخرى مع تنزيه نفسه عن العناء والتعب في الخلق، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقولون من إنكار البعث ومن حديث التعب بالاستلقاء، وبتنزيه الله عن كل نقص منتظراً المنادي، ولا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة، فقد اقترب يوم البعث، وسمع صوت الداعي إليه، فالله هو المحيي والمميت وإليه المصير، يوم تتشقق الأرض سراعاً ويخرج الناس من القبور، ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بعلمه بما يقول المشركون في البعث، فلست عليهم بجبار مصيطر، وتابع مهمتك في الإنذار وتبليغ الدعوة بالتوحيد، وذكّر بهذا القرآن من يخاف عقابي ويخشى وعيدي.

التفسير والبيان:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾؟ أي وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين من قريش ومن وافقهم، من أمم وجماعات، كانوا أكثر منهم، وأشد قوة، وآثاراً في الأرض، كعاد وثمود وقوم تُبَّع وغيرهم، وقد أثروا في البلاد، فساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما طفتم بها، فهل لهم من مفر أو مهرب يهربون إليه، يتخلصون به من العذاب، ومن قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه من أموال، وردّ عنهم عذاب الله لما جاءهم لتكذيبهم الرسل،فأنتم أيضاً لا مفر لكم، ولا محيد، ولا مناص، ولا مهرب.

ثم ذكر الله تعالى أن تلك الإنذارات والتهديدات والزواجر لا ينتفع بها إلا المفكرون، فقال:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي إن فيما ذكر من قصة هؤلاء الأمم، وما ذكر في هذه السورة وما قبلها من الآداب والمواعظ، سواء بين الأفراد أو بين الجماعات، لتذكرة وموعظة وعبرة لمن يعتبر بها، من كل ذي عقل واع، يتأمل به، ويتدبر الحقائق والأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي وتالله لقد أوجدنا من غير مثال سبق السماوات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات، في أيام ستة، وما أصابنا أي إعياء ولا تعب ولا نصب. وهذا رد على اليهود، فإنهم- كما قال قتادة- قالوا: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام أولها الأحد، وآخرها الجمعة، ثم استراح في

اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه.

والآية تقرير للمعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض، ولم يتعب بخلقها، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣] وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٧].

ذكر الرازي أن المراد بقوله ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستة أطوار، لا الأيام المعروفة في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل خلق السماوات لم يكن شمس ولا قمر، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت أو الحين(١).

ثم أوضح الله تعالى لنبيه الموقف الذي يتخذه في مواجهة منكري البعث واليهود المشبِّهة للخالق بالمخلوق، فقال آمراً له بعدة أوامر هي:

١ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها الرسول على ما يقوله المشركون المكذبون بالبعث، وعلى ما يقوله اليهود من حديث التعب والاستلقاء، فتلك أقوال باطلة لا دليل عليها.

٢- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ أي ونزِّه دائماً الله ربك عن كل عجز ونقص، واحمده دائماً، قائلاً: سبحان الله وبحمده، وقت الفجر ووقت العصر، وبعض الليل، وفي أعقاب الصلوات.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ١٨٣-١٨٤.

وقال ابن عباس: المراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل الغروب: الظهر والعصر، ومن الليل: العشاءان، وأدبار السجود: النوافل بعد الفرائض أو التسبيح بعد الصلاة. ومن قال: إن المراد بالتسبيح الصلاة، فلأن الصلاة تسمى تسبيحاً، لما فيها من تسبيح الله تعالى.

وقد جاء الأمر بالتسبيح بعد الصلاة في أحاديث كثيرة منها: ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: « جاء فقراء المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدّثور[1] بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون كما نتصدق، ويعتقون كما نعتق، قال ﷺ: أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبِّحون وتحمِّدون وتكبِّرون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥/٥٤] ». وجاء في صحيح الحديث: أن النبي ﷺ كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» أي لاينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

٣- ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ أي واستمع أيها الرسول صيحة القيامة وهي النفخة الثانية في الصور من إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي نداء يسمعه كل فرد من أفراد المحشر، قائلاً: هلموا إلى الحساب، فيخرجون من قبورهم.

---

(١) المراد بهم: : الأغنياء أصحاب الثراء، من الدِّثار: وهي الثياب الخارجية.

ولا مانع من عطف ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ على ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿وَسَبِّحْ﴾ مع أن الصبر والتسبيح يكون في الدنيا، والاستماع يكون يوم القيامة؛ لأن المراد كما في قولهم: صل وادخل الجنة، أي صل في الدنيا، وادخل الجنة في العقبى. ويحتمل أن يقال: بأنّ ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ بمعنى انتظرْ.

قال الرزاي: وقوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد، بل يستوي في استماعه كل أحد، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى؛ إذ ليس المراد من المكان القريب المكان نفسه، بل ظهور النداء، وهو من الله تعالى أقرب[1].

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني أن صيحة البعث كائنة حقاً، وهي يوم سماع النفخة الثانية في الصور التي تنذر بالبعث والحشر والجزاء على الأعمال، وذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ أي إننا نحن نحيي في الدنيا والآخرة، ونميت في الدنيا حين انقضاء الآجال، لا يشاركنا في ذلك مشارك، وإلينا المرجع في الآخرة للحساب والجزاء، فنجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهذا تقرير القدرة الإلهية على الإحياء ابتداء وإعادة وعلى الإماتة، وإجراء الحساب، وأكد ذلك بقوله:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي وإلينا المصير وقت أن تتصدع الأرض عنهم، فيخرجون من القبور، ويساقون إلى المحشر، مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم، ذلك بعث وجمع هيّن لدينا وعلينا، لا مشقة فيه ولا عسر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/٥٠] وقال سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٣١/٢٨] .

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/١٨٨

ثم هدد المشركين بقوله:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي نحن نعلم علماً محيطاً بما يقول لك المشركون، من التكذيب فيما جئت به، ومن إنكار البعث والتوحيد، وما أنت عليهم بمسلَّط يجبرهم، ويقسرهم على الإيمان، إنما أنت مبلِّغ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٢].

٤- ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي فذكّر أيها الرسول بهذا القرآن العظيم، وبلّغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر به من يخاف الله ويخشى عقابه ووعيده للعصاة بالعذاب، ويرجو وعده وفضله ورحمته، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات تعبر عن التحدي لدعوة النبي ﷺ وكيفية مواجهة التحدي والصمود أمامه، أو ما يعبر عنه اليوم الفعل ورد الفعل. ويفهم منها ما يأتي:

١ - هدد الله المشركين من كفار قريش وأمثالهم وأنذرهم وحذرهم بعذاب الآخرة الأليم، وبعذاب الدنيا المدمر الذي أوقعه بمن قبلهم من الأمم والشعوب المكذبة رسلها، مع أنهم كانوا أقوى وأصلب وأغنى وأكثر مالاً وأرقى مدنية وحضارة من أهل مكة.

فلم يجدوا مهرباً ولا مفراً من الإهلاك والتدمير، وكذلك لا يجد أمثالهم ملجأ ولا محيداً من إيقاع العذاب المماثل بهم.

٢ - إن في هذا الإنذار والتهديد والتخويف والمذكور في هذه السورة تذكرة وموعظة لكل ذي قلب أو عقل يتدبر به، فكنى بالقلب عن العقل؛ لأنه موضعه في رأي القرطبي وغيره من المتقدمين.

٣ً - بالرغم من هذا التذكير العام بما سبق، أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى للرد على منكريه، وللرد على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

٤ً - علَّم الله نبيه محمداً ﷺ في مواجهة هذه التحديات لرسالته بأربعة أوامر: هي الصبر على ما يقولون، والاستعانة على ذلك بالتسبيح والصلاة، لتقوية الإرادة والعزيمة بالصبر، وتقوية الروح بالتسبيح والصلاة، ففي ذلك لقاء مع خالق الوجود، وتفويض له، واستلهام منه، واستعانة واستغاثة به وبقدرته الفائقة الباهرة.

والأمر الثالث: الاشتغال بتنزيه الله تعالى مدى الدهر، كقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٩٩] أي الموت، والاستماع لما يخبره الله به من أهوال القيامة، وتحذيره أن يكون مثل هؤلاء المعرضين.

والأمر الرابع: التذكير بالقرآن، ومتابعة تبليغ الرسالة ودعوة الله، لمن يخاف عقاب الله ويخشى وعيده. كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك يا بارّ يا رحيم. ونحن نقول معه ذلك إلى الأبد.

وتخلل هذه الأوامر الأربعة إخبار بأمور أربعة تساعد على امتثال الأوامر واستهلاك طاقات التحدي واستيعابها وإنهائها: وهي التذكير بسماع صيحة القيامة وصيحة البعث والحشر للجزاء والحساب يوم خروج الناس من القبور؛ وإعلان حقيقة كون الله هو المحيي والمميت وإليه مصير الخلائق للحساب والجزاء؛ وإظهار كيفية تصدع الأرض وتشققها لخروج الناس الموتى منها أحياء مسرعين لإجابه نداء المنادي إلى المحشر، علماً بأن ذلك الحشر

والجمع هيّن يسير على الله؛ وإعلام الكفار وغيرهم بأن علم الله محيط شامل لكل ما يقولون، وما يعملون من تكذيب وشتم.

وهذه الأمور الأربعة في غاية التهويل والتفخيم والتهديد لأهل التحدي ودعاة التحدي وأعوانهم وسلالاتهم وأشياعهم في كل عصر.

انتهى الجزء السادس والعشرون

فللّه الحمد والمنة

فهرس المجلد الثالث عشر

فهرس الجزء الخامس والعشرون

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء السادس والعشرون

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**



